العلم الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن

من إعجاز القرآن

في أعجمي القرآن

وجه في إعجاز القرآن جديد

تأليف

محمود رؤوف عبد الحميد أبو سعدة

قدم له

الدكتور

محمود محمد الطناحي

الجزء الأول

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

من إعجاز القرآن

في أعجمي القرآن

١

© دار الميمان للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبو سعدة ، محمود رؤوف عبدالحميد
من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن. / محمود رؤوف عبدالحميد
أبو سعدة.- الرياض ، ١٤٣١ هـ
٢ مج.
ردمك: ٦-٤٨-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)
٣-٤٩-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج١)

١- القرآن - إعجاز ٢- القرآن - ألفاظ أ. العنوان
ديوي ٢٢٩,٩ ١٤٣١/٧١٧٤

رقم الإيداع: ١٤٣١/٧١٧٤
ردمك: ٦-٤٨-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)
٣-٤٩-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج١)

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار الميمان للنشر والتوزيع - الرياض
الطبعة الأولى ١٤٣٢هجري - ٢٠١١م

دار الميمان للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الرياض ١١٦١٣ ص.ب ٩٠٠٢٠
الموقع: *www.arabia-it.com*
البريد الإلكتروني: *info@arabia-it.com*
هاتف: ٤٦٢٧٣٣٦ (٠١) فاكس: ٤٦١٢١٦٣ (٠١)

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار الميمان للنشر والتوزيع، ولا يجوز طبع أي جزء من الكتاب أو ترجمته لأي لغة أو نقله أو حفظه ونسخه على أية هيئة أو نظام إلكتروني أو على الإنترنت دون موافقة كتابية من الناشر إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر.

الصف والإخراج الطباعي وتصميم الغلاف: دار الميمان للنشر والتوزيع

من إعجاز القرآن

في أعجمي القرآن

تقديم بقلم الدكتور

محمود محمد الطناحي

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا. لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجميٌّ وهذا لسان عربي مبين. والصلاة والسلام على خير خلق الله سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله، الذي أُوتيَ الكتابَ ومثلَه معه، ثم أوتيَ الحكمة وفصلَ الخطاب، فبالبيان القرآني المحكم، وبالفصاحة والبلاغة النبوية تضوَّأتْ تلك اللغة العربية الشريفة، واستكملت أسباب جلالها وبهائها.

ثم أما بعد:

فإن من علوم القرآن التي اعتنى بها الأئمة، وأفردوها بالتصنيف علم إعجاز القرآن، وقد بدأ الكلام في هذا العلم شذراتٍ ونتفًا في كتب التفسير، كشفًا لمواطن الكمال والجلال في كلام ربنا عز وجل.

وقد دخل المفسرون إلى الإعجاز من طريق تلك الآيات التي أمر بها المولى - تباركت أسماؤه - رسوله الأمين ﷺ أن يطلب من مشركي قريش الإتيان بمثل ما أنزل عليه، تدرجًا وتنزلًا، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[2] ثم قضى عليهم بالعجز وأيأسهم أن يأتوا بشيء من ذلك، فقال عز من قائل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟

(١) سورة هود، الآية: ١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

ومعلوم أن مشركي قريش الذين سمعوا كلام الله يتلى على لسان رسوله الأمين كانوا أرباب فصاحة وبيان، وكانوا يعرفون مواقع الكلام وحلاوة البيان، ولذلك أدهشهم القرآن حين سمعوه، ودلَّه عقولهم بعظمة بيانه وروعة معانيه، ودقة نظمه واتساقه، وحين لم يجدوا في الطعن إليه سبيلًا لم يسعهم إلا أن يقولوا: إنه شعر، وإنه سحر، وإنه أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ فهي تُملى عليه بكرة وأصيلًا، وهذا كله إقرار بعظمة ما سمعوا، وإذعان؛ لأنه كلامٌ مباين لكلام البشر، لكن ما انغمسوا فيه من العناد والمكابرة صدهم عن الاعتراف بأنه وحي يوحى، نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى المختار ليخرج الناس به من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور الإيمان وصفاء التوحيد.

ثم كان أن هدى الله بهذا القرآن العظيم أقوامًا، فأقبلوا على تلاوته، وتدبر أغراضه ومراميه، وتمثلوا أوامره. وانتهوا عن نواهيه. وكان هو كتابهم الذي يعتصمون به ويلجئون إليه فيما دقَّ وجلَّ من أمورهم.

وبقيت طائفة - ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة - لم تهتد ولم تذعن، وظل عداؤها للقرآن قائمًا، فأخذت تنقر وتنقب؛ التماسًا للمعابة في هذا الكتاب المحكم، باتباع متشابهه، وتحريف كلم عن مواضعه، وتخيل فساد نظم، أو لحن أسلوب، أو تناقض معنى. وقد أخذت هذه الطائفة تدب دبيبًا في القرنين الأولين، تستخفي بآرائها مرة، وتصحر بها أخرى، لكنها في كلتا حالتيها لم تترك أثرًا يذكر، إذ لم تكن لها شوكة، وكانت العقيدة على صفائها، لم تكدرها مقولات المتكلمين، ولا خلافات المتأولين، ثم كان اللسان العربي لا يزال صحيحًا محروسًا لم يتداخله الخلل، ولم يتطرق إليه الزلل، لكن الصغير يكبَر ويشِب، والزرع الضعيف يستحصد ويقوى، وتأتي أيام كالحات، تنجم فيها الفتن بدواعٍ كثيرة: منها اختلاط اللسان العربي بغيره من الألسنة، وانتشار الكتب المترجمة بغثها وسمينها، وتغلغل أهل المذاهب والنحل الأخرى في صلب العقيدة الإسلامية، وإغرائها

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

بالجدل وعلم الكلام، وأصحر أهل العداء القديم بآرائهم، وإذا الذي كان بالأمس همسًا ونجوى يصبح اليوم وله دوي وصليل، فأخذت المجالس وحلقات الدرس تموج بتلك الآراء وتضطرب، وإذا بالذي كان مشافهة ومسامرة يُسطر ويكتب وتتعاوره الأيدي.

ولم يكد المسلمون يدخلون في النصف الثاني من القرن الثالث[1] حتى انكشف كل خبيء

(١) نعم يكاد يجمع أهل النظر والبصر بتاريخ هذه الأمة أن بداية الخلاف والنزاع والجذب في ثقافة الأمة العربية الإسلامية قد كانت مع هذا الوقت: أواخر القرن الثالث الهجري للأسباب التي أوجزت الإشارة إليها.

على أنه من حسن الحظ، بل قل إنه من حفظ الله لهذه الأمة أن أصول علومنا قد وضعت كاملة قبل هذا الخلل الذي طرأ على المجتمع العربي المسلم في القرن الثالث، أي قبل فساد الزمان وتغير الأحوال. وحسبنا ههنا أن نذكر أن المسلمين كانوا قد فرغوا في القرنين الأولين من نقط المصحف وشكله، وضبط القراءات القرآنية رواية ودراية، وتدوين الحديث. فإن أصحاب الكتب الصحاح الستة كانوا كلهم في ذلك الوقت، وكذلك الإمام أحمد صاحب **المسند** إلا ما كان من أمر الإمام النسائي، فقد نصوا على أنه كان أطول أصحاب (السنن) سنًّا، فقد ولد سنة ٢١٥، وتوفي سنة ٣٠٣.

وفي ذلك الزمان أيضًا كانت كتب الأئمة الأربعة في الفقه، ووضع الشافعي من بينهم علم أصول الفقه، وكتب فيه (الرسالة).

وفي ذلك الزمان المتقدم من تاريخنا أيضًا وضع الخليل بن أحمد أول معجم عربي **العين**، ثم وضع علم (العروض) غير مسبوق ولا مشارك، وثنى تلميذه سيبويه بوضع **الكتاب** في علم النحو. وكذلك رأينا طبقات العلماء الرواة الثقات جامعي اللغة والشعر، من أمثال خلف الأحمر، والمفضل، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة، وأبي عبيد، وأبي عمرو بن العلاء، وأبي عمرو الشيباني، وابن الأعرابي، وابن حبيب، وابن سلام الجمحي، وأبي حاتم السجستاني، والسكري، والمبرد، وثعلب، وأبي العباس الأحول.

ولأمر حكيم وقف علماء اللغة الأقدمون بقبول الرواية في الأمصار عند نهاية القرن الثاني.

ومعلوم أن الذي وصل إلينا من علم هؤلاء الأوائل قليل، ولو سلم لنا كله لرأينا العجب العجيب، على نحو ما قال أبو عمرو بن العلاء: (ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم لجاءكم علم وافر وشعر كثير). لكن القدر الذي وصل إلينا من علومهم كافٍ - بحمد الله - في الدلالة على أن أصول علومنا وضعت وعرفت حدودها ومعالمها في هذين القرنين الأولين وشطر كبير من الثالث. أعني في ذلك الزمان الرخي المستقر. قبل أن تهب رياح الخلاف وتكدر الموارد الصافية.=

وظهر كل مكنون، واستعلن العداء للقرآن وللعربية مُلفقًا في ثياب الخلاف الفلسفي والكلامي، ثم ما جر إليه كل ذلك من القول بفتنة خلق القرآن وأشباه لها من الكوائن والطامات.

لكن الله الذي تكفل بحفظ كتابه وفق طائفة من عباده ذادة منافحين، قاموا لهذه المطاعن والشبهات، وألقوا بحججهم وبراهينهم فإذا هي تلقف ما يأفكون. ولعل أول حامل لهذا اللواء هو الإمام الجليل أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، خطيب أهل السنة، المولود سنة ٢١٣ هـ، والمتوفى سنة ٢٧٦ هـ، فقد انتدب لهذه الشكوك والمطاعن التي تثار حول القرآن، فجمعها ثم سدد إليها سهامه وأعمل فيها معاوله، فاقتلعها من جذورها، وكان مجلى ذلك كتابه العظيم **تأويل مشكل القرآن**، إلى ما نثره في كتبه الأخرى، مثل **تأويل مختلف الحديث**.

ثم ظهرت مسألة إعجاز القرآن مبحثًا قائمًا بذاته، يقصد إليه قصدًا، وكانت تلك المسألة من أبرز المسائل التي تعاورها العلماء بالبحث في أثناء تفسيرهم للقرآن، وردهم على منكري النبوة، وخوضهم في علم الكلام، كعلي بن ربن كاتب المتوكل في كتاب **الدين والدولة**، وكأبي جعفر الطبري في تفسيره **جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن**، وكأبي الحسن الأشعري في **مقالات الإسلاميين**، وأبي عثمان الجاحظ في كتابه **الحجة في تثبيت النبوة**. وكان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام في إعجاز القرآن، فقد ذهب النظام - من بينهم - إلى أن القرآن نفسه غير معجز، وإنما كان إعجازه بالصرفة، وقال: (إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك، وسلب علومهم به)، وذهب هشام الفُوَطِي، وعباد بن سليمان إلى أن القرآن لم يجعل علمًا للنبي، وهو عرض من الأعراض، والأعراض لا يدل شيء منها على الله ولا على نبوة النبي، وكان ذلك وغيره من

= وأيضًا فإن جمهور أهل الملة الذين جاءوا بعد ذلك كانوا حراسًا أمناء حفظة، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة.

فليهدأ هؤلاء الذين يقولون: إن الخلاف والنزاع كانا معنا من أول الطريق.. واللهم لا.

أقوال أئمتهما منبعًا غزيرًا للقول في إعجاز القرآن، وقد انبرى كثير منهم للرد على من أنكر إعجازه جملة، كأبي الحسين الخياط وأبي علي الجبائي، اللذين نقضا على (ابن الراوندي) كتابه **الدامغ** الذي طعن فيه على نظم القرآن وما يحتويه من المعاني وقال: إن فيه سفهًا وكذبًا. وكذلك رد كثير منهم على من خالف عن قول جماعتهم بأن تأليف القرآن ونظمه معجز، وأنه علم لرسول الله ﷺ، كالجاحظ الذي رد على النظام رأيه في الصرفة، في كتاب: **نظم القرآن**[١].

ثم أفرد علم إعجاز القرآن بالتصنيف، ومن أشهر ما صُنف فيه مما هو مطبوع ومتداول:

١- **النكت في إعجاز القرآن**، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٦.

٢- **بيان إعجاز القرآن**، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي المتوفى سنة ٣٨٨.

٣- **إعجاز القرآن** لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣.

٤- **الرسالة الشافية**، للشيخ أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١، وهو صاحب **دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة**[٢].

ويعد كتاب أبي بكر الباقلاني من أوعب ما ألف في هذا العلم. قال ابن العربي: (ولم يصنف مثله)[٣].

على أن بعض أهل العلم قد عالجوا إعجاز القرآن في ثنايا مؤلفاتهم القرآنية أو البلاغية،

---

(١) مقدمة تحقيق إعجاز القرآن للباقلاني ص ٧، ٨ للشيخ العلامة السيد أحمد صقر، رحمه الله ورضي عنه. وانظر بقية كلامه، فإنه عالٍ نفيس!

(٢) نشرت رسائل الرماني والخطابي والجرجاني معًا، باسم: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. وقد نشر شيخنا أبو فهر محمود محمد شاكر – حفظه الله – الرسالة الشافية بآخر الطبعة التي قرأها وعلق عليها من دلائل الإعجاز.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ٩٠.

كالذي تراه في **البرهان في علوم القرآن** للزركشي، وكتابي ابن الزملكاني: **التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن**، و**البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن**، و**نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**[1] لفخر الدين الرازي، و**بديع القرآن**، و**تحرير التحبير**، كلاهما لابن أبي الإصبع المصري، و**الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** لأمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي اليمني.

ولا يزال الناس بعد الباقلاني إلى يوم الناس هذا، يعتادون هذا العلم الشريف، ويعالجونه، وقد اختلفت كتاباتهم فيه شرعة ومنهاجًا، إلى أن رأينا في عصرنا الحديث من نَحَوْا بالإعجاز القرآني منحى جديدًا، وهو ما يسمونه:

الإعجاز العلمي في القرآن، وبرغم ما انتهى إليه بعضهم من نتائج تسر الناظرين، فإنه طريق مخوف، ومنهج محفوف بالمخاطر، للذي علمته من تغير الظواهر العلمية واختلاف النظر إليها والحكم عليها. ولذلك حديث آخر.

*****

(١) وله أيضًا: الإشارة إلى الايجاز في بعض أنواع المجاز. وقد أقامه كله على القرآن العزيز.

هذا الكتاب

ويأتي كتابنا هذا في علم إعجاز القرآن نمطًا وحده؛ فقد أداره مؤلفه على وجه من إعجاز القرآن جديد، لم يسبقه إليه سابق ولم يفطن إليه باحث، وكأن كعب بن زهير، رضي الله عنه، لم يكن مصيبًا حين قال:

ما أرانا نقول إلا مُعارًا أو مُعادًا من قولنا مكرورًا[1]

إلا أن يكون أراد الشعر وحده!

فقد يفتح الله على الأواخر بما لم يفتح به على الأوائل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا أيضًا وجه من وجوه إعجاز القرآن، وأنت ترى هذا من نفسك، فقد تتلو الآية أو السورة في صلاتك، أو في مغداك ومراحك، وعند أخذ مضجعك، وتمر عليها مرًّا، ثم تتلوها نفسها في ساعة أخرى من ساعاتك، وفي حالة مباينة من حالاتك، أو تسمعها من قارئٍ غيرك، فإذا هي تهزك هزًّا، وإذا هي تملأ كل ما حولك بهجة وضياء، ثم تفجر أمامك ينابيع من الحكمة والهدى لم يكن لك بهما عهد، وتعجب، كيف غيب عنك كل هذا الخير فيما سلف لك من أيام!

وكل الكلام يُملُّ إلا كلام ربنا عز وجل، وصدق رسول الله ﷺ في وصفه وهو المنزل

---

(١) هكذا يستشهد به أهل المعاني والأدب. انظر مثلًا العقد الفريد ٥/ ٣٣٨، لكن الرواية في ديوانه ص ١٥٤:

ما أرانا نقول إلا رجيعًا ومعادًا من قولنا مكرورًا

عليه: (ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه)[١].

*****

وهذا الوجه من الإعجاز القرآني الذي قام له المؤلف ونهض به، وجه قاطع بات، لا تصح فيه لجاجة، ولا تسوغ معه مخالفة، لأنه قائم على قواعد اللغة، ومستند إلى أحكام التاريخ، وليس للهوى فيه حظ أو نصيب.

وعنوان الكتاب كما ترى **من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن - العلم الأعجمي في القرآن مفسرًا بالقرآن** - وهو عنوان دال على موضوعه صراحة، متجه إليه مباشرة، ومنهج الوضوح دائر في هذا الكتاب كله، فالمؤلف يمضي إلى قضاياه ويعالجها دون ثرثرة أو تلكؤ أو فضول.

يقرر المؤلف أن القرآن يفسر في ثنايا الآيات المعنى الدقيق لكل اسم أعجمي عَلَمٍ ورد في القرآن، أيًا كانت اللغة المشتق منها هذا الاسم الأعجمي العَلَم، وإن كانت لغة منقرضة يجهلها الخلق أجمعون عصر نزوله.

وأسلوب القرآن في ذلك - كما يقول المؤلف - (المجانسة على الاسم العلم بما يفسر معناه أبين تفسير)، ومثال ذلك ما ذكره في تفسير اسم (زكريا) عليه السلام: يقول ربنا عز وجل: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[٢]، ويقول المؤلف: زكريا في اللسان العبراني معناه حرفيًّا. (ذاكر الله) ثم يدعوك المؤلف إلى أن تتأمل المجانسة بين قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وبين (ذاكر الله)، وكأنه عز وجل يقول - وهو أعلم بما يريد - ذكر الله ذاكر الله، أو: ذكر الله فذكره الله، أو: ذكر الله فذكرته رحمة الله.

وقد يأتي تفسير العلم الأعجمي في القرآن بذكر المرادف العربي لمعناه بغير العربي:

(١) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، لأبي بكر بن العربي - أبواب فضائل القرآن ١١/ ٣١، وسنن الدارمي - فضائل القرآن ٢/ ٤٣١.

(٢) سورة مريم، الآية: ٢.

ومن ذلك أن معنى (جبريل) في العبرية: الشديد القوي، وجاء التعبير عنه في القرآن بذلك، قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾[1]، والمِرَّة بكسر الميم وتشديد الراء: بمعنى القوة أيضًا. وكذلك قوله تعالى عن جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[2].

ومثل ذلك ما انتهى إليه المؤلف في أمر (نوح) عليه السلام، فقد رده بعض مفسري القرآن إلى (النواح) فقالوا: هو من ناح ينوح، وجاء المؤلف فطبق عليه منهجه فرده - اعتمادًا على قواعد اللغة العبرية - إلى معنى التلبث والإقامة، ثم فسره بالسياق القرآني الكاشف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾[4]، وقوله تباركت أسماؤه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[5].

وثالثة: يذكر المؤلف أن (إسماعيل) ينطق في العبرية (يشمعيل) ومعناه: سمِع الله، أو سميع الله، ثم التمس هذا المعنى في سياق القرآن الكريم، فوجده في قوله عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[6]، وفي قوله عز وجل على لسان الخليل أيضًا وابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[7].

وهكذا يمضي المؤلف بهذا المنهج في تفسير أسماء الأعلام الأعجمية وما يشبهها من أسماء الأجناس والمواضع، وقد أحصى في ذلك واحدًا وستين عَلَمًا أعجميًا أو مختلفًا في

(١) سورة النجم، الآيتان: ٥، ٦.

(٢) سورة التكوير، الآيتان: ١٩، ٢٠.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ١٤.

(٤) سورة يونس، الآية: ٧١.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٧٧.

(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

عجمته في القرآن، فسرها من القرآن نفسه - تعالى منزله - ثم ذكر أن القرآن لا يفعل هذا فقط، ولكنه يصحح أيضًا لعلماء العبرية وعلماء التوراة، وقت نزوله وإلى يوم الناس هذا، تفسيراتهم اللغوية لمعنى هذا العلم العبراني أو ذاك، من مثل أسماء بني إسرائيل الواردة في القرآن وغيرها من أسماء المواقع، مثل (مدين) فيخطئ أصحاب اللغة ويصيب القرآن.

*****

فهذا هو عمود صورة الكتاب، كما أقامه مؤلفه، وكما أراد له أن يكون، ولكنه من وراء ذلك ومن قدامه قد استطرد إلى قضايا كثيرة؛ عقيدية ولغوية وتاريخية.

ومن أنفس ما في هذا الكتاب - وكله نفيس إن شاء الله - ما ذكره المؤلف حول تاريخ كتابة التوراة والإنجيل، وأن نص التوراة مستنسخ من الذاكرة بعد نحو ثمانية قرون من وفاة موسى عليه السلام، وكذلك الأناجيل الأربعة المتداولة لم يخطها عيسى عليه السلام بيده، ولم يملها على حوارييه، وبهذا تكون سلسلة السند في التوراة والإنجيل منقطعة، وليس كذلك القرآن.

ومما يتصل بالتوراة: ما سجله المؤلف من قصورها وتقصيرها في ذكر الأنبياء الذين هم من قبل إبراهيم عليه السلام، فتكون بذلك (توراة بني إسرائيل) ليس غير.

وقد أفضى ذلك بالمؤلف إلى أن طعن كثيرًا في (سفر التكوين) الذي بين أيدينا الآن، وكذلك شنَّع على كتاب التوراة، وكشف تدليسه وكذبه في أكثر من موضع، بل إنه نبه على تناقضه مع نحو اللغة العبرية ومعجمها.

أما بنوة عيسى لآدم عليهما السلام، وعبوديته لله عز وجل فقد عالجها المؤلف في غير مكان من الكتاب.

*****

والكتاب في تسعة فصول، خصص المؤلف الفصول الثلاثة الأولى منها لما يمكن أن نسميه تسمية علماء القراءات: الأصول، والفصول الستة الباقية جعلها لما يسمى عندهم

الفرش، وهو تنزيل الكلام على أسماء الأعلام: عَلَمًا عَلَمًا، كما ينزل الكلام في اختلاف القراء على سور القرآن سورة سورة:

أما الأصول فقد أدار المؤلف عليها كلامًا عاليًا شريفًا، حول أصناف الملاحدة ومناقشتهم، ثم تكلم عن خصائص اللسان العربي وعبقرية العربية وقدمها، وأوجه التقابل والتغاير بينها وبين العبرية، ليجيب بعد ذلك: لماذا كانت العربية هي أم الساميَّات جميعًا؟

وأشار إلى لغات العالم المعروفة وقت نزول القرآن، ثم أورد كلامًا عزيزًا عن القرآن، وأورد اجتهادات في لغة آدم، عليه السلام، التي تكلم بها على الأرض مهبطه من الجنة.

وتحدث عن استعارة معاني الأفعال، وحدود الأخذ، والاستعارة من اللغات الأخرى.

ولهذا المؤلف اجتهادات جيدة في الاشتقاق، وتأصيل عربية بعض ما يظنه الناس أعجميًّا، مثل (جهنم) وتخطئة بعض اللغويين العرب في أصل (إبليس) واشتقاقه.

* * * * *

وهناك أمر لا يزال المؤلف يعتاده ويلم به كثيرًا، وهو الرد على المستشرقين ومن إليهم من متحذلقة الأساتيذ في هذا القرن، الذين أدركتهم عجمة العلم واللسان.. أو كما قال. وقد رد على المستشرقين في طعنهم على القرآن، وأنه وحي من الله يوحى على خاتم الأنبياء ﷺ.

وكان أكثر المستشرقين حظًّا من الرد والتعقيب المستشرق الألماني جوزيف هورڤيتس، المولود سنة ١٨٧٤م، والمتوفى سنة ١٩٣١م[1].

* * * * *

ولعل أغنى بحث فيما وقع لي من أصول هذا الكتاب: هو الكلام على اسم أبي إبراهيم عليه السلام، وهو (آزر) في القرآن، و(تارح) في التوراة، وقد تختلف مع المؤلف في بعض

(١) انظر ترجمته وآثاره في: المستشرقون، للأستاذ نجيب العقيقي ٢/ ٤٣٢، ٤٣٣، الطبعة الرابعة.

ما انتهى إليه من الربط بين (آزر) و(تارح)، ولكنك تكبر فيه صدق الجهد وقوة الحجة.

* * * * *

ومن أطرف ما قرأته في هذا الكتاب تنبه المؤلف لما يصنعه بعض الأدباء والشعراء في هذا الزمان - الذين يزعمون أنهم يوظفون التراث في أعمالهم الأدبية - من تمجيد (إبليس) رمزًا للبطولة في محنة السجود لآدم، وأنه أول من قال: لا، فهذا سخف من القول. فيقول المؤلف: (والذي يجب التنصيص عليه في هذا السياق، هو النعي على أهل التفسير والسير، وأيضًا على أهل الفن والفكر والأدب، الذين تناقلوا ما دسه إبليس على أوليائه من أساطير وتهاويل لا يخلو منها (أدب الخرافة) في كل الشعوب، تتحدث عن (أمجاد) إبليس قبل أن يبلس، تريد تفخيمه وتعظيمه وغرس المهابة منه في صدور الناس، حتى خصوه بأضوأ كوكب في السماء الدنيا، كوكب الصبح، أي كوكب (الزُّهَرة)، وجعله بعضهم ندًّا لله، وجعله بعضهم شهيد البطولة في محنة السجود لآدم، وأول من قال: (لا)، ليس التنكر للخالق عز وجل بطولة، لا صحيحة ولا زائفة، وإنما هو وضاعة، هذا كله فسوق وصغار، لا يجوز لمؤمن تجميل ما قبحه الله، ولا يجوز لمؤمن إعلاء ما وضعه الله أسفل سافلين، ولا يجوز لمؤمن تمجيد ما رذله الله، ولا يجوز لمؤمن تعظيم من لعنه الله، ناهيك بموالاة عدو الله، بل لا يجوز لعاقل موالاة من أقسم ليجرنه وراءه إلى قاع جهنم).

* * * * *

وهكذا تتوالى القضايا في هذا الكتاب النفيس، على أني أحب أن أسجل ههنا أن كلام هذا الكاتب - وأنا لا أعرفه - لا تستطيع أن تفرق فيه بين أصل وحاشية، بل إن كثيرًا من حواشيه ينبغي أن تنقل إلى صلب الكتاب أو متنه، وتأمل مثلًا حاشيته في الفصل الأول، عند حديثه عن صور المغايرة بين العربية والعبرية، في توجيهه لتسميته ﷺ (محمدًا) ومظهر الحمد فيه، وما تلا ذلك من حديثه عن (الموآبية) والمقارنة أو الموازنة بين (ساذج) و(سادة)، و(كيسر)

المعرب إلى (قيصر)، والاسم الإسباني (رذريجو) المعرب إلى (لذريق)، وغير ذلك كثير من العلم المنثور في حواشي الكتاب.

ومع غزارة هذه المعارف التي يقدمها لنا الكاتب، ونفاستها، فهو لا يُدِلُّ بها على قارئه، ولا يسوقها في موكب تتقدمه الخيَّالة، ويحف به راكبو الدراجات، وتكتنفه دقات الطبول، كما يفعل كثير من الكتاب الآن، وإنما يأتيك كلامه سهلًا رهوًا، يتهادى في إهاب الكرامة والتواضع والإسماح، وعليه من العلم بهاؤه، ومن الجد أماراته، بأسلوب عذب مصفى، أسلوب كاتب يحترم عقل قارئه، ويريد إمتاعه لا التعالي عليه. يقول في الفصل الثاني - الأعجمي المعنوي والأعجمي العلم - في مناقشة المفسرين الذين اعتمدوا في تفسير أسماء أنبياء بني إسرائيل على المعجم العربي وحده، يقول: (وأنا أيها القارئ العزيز - إن كنت لا تعرف عبرية التوراة أو يونانية الأناجيل، بما في هذه وتلك من أعلام آرامية، بل ومصرية أحيانًا - لا أريد لك أن يفوتك شيء من حلاوة بحث أريد أن أحبره لك تحبيرًا: أريد منك أن تشترط عليَّ توثيق ما أحدثك به، فلا أكيل لك القول جزافًا آمنًا ألا تكشف زيفي، لأنك لا تعلم شيئًا من أمر تلك اللغات التي ذكرت لك. ليس هذا من العلم في شيء، وإنما هو من التدليس).

وقوله: (أحبره لك تحبيرًا) انتزعه - محسنًا - من قول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وقد أخبره ﷺ أنه استمع لقراءته القرآن، فقال: (أما إني لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيرًا)(١).

وهذا الاقتباس الذي جرى على قلم الكاتب ترى له أشباهًا ونظائر في غير هذا الموضع من كتابه، وهو يدلك على انتماء أسلوب الكاتب لذلك النمط العالي من البيان المشرق الوضيء، الذي هو السمة الغالبة على أسلوب علمائنا الأوائل، ليس في كتب الأدب فقط، بل تراه في كل ما كتبوه، حتى في علوم الفقه والأصول والتاريخ والأنساب والبلدانيات (الجغرافيا) والطب والفلك والفلاحة (الزراعة)، فنحن أمة بيان وفصاحة، وإن أريد لنا أن

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٩/ ٩٣ - باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، من كتاب فضائل القرآن.

نفرغ من هذا كله، وأن نعايش الواقع ونعانق لغة العصر - هكذا يقولون - لنضيق الفجوة بين ما يقرؤه التلاميذ في الكتب وبين ما يسمعونه في الشارع والبيت. لقد أفضى ذلك العبث كله إلى هجر الكلام العالي، والتردي في هوة العجمة والسوقية. إن كثيرًا من أساليب الكتاب الآن تمضي تتخبط في طريق مظلم كئيب، وتدور تسعى في فلك ألفاظ مستهلكة مستبردة، مما كان يوصف قديمًا بالكلام المغسول(١).

وقد صدهم عن حسن البيان وجمال العبارة وهم خادع وظن كذوب؛ أن العناية بتحسين العبارة أصباغ وزخارف، وأن التفكير العلمي والموضوعي يأبيان ذلك ويرفضانه... وهذا حديث طويل، لا ينبغي أن يشغلنا عن ذلك الكتاب الذي حبّره مؤلفه تحبيرًا، وزينه تزيينًا(٢).

إن في هذا الكتاب علمًا كثيرًا، وإن فيه خيرًا كثيرًا، وإن عليه نورًا كثيرًا، وما أظن ذلك كله قد كان إلا لأن مؤلفه قد تغيا به غايات نبيلة: هي خدمة كتاب الله، بالكشف عن نواحي إعجاز جديدة فيه، والأمور بمقاصدها. يقول تاج الدين السبكي: (ولقد حصل أبو زرعة على أمر عظيم ببركة حفظه للحديث، وهكذا رأينا من لزم بابًا من الخير فتح عليه غالبًا منه)(٣).

ويقول عبد اللطيف البغدادي: (اعلم أن للدين عبقة وعَرفًا ينادي على صاحبه، ونورًا وضيئًا يشرف عليه ويدل عليه)(٤).

(١) شرحه جار الله الزمخشري، في أساس البلاغة، فقال: (وكلام فلان مغسول، ليس بمعسول، كما تقول: عريان وساذج: الذي لا ينكت فيه قائله، كأنما غسل من النكت والفِقَر غسلًا، أو من حقه أن يغسل ويطمس).

(٢) اقرأ قوله عن (يعقوب) عليه السلام وبنيه: (وبنوه هؤلاء الذين فجعوه بيوسف ليخلو لهم وجه أبيهم، ها هم أولاء يغدون ويروحون أمامه، تتضح أعينهم بما فعلوه، فلا يخلو لهم منه إلا وجه كسيف، ولسان لا يفتأ يذكر يوسف: ترى أين أنت الآن يا يوسف؟ أطعمت؟ أدفئت؟ أي ذئب آخر يترصدك؟).
هذا كاتب يكتب وهو منشرح الصدر، وقد أنبأنا في قصة (يوسف) عليه السلام، أنه يستمتع بما يكتب، ويحب لنا أن نستمتع نحن أيضًا.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١/ ٦٥.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٢/ ٣٢٢.

ويقول أبو الحسن العامري: (إن الدين كريم الصحبة، يعز من لجأ إليه، ويستر عيوب من اتصل به، مع ما يُذْخَر له في عاقبته من الغبطة الأبدية)(١).

قلت: وقد رأينا كثيرًا ممن تطاولوا على الدين وهزأوا به وسخروا منه في مجالسهم، أو في أعمالهم الأدبية - شعرًا أو نثرًا - قد انتهى أمرهم إلى خسارٍ وبوار، بل إن منهم من رأى فقره بين عينيه، ورأى عافيته تتفلت من بين يديه، مع ما تراه من ظلام في وجوههم ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾(٢).

* * * * *

ولما كان كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب ذلك القبر الشريف، المعصوم ﷺ: فإن لي مع المؤلف الفاضل وقفات فيما وقع لي من أصول الكتاب، ولم أسعد بقراءته كله، وإني أعتقد أن من تحية أي بحث والاحتفال به مناقشته ومفاتشته:

أولًا: استصحب المؤلف تفسيرًا واحدًا من تفاسير القرآن العزيز، وهو تفسير الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الأندلسي القرطبي، المتوفى بمنية ابن خصيب شمالي أسيوط بصعيد مصر، سنة ٦٧١هـ، ويرى المؤلف أن هذا التفسير هو أوسع وأشمل تفاسير القرآن الكريم. وتفسير القرطبي على جلالته ونباوة محله ليس هو أوسع التفاسير ولا هو أشملها، فإن أوسع التفاسير المطبوعة وأشملها هو تفسير شهاب الدين أبي الثناء السيد محمود الآلوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ، وهو المسمى: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**.

ولو كان تفسير القرطبي هو أوسع التفاسير وأشملها فليس بمغن عن سواه من التفاسير، سابقة أو لاحقة، وذلك أنه في تاريخنا وثقافتنا (لا يغني كتاب عن كتاب) قل هذا في علم التفسير، وقله في سائر علومنا. ولقد كان من أخطر ما صد الناس عن أبواب العلم، وزهَّدهم

(١) الإعلام بمناقب الإسلام ص ١٢٩.

(٢) سورة الحج: ١٨.

في الاستقصاء والتتبع والصبر على تكاليف العلم: الزعم بأن كتبنا تتشابه، وأن غاية اللاحق أن يدخل على السابق، يردد ما قال دون أن يضيف إليه شيئًا، إلا شيئًا لا يُعبأ به، وهو زعم باطل وخلف من القول، ورده ودفعه في غير هذا المكان.

على أن ذلك التشابه الذي يظن بكتبنا، عند من لم يحسن النظر والتأمل، يذكرنا بأهل الصين واليابان، تنظر إلى سحنتهم فتراهم على نمط واحد، ومن بابة واحدة، فتظنهم جميعًا شخصًا واحدًا، ولكنهم عند أنفسهم مختلفون جدًّا، وبينهم من الفروق وأوجه الخلاف ما هو واضح عندهم وضوحًا لا يدخله شك.

ثانيًا: من المباحث التي عالجها الكتاب: الترتيب التاريخي للأنبياء، والمدد التي بينهم، كالزمن الذي بين آدم ونوح، والذي بين نوح وإبراهيم عليه السلام، ولم يستفد المؤلف - فيما رأيتُ - من المصادر العربية التي عالجت هذا الموضوع، مثل **المحبَّر** لابن حبيب (٢٤٥هـ)، و**المعارف** لابن قتيبة (٢٧٦هـ)، و**تاريخ الطبري** (٣١٠هـ)، و**مروج الذهب** للمسعودي (٣٤٦هـ)، و**قصص الأنبياء** لابن كثير (٧٧٤هـ) الذي هو جزء من كتابه: **البداية والنهاية**.

ولئن كان المؤلف يخالف هؤلاء المؤرخين - لأني أعتقد أنه لا يخفى عليه مكانهم، ولا يجهل مؤلفاتهم - فقد كان ينبغي الإشارة إليهم، والاستئناس بهم.

ثالثًا: ذكر المؤلف الخلاف في تعيين اسم (الذبيح) وهل هو إسماعيل أم إسحاق؟ وأورد كلامًا جيدًا، لكنه لم يرجع إلى المصادر الأولى - فيما ظهر لي - ولم يستفد مما كتبه أهل العلم، ولو فعل لما قال: إن المفسرين تهيبوا تكذيب التوراة في قولها: إن الذبيح كان إسحاق بالاسم، لا إسماعيل، فلم يروا بأسًا من متابعة التوراة على هذا القول.

فهذا التعميم غير صحيح، فإن الحافظ ابن كثير - وهو من أئمة التفسير - وكتابه عمدة في التفسير - ذكر الرأيين، وانتصر للرأي القائل بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام[1].

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٣ - ٣٠ (سورة الصافات).

وقال ابن قيم الجوزية: (وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهًا، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيده. ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غر أصحاب هذا القول في التوراة التي بأيديهم، اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة، إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[1] فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد. وهذا ظاهر الكلام وسياقه)[2].

أرأيت أيها الكاتب الفاضل تصديق كلامك عند الأقدمين؟ وأنت عليم أن مثل هذه القضايا لا تلتمس من كتب التفسير وحدها، فكتب العربية آخذ بعضها برقاب بعض.

رابعًا: هذا كتاب جيد، مرجو منه الخير والنفع إن شاء الله، ومثله أعلى من أن تذكر فيه الأحاديث الشريفة بمعناها دون لفظها: ومن ذلك ما ذكره المؤلف في مبحث (إبليس) عليه لعائن الله تترى، قال: (وقد روي عن الصادق المصدوق ﷺ ما معناه (ثوروا القرآن)، أي: ابحثوا وتمعنوا)، ولفظ الحديث: «**من أراد العلم فليثور القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين**»[3].

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٧٠، ٧١.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٧١-٧٢، وانظر بقية كلامه ففيه تحقيق جيد.

(٣) أخرجه الحافظ نور الدين الهيثمي، من حديث عبد الله بن مسعود، في مجمع الزوائد ٧/ ١٦٥ (باب في فضل القرآن ومن قرأه)، وكذلك رواه ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر =

قال شمر بن حمدويه: (تثوير القرآن: قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه).

وروى أبو منصور الأزهري[1]، رواية أخرى، من حديث ابن مسعود أيضًا: «**أثيروا القرآن؛ فإن فيه خبر الأولين والآخرين**»، وذكر الروايتين أبو عبيد الهروي[2]، وكذلك عبد اللطيف البغدادي[3].

ويتصل بالحديث الشريف أيضًا ما ذكره المؤلف - في أثناء الكلام على (آزر) أبي إبراهيم عليه السلام - من قوله ﷺ للنسوة اللائي خرجن لتشييع الجنازة «**ارجعن مأزورات غير مأجورات**»[4]. و(مأزورات) اسم مفعول من الوزر، وهو الإثم، وقياسه: (موزورات) من وَزَرَ يَزِرُ، قال عزَّ من قائل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[5]، وغيرها من الكتاب العزيز، وجاء على الأصل في كلام علي رضي الله عنه: (إن صبَرت جرى عليك القدرُ وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت موزور)[6].

وإنما قال ﷺ: «**مأزورات**» للازدواج بمأجورات، فقلب الواو ههنا همزة، ليس قلبًا صرفيًّا، على أنهما لغتان شائعتان مستعملتان، مثل أكَّد ووكَّد، والتأكيد والتوكيد، ولكنه قلب لغاية صوتية، هي ما يسمونها الازدواج أو المزاوجة.

فتنظير المؤلف لتعاقب الهمزة والواو بهذا الحديث غير صحيح، وإنما ينظر بالشائع المطرد

= ١/ ٢٢٩، والقرطبي في تفسيره ١/ ٤٤٦.

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ١١٠.

(٢) الغريبين ١/ ٣٠٦، ٣٠٧.

(٣) المجرد للغة الحديث ١/ ٢٦٢.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه ١/ ٥٠٣ (باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز، من كتاب الجنائز).

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٦) نهاية الأرب للنويري ٥/ ١٦٧، قاله علي رضي الله عنه للأشعث بن قيس، يعزيه عن ابنه، في كلام بليغ شريف، لكنه جاء بالهمز (مأزور) في التعازي للمدائني ص ٦٧، والتعازي والمراثي للمبرد ص٢٠٦ - وتأمل حاشيته ففيها من نسخة: (موزور) - وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩/ ١٩٢.

المنقاس، مثل أكد ووكد، وأقتت ووقتت[1]، ووجوه وأجوه، ووشاح وإشاح، ووعاء وإعاء[2].

والمزاوجة أو الازدواج ظاهرة صوتية، يراد بها الانسجام والتوافق الصوتي، وهذه الظاهرة سماعية، أي أنها مرتبطة بنصوص بعينها، مثل الحديث السابق، ومثل ما جاء في حديث القبر: «**لا دريت ولا تليت**»، وإنما هو: تلوت. وإنما قلبوا الواو ياء ليزدوج الكلام، وكذلك قولهم: (إني لآتيه بالغدايا والعشايا)، فجمعوا الغداة: غدايا، لتزدوج بالعشايا، وحقها أن تجمع على: غدوات. وكذلك قولهم: (الحير العين)، وإنما هي: الحور.

وهذا كله قلب غير منقاس، ولذلك ذكره ابن قتيبة تحت عنوان: (باب شواذ التصريف) - أدب الكاتب ص ٦٠٠.

خامسًا: في حديث المؤلف عن (إبراهيم) عليه السلام، خطأ المفسرين واللغويين الذين ذهبوا إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[3]: معناه الجامع لخصال الخير، ثم ذكر أن تفسير لفظ (أمة) بذلك لا يساعد عليه أصل المادة، ورأى من عند نفسه أن المعنى الدقيق لاسم إبراهيم هو: (إمام الناس).

قلت: هذا الذي انتهى إليه المؤلف الفاضل باجتهاده واستخراجه هو ما قاله بلفظه الإمام اللغوي ابن فارس، المتوفى سنة ٣٩٥، في كتابه الفذ: **معجم مقاييس اللغة** ١/ ٢٧، قال: (وقيل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إمامًا يهتدى به)، لكني قلت من قبل: إن المؤلف لم يستفد من الكتب الأولى، واللغة تؤخذ من كتب العربية كلها، أعني من فنونها ومعارفها كلها، ومن كل ما كتبه أهل العلم، ما دقّ منه وما جلّ، وقد كانت آفة بعض الذين كتبوا عن اللغة العربية أنهم التمسوها من كتب اللغة فقط[4].. وليس الطريق هنالك!

(١) قرأ أبو عمرو: (وإذا الرسل وقتت) [المرسلات: ١١]، السبعة لابن مجاهد ص ٦٦٦.

(٢) قرأ سعيد بن جبير: (ثم استخرجها من إعاء أخيه) [يوسف: ٧٦]، المحتسب لابن جني ١/ ٣٤٨.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٤) وكذلك الذين كتبوا عن (النحو) التمسوه من كتب النحو فقط، وفي هذا ما فيه. وقد كتبت في ذلك كثيرًا.

سادسًا: ذكر المؤلف في الفصل الثاني، قال: (ومن خصائص الاسم العلم أنه لا يوصف إلا على الخبر أو على البدل، ولا يوصف على النعت، لأن النعت يخصص والاسم العلم متخصص بذات علميته، لا يحتاج إلى مخصص، ثم استشهد للوصف على البدل بقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فما بعد لفظ الجلالة كله مجرور على البدل.

وهذا كلام خرج من باب الاجتهاد ليس غير، وقواعد النحو على خلافه، لأن النعت كما يخصص النكرة يوضح المعرفة التي منها الاسم العلم، مثال نعت المعرفة: جاء زيد التاجر، أو التاجر أبوه، فهذا توضيح للمعرفة، ومثال نعت النكرة: جاءني رجل تاجر، أو تاجر أبوه، فهذا تخصيص للنكرة[1].

أما إعراب ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فقد أعربها جمهور النحاة والمفسرين نعتًا للفظ الجلالة، لمجرد المدح، لا على التوضيح ولا على التخصيص الذي أراد المؤلف الفاضل أن يفر منه مع لفظ الجلالة، ولكن على إرادة مجرد المدح، وقد نبه على هذا أبو حيان، فقال: (الرحمن الرحيم... هما مع قوله: رب العالمين، صفات مدح؛ لأن ما قبلهما علمٌ لم يعرض في التسمية به اشتراك فيخصص)[2].

إذن قول المؤلف: (إن الاسم العلم متخصص بذاته) ليس على الإطلاق والتعميم، وإنما هو فقط في حق المولى جلت صفاته (الله) المعبود بحق الذي لا شريك له.

ونعم ذكر بعض معربي القرآن أن (رب) يجر على النعت لله، أو البدل منه[3]، لكن الأكثر على أنه نعت لمجرد المدح كما ذكرت.

---

(١) أوضح المسالك لابن هشام ٣/ ٣٠٠، وغيره من كتب النحو، على أن النعت قد يأتي لغير التوضيح والتخصيص، بأن يأتي لمجرد المدح أو الذم، أو التعميم أو الترحم، أو الإبهام، أو التوكيد كما هو مذكور في المطولات.

(٢) البحر المحيط ١/ ١٩.

(٣) التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١/ ٥، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ١/ ٤٥.

سابعًا: عرض المؤلف في أثناء حديثه عن (يوسف) عليه السلام لإعراب قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾[1]، فقال في حاشيته: (تنصب ﴿بَشَرًا﴾ هنا على نزع الخافض، وهو الباء المؤكدة للنفي، فالأصل: ما هذا ببشر! باتة قاطعة، والقاعدة في المجرور بحرف أنك إن نزعت حرف الجر منه نصب، وهذا يغنيك عن تعللات علماء النحو في هذه الآية، ومنهم أئمة، الذين أجهدوا أنفسهم وأجهدوا تلاميذهم، في جمع الشواهد على أن من العرب من يجعل لـ(ما) حكم ليس).

قلت: إن إيراد الكلام على هذا النحو يوحي للقارئ غير المتخصص: أن هذا الإعراب إنما خرج من كيس المؤلف الفاضل، وأنه لم يسبقه إليه سابق، وآية ذلك أسلوب التعميم في قوله: (وهذا يغنيك عن تعللات علماء النحو في هذه الآية).

وهذا الذي ذكره المؤلف ونصره إنما هو قول الكوفيين - الفريق الثاني من علماء النحو - وهذا موضع من مواضع الخلاف بينهم وبين البصريين، وقد ذكره أبو جعفر النحاس، وأبو البركات الأنباري وغيرهما من النحاة[2].

وتبقى بعد ذلك كلمة:

لقد قلت من قبل: إن أسلوب هذا الكاتب عذب مصفى، واللهم نعم! لكن شاب هذا الصفاء، وعكر هذه العذوبة بعض أوشاب[3] مما يخالط الأساليب الشريفة، تتسلل إليها لِواذًا، وكأنها العدوى المهلكة، تتخلل ذرات الهواء، لا تحس بها إلا وقد داهمتك في خلايا بدنك - عافاك الله - فلا تستطيع لها دفعًا ولا مردًا.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣١.

(٢) راجع إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٩، والإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري ١/ ١٦٥، والتبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين للعكبري ص ٣٢٤، ثم انظر معاني القرآن لأبي زكريا الفراء الكوفي ٢/ ٤٢.

(٣) هذا وصف علمي، وليس ذمًا - إن شاء الله - وهو بلاء يصيبنا جميعًا فيما نعالج من أساليب الكتابة والبيان. بتأثير ما يغشانا من طوارق ومصائب ما نقرأ وما نسمع والملجأ الله!

ومن ذلك ما جاء في كلام المؤلف الفاضل من هذا التركيب (موسيقى القرآن)، وهو تركيب رخو لين، لا يليق بجلال القرآن وبهائه، ولا تقل: لا بأس علينا من تقارض مصطلحات العلوم؛ لأن فيه إثراء للغة. لا تقل هذا ولا تغتر به؛ لأنه مدخل لبلاء عظيم، ولو فتحنا هذا الباب لفسد علينا كل شيء، فإن للكلام حدودًا ومعالم ينتهي إليها، أنسيت أن منا من قال: إن القرآن رسم لوحة صفتها كيت وكيت؟ فجعل المولى عز وجل فنانًا تشكيليًّا يحمل فرشاة يغمسها في ألوان، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

لقد غيروا (النظم القرآني واتساقه) فجعلوه (موسيقى القرآن)، ثم غيروا (العَرُوض) فجعلوه (موسيقى الشعر)، ثم غيروا (علم الصرف) فسموه (علم الصوتيات)[1]، وثم وثم وثم، وبالله نستدفع البلايا!

وبعد: فهذا بحث جيد جدًّا، احتشد له مؤلفه احتشادًا، وأحكم بناءه إحكامًا، ولم يبق إلا أن أخلى بينك وبينه، لا أجاذبك الحكم عليه أو الرضا عنه، فهذا لك، أما أنا فإني أرفعه وأمدحه، وهذا لي، لكني من باب النصح للمسلمين والبر بهم: أوصيك أيها القارئ العزيز بتأمل هذا الكتاب ومدارسته، فخل له سَرْبَك، وشد عليه يد الضنانة، ثم أغر به من حولك. جعلك الله لكل خير سببًا، وأذاقك حلاوة الإنصاف، وثبت نعمه لديك، وأوزعك شكرها. وجزى الله مؤلف الكتاب خير ما يجزى به مسلم يوقر كتابه، ويكشف عن مظاهر الكمال والجلال فيه، وجعل كل ما قدمه من جهد واجتهاد في موازينه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[2]. والحمد لله في الأولى والآخرة،،،

وكتبه الدكتور

محمود محمد الطناحي

(١) وإن تعجب فعجب أن هذه التسمية الآن بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف، ورحم الله الشيخ محمد علي النجار، والشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، والشيخ إبراهيم حمروش، والشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، شيوخ هذه الكلية الأجلاء.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

تصدير

القرآن كلام الله عز وجل معجز للخلق أجمعين، لا يأتون بمثله، هكذا وصفه منزله جل شأنه، وهكذا هو، وتلك هي عقيدة المسلم.

وعقيدة المسلم في هذا الإعجاز مترتبة ابتداءً على إيمانه بأن القرآن كلام من الله عز وجل، خطاب لخلقه، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ.

والمسلم أيضًا - عربيًّا وغير عربي - يسلم بإعجاز القرآن تصديقًا لقول الحق سبحانه:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[2] ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3]

وقد مضى على نزول القرآن أربعة عشر قرنًا دون أن ينهض لهذا التحدِّي أحد، وما كان لأحدٍ أن يفعل من بعد وقد عجز معاصروه المنكرون عليه وهم أصحاب اللغة.

وليس القرآن معجزًا بلغته فقط، أي بمحض لفظه وعبارته، وإن كان قمة الإعجاز اللغوي

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

لأهل العربية في كل العصور، مسلمهم وغير مسلمهم على السواء، ولكنه معجز للناطقين بكل اللغات، لأنه معجز بموضوعه. معجز بمعانيه، معجز بهيمنته على ما سبقه من الكتب، وكلها غير عربي، يصدقها فَـتَصْدُق، ويخالفها فيصدق هو.

والقرآن معجز أيضًا بقائله، أي بصدوره مباشرة عن الله تبارك وتعالى، فهو سبحانه في كل القرآن القائل المخاطب المحدث الراوي. وليس لهذا نظير في الكتب السابقة التي بين يديك: فيها من قول الله، وفيها من غير قول الله. فيها من قول النبي أو الرسول وأكثرها حديث الرواة عن النبي أو الرسول. إنها أشبه بالتواريخ والسير، العهدة فيها على الراوي، لا على النبي أو الرسول. يستبين لك هذا مباشرة من مجرد القراءة في تلك الكتب، غير محتاج في إثباته إلى دليل من خارجها، بل إن أصحاب تلك الكتب لا يجادلونك في هذا، وإنما يسلمونه: التوراة كتابة الربانيين والأحبار بعد قرون من وفاة موسى عليه السلام، والأناجيل منسوبة إلى الحواريين والآخذين عنهم بعد رفع المسيح عليه السلام. وهم يسلمونه أيضًا؛ لأنه بين من عبارة الكاتب، الذي يقول لك في التوراة (كتاب موسى): وقال الله لموسى... وذهب موسى... ومات موسى... إلخ، كما يقول لك في الإنجيل (كتاب عيسى): وتهلل يسوع بالروح... وانطلق يسوع... وعلمهم أن يقولوا في صلواتهم... إلخ، وهذا أشبه بالسيرة النبوية وكتب الحديث، لا تسلم إلا بعد تمحيص وتدقيق. وأنت لا تجد في القرآن عبارات من مثل: (جاء محمد)، و(ذهب محمد) صلوات الله عليه، تجد مثل هذا في السيرة النبوية، ولا تجده في القرآن، ولكن أصحاب الكتب السابقة يؤمنون بأن كتبة التوراة والأناجيل كتبوا ما كتبوه بإلهام من الله وبوحي من الروح القدس. وأنت قد تسلم بالوحي للنبي، ولكنك لا تسلمه قط للرواة. فهم لم يدعوه، بل أنت تقرأ في (إنجيل لوقا) أن الكاتب يقول لك: إنه لم يكتب ما كتب إلا بعد جمع وتمحيص وتدقيق.

وقد أراد الله للقرآن أن يكون المعجزة الكبرى لخاتم النبيين. وقد أرادها عز وجل معجزة خاتمة خالدة، تليق بعموم الرسالة في المكان وخلودها في الزمان، فهي رسالة لكل الناس في كل العصور. كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات مرئية، يعاينها من شهدها، فهي

حجة على الشاهد وليست حجة على الغائب. الحدث المعاين ينقضي بتمام حدوثه فيطويه التاريخ. أنت لا تستطيع أن تقول: (ههنا انشق البحر لموسى)، فقد عاد البحر كما كان. ولا تستطيع أن تقول: (هو ذا لعازر الذي مات بالأمس قد أحياه المسيح)، فقد مات لعازر من بعد، ورفع المسيح. أما المعجزة السمعية، أما القول الفصل، أما الآية من القرآن، فهي الشاهد الناطق أبد الدهر. فالحدث ينقضي بتمام حدوثه، والكلمة تولد بالفراغ من نطقه فلا تموت، وقد أثبت الله عز وجل للقرآن صفة المعجزة الشافية الكافية، فأنكر على من سألوا محمدًا ﷺ معجزة مرئية كمعجزات من سبقوه، ولم يكتفوا بالقرآن. قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾(1).

أراد الله عز وجل للقرآن - والحق من أسمائه جل وعلا - أن يكون دالًّا بذاته على مصدره، فكان القرآن محض الحق، نزل من الحق بالحق: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾(2). ليكون لنبيه محمد ﷺ، في كل العصور، الحجة الساطعة القاطعة الخالدة، ولا أقطع من كلمة الحق، ولا أبقى.

****

والمسلم، عربيًّا وغير عربي، الذي يسلم ابتداء بإعجاز القرآن لمجرد إيمانه بصدوره عن الخالق جل وعلا، مأمور أيضًا بالتأمل في إعجاز الخالق فيما خلق.

قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾(3)، وقال أيضًا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(4).

(1) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.
(2) سورة الإسراء، الآية: ١٠٥.
(3) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.
(4) سورة الملك، الآيات: ٣، ٤.

وهذا من دقيق القرآن: خسأ البصر وحسر، أي كلَّ وأُعيي، فارتد منعكسًا في القلب، فيتطامن القلب ويخشع، قد غشيته السكينة، وتغشاه الجلال، وانقلب البصر بصيرة. تلك هي لحظة الإيمان الخالص واليقين المطلق. إنه ليس إدراك فهم، فهو قد آمن من قبل، وإنما هو إدراك حضور، تلك اللحظة هي التي طلبها إبراهيم عليه السلام من ربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾[1]. أي يتطامن، يستضيء بنور الله، ويستروح جلال الله، ويغيب في كنف الله. تلك هي لحظة الوجود الحق، وتلك في هذه الدنيا هي جنة المؤمن: إنه في هذه اللحظة دانٍ قريب، في حضرة ذي الجلال، لم يدن هو، وإنما تفضل المنعم فأدناه، وهو عز وجل لا يتجلى لخلقه بنور ذاته، إذن لصعقوا، ولكنه عز وجل يتجلى لهم في دقيق خلقه، ولطيف صنعه، وحكيم إبداعه. قال ﷺ: «**تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذات الله**».

والتفكر في خلق الله وفي إعجاز الله عبادة ذكر وتسبيح، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ﴾[2].

****

والقارئ في كتاب الله، المتدبر في آي القرآن، قارئ في كتاب الكون كله، ما كان ويكون، دق أو عظم، تعلق بأذيال النجوم، أو تخفى في دبيب النفس.

إنه القارئ السامع الرائي.

وغيره أعمى وأصم.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[3].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠، ١٩١.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٤.

وقد شغل المسلمون في كل العصور بتدبر القرآن، يستظهرون معانيه، ويستجلون وجوه إعجازه، فلم يستقصوه، ولن يستقصوه حتى تقوم الساعة، فالإعجاز مستمر، والقرآن لكل القرون، لا يجد للخليقة علم إلا وقد سبقت إليه بالقول الفصل في القرآن إشارة.

وهذا هو الإعجاز الأكبر: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1].

* * * *

وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن جديد، لم أقع عليه فيما كتب المفسرون، أردت وقد هداني الله إليه بفضل منه ونعمة أن أشركك معي فيه أيها القارئ العزيز.

إن تك مسلمًا، فسبح. وإن تك غير مسلم فتأمل. والله يهدي إليه من ينيب.

* * * *

اللهم يا منزل الكتاب خذ بيدي، أنر بصيرتي، وسدد قلمي، ارزقني الصواب، واجنبني الزلل، لك وحدك الفضل والمن، ومنك وبك التوفيق.

والحمد لله رب العالمين

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

مقدمة

يتوقف الإيمان بصدق الرسالة - أي رسالة - على سبق الإيمان بصدق الرسول. فأنت لا تستطيع مثلا تكذيب التوراة (كتاب موسى عليه السلام)، إلا وقد كذبت موسى من قبل، شأن فرعون وقومه، في دعواه الوحي من الله تبارك وتعالى، ولا تستطيع تكذيب الإنجيل (كتاب عيسى عليه السلام) إلا وقد كذبت عيسى من قبل في دعواه البلاغ عن ربه عز وجل، شأن آباء اليهود في عصر المسيح، وأنت لا تستطيع بالمثل إنكار الوحي على القرآن (الكتاب المنزل على محمد ﷺ) إلا وقد كذبت محمدًا من قبل في دعواه النبوة والرسالة.

المكذب بالرسالة مكذب أصلًا بالرسول، والمكذب بالرسول مكذب ضمنًا بالرسالة. عكس هذا، المصدق بالرسول، المسلم بأن الوحي من الله، فهو لا يستدرك على رسل الله، وإنما يأخذ ما يلقون إليه من رسالات ربه أخذ المذعن المتبع، المنصت الواعي، يستمع القول فيتبع أحسنه، شاكرًا أنعم الله أن حباه بالمنة الكبرى فأسفر إليه يدعوه، ويخاطبه عن طريق رسله بكلام.

****

أما (أهل الكتاب)، أصحاب التوراة والإنجيل، فقد صدق اليهود بموسى فآمنوا بالتوراة، وصدق النصارى بعيسى وموسى فآمنوا بالتوراة والإنجيل. أما المسلمون - أصحاب القرآن - فقد صدقوا بمحمد خاتم النبيين المصدق لما بين يديه من كتاب، صلوات الله وسلامه عليه وعلى رسله أجمعين، فآمنوا بالتوراة والإنجيل والقرآن.

والتصديق والتكذيب هنا أو هناك يدوران على التسليم بالوحي للرسول، أو إنكار الوحي على الرسول: سلم اليهود بالوحي لموسى وأنكروه على عيسى ومحمد، وسلم النصارى بالوحي لعيسى وموسى وأنكروه على محمد، صلوات الله عليهم أجمعين، وسلم المسلمون بالوحي لرسل الله جميعًا لا يفرقون بين أحد من رسله.

لماذا آمنت طائفة ببعض وكفرت ببعض؟ لماذا يكذب السابق اللاحق، والموحي واحد جل جلاله؟!

هل يرون أن رسالات الله ختمت بنبيهم؟ فأين النص[1] على مثل هذا في كتبهم كما تجده في القرآن على من ختمت به النبوة والرسالة؟

أم اكتفوا بكلمة الله على رسولهم فلم تعد بهم حاجة إلى من يليه؟ فهل أمروا بذلك، أم أمروا بعكسه؟ كيف إذن توالت النبوات تترى على بني إسرائيل من بعد موسى؟ ولماذا آمن اليهود لموسى وقد آمنوا من قبل بكل من سبقوه، من نوح إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب وبنيه؟ وكيف آمن النصارى لعيسى وقد سبقه موسى بالتوراة فيها هدى ونور؟

أم أن التسليم بالوحي للنبي يحتاج إلى معجزة بينة يجريها الله على يديه، ويذعن لها المكابر والمعاند؟

فهل أكبر من انشقاق البحر لموسى، يمشي فيه يبسًا، ومن ورائه فرعون لا يذعن للآية الكبرى حتى ينطبق البحر عليه؟

تلك معجزة كونية عظمى، لا يكابر فيها ممن عاينها إلا هالك: لم يضحل البحر لموسى يخوض في مائه، حتى يسوغ احتجاج المكابر بمد أو جزر، وإنما انحسر البحر بآخر قطرة في باطن قاعه عن يابسة صلد [طه: ٧٧، ٧٨]، يجتازها موسى وقومه، ويتبعهم فرعون، تدرُج

(١) النص في القرآن على خاتم النبيين (الأحزاب: ٤٠) نص بات أيضًا على أنه ﷺ خاتم الرسل، ولا يكون الرسول إلا نبيًّا، وليس كل نبي رسولًا، فالرسول أخص من النبي، ومن ختمت به النبوة فقد ختمت به النبوة والرسالة.

عليها عجلاته وتدقها سنابك خيله.

وهل أبين من انشقاق القبر عن (لعازر)، قد أحياه الله لعيسى، فيخرج على أعين الناس يدب على قدميه، مدرجًا في أكفانه؟

كلتا المعجزتين أعظم من أختها، لا يستطيعهما إلا رب الكون ومحيي الموتى: لم يحي عيسى الميت، كما لم يشق موسى البحر، وإنما صنع هذا رب موسى وعيسى، ورب البحر ورب لعازر، إنه سبحانه لا يحتاج في شق البحر إلى ضربة من عصا موسى، ولا يحتاج في إحياء لعازر إلى عيسى يناديه: لعازر! هلم خارجًا! ولكنه عز وجل قرن هذا بذاك، كي يستبين للمكابر المعاند أن الذي يخاطب البحر بموسى، والذي يخاطب لعازر بعيسى، جمادًا وأمواتًا، هو الذي يخاطبه بموسى وعيسى، هلما فاسمعا، كما سمع البحر وسمع لعازر.

ليست الآية للنبي تكريمًا وتشريفًا، وإنما هي خاتم الرسالة والسفارة.

فما ظنك بمن يعاينون ولا يؤمنون؟ ما ظنك بفرعون، لا يأتيه موسى بآية إلا هي أكبر من أختها؟ وما ظنك بيهود جحدوا عيسى، يمشي بينهم لعازر، الميت الحي؟

وما بال قوم آمنوا قبل أن يعاينوا؟ ما بال ذلك النفر من قوم موسى الذين آمنوا له أول من آمن، لم يروا معه أول ما رأى النار المقدسة في البقعة المباركة من الشجرة، ولم يسمعوا الله يكلمه جهرة، أو يشهدوا معه يدًا سمراء تخرج من جيبه بيضاء من غير سوء، وعصا ككل العصي تنقلب ثعبانًا لتعود سيرتها الأولى؟

وما شأن أوائل الحواريين الذين آمنوا لعيسى أول من آمن، أومأ لهم فاتبعوه من قبل أن تجري على يديه معجزة ولا آية؟

ما سر الإيمان للرسول؟ أهو نور يقذف في القلب؟ بل المكذب بالرسول مكذب في الأصل بمن أرسله.

لا يؤمنن أحد بالله، ثم يحيل عليه أن يصطفي من عباده من يشاء بشرًا رسولًا، إن شككت فتثبت، فلن تعدم في الوحي الذي ألقي إليك آية.

على أن من الناس من ينكر مبدأ الوحي جملة، وهم أنواع: فريق غير مؤله البتة، ينكر الخالق ويؤمن بالمخلوق، أي يؤمن بأن هذا الكون بكل ما فيه موجود ليس له موجد، منظوم ليس له ناظم، محكوم بغير مسخر، مرزوق بغير مدبر، ولا وحي ثَمَّ، لأنه ليس ثَمَّ البتة من إله.

ولا منطق في هذا القول ولا علم: الموجود بذاته لا يحتاج إلى غيره في استمرار وجوده، ولا تحكم وجوده قوانين من خارجه. الموجود بذاته لا قبل له ولا بعد، وإلا فقد كان بعد أن لم يكن، أو وجد ليزول. الموجود بذاته لا يتبعض ولا يتذرى، وإلا فأي أبعاضه الجامع لشتاته، الحافظ لمتفرقه؟ وهل في آحاد الكائنات جرم لا يتبعض ولا يتذرى، سواء أكان نوية أم خلية، أم كان بعض أجرام الفلك؟

يزعم غير المؤله أن هذا الكون لا يحتاج في تبرير وجوده إلى علة إيجاد من خارجه، فإن حاججته فحججته، ظن أنه أفحمك بسذاجته: إذا كان لا بد لهذا الكون من موجد، فمن ذا الذي أوجده؟ يجعل الموجود بذاته كالموجود بغيره، فيشترط علة للخالق، وهو لم يشترط علة للمخلوق، فصار محجوجًا بذات منطقه. تعالى الواحد الأحد: الواحد لا إله معه، الأحد في ذاته لا يتبعض ولا ينقسم. تلك الأحدية هي أدل صفاته، الموجود بذاته، الغني عما سواه، وتلك بعض معاني قوله عز وجل متحدثًا عن نفسه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾[1].

بل الكون دال بذاته على مبدعه ومدبره، ولو أنصف طالبو المعجزات لأدركوا أنهم يسبحون في بحر إعجاز دائم، ولما كانت بهم إلى الرسل من حاجة، لولا فضل من الله ونعمة، يذكر الناسي، فينتبه الغافل، ويزدجر العابث اللاهي.

ثمة أيضًا فريق ثان يتفلسف فيتكئ في كرسيه ويقول لك: نعم، لهذا الكون موجد، نعتبره ضرورة منطقية تفرض نفيها علة للإيجاد من خارج الزمان والمكان. إنه عندنا مبدئ هذا الوجود، أوجد هذا الكون وبث فيه قوانينه، ثم تركه وانصرف لبعض شأنه، لا حاجة به

(١) سورة الإخلاص، الآية: ١.

إلينا، ولا حاجة بنا إليه، فالكون آلة صنعها صانع ما، وأدارها فدارت، ولا تزال تدور، وهي مبرمجة بقوانين مبثوثة في هذا الكون منذ بدأ، لا يتدخل فيها أحد إلا انفرط نظامه، ولا يملك الصانع نفسه تعديلها إلا بعد أن يوقف الآلة عن الدوران. ونحن نعيش هذا الكون ما دام لنا، وما دمنا فيه لا يعنينا ما يكون من بعد، فلن نشهد النهاية، إن كان ثم نهاية. فما معنى الوحي إذن؟

ولا منطق أيضًا في هذا القول ولا علم: الصانع رقيب حافظ. وفي هذا الكون طائع، ذلول، مسخر، وفيه أيضًا عاص، مارد، متأبٍّ، وكلاهما مقهور. يضع هذا القائل نفسه خارج الكون، يشهد له بالصنعة، وينبهر بالنظام، وينسى نفسه، وفي خلقه هو نفسه الشاهد البين: ألا يعتل منه عضو فيطببه؟ ألا تهيج به نزوة فيكبتها؟ ألا يُبْتر له ساق قاحت أو غدة تورمت؟ ألا ينهى النفس عن الهوى إن غوت؟ ألا يؤدب ابنا عصى؟ ألا يرد إلى سواء الصراط مجرمًا عن الصراط خرج؟

على أن قضاء الله في كونه نافذ، واعتلال هذا القائل بثبات القوانين الكونية مقبول، والمعجزة تدل عليه ولا تنفيه: ليست المعجزة تعطيلًا لقوانين الكون وإلا لانفرط نظامه، وليست مجرد تعطيل لقانون كوني ما في نقطة ما من الزمان والمكان مع ثباته في غيرها: انشق البحر لموسى في موضع ما، برهة ما، ثم عاد كما كان، وانشق قبر ما، عن (لعازر) بعينه، الذي عاد فمات. ليست المعجزة سلبًا محضًا يشل القانون الكوني أو يعادله فيبطله، ولكنها (فعل محض): لم تخمد جاذبية الأرض فينداح الماء عن موضعه، ولكنه جبذ ورفع، كل فرق كالطود العظيم، ولم ينهدم القبر فوق لعازر، وإنما انشق عنه، لم يسكن النفَس في صدر لعازر، وإنما أعيد إليه. المعجزة فعل محض، والقوانين الكونية قوى مأمورة، في ثباتها آية، وفي قهرها آية، وفي خرقها دليل الحضور، ودليل الهيمنة، ودليل القدرة.

لمثل هذا القائل تنصب الآيات والنذر، ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾[1].

أما الفريق الثالث، فهو فريق متعالم ينكر الوحي جملة؛ لأنه ينكر من منطلق (علمي) أن

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

يكون للطبيعة (فوق). تلك عنده تهاويم وخيالات، ومن ثم فلا وجود عنده إلا لما هو مادي تدركه الحواس. أما إن كان ثمة غير مادي وغير محسوس لم نكتشفه بعد، فلن ينكشف لنا؛ لأن الصلة بين المادي وغير المادي مقطوعة، لا يتواصلان، ولا يؤثر هذا في ذاك لاختلاف الطبيعة والتكوين، فالوحي إذن محال.

وقد أفلس هذا الفريق (علميًّا) منذ قرن في المعامل والمختبرات، وكان جديرًا به أن يفلس منذ قرون لولا تفيهق الآخذين عن فلاسفة اليونان: انحلت نواة المادة إلى (طاقة) بحت، أي أن المادة إن فنيت تلد الطاقة. فالمادة إذن طاقة (تشيأت)، أي صارت (بالمشيئة) شيئًا ماديًّا ما. وليس صحيحًا، بل العكس هو الصحيح الثابت المشاهد المختبر، ما يقال من أن غير المادي لا يعمل في المادي، بل المادي لا يتأثر إلا بغير المادي، أي بالطاقة، والطاقة قوة، والقوة هي تعريفنا القاصر لفعل غير مسمى الفاعل، نلمس فعله، ولا نلمسه هو، ليس المادي المتشيئ هو وحده الموجود، وإنما كان قبل أن يتشيأ هو عين الوجود، أي من أمر الله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

لماذا أعضلت (مسألة الوحي) على هذا الجاهل المتعالم، يدعي (العلمية) ولا يتابع كشوف العلم الحديث؟

لماذا يعجب (للوحي) ولله المثل الأعلى، ولا يعجب لرسائل صوتية أو مرئية تنتقل إليه عبر مويجات أثير تسبح في أجواء الفضاء؟

والمويجات - وقد علمت - طاقة.

أما إن تعمقت، فقد علمت أن ذرات المادة - أية مادة - ليست بمادة، وإنما هي فحسب مجموعات قوى ومقاومات، رتبت على نسق ما، وعدد ما، لا تفترق مادة عن مادة إلا بهذا العدد وهذا الترتيب، ذهبًا كانت أو حديدًا.

إنها حتى في صورتها المادية طاقة.

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

انهدمت (المادية) على رءوس أصحابها، فهل بقيت للمتنطع حجة؟

في تفجير الذرة آية.

* * * *

أما المؤمنون بالله، فهم يسلمون بوحي الله على رسله، ولكنهم يطلبون الآية. ومن يطلب الآية فقد لزمته الآية.

ثمة من يطلبون الآيات تعجيزًا، فإن جاءتهم الآيات كفروا بها: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[1]

وثمة من يطلبون الآيات تصديقًا، فلما جاءتهم الآيات زادتهم الآيات إيمانًا: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[2].

ومن الناس أيضًا من يستجيبون للرسول لحظة يدعوهم، ولم يروا الآية: إنهم نواة الدعوة، ومعدن الرسالة. أولئك يقذف الإيمان في قلوبهم وكأنه وحي يوحى، كما قال عز وجل في شأن الحواريين: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[3].

ربما طلبوا الآية بعد ذلك، ولكنهم يطلبونها تصديقًا وتثبيتًا، ثم يكونون عليها من الشاهدين، كما قال الحواريون عندما سألوا الله مائدة من السماء على يد عيسى: ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[4].

طلبوا الآية فلزمتهم الآية، لا عذر من بعدها ولا معذرة، كما تجد في قوله عز وجل لحظة نزول المائدة من السماء: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[5].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٣.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١١٥.

لزمت المعجزة من طلبها ومن عاينها.

وبقى التصديق بالمعجزات امتحانًا لصدق إيمان من لم يطلب ولم يعاين، شهد عصر الرسالة، أو جاء بعد من شهدوه.

وهو امتحان عسير لمن لم يشهد ولم يعاين.

حتى جاء رحمة الله للعالمين، محمد ﷺ، بالآية الدائمة التي يستوي فيها الشاهد والغائب، فلزمت الخلق أجمعين حتى قيام الساعة.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ليس بعد القرآن آية.

* * * *

لم يمتحن الله عز وجل الناس بالمعجزات على يدي خاتم النبيين، وإنما امتحنهم على يديه بالحق: الصدق والتصديق.

لم يكن ﷺ يصنع الآيات، وأنما كان يتلوها.

حتى معجزته الكونية الكبرى، رحلته ما بين مكة وبيت المقدس إلى سدرة المنتهى في مدة من الليل، لم تكن معجزة على أعين الناس، وإنما كانت معجزة بينه وبين ربه، ليريه هو من آياته الكبرى.

أراد الله لختام رسالاته الإعجاز الدائم، فاختار له (الكلمة). والكلمة تسمعها، وتتصفحها، وتعود إليها: إنها معك في كل حين، تدوي في أذنك، ماثلة في سمعك. تستطيع أن تقول: لا أومن لأنني لم أر موسى يشق البحر، ولم أر عيسى يحيي الميت. ولكنك لا تستطيع أن تقول: لا أومن لأنني لم أر محمدًا يتلو هذا القرآن، فهذا هو القرآن أمامك، لا شأن لك بمن قاله، اسمعه، تصفحه، امتحنه! إنه الحق، ومن الحق نزل.

(١) سورة المرسلات، الآية: ٥٠.

استجاب الله بمحمد دعوة أبيه إبراهيم عليهما أزكى الصلاة وأتم التسليم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾[1].

سأل إبراهيم ربه أن يبعث في المؤمنين رسولًا لا يصنع الآيات، وإنما يتلوها.

ولأمر ما سمى الله الجملة من القرآن آية: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾[2].

هذا (الحق) هو لب إعجاز القرآن ومادته: لا تقرأ في القرآن إلا حقًّا، ولا تجد فيه إلا الحق أخبر عنه أو أنبأ به، ما كان وما يكون. إنه الصادق المصدوق في كل حال.

والحق المطلق يقتضي العلم المحيط، علم المبدأ والمنتهى، علم من لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، علم من هو بكل خلق عليم.

وليس إلا الحق جل جلاله، بكل شيء عليم.

ولكن لماذا خاطب القرآن الناس بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله؟ لماذا يصف لهم السحاب بأنه جبال في السماء من برد [النور: ٤٣]، ولم يركبوا بعد طائرة تحاذي السحاب الثقال ليروه كما قال؟ لماذا يتحدث عن تزامن الليل والنهار على سطح الأرض، نصف مظلم ونصف مضيء، تأتي الناس الساعة بغتة فتصيب المُنهر والمُليل[3] [يونس: ٢٤]؟ لماذا يرى الناس السماء سقفًا ككل السقوف ويقول لهم إنها غاز وسديم ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[4]؟

لماذا يخوض في حقائق الكون ولا يتكشف للناس منها - يومًا بعد يوم - إلا النزر اليسير؟

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١.

(٣) أنهر القوم: صاروا نهارًا. وألالوا: عكسه، أي: صاروا ليلاً.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١١.

أليس لأن المنكرين الوحي على القرآن يتحداهم القرآن بالعلم؟

فهل تحقق لهم في الكون بالدليل الثابت علم يعارض حقائق القرآن؟

هل سبقوا القرآن، أم سبقهم القرآن بالقول الثابت؟

أليس تصديق المنكر بعد تكذيب يقتضي أن يتحقق له - عصرًا بعد عصر - علم جديد يعاجز به القرآن فيعجزه القرآن؟

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾(1) ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(2).

وهذا هو الإعجاز الدائم.

* * * *

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾(3)، وقال أيضًا: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾(4)، وقالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(5)، وقالوا: ﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾(6).

وكل ما لفقه أدعياء الاستشراق في تكذيب القرآن يدور حول هذه النقاط الثلاث:

(1) محمد حالم مخلط أو مصروع، تهيج به الخيالات والرؤى يحسبها وحيًا من السماء ألقي إليه.

(2) ما زاد محمد في أساطير قرآنه على ما كان يتناقله في زمنه رواة الأخبار والأساطير.

---

(1) سورة يونس، الآية: ٣٩.

(2) سورة الأنعام، الآية: ٦٧.

(3) سورة الفرقان، الآية: ٤.

(4) سورة الأنبياء، الآية: ٥.

(5) سورة الفرقان، الآية: ٥.

(6) سورة الدخان، الآية: ١٤.

(٣) استعان محمد في كتابة قرآنه بمن سبقوه، وخاصة أهل الكتاب، أصحاب التوراة والإنجيل.

وتعجب لأدعياء العلم هؤلاء كيف كتبوا ما كتبوه، وكيف يجوز على عاقل أو مجنون؟ أكتبوا ما كتبوه دون أن يقرأوا حرفًا من القرآن؟ أم كتبوا ما كتبوه تضليلًا لمن لا يقرءون؟

وهل يحلم المصروع؟ هل يلقن المجنون؟ وكيف يأتي بأعظم مما لقنوه؟ كيف لقنوه ما ليس لهم به علم ولا لآبائهم الأولين؟ كيف يكتتب الأساطير وهو الناعي على رواة الأساطير؟ كيف يلقنه أهل الكتاب ما يعارض به التوراة والإنجيل فيخطئان ويصيب؟

أين القرآن من كلام حالم أو مصروع؟ أين القرآن من أحاديث الرواة؟ أين القرآن من كل ما بين يديه من كتاب؟

القرآن معجز بذاته، وكل مقارنة بينه وبين الكتب التي سبقته ظلم ظلوم، وجهل مبين.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1].

ليس هذا بحثًا في وجوه إعجاز القرآن، فوجوه إعجاز القرآن بحر لا يدرك ساحله، وإنما هو مبحث وجيز في وجه من وجوه إعجاز القرآن جديد، لم أقع عليه فيما كتب المفسرون.

إنه العلم الأعجمي في القرآن مفسرًا بالقرآن.

والقرآن يفعل هذا غير مسبوق، لأنه يفسر ما يفسره على علم، وغيره يخطئ ويصيب.

وهو يفعله فعل الواثق المتمكن مما يقول، وإن خالف نصوص أهل الكتاب وأقوال شراح التوراة والإنجيل.

وهو يفعله أيضًا غير محتاج إليه، يلزم نفسه ما لا يلزمه، ويتصدى لما ليس من شأنه، فيزج بنفسه في مزالق الزلل كما وهم خصومه المنكرون عليه.

ما حاجته إلى تسمية أبي إبراهيم، فيسميه (آزر) وهو في التوراة (تارح) أو (تيرح) (بكسر

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

التاء وإمالة الياء)[1] في لفظه العبري الآخر؟

لماذا يقول: (عيسى)، والمسيح في الإنجيل (يسوع)؟

لماذا ينص على (إدريس)، وسميه في التوراة (أخنوخ)، (أو حنوخ قبل تعريبها إلى أخنوخ)؟

لماذا يقول (يحيى)، وهو يريد (يوحنا)؟

يفعل القرآن هذا لأنه المصدق المهيمن، يصدق ما صدق في التوراة والإنجيل، ويفصل فيما كانوا فيه يختلفون.

* * * *

أما كيف يفسر القرآن أعلامه الأعجمية، ومعظمها عبراني، فهذه هي مادة البحث الذي أضعه بين يديك راجيًا من الله التوفيق.

وأما كيف تسنى للقرآن تفسير ما يرد فيه من الأعلام الأعجمية؛ فهذا لأن منزله عز وجل هو العليم الخبير القائل بكل اللغات، الذي علم آدم الأسماء كلها، الذي اختلاف ألسنة الناس من آياته، الذي أنطق بها خلقه، إنه واضعها وملهمها.

وأما كيف هداني الله إلى موضوع هذا البحث، فهي بارقة إلهام، ليس لي فيها من فضل، وإنما الفضل كله لله سبحانه، يؤتيه من يشاء حين يشاء.

اللهم اهدنا واهد بنا، وزدنا ولا تنقصنا.

ربما استوقفك - كما استوقفني مرارًا - ذلك الجرس الجميل، والنغم العذب، من قوله عز وجل في مفتتح سورة مريم: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[2].

(١) إمالة الياء يعني إسقاطها نطقًا والاستعاضة عنها بمد كسرة ما قبلها، كما في (ليش) و(ليه) العاميتين. وعلماء القراءات يسمونها ألفًا ممالة، ترسم في المصحف ياء بدلًا من الألف، يكسر ما قبلها بعد أن كان مفتوحًا وتمد كسرته، كما في (مجريها ومرساها).

(٢) سورة مريم، الآيتان: ١ - ٢.

أرأيت إلى تلك المشاكلة بين (ذكر) العربية، وبين ذلك الاسم الأعجمي العبراني، اسم النبي زكريا عليه السلام.

أهو مجرد جناس لفظي يراد به التناغم الذي تلحظه في كل القرآن؟

أهو الجرس الفخم الذي لا تفوت أذنك موسيقاه في القرآن المكي خاصة والذي يأخذ بلب السامع المنفتح القلب والأذن أيًا كانت عقيدته في القرآن؟

أم هي مصادفة بحتة؟

كلا، ليس ثَمَّ مصادفات في القرآن، إنه يريد المعنى فيختار الكلمة والحرف. لن تستطيع مهما حاولت إبدال كلمة بكلمة أو حرف بحرف. ولن تستطيع تقديم أو تأخير لفظ، إذن لاختل المعنى وانفرط النظم. وهذا من وجوه إعجاز القرآن. النسق القرآني نسيج وحده، لا يستطيعه إلا منزله عز وجل. وكل كلام منسوق على غير نسقه ليس بقرآن.

إن أردت الدليل فهاكه: كان محمد ﷺ ألهج الناس بالقرآن، ولكنك تستطيع دون عناء أيًا كان حظك من القرآن أن تميز على الفور بين (الحديث النبوي) وبين الآية من القرآن. و(الحديث القدسي) حديث من الله عز وجل، ليس بعبارة القرآن وليس على نسق القرآن. وفي التوراة والإنجيل كلام من الله عز وجل غير منسوق على نسق القرآن، أريد للقرآن أن يكون (قرآنًا) وكل ما عداه أيًا كان قائله ليس بقرآن.

هذا النسق القرآني ليس مرادًا لذاته فحسب، ولكنه مراد بموسيقاه، مراد بمعناه.

ترى ما معنى اسم ذلك الشيخ الجليل، (زكريا) عليه السلام، في اللسان العبراني؟ لا بد لهذا الجناس الجميل بين (ذكر) العربية و(زكريا) العبرية من معنى.

وكان لا بد لي من دراسة اللغة العبرية لهذا الغرض بالذات، فماذا وجدت؟

(زكريا) في اللسان العبراني معناها حرفيًّا (ذاكر الله)!

وكأنه عز وجل يقول: ذكرَ اللهُ ذاكرَ اللهِ، أو ذَكَرَ اللهَ فذكره، أو ذكرَ اللهَ فذكرته رحمةُ اللهِ!

ليس الجناس اللفظي وحده هو المقصود، بل تلك المقابلة التي تفتق لك بحور المعاني.

ليس بعد هذا الجمال جمال.

❋❋❋❋

ولمعت في خاطري بارقة إلهام: في هذه الآية الكريمة آية!

أيفسر القرآن أعلامه الأعجمية بإيراد معناها على التجاور في ثنايا الآية؟

وكانت المفاجأة الكبرى: نعم! هذا يطرد في كل القرآن، لا يكاد يخلو علم أعجمي في القرآن من النص على ترجمة معناه في سياق الآية ترجمة دقيقة مطابقة، ولكنك تمر عليها دون أن تفطن لها؛ لأن العبارة التي تعطيك معنى الاسم الأعجمي عبارة من نسيج الآية، معناها مطلوب لذات الآية، والترجمة إضافة، تظنها جاءت عرضًا، وهي دليل العلم ودليل القدرة.

وكان هذا الكتاب.

❋❋❋❋

على أن تفاسير القرآن الكريم - وأوسعُها وأشملُها تفسير الإمام القرطبي **الجامع لأحكام القرآن** - لا تخلو من محاولة تفسير معاني الأعلام الأعجمية في القرآن، وأخصها أسماء الأنبياء من آدم إلى عيسى عليهم وعلى نبينا أزكى الصلاة وأتم التسليم. ولكن المحاولة لم توفق لأن المفسرين كانوا يبنون على افتراض الأصل العربي لأسماء الأنبياء جميعًا، فيزِنُون هذه الأسماء على الوزن العربي، ويشتقون من جذر عربي، فيخلصون إلى نتائج أبعد ما تكون عن معنى الاسم الأعجمي في لغته. خذ مثلًا اسم النبي (يونس) عليه السلام: قد تظن أن السين فيه أصلية، فتحسبه من (ونِس)، وكأنها لغة في (أنس)، فتنتهي إلى أن (يونس) ربما تعني (مؤنس) أو شيئًا قريبًا من هذا. ولكنك متى علمت أن السين في (يونس) زائدة،

وأنها علامة الرفع في اليونانية، لغة الأناجيل، وأن (يونس) أصلها (يونا)، ومعناه الشائع في العبرية (حمامة)، أدركت على الفور أن الفرق بين المعنيين بعيد.

ولكنك لا تستطيع مهما حاولت أن تغمط حق هؤلاء الجهابذة الأعلام فيما بذلوه من جهد يعز نظيره في البحث والجمع والتمحيص. ربما ابتسمت إشفاقًا وأنت تقرأ في تفسير القرطبي ما يروى من أن فرعون موسى كان اسمه (الوليد بن الريان)، فتظن الرعونة بهذا الراوي الذي يستخف بعقلك فينتحل لك أسماء عربية لفراعنة مصر. ولكنك لا بد ينفثئ غلك حين تعلم أن (فرعون) الذي يعنيه الرواة هو (رعمسس)، (أو رمسيس كما نكتبها نحن الآن)، وأن (رعمسس) اسم مركب: رع + مسس، وأن (مسس) في المصرية القديمة تعني (وِلْد) أو (وليد) أو (ابن)، أما (رَعْ) فهي الإله (رَعْ) رمز الشمس أي أن رعمسس المصرية القديمة تعني حرفيًّا: ولد رع، ولم يبعد الراوي حين عرب (مسس) إلى (وليد) وحرَّف (رع) إلى (الريان)، أما (ابن) في (الوليد بن الريان) فهي حشو. وليس كل ما قال الرواة محض عبث، وإنما عليك باستصفاء الذهب من التبر. كان رمسيس إذن هو فرعون موسى فيما تناقله الرواة إلى عصر القرطبي. وكما نرجح نحن الآن.

ولم توفق أيضًا محاولة المفسرين تفسير الأعلام الأعجمية في القرآن؛ لأنه قل من كان منهم يتقن اللغة العبرية التي اشتقت منها غالبية العلم الأعجمي في القرآن، ناهيك بالمصرية القديمة التي وردت منها ألفاظ في القرآن مثل (فرعون)، بل و(موسى) عليه السلام، كما سترى في هذا الكتاب، كان المفسرون يعتمدون على أمانة من نقلوا عنهم من أهل الكتاب، وقليل منهم من حمل الأمانة فأداها على وجهها، أما أكثرهم فكانوا كما وصفهم عز وجل: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾[1].

على أن الجديد الذي وفقني الله إليه في هذا الكتاب الذي بين يديك ليس هو ترجمة معاني الأعلام الأعجمية في القرآن من معاجم اللغات الأعجمية، هذا جهد يستطيعه من يحاوله، بل هو مبسوط منثور في بطون الكتب.

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

الجديد في هذا الكتاب الذي نكتب هو ترجمة معاني تلك الأعلام، من القرآن بالقرآن، وتصويب معاني تلك الأعلام لدى أصحابها، من القرآن بالقرآن.

وهذا هو السند الأعلى. ولله الفضل من قبل ومن بعد.

المؤلف

محمود رؤوف عبد الحميد أبو سعدة

الفصل الأول

أعجميٌّ وعربيٌّ

(١)

هل وردت في القرآن ألفاظ أعجمية؟

كيف، والمنزل عليه القرآن عربي، والمنزل إليهم القرآن عرب؟

أليس تبعث الرسل كل بلسان قومه؟ فكيف يفهمون عنه؟ كيف يتم البلاغ؟ كيف يصح التكليف؟ أيمشي الرسول غريبًا في قومه، يتوكأ على مترجم يفسر ما يقوله للناس؟

قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[١]، أي كما أنزلنا التوراة عبرانية على موسى العبراني فكذلك القرآن، عربيًّا على عربي.

وكأن من أهل الكتاب من تعاظمه أن يخاطب الله الخلق بغير العبرية، لغة التوراة، فقال جل شأنه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[٢].

****

أما أن القرآن عربي، فهذا عين الحق، ليس هذا فحسب، بل إن عربية القرآن شاهد على عربية العرب، لا العكس، لا يصح لها فصيح متفق عليه إلا الوجه الذي نزل به.

وأما أنه قد وردت في القرآن ألفاظ أعجمية، فهذا حق أيضًا، ولكنه لا ينتقص شيئًا من عربية القرآن، وإنما هو يجليها، كما سترى في مباحث هذا الكتاب.

****

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

وليس القرآن عربيًّا فحسب، وإنما هو عربي مبين، تجد النص على هذا في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1].

ولفظ (المبين) حيثما ورد في كل القرآن - وقد ورد لفظه نعتًا للمعرفة والنكرة ١١٩ مرة[2] - لا يعني الإفصاح والإبانة، وإنما يعني حيث ورد، تأكيد اكتمال تحقق الصفة في الموصوف. إليك بعض الأمثلة، وعليك بالباقي في مواضعه من المصحف:

- ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[3]، أي ثعبان حق، لا شك في ثعبانيته.
- ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[4]، أي هو العدو يقينًا، لا خفاء لعداوته.
- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[5]، أي أن صلح الحديبية وإن تجهمه أول الأمر بعض أجلاء الصحابة، ليس فتحًا فحسب، وإنما هو فتح حق، ليس له إلا هذا الاسم.
- ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾[6]، يصف نفسه تباركت أسماؤه، أي هو عين الحق جل جلاله، لا يماري فيه أحد.

من هنا تدرك أن وصف لغة القرآن بأنها لسان عربي مبين، يعني أنه بلسان عربي بَيِّن العربية، أو هو حق العربية، لا يماري في عربيته إلا جاهل بالعربية نفسها.

* * * *

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢ - ١٩٥.

(٢) راجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي، طيب الله ثراه، وأجزل ثوابه، بما قدم لدارسي القرآن الكريم.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٠٧.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٥) سورة الفتح، الآية: ١.

(٦) سورة النور، الآية: ٢٥.

وليس القرآن عربيًّا مبينًا فحسب، وإنما هو القول الفصل: قمة البيان، وذروة الإبانة.

والإبانة شرط لا بد منه لتمام البلاغ والتبليغ.

وهي بالذات شرط لا بد منه لبلاغ خاتم، كمل به وحي السماء، ليس بعده مستدرك.

وهي أيضًا شرط لا بد منه لرسالة تخاطب الكافة، لا مكان فيها لمُتنطِّس أو متحنث، ولا تعويل فيها على كهنوت أو كهانة.

وهي أخيرًا شرط لا بد منه لرسالة لا تطلب التصديق فحسب، وإنما هي بالدرجة الأولى رسالة تطلب العمل على مقتضى هذا التصديق.

ولا يصح تكليف بغير إبانة.

لهذا فقد برئ القرآن من العجمة والعوج.

والالتفات إلى هذه النعمة واجب، وشكرها أوجب.

فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[1]، كما علمنا الحق أن نقول، جل ثناؤه.

* * * *

وقد امتن الله على العرب بالقرآن، وأكرم بها منة أن يكون لسان القرآن لسانهم.

قال عز وجل يقسم بالقرآن: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[2].

وقال جل شأنه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3].

وقال أيضًا تباركت أسماؤه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[4].

(١) سورة الكهف، الآية: ١.
(٢) سورة ص، الآية: ١.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

والذكر في هذه المواضع الثلاثة جميعًا يعني (الشرف).

نعم، شرفت العربية بالقرآن، وشرف أهلها.

والشرف أمانة، أداؤها أن تعرف حقها، وإلا فأنت بها مأخوذ. كما قال عز وجل: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ في الآية التي قرأت توًا.

❋ ❋ ❋ ❋

وقد تتساءل: كيف استحقت العربية هذا الشرف؟

لا يكفي أن تقول نزل القرآن عربيًا لمجرد أن المنزل عليه القرآن عربي والمنزل إليهم القرآن عرب.

بل هو تقدير العليم الخبير، الذي لا يمضي أمرًا إلا أحكمه.

إنه عز وجل يصطفي لرسالته الرسول، ويصطفي لرسوله الجيل الذي يحمل الرسالة، ويصطفي لخاتم رسله البقعة التي تنطلق منها الرسالة إلى أقاصي الأرض.

وهو أيضًا جل شأنه يصطفي لرسالته الأداة، وأداة الإسلام هي هذا القرآن الناطق بالعربية.

فكيف وسعت العربية هذا القرآن؟ كيف حملت وقره؟ ما تلك الحضارة التي أنضجت تلك اللغة، واللغة كما تعلم هي نضاج الحضارة؟ وهل كانت للعرب قبل القرآن حضارة؟ فمتى اكتمل لها نحوها وصرفها وإعرابها؟ متى تهيأ لها شعراؤها وخطباؤها وفصحاؤها؟ بل كيف فهم العرب عنه؟ كيف تذوقوا حلاوته؟ كيف سلموا بإعجازه؟

الحق أن العربية هيئت تهيئة لتلقي هذا القرآن، وزينت تزيينًا لتليق به، وأنضجت إنضاجًا لتكون وعاءه، وأحكمت إحكامًا لتعبر عنه، فما نزل القرآن إلا وقد تهيأ لها هذا كله ضد منطق التاريخ ومنطق الحضارة.

وتلك وحدها معجزة، وليس شيء على الله بعزيز.

لم تكن العربية وقت نزول القرآن، بمستواها هذا الفني المحكم، لغة كتابة، فقد أريد للقرآن أن يكون (قرآنًا).

كانت العربية وقت نزول القرآن، بمستواها هذا الفني المحكم، لغة الخطاب اليومي، لا لغة يصطنعها فحسب أهل الفكر والفن والأدب، ولم تكن بمستواها هذا الفني المحكم لغة الخطاب لدى الصفوة من سادة قريش فحسب، بل كانت هي لغة الخاصة والعامة.

وهذا هو أصلًا معنى اللغة: لا تلتمس في المدونات وبطون الكتب، ولا تهمهم بها الأقلام وتحبر الصحف، وإنما اللغة هي التي ينطلق بها اللسان سجية، فتبصر بها العين، وتسمع الأذن.

وكان هذا - كما مر بك - ضروريًّا لرسالة تخاطب الكافة، لا تعويل فيها على متحنث أو متكهن.

* * * *

على أن في العربية خصائص لغوية وبيانية وموسيقية، قل أن تجتمع لسواها.

إنها لغة الإيجاز البليغ، والسلم الموسيقي الكامل.

لغة اجتمعت لها كل الحروف، وصحت المخارج: لا تندغم في الحلق، ولا تتآكل على أطراف اللسان، ولا تتحور في ذبذبات اللهاة. فيها ما يقرع السمع عنيفًا، وفيها الدمث اللين، وما بين بين.

لغة غَنِيت حروفًا، فغنيت جذورًا، لا تعرف اللواصق من رواكب وروادف، وفي غيرها ينوء جذر اللفظ بأوزاره، فيغيم المعنى في ضباباته. أما هي، فتنحت الألفاظ والأوزان للمعنى وضده، وللمعنى وقريبه، وللمعنى والمشتق منه، وللمعنى والمتداخل معه. ما إن يقع بصرك على اللفظ حتى يستعلن لك بكل معناه ودلالاته.

لغة تفننتْ في أوزانها، ونوعت في تراكيبها طرائق شتى. تمد بالإعراب أواخر الكلم،

تَهمِز وتُسهِّل، وتصل وتقف، وتنون وترخم، فما استعصى عليها نغم.

وتلك كلها خصائص قرآنية.

* * * *

وقد أفاد القرآن من العربية، وأفادت العربية من القرآن. ولكن الذي أفادته العربية من القرآن أضعاف الذي أفاد القرآن:

جمع مادتها، وأحكم نحوها وصرفها وإعرابها، ورسم لها نموذجها الأعلى. ليس هذا فحسب، بل تكفل الله بحفظ القرآن، فكفل لها القرآن حياتها، ونماءها، وبقاءها.

وقد مضى على نزول القرآن بالعربية أربعة عشر قرنًا، بادت خلالها لغات وتحورت لغات، ولا تزال العربية وحدها تعيش، بنصاعتها الأولى.

وليس لهذا - كما يعرف أهل العلم - نظير في كل اللغات قديمها وحديثها.

وأما الذي أفاده القرآن من العربية فهو - كما مر بك - أنها اللغة التي هيئت له، لا يصلح إلا لها.

ولسنا هنا في مقام المفاضلة بين لغة ولغة، فاللغات كلها من آيات الله سبحانه.

ولكن الذي لا يتوقف عنده كثيرون، وربما قل من يفطنون إليه، هو أن اللغة العربية - عصر بدء نزول القرآن في مطلع القرن السابع للميلاد، على قلة الناطقين بها يومذاك - كانت هي دون منازع أرقى لغات العالم القديم، ليس فحسب أرقاها بلاغة وفصاحة وجمالًا، وإنما أيضًا، وبالمقياس اللغوي البحت، أرقاها دقة وكمالًا.

لم يكن ينقصها لتصبح اللغة العالمية الأولى يومذاك، إلا أن تتجاوز حدودها الجغرافية السياسية الضيقة، فتشيع بين الناس في المشارق والمغارب.

وقد تكفل القرآن بذلك.

(٢)

بدأ نزول القرآن على خاتم النبيين ﷺ ليلة القدر من رمضان عام ١٣ قبل الهجرة (٦٠٩م) مطلع القرن السابع للميلاد، قبيل انقضاء ستة قرون على رفع المسيح عليه السلام[1]. ليس بينهما نبي.

كانت حضارات العالم القديم كلها آنذاك قد تهاوت، وآذنت الدنيا بميلاد جديد.

وهي قد تهاوت لأن العمالقة أكل بعضهم بعضًا، وكانت ساحة الصراع هي هذا الشرق الأدنى القديم.

لم يكن الصراع يدور على فكر أو على خطة لحياة، فقد تداخلت الأفكار والمذاهب، وتشاكلت الضلالات هنا وهناك، وإنما كان الصراع يدور على الأسلاب والغنائم، وكان الأسلاب والغنائم هم أهل هذا الشرق الأدنى القديم.

لم يكن لدى الغزاة شيء يفتحون به على أهل الأقطار المغلوبة، ولم يبق لدى المغلوبين شيء يقدمونه للغزاة.

ولكن الصراع بين العمالقة الآريين الثلاثة: الفرس والإغريق والرومان، أو اختصارًا بين الفرس والروم، لا ينفك يدور، لا تضع الحرب أوزارها إلا لالتقاط الأنفاس بضع سنين. وهي حرب عبث، سواء على التاريخ قامت أم لم تقم، فالغالب اليوم مغلوب غدًا، لا يعنيك أي الفريقين أدال من الآخر، ولمن كانت الدائرة في الحرب اليوم، فالدائرة على الجميع: إنهم يخربون بيوتهم بأيديهم ويأتون على ما بقي من أطلال حضارتهم. لا تهتم، فعلى الأنقاض

(١) ولد المسيح عليه السلام سنة - ٤ م على القول الراجح، ورفع وسنه ثلاثة وثلاثون، عام ٢٩م.

سيبنى صرح جديد. تجد إشارة إلى هذا في قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(١)(٢).

احتدم الصراع بين الفرس والروم على ما بقي من أطلال الشرق الأدنى القديم قرونًا، بين كرٍّ وفرٍّ، حتى أجهز عليهم المسلمون في أواسط القرن السابع. ومن قبل أثخن الروم - إغريقًا ورومانًا - بعضهم في بعض، وأتى القوطُ والجرمان على القياصرة في روما، فارتحلوا شرقًا إلى بيزنطة قبل قرنين اثنين من ظهور الإسلام.

اختلط الحابل بالنابل في هذه المنطقة من العالم التي شهدت مولد حضارات البشر، ولم يعد هناك فكر جامع تستند إليه حضارة جامعة جديرة بالبقاء. لم تعد ثم - رغم ما قد تسمعه من شهيق وزفير - إلا حضارة ماتت أو أوشكت أن تموت. ولم يعد ثم - رغم ما قد تسمعه بين الفينة والفينة من هدير وزئير - إلا أسدٌ هرم، تسلخ جلده، وتثرمت أسنانه. وعشي بصره، يرجو رحمة ربه في ضربة إجهاز تريحه من عذابه.

وكان أن أتى أمر الله.

(١) سورة الروم، الآيات: ١ - ٦.

(٢) أما لماذا يفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله، وقد أجهز المسلمون من بعد على الفرس ولم يفلتوا الروم، ولماذا يعد الله المؤمنين بهذا مؤكدًا أنه لا يخلف الله وعده، فليس هذا إيثارًا لأهل كتاب على مجوس، ولا اهتمامًا لشأن المعارك بين الفرس والروم، وإنما هي بشرى للمسلمين بيوم بدر (٢هـ-٦٢٤م) الذي توافق مع كرة الروم على الفرس (٦٢٤م). في الآيات الست إذن نبوءتان: انتصار الروم على الفرس، وانتصار المسلمين على قريش في بدر. كانت النبوءة الأولى توقيتًا لتحقق النبوءة الثانية، لا أكثر ولا أقل، ولكن المفسرين احتفلوا للأولى، ولم يفطنوا للثانية، وبها وحدها تفهم الآيات الست فهمًا متكاملًا. أما (أدنى الأرض) المشار إليها في الآيات، فهي ترجمة قرآنية دقيقة لعبارة (أرض كنعان)، وهي فلسطين؛ حيث كانت المعارك المعنية بين الفرس والروم. (راجع في المعجم العربي مادة كنع، وهي نفسها (كنع) العبرية الآرامية)، ولم يلتفت إلى هذه الترجمة أحد.

أما اللغة - موضوعنا في هذا الجزء من الكتاب - فأنت تعرف بالطبع العلاقة بين موات الحضارة وموات اللغة، فما بادت حضارة قوم إلا بادت لغتهم، أو ذابت في لغة السادة لتعيش بعضًا من حياة، أو تحورت إلى رطانة شائهة هجينة لا تكاد تبين.

متى لم يعد للحضارة فكر تعبر عنه وتعيش عليه، ومثل تدعو إليها وتجاهد من أجلها، فقد خرست الحضارة ولم يعد لديها ما تقول.

إلى هذا آلت اللغات في هذه المنطقة من العالم: تهاوت الحضارة فتهاوت اللغة، ولم يكن في أي من تلك اللغات جميعًا كتاب في عظمة القرآن يعصمها أن تزول.

* * * *

في مطلع القرن السابع للميلاد كانت اليونانية الفصحى التي تغنى بها من قبل شعراء الإلياذة، وكتب بها أمثال أفلاطون وسوفوكل، وخطب بها أمثال بريكليس وديموستين، قد آذنت من قبل بالأفول حوالي مطلع القرن الثالث، ولم يأت القرن السابع إلا وقد آلت إلى يونانية دارجة هجينة، لا على ألسنة العامة فحسب، وإنما أيضًا في الفن والفكر والأدب.

أما اللاتينية الفصحى التي كتبت بها مدونات الفقه الروماني، ونظمت بها إنيادة فرجيل، وخطب بها أمثال شيشرون وقيصر، فقد حذت حذو أختها اليونانية بنفس الترتيب الزمني أو تكاد، فلم يأت القرن السابع إلا وقد تحورت إلى لاتينية دارجة هجينة، بل قل: إلى لاتينيات دارجة هجينة، يلدن من بعد لغات أوربية تقرأ لها الآن، لم يكتمل لها نموها إلا في نحو تسعمائة سنة من نزول القرآن.

لم يبق من اليونانية واللاتينية مطلع القرن السابع للميلاد إلّا أثارة من أطلال مجد قديم، تليق بحضارة ذوت، ولا تتسع لحضارة باذخة توشك أن تولد لتعيش.

تلك الحضارة الباذخة الوليدة كان القرآن شهادة ميلادها، وهو إلى الآن عمود حياتها، وما أوشكت أن تتصدع في مراحل من عمرها إلا لأن أصحاب القرآن أنسوه.

فالحذر الحذر ممن يرفضونه اليوم دستور حياة.

بل في المسلمين اليوم من يعاجزون القرآن، ويختصمونه، ويجادلون فيه، ويحرضون عليه.

بل فيهم - لعنوا بما قالوا - من يشاقون الله ويسبون رسوله.

بل فيهم - ويا للعار - من لا تحمر له أنف، وإنما يسخر قلمه للدفاع عن هؤلاء وهؤلاء بدعوى حرية الرأي والفكر.

ولو شاء الله لمسخهم على مكانتهم[١].

كفاهم نقمة - بحربهم القرآن - أنهم حرموه.

وكفاهم ذلة أن طمس الله على عقولهم وبصائرهم فلا يرون ما آلوا إليه بذنبهم: رد الله وجوههم في أقفيتهم، وجعل منهم الببغاء والقردة.

ولكن هذا حديث آخر، نتصدى له في كتاب آخر، ليس موضعه هذا الكتاب.

* * * *

أما في الشرق الأدنى القديم ما بين مصر وفارس، مهبط الرسالات، وموئل الحضارات التي سبقت الفرس والروم، فقد اختلط الحابل بالنابل:

في مصر تصدعت - بانهيار دولة الرعامسة[٢] حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد - حضارة شامخة زهت نحو ألفي سنة (٣٢٠٠ ق م - ١٢٠٠ ق م)، وآذنت بأفول لا رجعة منه؛ تعاور مصر الغزاة من شرق وغرب، ومن شمال وجنوب، نهبًا للرائح والغادي، جائزة لمن غلب، إلا هبَّات هنا أو هناك، وجذوة خامدة تريد أن تتوهج وسرعان ما تنطفئ،

(١) على مكانتهم: يعني وهم في مكانهم لم يبرحوه، أي: من فورهم ولحظتهم.

(٢) الرعامسة جمع رعمس، أو رمسيس كما نكتبها نحن الآن.

حتى غدت مصر ولاية فارسية منذ ٥٢٥ ق م على يدي قمبيز وخلفائه، ثم إقطاعة يونانية لخلفاء الإسكندر (٣٣٣ ق م)، ثم ولاية رومانية (٣٠ م) للقياصرة في روما، ارتحلت تبعيتها معهم إلى بيزنطة (٣٩٥م)، ولم يبق من المصريين إلا الحجر، وإلا مياه النيل تجري تهمهم بما كان.

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾[1].

ترى هل بقيت للمصريين في مطلع القرن السابع للميلاد أثارة من لغة حضارتهم الأولى التي درست؟ هي بقي لديهم شيء من تلك اللغة الفصحى التي ترنم بها أخناتون من قبل ابتهالات وتسابيح؟ هل بقي لديهم شيء من تلك اللغة الفصحى التي حاور بها فرعون موسى وهارون؟[2] وهي لم تكن لغة أهل البلاط فحسب، وإنما كانت هي نفسها اللغة التي قرع بها السحرة أسماع فرعون وملئه[3]، يستعلنون بإيمانهم على رغمه، فيودعون الدنيا ويستقبلون الآخرة بخطبة بليغة تقشعر لها الجلود وتخشع الأسماع والأبصار؟

أنت بالطبع تعرف الجواب: باندثار الحضارة تندثر اللغة، لم يبق من المصريين في مطلع القرن السابع من يتكلم المصرية الفصحى، ناهيك بمن يفك رموزها، فضلًا عن أن يكتب بها، وإنما آلت المصرية الفصحى إلى قبطية دارجة هجينة، تكتب كلها أو تكاد بأحرف يونانية ابتدع رسومها الفينيقيون من قبل، وتنضح برطانة تعرف فيها آثار ألسنة الغزاة: الإغريق فالرومان، ومسحة من آرامية[4] فارسية انتقلت إليها مع جيوش قمبيز.

(١) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ - ٢٩.

(٢) كانت الفصاحة شرطًا في هذا الحوار البليغ، يدلك على هذا استنصار موسى بهارون: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤].

(٣) الملأ يعني علية القوم، الذين تمتلئ منهم العين مهابة.

(٤) الآرامية هي لغة أهل آرام (إرم في القرآن). كانت تطلق على ما نسميه نحن (سورية) بالمعنى العام. سماها أهلها كذلك تحنانًا إلى موطنهم القديم (آرام نهريم)، أي: آرام ما بين النهرين، وهناك كانت (إرم ذات العماد) التي عناها القرآن، وسيأتي الحديث عنها في موضعه حين الكلام عن (عاد قوم=

أما فارس التي بلغت أقصى اتساعها على عهد الأخمينيين (القرن السادس ق م) - (القرن الرابع ق م). فشملت إمبراطوريتهم منذ القرن الخامس قبل الميلاد الشرق الأدنى القديم كله من فارس إلى مصر، ومن بابل وما بين النهرين إلى سواحل البحر الأبيض في سورية وفلسطين، واكتسحوا اليونان في آسيا الصغرى وألزموهم عقر دارهم في شبه جزيرتهم... فارس هذه، ماذا بقي منها؟

كر عليهم الإسكندر فقوض ملكهم من تخوم الهند إلى مصر (٣٣٣ ق م)، وورث إمبراطوريتهم الشاسعة جميعها، ليتوزعها خلفاؤه من بعده، وليبدأ في الشرق الأدنى كله العصر (الهليني)[١] أو (المتهلين)، أي المصطبغ بالصبغة اليونانية فكرًا ولغة وحضارة، وهو تعبير غير دقيق، وربما كان مضللًا أحيانًا؛ لأنه يغلب العنصر اليوناني الوافد إلى حضارات الشرق الأدنى القديم، ويغفل مردود هذه الحضارات نفسها على أرض اليونان الأم، حتى باتت اليونان نفسها بعد الإسكندر (هلينية) فكرًا وحضارة.

لم تكن جحافل الإسكندر يونانية خالصة، وإنما كانت تستمد في سيرها المدد من أهل الأقطار المفتوحة، حتى انتهت (غارة) الإسكندر. واستقر الغزاة بعد الفتح في مواقعهم، يموج بعضهم في بعض، تتمازج الدماء، وتختلط الألسنة، وتتلاقح الثقافات والفلسفات والعقائد.

= هود). وكانت الآرامية هي اللغة الغالبة في ربوع الشرق الأدنى القديم، فاستبقاها الفرس لغة رسمية في إمبراطوريتهم، وبها اكتشفت في مصر مخطوطات ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، عصر مجيء قمبيز، تستند إليها الدراسات الحديثة في محاولة فهم الآرامية البائدة وتقعيد نحوها وصرفها. وللآرامية أيضًا اسمان آخران، هما (الكلدانية) و(السريانية)، أما الكلدانية فهي تسمية خطأ، عدل عنها اليوم علماء اللغات المحققون، وأما السريانية فهي الآرامية نفسها أو ما آلت إليه الآرامية منذ القرن الثالث الميلادي، وما زالت السريانية تعيش إلى اليوم على بعض الألسنة. وبهذه الآرامية نفسها كان يتحدث المسيح إلى عشيرته وحوارييه، وبها كان إنجيله الذي لا تجد له اليوم إلا أصولًا كتبها أصحابها بيونانية متأخرة تعرف باليونانية الكنسية.

(١) (هليني) لفظة يونانية، صفة من هلاس، اسم لليونان قديم.

ولك أن تتصور تأثير هذا كله على اللغة الفارسية في موطنها الأصلي، كما رأيت من قبل تأثيره على لغة شعراء الإلياذة وأفلاطون وسوفوكل؛ جمدت الفارسية القديمة على الألسنة ولم يعد يستدل عليها إلا من نقوش كتبت ما بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد، وحلت محلها الفارسية (الفهلوية) التي كتبت بها نصوص (زرادشت) في القرن الثالث الميلادي، وآلت إلى (الأفستية)، (أي: لغة النص الأصلي)، فعاشت في المعابد والأذكار، وبقيت منها فارسية تزهو حينًا وتتحامل على نفسها حينًا، تنوء بأوزار ما تهجنت به، حتى أجهز عليها الفتح الإسلامي في القرن السابع، فصارت همهمة يغمغم بها أمثال البرامكة في بلاط الرشيد. ولكن تلك الهمهمة التي طالت، قضت على ما بقي من أصالة اللغة، فلم يستعد الفرس سلطانهم في أواخر الدولة العباسية إلا وقد آلت الفارسية إلى رطانة ثلثها على الأقل عربي، هي تلك الفارسية الحديثة التي تقرأ لها الآن.

* * * *

لم يبق من الحديث عن لغات الشرق الأدنى القديم إلا الآرامية والعبرية، ومنهما كانت غالبية العلم الأعجمي الذي نتناوله في هذا الكتاب.

ولكن الحديث عن الآرامية والعبرية يقتضي الحديث أولًا عن اللغات المسماة بالسامية - وأمها جميعًا (العربية) - تقريرًا لأصالة العربية عليهما قبل نزول القرآن، وهذا ما ننتقل إليه الآن.

* * * *

(٣)

تستطيع أن تصنف لغات البشر إلى سلالات عرقية، أو جغرافية - تاريخية، تنسبها إلى موطن أقدم من يظن أنهم تكلموا بها قبل أن ينساحوا في الأرض، فتنشعب ألسنتهم لهجات فلغات، فتقول مثلًا: اللغات الآرية[1]، ومنها السنسكريتية في الهند، والفارسية في إيران، واليونانية واللاتينية والجرمانية في أوربا، وما تفرع عن هذه وتلك من لغات تقرأ لها الآن. أو تقول مثلًا اللغات السامية والحامية والكوشية، ومنها العربية والعبرية والمصرية والحبشية، بقي منها ما بقي، وباد ما باد، والسامية والحامية نسبة إلى سام وحام ابني نوح، والكوشية نسبة إلى كوش بن حام.

وليس لك بالطبع أن تتساءل: بم كان يكلم نوح أباه؟ وبم كان يتفاهم نوح مع ابنيه سام وحام؟ ولم شذ حام عن أخيه سام، فاصطنع لنفسه لغة انفرد بها لم ترق لابنه كوش فعدل عنها إلى غيرها؟ تلك على الأرجح - إن صحت التسمية - ليست أسماء أشخاص، وإنما هي أسماء قبائل وشعوب تفرقوا في البلاد، فتفارقت الألسنة.

أما إن ترجح لديك - وأنت اللبيب العاقل - وحدة الأصل الإنساني، فلا مفر لك من أن ترد لغات أهل الأرض جميعًا إلى أصل واحد، هو تلك اللغة الأولى التي تكلم بها أبو البشر وأمهم، بعد مهبطهما من الجنة.

---

(١) (آريا) لفظة سنسكريتية بمعنى الشريف النبيل الأمثل، وصف بها الهنود لغة السادة الغزاة، وبها سميت (إيران) (آريا -نام) على الراجح، أي أرض الأماثل. ومن (آريا) لفظة (أرستو) اليونانية بمعنى الأمثل، وبها صيغت (أرستو - كراتيا) (الأرستوقراطية)، أي: حكومة الصفوة أو الأماثل.

على أن افتراض لغة أولى تفرعت عنها كل اللغات، وهو فرض علمي لا غبار عليه - إن لم يكن الفرض المنطقي الراجح - ربما يغريك ببحث عقيم عن أي اللغات كان الأول. ولكنك مهما بذلت من جهد - وأيضًا من افتعال - فقصاراك أن تقنع بفرض واحد مؤكد، وهو أن اللغة التي تكلمها آدم بعد مهبطه من الجنة لم يعد يتكلمها اليوم أحد من أهل الأرض، وإنما هي تفرقت في لغات البشر جميعًا: لكل منهم فيها نصيب، قل أو كثر.

لهذا عدل اللغويون الآن عن تلك التسميات العرقية الجغرافية - التاريخية التي قد توهمك بوجود لغة أو لغات أولى تنتمي إليها الأسرة اللغوية التي يتكلمها البشر اليوم. عدل اللغويون عن ذلك الآن، وأصبحوا ينسبون الأسر اللغوية إلى الأرض التي يعيش عليها في عصرنا هذا من يتكلمونها اليوم، أو عاش عليها أسلاف لهم سبقوا، تكلموا لغة تلمح أصولها في اللغات المعاصرة، أو عثر فيها على نقوش أو مخطوطات عفا عليها الدهر، يعكف عليها اللغويون بغية حل رموزها، وفك طلاسمها، وردها إلى أسرة لغوية ولدت فيها، ثم تحورت أو بادت. فيقولون مثلًا: اللغات (الهندية - الأوروبية) ما بقي منها وما باد. ويقولون مثلًا: اللغات (الإفريقية - الآسيوية)، يعنون تلك الأسرة اللغوية بفصائلها (السامية) و(الحامية) و(الكوشية)... إلخ، المتقاربة جذور مفرداتها ودلالات ألفاظها ومخارج أصواتها، التي يتكلمها في آسيا، أو تكلمها في آسيا يومًا ما، عرب شبه الجزيرة من أقصى اليمن إلى أقصى الشام، كما يتكلمها في إفريقيا، أو تكلمها في إفريقيا يومًا ما، أهل الضفة المقابلة من البحر الأحمر: المصريون والسودان والأحباش.

* * * *

أما الخصائص التي يستند إليها اللغويون في تقسيم لغات البشر إلى مجموعات لغوية، أو أسر لغوية، فهي تنقسم بدورها إلى فصائل لغوية داخل الأسرة الواحدة، فأهم هذه الخصائص ما يلي:

١ - مخارج الأصوات:

أي انفراد فصائل الأسرة اللغوية المعينة بنطق أحرف، أي أصوات، لا تنطقها غيرها. من ذلك انفراد اللغات الإفريقية - الآسيوية بنطق الحاء، وانعدام هذا الصوت - على سبيل المثال - في اللغات الهندية - الأوروبية. وليست العبرة في هذا السياق بصورة الحرف، أي بشكله المكتوب، أي بالخط الذي تصطنعه اللغة في الكتابة، وإنما العبرة بالصوت الموضوع له الحرف.

٢ - دلالات الألفاظ:

تتقارب في لغات الفصيلة الواحدة، تقاربًا واضحًا، بل وتتطابق أحيانًا، بنية اللفظ الموضوع لنفس المعنى، من ذلك لفظة (عين) الموضوعة لأداة الإبصار، وعين الماء... إلخ، في اللغات العربية والآرامية والعبرية على السواء.. ومن ذلك أيضًا مادة الفعل (كتب) بنفس المعنى في هذه اللغات السامية الثلاثة.

٣- بناء الألفاظ:

من اللغات صرفي وغروي. فأما اللغات الغروية، ومنها أسرة اللغات الهندية - الأوروبية، كالسنسكريتية والفارسية، وكاليونانية واللاتينية وبناتها الأوروبيات، فهي اللغات التي تستعين في اشتقاق المعنى الموسع من المعنى البسيط بإضافة اللواصق من خلف ومن قدام، فيبدو لك اللفظ منحوتًا من كلمة واحدة نطقًا وكتابة، وهو من بضعة أجزاء موصولة، وكأنما شد بعضها إلى بعض بغراء. من ذلك في اللاتينية مثلا كلمة *emancipio* بمختلف صورها في اللغات الأوروبية الحديثة، ومعناها العتق والانعتاق: تظنها من كلمة واحدة، وهي من ثلاثة أجزاء شدت إلى بعض *(e)* + *(man)* + *(cipio)*، الجزء الأول *(e)* بمعنى (خارجًا)، والثاني *(man)* بمعنى (اليد)، والثالث *(cipio)* بمعنى (الأخذ)، فهي إذن ليست كلمة وإنما هي جملة أو شبه جملة، معناها الحرفي (الإخراج من أخذ اليد)، أو (الإخراج من ملك اليمين).

وأما اللغات الصرفية، ومنها على سبيل المثال العربية والآرامية والعبرية في الفصيلة السامية المنتمية إلى أسرة اللغات الإفريقية - الآسيوية، فهي لا تستعين في اشتقاق المعنى الموسع من المعنى البسيط بإضافة اللواصق أو بتجميع أجزاء الكلام، وإنما هي تنحت جذور الألفاظ لجذور المعاني، ثم تشتق الموسع من البسيط (بالتصرف) في بنية الجذر الأصلي وفق أوزان ثابتة، لكل منها معناها التوسعي المحدد، بغض النظر عن جذر اللفظ الأصلي. من ذلك في العربية فَعَلَ وفَعَّل وتفَعَّل وانفعل واستفعل وفاعَلَ وتَفَاعَلَ.. إلخ. وليست أحرف الزيادة التي تلحظها وسط الجذر كتضعيف العين في فعّل، والمد بالألف في فاعَل، أو المضافة في أول الجذر مثل الهمزة والنون في انفعل، والهمزة والسين والتاء في استفعل، كاللواصق في اللغات الهندية - الأوروبية؛ لأن أحرف الزيادة هذه ليس لها في ذاتها معنى كما هو الحال في لواصق اللغات الهندية - الأوروبية، وإنما لها وظيفة صرفية، تصرف جذر اللفظ عن معناه البسيط إلى معناه الموسع.

وأيا كانت ميزة الصرفي على الغروي، مما لا نتصدى له الآن، فهي عند اللغويين سمة فارقة حاسمة بين المجموعات اللغوية.

* * * *

وأما الفوارق بين لغة ولغة من نفس الفصيلة، كفوارق ما بين العربية والعبرية من الفصيلة السامية، والتي تجعل منهما لغتين مختلفتين بحيث تعتجم العبرية على السامع العربي - كما تعتجم العربية على السامع العبري - فلا يفهم أحدهما شيئًا من لغة الآخر حتى يترجم له، فمن هذه الفوارق بين العربية والعبرية على سبيل المثال[١] القلب والإبدال. أما القلب فهو

(١) اخترنا المقارنة بين العربية والعبرية مثالًا في هذا السياق لقرب ما بين هاتين اللغتين، تيسيرًا على القارئ العربي غير المتخصص، ولأغراض هذا التيسير أيضًا التزمنا في هذا الكتاب رسم الألفاظ العبرية (والآرامية أيضًا) بالخط العربي، لا بالخط العبري - الآرامي. ولن تستعصي القراءة الصحيحة لتلك الألفاظ العبرية الآرامية برسمها العربي على من يجيدون العبرية والآرامية من قراء هذا الكتاب، فقد ضبطناها بالشكل والنقط أقرب ما تكون إلى نطقها العبري أو الآرامي.

تغيير ترتيب أحرف الكلمة مع اتحاد المعنى، ومثاله من العربية نفسها الجذران (جذب) (جبذ)، بمعنى شد في كليهما، وغيرهما كثير. وأما الإبدال فهو تغيير حرف بحرف آخر قريب من مخرجه، مع بقاء المعنى، ومثاله من العربية نفسها (سراط)، (صراط)، بمعنى الطريق في كليهما. ومن الإبدال أيضًا، المبادلة بين أحرف المد، كإبدال المد بالواو مدا بالياء، ومثال هذا من العربية نفسها (ساع / يسوع)، (ساع / يسيع)، وكلتاهما بمعنى ضاع وهلك.

ويتفاقم أمر القلب والإبدال ما بين العربية والعبرية حين يكون لصورة اللفظ المتحور في إحدى اللغتين بالقلب والإبدال معنى مغاير تمامًا لمعناه في اللغة الأخرى. من ذلك أن (نِجِب) العبرية (ومعناها الجنوب) ليست من (النجابة)، وإنما هي مقلوب الجذر العربي (جنب). أما (جنب) عبريًّا فليست من الجنوب في شيء، وإنما هي بمعنى (سرق). ومن ذلك أيضًا أن (صنم) العربية (مفرد أصنام) تصبح (صِلِم) في العبرية. ولكن صلم عربيًّا (باللام) تعني قطع واستأصل (وغلبت في الأنف والأذن)، فلا تفهم أي المعنيين يريد ذلك العبراني الذي يحدثك. ويزداد الأمر سوءًا حين تعلم أن (صِلِم) العبرانية تفيد أيضًا الظلام والظلمة (من أظلم العربي أبدلت ظاؤها صادًا)، أما (الظلم) نقيض العدل فهو في العبرية بالطاء (طلم)، (وطلمه) عربيًّا يعني ضربه بكفه مبسوطة، وهو أيضًا وسخ الأسنان من إهمال تنظيفها، ليس له بالظلم صلة). أما (صنم) عبرانيًّا فلا صلة له بالأصنام، وإنما هو من النضج والإنضاج. وقس على هذا الكثير الذي لا يحصى بين هاتين اللغتين.

وإلى جانب القلب والإبدال، تفتقر العبرية إلى ستة أحرف أصلية موجودة في العربية، هي بترتيبها على أحرف الهجاء العربية: الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين. أما الضاد والظاء فلا وجود لهما مطلقًا في العبرية نطقًا وكتابة، فما كان بالضاد في العربية انقلب غالبًا إلى صاد في العبرية، مثل (ضحك) العربية التي تنقلب إلى (صحق) في العبرية (أبدلت أيضًا كافها قافًا)، ومنه اسم نبي الله إسحاق كما سترى، وما كان بالظاء انقلب غالبًا إلى طاء أو زاي، وربما إلى صاد، مثل (ظبي) التي تصبح (صبي) في العبرية. أما الأحرف الأربعة الأخرى (ث – خ – ذ – غ)، فلا وجود لها في العبرية أيضًا، أي في الكتابة، ولكنك تسمعها

في مواضع مخصوصة من محدثك العبراني الذي ينطق لك التاء ثاء، والكاف خاء، والدال ذالا، والجيم غينًا، حين يتحرك - أو يعتل - ما قبلها (حين يكون لها قبلُ)، شريطة ألا تضعف هي. من ذلك أن (بيت) العبرية (وهي بيت العربية) تنطق (بَيْت)، و(مِلِك) (وهي مَلِك العربية) تنطق (مِلِخ)، (ولكن المؤنث منها وهو ملكة تسكن لامه قبل الكاف فتنطق الكاف على أصلها). من ذلك أيضًا (يِهود) التي تنطق (يِهوذ)، ومثله أيضًا (رجم) العبرية التي تنطق (رغم) لتحرك الراء قبل الجيم فصارت جميعها في النطق غينًا[1]. ولعلك لاحظت أن التفاوت في نطق هذه الأحرف العبرية الأربعة في مواضع مخصوصة مع نطق الحرف على أصله في غيرها، هذا التفاوت لا يضيف جذرًا جديدًا إلى تلك اللغة، وإنما هو مجرد (لهجة) في نطقه في مواضع مخصوصة لا تغير من أصل معناه. ولعلك لاحظت في هذا السياق أيضًا، أن زيادة الأبجدية العربية (٢٨ حرفًا ليس من بينها اللام ألف) بستة أحرف أصلية على الأبجدية العبرية (٢٢ حرفًا) تثري العربية بكم هائل من الجذور الثلاثية لا تستطيعه العبرية، ذلك أن الحرف الواحد مجموعًا إلى حرفين اثنين فقط من حروف الأبجدية (ولتكن ض - ب - ر) يعطيك عشرة جذور ثلاثية ممكنة: بض - ضب - رض - ضر - ضبر - ضرب - رضب - ربض - برض - بضر، كلها مستعمل مسموع في العربية عدا الجذرين الأخيرين (برض) و(بضر) الباقيين في خزائنها، تستطيع استخراجهما حين تشاء[2]. وقس على هذا اجتماع الضاد مع باقي الحروف.

من جهة أخرى تفتقر العربية إلى صوتين في العبرية، هما الپاء (*P*) الثقيلة، والباء المرققة التي تخف وتسيل فتصبح ڤاء (*V*)، ولكن هذين الصوتين غير أصيلين في العبرية، وإنما هما نفساهما الفاء والباء: تنطق الفاء باء ثقيلة (پاء) حين لا يتحرك أو يعتل ما قبلها، (أو لا يكون لها قبل)، أو حين تضعف (مثل پَرْعُو العبرية بمعنى فرعون)، وتنطق كالفاء العربية فيما عدا ذلك. أما الباء العبرية فتنطق كالباء العربية حين لا يتحرك أو يعتل ما قبلها، (أو حين لا يكون

(١) المعني به في هذا الكتاب هو عبرية التوراة، لا العبرية المعاصرة.

(٢) هذا باب واسع غفل عنه (المعربون)، يتيح (اختراع) الألفاظ لمستحدثات الحضارة.

لها قبل)، أو حين تضعف، وتنطق باء مرققة سائلة (ڤاء) فيما عدا ذلك، مثل (آڤ) *(AV)* العبرية يعني: أب، وعكسه (با) العبرية ومعناها (جاء). وهذا أيضًا لا يضيف إلى العبرية جذورًا جديدة تتميز بها على العربية، وإنما هو مجرد لهجة في نطق الحرف في مواضع مخصوصة، لا تغير من أصل معنى الجذر الذي يحتويه، مع نطق الحرف على أصله في غيرها. من ذلك الفعل (كفر) المشترك بين العربية والعبرية معنًى ونطقًا وكتابة، ولكن الفاء فيه حين تضعف، تنطق في العبرية پاء ثقيلة *(P)*، كما في (يُوم كِپُّور) أي (يوم الكفارة). ومثله أيضًا الاسم العبراني (أيوب)، الذي ينطق في العبرية (إيوڤ)، رققت باؤه وأسيلت لاعتلال ما قبلها (الواو) فنطقت باؤه ڤاء. ومثله أيضًا (أبراهام) (إبراهيم) الذي ينطقه العبرانيون (أڤراهام)؛ لتحرك الهمزة قبل الباء.

من وجوه المغايرة الصوتية أيضًا بين العربية والعبرية، اصطناع العبرية (المد بالكسر) (أي إطالة زمن نطق الكسرة دون انقلابها ياءً ثقيلة)، وقرينه (المد بالضم) (أي إطالة زمن نطق الضمة دون انقلابها واوًا ثقيلة)، ولا وجود لهما أصلًا في العربية الفصحى[1]، وإن كانا موجودين في العربية العامية، مثلما ترى في كلمة (بيت) العربية التي تنطق في العامية مكسورة الباء ممدودة الكسرة (بِيت)، ومثل كلمة (يوم) التي تنطق (يُوم). والفرق بين المد بالكسر وبين المد بالياء أن الكسر في المد بالياء ثقيل، تحتشد له عضلات الفم واللسان، كما في كلمة (عيد) بينما هو في المد بالكسر مخفف مرقق، كما في كلمة (ليش) (بمعنى لأي شيء) العربية العامية، ترتخي فيه عضلات الفم واللسان. وهكذا أيضًا الفرق بين المد بالضم وبين المد بالواو في مثل (عُود) و(يُوم) وإذا لاحظت أن العبرية - شأنها شأن العربية العامية - تصنع ذلك كلما كان الأصل في العربية الفصحى الوقوف بعد فتح على الواو والياء، في مثل (يَوْم) و(رَيْب)، والوقوف عليهما ثقيل، بدت لك العبرية وكأنما تنشد التسهيل، كما تفعل العربية العامية، وكما فعلت الإنجليزية المعاصرة مثلًا بالحرفين *(au)*

(١) باستثناء حالات (الألف الممالة) التي تثبت سماعًا عن أصحاب القراءات في مثل ياء (مجريها ومرساها). وإمالة الألف هي نفسها المد بالكسر.

(آو) و(*ai*) (آي) اللذين سهلتهما الإنجليزية المعاصرة، والفرنسية المعاصرة أيضًا دون سائر أخواتها اللاتينيات، إلى (أوه) و(إيه) على الترتيب.

هناك أيضًا مغايرة بين العربية والعبرية في النحو والصرف، لا توجد في العبرية علامات (إعراب)، وإنما الأصل (البناء)، أي بقاء اللفظ على حاله وصورته أيًّا كان موضعه من الإعراب رفعًا ونصبًا وجرًّا وجزمًا كما تفعل العربية العامية، وكما آلت إليه الإنجليزية والفرنسية بين أمهات اللغات الأوروبية الحديثة. وليس في العبرية صيغة للمثنى، وإنما هو الجمع لا غير. عدا استثناءات قليلة منقرضة من مثل (عَيْنَيْم) مثنى (عين) (أداة الإبصار)، ومثل (نَهْرَيْم) مثنى (نهر) (في عبارة (آرام نهريم)، أي آرام ما بين النهرين). ولا وجود لجمع التكسير في العبرية، وإنما هو الجمع السالم لا غير، وصورته البناء على الياء بعدها ميم (لا نون كما في العربية والآرامية) في جمع المذكر، مثل (بنيم) (يعني (بنون) العربية) والمد بالضم بعدها تاء ساكنة (لا المد بالألف بعدها تاء كما في العربية والآرامية) في جمع المؤنث، مثل (بنوت) (يعني (بنات) العربية). كما تفتقر العبرية إلى صيغة (أفعل التفضيل) مثل (أكبر) و(أصغر) وما إلى ذلك، فتحتال عليها بصيغ مخصوصة من مثل (الابن الكبير) في موضع أكبر الأبناء، وهلم جرًّا.

ومن أمثلة المغايرة بين العربية والعبرية في موازين الصرف، أن العبرية تضع الوزن (فِعِيل) (مدًّا بالكسر) لزنة اسم الفاعل، والوزن (فَعُول) (مدًّا بالواو) لزنة اسم المفعول، وأحيانًا كثيرة الوزن (فَعُول) (مدًّا بالضم لا بالواو) لزنة مصدر الثلاثي المجرد. من ذلك (حُميذ) بمعنى حامد، و(حموذ) بمعنى محمود، و(حموذ) (مدًّا بالضم) بمعنى الحمد... إلخ.

أما أخطر وجوه التغاير بين العربية والعبرية، وأدلها أيضًا على أصالة العربية وسبقها للعبرية (وللآرامية أيضًا) في الزمان والمكان، فمنها تفوق العربية تفوقًا ساحقًا بوفرة المادة اللفظية الأصلية (الجذر الثلاثي) بما لا يقاس على العبرية والآرامية ليس فقط بسبب زيادة الأبجدية العربية بستة أحرف أصلية (ث - خ - ذ - ض - ظ - غ) كما مر بك، فتستطيع الإتيان مثلًا بالجذرين (خرج) و(حرج) كلًّا بمعنى، ولا تستطيع العبرية إلا الثاني وحده

بمعنى (ضاق) وغير هذا أكثر من أن يحصى، وإنما أيضًا لكون العربية أوفر أوزانًا وأضبط وأقيس، تستطيع الإتيان بالطريف المعجب دون زيادة في أحرف الجذر، وإنما فقط بتغيير حركة عينه. من ذلك الفعل (صنَع) أي كان صانعًا شيئًا ما، سفسف فيه أو أتقنه، و(صنِع)، أي: كان حاذقًا ماهر الصنعة، وغيره كثير.

ومن وجوه الأصالة والتفوق أيضًا أن العربية تستنفد من الجذر الأصلي كل معانيه - الرئيسي والمترتب عليه - على حين تقتصر العبرية والآرامية غالبًا على وجه واحد تجمدان عليه. من ذلك الفعل (حمد)، فهو في العربية بمعان يتسلسل بعضها من بعض: حمدته يعني رضيته وأعجبت به، وحمدته أيضًا يعني ذكرت محاسنه فمدحته بما هو أهله، وحمدت له أمرًا يعني استحسنت له، وحمدته أيضًا يعني ذكرت له نعمة فشكرتها وأثنيت عليها لجوده بها. أما العبرية فتقتصر من (الحمد) على وجه واحد، هو الرضا والإعجاب: حمدته العبرية تعني أعجبني وحلا لي[1].

(١) هذا عندي هو الوجه المنعوت به ﷺ بمقتضى تسميته (محمدًا)، أي الحميد الخَلْق والخُلُق، الحميد الأفعال والصفات. وهو أيضًا - وهذا جديد نفيس لم تقرأه من قبل - الذي جاء في العهد القديم نبوءة بمبعثه ﷺ على لسان حجاي النبي: ((وبا حِمْدَت كل هَجويم)) (سفر حجاي: ٢/ ٧)، يعني: ((ويجيء حِمدة كل الأمم))، أي: الذي تحمده كل الأمم، يعني يحمده كل من نطق باسمه، وإن جحده وأنكر نبوته...

والنصارى يسقطون هذه النبوءة على المسيح عليه السلام، وليس بشيء، لأن المسيح لا يحمده من جحده وأنكره، ومنهم اليهود على الأقل.

وهذا أيضًا بعض معنى قوله عز وجل: ﴿... ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي نبي كل الأمم، الموصوف بنعته في التوراة والإنجيل اللذين بين أيديهم عصر نزول القرآن وإلى الآن.

ومن أسف أن تراجمة العهد القديم يترجمون عبارة ((حمدة كل الأمم)) بعبارة ((مشتهى كل الأمم))، ربما لطمس معنى (الحمد) في النبوءة. ولو أنصفوا لاستبقوا لفظ (الحمد) في النص العربي على الأقل - بصورته المشتركة بين العربية والعبرية.

ربما اعتذرت لهم بأنهم لو سلموا بهذه النبوءة لسلموا بنبوة محمد ﷺ، وربما ظننت أيضًا أنهم=

أما أكثر أوجه المغايرة دلالة على أصالة العربية وسبقها فهو أن العربية لا يوجد فيها لفظ مشتق إلا وهي تستخدم ثلاثيه المجرد في أصل المعنى الموضوع له، أما العبرية فيكثر فيها المشتق الذي لا جذر له. معنى ذلك أن العبرية تأخذ اللفظ المشتق على صورته عند أصحابه دون فهم أصل معناه في جذره الثلاثي. والجذر بالطبع أسبق وجودًا من اللفظ المشتق منه. العبرية إذن ناقلة عن العربية، ولا يتصور العكس.

من ذلك أن الفعل العربي (نجل) بمعنى قطع وطعن - ومنه (المنجل) أداة الحصاد - لا وجود له في العبرية، ولكن الموجود في العبرية من مادة الجذر العربي (نجل) اللفظ (مَجَّال) (وأصلها (منجال)) أي المنجل، استعارت العبرية (المنجل) ولم تستعر (النجل).

هذا يفسر لك لماذا يلجأ اللغويون إلى المعجم العربي لمحاولة فهم غوامض العبرية والآرامية وبوائدهما، مثلما يفعلون لمحاولة فهم غوامض غيرهما من بوائد الساميات.

لهذا صح عند اللغويين الأثبات أن العربية هي أم الساميات جميعًا، لأنها الخزانة اللغوية التي تغترف منها سائر لغات الفصيلة ولا تنضب هي، بل لديها دائمًا المزيد، وربما ترجح عند بعضهم أنها أيضًا الأصل البعيد الذي انشقت عنه وتحورت سائر لغات المجموعة الإفريقية - الآسيوية، ومنها المصرية والحبشية.

ولكنك في أقل القليل تستطيع أن تؤكد - مصيبًا غير مخطئ - أن اللغة العربية - أيًّا كان الشكل الذي تطورت منه إلى الشكل الذي نزل به القرآن في مطلع المائة السابعة لميلاد المسيح - كانت هي نفسها في عصرٍ ما غير بالغ القدم اللغة السائدة بين سكان شبه الجزيرة من أقصى اليمن إلى أقصى الشام، وأن الآرامية التي ارتحل بها آباء إبراهيم من العراق إلى

= لا يسلمون بالاشتراك بين (حَمَد) العربي و(حَمَد) العبراني، ولكن آباءهم في الأندلس كانوا يسلمون بهذا الاشتراك، بدليل نطقهم اسم النبي لنصارى الإسبان والفرنسيس لا على زنة مفعَّل العربي - أي مُحَمَّد - وإنما على زنة نظيره العبري مِفُعَّل - أي مِحُمَّد - بنفس المعنى عبريًّا، ومن هنا قال الإسبان *Mahoma* وقال الفرنسيون *Mahomet* اللتين تحار في تعليل تحريفهما، وربما أسأت الظن فحسبت أنها (ما حُمِّد) نفيًا للحمد عنه ﷺ.

سورية، والعبرية التي ارتحل بها إلى مصر يعقوب وبنوه، وعاد بها بنو إسرائيل إلى جنوبي فلسطين بغير الوجه الذي ذهبت به فتعاجموا بها على إخوانهم الموآبين[1] - هذه وتلك وسائر ما تكلم به أهل الشرق الأدنى القديم في شبه الجزيرة - ليست إلا لهجات قبلية متحورة عن هذه العربية نفسها، تهجنت بها ألسنتهم بتأثير الغزو اللغوي الحضاري الذي توالى على أطراف شبه الجزيرة، شرقيها وشماليها، وسلم منه قلبها في الحجاز، وإلى حد بعيد جنوبيها في اليمن.

على أنك إزاء هذا المستوى الفني الرائع الذي ارتقت إليه تلك اللغة الفذة نحوًا وصرفًا وإعرابًا - ضد منطق التاريخ ومنطق الحضارة - والذي تلمسه قبيل نزول القرآن - فيما صحت نسبته إلى الجاهليين من شعر - لا بد يخايلك إحساس مبهم بأن تلك اللغة لا ريب سليلة حضارة موغلة في القدم سبقت عصر الطوفان وسبقت عصر التصحر والجفاف في شبه الجزيرة، ثم ضاعت في ضباب التاريخ.

ولكننا لا نخوض بك في تاريخ ما قبل التاريخ، فلا علاقة لموضوعنا بهذا الفن، ولسنا نحن أيضًا من رجاله.

* * * *

(١) الموآبية هي أقرب اللهجات إلى العبرية. والتسمية عبرانية (مو + آب) أي ماء أبينا، أي الذين يجمعنا بهم أب واحد وتفرقت بنا العلات. ومن أشنع أباطيل سفر التكوين الذي بين يديك قولهم: إن الموآبيين هم أبناء لوط من ابنتيه: خلتا به بعد أن أسكرتاه الواحدة بعد الأخرى ليكون له منهما نسل، وكأنما عدمت الأرض رجالها ونساءها بعد خراب سدوم، وكأنما لوط في فراره بابنتيه من القرية التي كانت تعمل الخبائث، كان يفر من الرمضاء إلى النار. بل النار مثوى الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون: هذا من عند الله!

(٤)

تحدثنا فيما سبق عن أوجه التقابل والتغاير بين العربية والعبرية داخل الفصيلة السامية، وما ذكرناه بشأن العربية والعبرية ينطبق في جملته، مع بعض تفاوت، على ما بين العربية والآرامية، وعلى ما بين الآرامية والعبرية؛ تلك اللغات السامية الثلاث الألصق بموضوع هذا الكتاب. ما أردناه هو التمثيل لوجوه التقابل والتغاير بين أفراد الفصيلة اللغوية الواحدة، التي تجعل إحداها كلامًا أعجميًّا في سمع أهل اللغة الأخرى من نفس الفصيلة، وفيما ذكرناه كفاية. بل قد أطنبنا إطنابًا نعتذر لك عنه أيها القارئ العزيز، وعذرنا أن الإفاضة بعض الشيء في المقارنة بين العربية والعبرية بالذات، تفيدنا في استجلاء (عجمة) العلم العبراني الذي نتصدى له فيما يلي من فصول الكتاب.

* * *

هذا التقارب، والتغاير أيضًا، بين أفراد فصيلة لغوية معينة، ولتكن الفصيلة السامية، داخل أسرة لغوية معينة، ولتكن أسرة اللغات الإفريقية - الآسيوية، يدلان على أن التقارب قد كان منشؤه التجاور في الزمان والمكان حقبة من الدهر بين أبناء الفصيلة اللغوية الواحدة؛ لأن اللغات تتعلم بالمحاكاة والتقليد، وهذا لا يتسنى إلا في بيئة معيشية مشتركة.

على أن التقارب - وهو دون التطابق - يفيد بذاته وجود مغايرة بقدرٍ ما بين اللغتين من ذات الفصيلة، لا يمكن تفسيره إلا بحدوث انفصال بيئي، بنفس القدر، بين أبناء هاتين اللغتين تعرضت إحداهما خلاله - بالمحاكاة والتقليد أيضًا - لتأثيرات لغوية من حضارات مجاورة، أو غزوات لغوية - حضارية شنها أقوام يتحدثون غير اللغة. ليس هذا فحسب، بل إن هذا

الانفصال البيئي ربما صاحبه انفصال حضاري في اتجاه مغاير، استتبع تطور اللغة في اتجاه مغاير لتطور اللغة التي انشقت منها، فتتباعدان إلى حد التعاجم.

ذلك أن اللغات، بغض النظر عن الغزو اللغوي - الحضاري، لا تثبت قط على حال، بل تنمو وتتحور أيضًا، لا بفعل المؤثرات الخارجية وحدها، وإنما أيضًا بفعل ارتقاء - أو ارتكاس - الحضارة الذاتية لأبناء اللغة: تنتعش الحضارة فتغنى اللغة، وينضب معين الحضارة فتذوي اللغة أو تموت. والأصل في هذا أن الألفاظ أوعية المعاني، تمامًا كما أن الجسد وعاء الروح؛ لا يولد في اللغة لفظ جديد إلا متلبسًا بمعنى جَدَّ لأهل اللغة.

والحضارة التي يصيبها العقم فلا تتطور ولا تبدع ولا تبتكر، تعقم لغة أهلها أيضًا فلا تولد فيها ألفاظ جديدة لمعان ومسميات جديدة سبقهم إلى الوقوع عليها أبناء الحضارة الغالبة، أصحاب الحق الأول في تسمية ما يكتشفونه ويبتدعونه. وبقدر ما تتهجن الحضارات التوابع، تتهجن اللغة، لأن اللغة التي عقمت بعقم حضارة أهلها لا تجمد مفرداتها فحسب على ما جمدت عليه حضارتهم، ولا تضمر مفرداتها فحسب وتشيخ، وإنما يهجرها أهلها أيضًا إلى ألفاظ (أعجمية) تلتوي بها ألسنتهم، هي تلك الألفاظ التي اصطنعها أصحاب الحضارة الغالبة لما استحدثوه أو تطوروا إليه من أنماط حياة وأدوات حياة.

وعيب اللفظ المنقول على أصله الأعجمي إلى اللغة المستعيرة أنه ليس دالًّا بذاته على أصل معناه في لغة المنقول عنهم، فيلتبس على غير المتخصص من أبناء اللغة المستعيرة، وربما استخدم في غير ما وضع له. يحدث هذا بالتحديد في ألفاظ (المعاني)، أي الألفاظ الدالة على الفعل وهيئة الفعل، من مثل (الاستراتيجية) و(الديمقراطية)... إلخ، في اللغات المعاصرة، مما ليس له مقابل مادي خارج الذهن، يوضحه ويجليه ويذكر به، أكثر مما يحدث في أسماء الأشياء والمنتجات والمصنوعات والعدد والآلات والمكتشفات والمخترعات التي سبقت إليها الحضارة الغالبة مثل (الرادار) وغيره، مما له خارج الذهن مقابل مادي يوضحه ويجليه ويذكر به.

أما اللغة التي تستعير من غيرها معاني الأفعال وأسماء الأفعال، فهي لغة قد عقم تفكير أهلها وضحل، ينتظرون من غيرهم أن يفكر لهم، ثم يأخذوا عنه أخذ الببغاء والقردة، فيزدادون تبعية ويمعنون ارتكاسًا، لغة أهل الحضارة الغالبة هي المثل على تطور اللغة بتطور الحضارة الذاتية لأبناء اللغة، ولغة الحضارة التابعة هي المثل على تحور اللغة بتأثير الغزو اللغوي - الحضاري.

ولأن الألفاظ هي أوعية المعاني، تمامًا كما أن الجسد وعاء الروح، تستطيع أن تقول: إن المعاني يتوالد بعضها من بعض بقدر ما تتوالد الألفاظ بعضها من بعض، أي: بقدر ما تكون اللغة قادرة على نحت الألفاظ واشتقاق اللفظ من اللفظ.

وتستطيع أن ترتب على هذا - مصيبًا غير مخطئ - أن اللغة الأغزر ألفاظًا أو الأقدر على نحت جذور الألفاظ، هي اللغة الأقدر على توليد المعاني، وأنها اللغة الأدق عبارة، الأوضح فكرة، الأطوع لتشقيق المعاني، الأقوى على التخيل والإبداع، الأملك لعنان الفكر، الأثبت في وجه الغزو اللغوي - الحضاري.

ولأن الحروف - أي الأصوات - هي لبنات الألفاظ، تستطيع أن تقول: إن اللغة الأقدر على نحت جذور الألفاظ، هي اللغة الأكثر احتواء لكافة الأصوات المفردة الممكنة، أي: الأوفر أصواتًا وحروف نطق.

وتستطيع أن تضيف إلى هذا أن اللغات الصرفية ذوات الأوزان، كما هو الحال في اللغات السامية وأمها العربية، هي وحدها - دون اللغات الغروية - الأقدر على تمثيل الألفاظ الأعجمية وهضمها؛ لأنها - وبالذات اللغة العربية - لا تقبل اللفظ الأعجمي على صورته في لغته، وإنما تعربه فتجانس بين حروفه على مقتضى مخارج أصواتها، ثم تقولبه في قوالبها وتصبه في أوزانها، ثم تشتق منه، وتتصرف فيه، حتى يبدو اللفظ الأعجمي لغير المتخصص وكأنما ولد عربيًا لأب عربي.

واللغة العربية في هذا كله - دون سائر اللغات - فرس لا يداني؛ لأنها الأكثر حروفًا،

الأغزر جذورًا، الأوفر أوزانًا، الأضبط نحوًا وموازين صرف، ولكنها أيضًا - ولنفس الأسباب - اللغة الأقمن باشتباه الأعجمي فيها بالعربي؛ لأن اللفظ المنقول إليها ذابت عجمة معناه في عروبة صورته بعد تعريبه[1].

****

على أن النقلة العرب في العصر الحديث، لا سيما في نصف هذا القرن الأخير، لم يلتزموا قواعد التعريب التي تقتضيها أوزان اللغة العربية ومخارج أصواتها: عربوا (الخط) ولم يعربوا (اللفظ)، فأساءوا ولم يحسنوا. وقد مهد لهذا - رغم جهود محو الأمية ونشر التعليم في عصرنا - شيوع العامية وتراجع الفصحى على الألسنة، لا في لغة الحديث اليومي فحسب، بل وفي الخطابة وفي الإذاعة والتلفزة، حتى استجازتها الصحف فتسللت إلى أقلام أهل الفكر والفن والأدب، وحتى أصبح استيعاب قواعد النحو والصرف والإعراب وتعلمها وتعليمها، على بساطتها في العربية وانضباطها، مشكلة كبرى لجمهرة المثقفين أنفسهم، فما بالك بغيرهم؟

بمثل هذا - وقد بدأ بالفعل - تستحيل اللغة رطانة شائهة هجينة، تعتجم على القائل والسامع. والذي تَشُوه لغته وتعجم لا يحسن القول ولا يحسن الفكر، ومن ثم لا يحسن التلقي ولا يحسن العمل؛ لأن اللغة ليست أداة التعبير فحسب، ولكنها أيضًا - وبالدرجة الأولى - أداة العقل والفكر[2].

---

(١) قارن في هذا السياق (ساذج) المعربة عن الفارسية (ساده) بمعنى النقي الخالص، وأيضًا الاسم اللاتيني (كيسر) المعرب إلى (قيصر)، والاسم الإسباني (رذريجو) المعرب إلى (لذريق)، وغيرها كثير. ومن متحذلقة (الأساتيذ) في هذا القرن الذين أدركتهم عجمة العلم واللسان من عاب على القدماء، فرماهم بالجهل أو ظن بهم الخطأ، ولا يدري أنه مقصود.

(٢) أولى بمن لا يحسن التفكير والتعبير بلغته ألا يحسن التفكير والتعبير بغيرها. من ذلك ما تسمعه من محدثك في الإذاعة والتلفزة الذي يردف لك اللفظ العربي بما يظنه المقابل الأعجمي، وكأنما يريد أن يثبت المعنى في ذهنه وذهنك.

والغريب أن دعاة (التحضر) في هذا العصر، لا يعيرون هذه (القضية الحضارية) التفاتًا. والأعجب أن دعاة القومية (العربية) في هذا العصر - واللغة العربية عنصرها الأول والأهم - هم دعاة (التغريب) أيضًا. ويا له من تناقض!

على أن اللغة العربية - والقرآن كافلها وكفيلها - أكرم على الله عز وجل من أن تهان، وأسمى من أن تبتذل، وأقوى من أن تهزم، وأخلد من أن تبيد.

تلك كبوة حضارية عابرة، ليست القاصمة. وكم صادف أهل القرآن كلما تنكبوا صراط القرآن كبوات.

لن تقوم الساعة حتى يتلى القرآن عربيًّا فلا يفهم، ويدعى به فلا يستجاب.

فهل آن لأهل القرآن أن ينتبهوا من غفلتهم، فيردعوا سفهاءهم؟

قال ﷺ يأمر أهل القبلة: «**أيها الناس، إن لكم معالم، فانتهوا إلى معالمكم!**».

نعم. لا علاج لهذه القضية الحضارية إلا العلاج الحضري الشامل. وهو لهذه الأمة - كما كان لها في كل زمن - عودة أهل القبلة إلى قبلتهم، أي ثوبان المسلمين إلى قرآنهم الذي اتخذوه اليوم وراءهم ظهريًّا..

فالآن الآن... وإلا فلا.

أما كيف السبيل وما المنهج، فالحديث في هذا يطول، ليس موضعه بالطبع هذا الكتاب، وإنما عليك به في كتاب آخر، مدققًا مفصلًا، ولنرجع نحن الآن إلى ما كنا فيه قبل هذا الاستطراد، لنصل ما انقطع.

* * * *

(٥)

مر بك أن اللغات يلقح بعضها بعضًا، ويستعير بعضها من بعض، وهو تلاقح محمود، فوق أنه محتوم.

وهو محتوم لا مناص منه؛ لأنه ناشئ عن احتكاك القبائل والشعوب بعضها ببعض سلمًا أو حربًا، يموج بعضهم في بعض، ويجوس بعضهم في ديار بعض، فيعرفون وينكرون[١]: يعرفون ما ألفوا له مثيلًا في قومهم، وينكرون ما لم يسبق لهم به عهد، حسن أو قبح، ويعود كل إلى أهله بما رأى وسمع.

هب أنك عربي عاش في قرون خلت، زرت الصين فقدم لك أهلها شرابًا قوي النكهة، حسوته فاستطبته، فسألت عنه، فقالوا لك: هذا شا![٢] فقلت في نفسك: ما أطيب هذا الـ (شا)! وما عتمت أن رجعت إلى أهلك وفي جرابك بعض من هذا النبت العجيب، تغلي لهم ورقه، وتديره على جلسائك، يحتسونه ويستطيبونه، كما استطبته أنت من قبل، ويسألونك عنه فتقول: هذا (شاي)! أضفت الياء من عندك ليستقيم لك الوزن العربي الذي مرن عليه لسانك. على هذا النحو أو قريب منه عرف العرب (الشاي)، الاسم والمسمى. وقس في المقابل على الشاي ما شئت من مثل (جمل) العربية التي صارت *Kamelos* في

(١) نكِرت الشيء يعني انبهم عليك فلا تدري ما هو، ومنه تنكر بمعنى تخفي وتجهل، لا يريد أن يتعرف لك، أي لا يريد أن يبدو منه ما (تعرفه) به. ومن هذين أيضًا (المعروف والمنكر): المعروف هو المأنوس الذي طابق العادة والإلف، والمنكر هو المرذول الذي خرق العادة والإلف.

(٢) تنطق أيضًا شينُها تاء في حوالي ١٠ في المائة من اللهجات الصينية، ومن هذه جاءت *Tea* الإنجليزية و*The* الفرنسية... إلخ.

اليونانية و *Camelus* في اللاتينية، و*chameau* في الفرنسية و*Camel* في الإنجليزية... إلى آخره. من هذا أيضًا أن اليونان ما كان لهم أن يسموا (الواحة) قبل أن يروا الصحراء، وما كان لهم أن يروا الصحراء قبل أن يزوروا مصر، ومن هنا (*Oasis*) اليونانية التي انتقلت بنصها إلى اللاتينية وبناتها والآخذات عنها، وهي في الأصل مصرية قبطية.

هذا التلاقح اللغوي المحتوم، محمود أيضًا؛ لأنه يثري اللغة المستعيرة بما يحتاج أهلها إلى اصطناعه، مما ليس لديهم، اسمًا ومسمى، وهو مقبول مشكور بالذات في أسامي النبات والحيوان والجماد، مما سبقك غيرك إلى تسميته، ومثلها أسامي الأطعمة والألبسة والعدد والأجهزة... إلخ، متى اصطنعت المسمى فلا بأس عليك من استعارة التسمية. التوقف في هذا عقيم مرذول، فوق أنه تنطع ونفاق: كيف تأنف من تسمية (الفالوذج) فارسيًّا معربًا وأنت تسرطه سرطًا[1]؟ وكيف تأنف من قول (رابوت) تعريبًا على وزن (تابوت) تلك اللفظة التشيكوسلوفاكية *Robot*، (التي لم يأنف من استعارتها أصحاب الحضارة الغالبة)، ولا تخجل من تشوفك إلى استخدام (الروابيت) في مصنعك، تريد (الروبتة) ولا تريد (الرابوت)؟ لو أردت الترجمة بالمعنى - و *Robot* التشيكوسلوفاكية معناها (الخادم) - لابتعدت عن ذلك اللفظ السقيم المركب - الإنسان الآلي - (الخَيْشُبان) في قصصك الشعبي - لأن (الرابوت) ليس بإنسان وليس بالضرورة على شكل إنسان - ولقلت مثلًا: (العفريت) (خادم الخاتم في قصصك الشعبي). ولكن هذا وذلك لا يصلحان لأنهما كليهما يشتبهان بمعان أخرى في لغتك، فلا يؤمن الخطأ واللبس على السامع والقائل، كما قلت في (التليفون): (الهاتف)، ولو شهده العرب القدماء لقالوا فيه: (طلفان)، ولاشتقوا منه فعلًا ومصدرًا (طلفن - طلفنة)، يبدلون من التاء في الجذر طاء كيلا يشتبه بمادة الجذر(تلف). هذه هي شروط (التعريب) الجيد المقبول في العربية:

(١) اختزال أحرف اللفظ الأعجمي إلى جذر رباعي - على الأكثر - كي يتاح الاشتقاق منه.

---

(١) سرط الطعام يعني التهمه.

(٢) تهذيب أصواته، أي حروفه، على مقتضى مخارج الأصوات العربية.

(٣) تجنب اشتباهه بجذر لفظ أصيل في لغتك.

إن لم يتسن لك ذلك كله مجتمعًا، فالترجمة أولى.

أما السقيم المقبوح، فهو استعارة أهل اللغة من أصحاب الحضارة الغالبة لفظًا أعجميًّا لا يحتاجون إليه، وعندهم مثله، كمن أراد العدول عن تحية الإسلام إلى تحية الجاهلية، فقال: (بُنْجُور *Bonjour* الفرنسية)، ولديه في لغته: (عِمْ صباحًا)، (وأصلها نعمت صباحًا)، وهي طبق الأصل من تلك، وتستطيع أن تجزم - كما أجزم - بأن هذا القائل بغير لغته في (بنچور) وأمثالها هو نفسه الذي يقول لك: لا مشكلة! (*No problem!*)، يريد: لا بأس! وهو في الحالتين - الرطانة والترجمة - ببغاء يهرف بما لا يعرف.

على أن الحديث عن أسباب هذا (التعريب) الببغاوي ونتائجه، ليس من مقاصد هذا الكتاب، وإنما الذي نعنى به هو ذلك التلاقح المحمود المحتوم بين اللغات، قديمها وحديثها.

* * * *

في التقليح والاستلقاح دلالة تاريخية - حضارية لا تخفى، ليست هي في كل حال أخذ التابع عن المتبوع، والمغلوب عن الغالب، فقد يأخذ الغالب عن المغلوب، والمتبوع عن التابع (كما في (بطاطة) التي استعارها الغزاة الأوروبيون عن أهل الأمريكتين، وكما (تفلسف) الرومان اللاتينيون على أيدي أرقائهم اليونان، مثلما أخذ اليونان عن القبط، والعرب عن الصين على ما مر بك). بل قد تتجاور الحضارات على استواء تجاور الأنداد، فيفضي بعضهم إلى بعض، دون استعلاء أو غضاضة، مثلما تجاور الفرس واليونان، والهند والصين، وآشور ومصر. الدلالة التاريخية - الحضارية للتلقيح والاستلقاح في اللغات، أي: دلالة السبق إلى المعنى بدليل السبق إلى اللفظ، لا سيما في المعاني المجردة مثل (تفلسف)،

وأسامي العدد والأدوات مثل (المنجل)، هي دلالة الأقدم وجودًا، الأسبق ارتقاء، الأفعل تطورًا: إنها دلالة الأستاذية أو التلمذة.

وإذا جاز لعلماء التاريخ ومؤرخي الحضارات الاستعانة في تأصيل مقولاتهم بهذا الشاهد اللغوي في جملة ما يتاح لهم من شواهد الأحافير والنقوش والمخطوطات، فليس من شأن اللغوي المحقق أن يفعل العكس، فيستدل بسبق حضاري مزعوم على سبق لغوي مفترض، بل عليه أن يترك لمؤرخي الحضارات مهمتهم، ويستقل هو بمهمته، فيبني مقولاته استنادًا إلى مباحثه اللغوية وحدها، غير متأثر بمقولات المتخصصين في غيرها؛ صحيحها ومنحولها، مغرضها وبريئها.

أصالة اللفظ في اللغة تبنى، أول ما تبنى، على وجود جذر أسبق منه، يستخدم فيها بمعان متعددة متقاربة يتوالد بعضها من بعض، نحت منها اللفظ المختلف عليه مادته.

من ذلك، مادة الجذر (قلم) بمعنى قطع وبرى. إنها الأصل العربي لأداة الكتابة الموصوفة في القرآن بالقلم [العلق: ٤]، فالقلم هو المقطوع المبري، أي: المحدد طرفه، والقلم أيضًا من أسماء (الزلم)، أي: العود يستقسم به، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[1]، وزلمه يعني قطعه، والقالم يعني العزب المنقطع عن الزواج. والقلامة هي ما يقطع من طرف الظفر والحافر والعود. وقلم الشجرة يعني أخذ من أطرافها لتقوى، فالقلم أيضًا بمعنى الغصن أو العود المقطوع من أمه، ولا شك أنه قبل اصطناع المداد، كان القلم من هذه العيدان، لا من القصب واليراع[2]، هو أول ما كتب به على عسيب النخيل ولحاء الشجر، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾[3].

لفظ القلم إذن، الذي وصفت به أداة الكتابة في السورة التي سميت باسمه ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[4]، وأداة العلم والتعلم في أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.
(٢) اليراع هو مطلق القصب (نبات القصب)، أو هو رقاق القصب.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٧.
(٤) سورة القلم، الآيتان: ١، ٢.

﴿ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]، لفظ عربي أصيل، منحوت من جذر عربي أصيل (ق – ل – م)، تدور معانيه على القطع والقط، وليس من حذاق اللغويين من توهم أن لفظة قلم الموضوعة في العربية لمطلق أداة الكتابة أيًا كان شكله ومادته – أي اسم جنس لكل ما يكتب به – لفظة مستعارة من اليونانية (كلمس) *Kalamos* لمجرد التشابه بين اللفظتين:

أولًا: لأن (كلمس) هذه في اليونانية لا تعني القلم بالذات، أي ليست هي في اليونانية اسم جنس لمطلق القلم، وإنما هي تعني القصبة واليراعة، ولا شك أن الناس قبل اصطناعهم القلم من القصب – والعرب بعض الناس – كتبوا بكل ما ينحت وينقش ويخط، بل كتب المصريون القدماء بالأزميل، وكتب الإنسان أول ما كتب بإصبعه مجردًا، وليس اليونان أول من كتب، بل إنهم تعلموا فن الكتابة من عرب الشمال (الفينيقيين)[2]، بدلالة لغوية قاطعة، وهي اصطناعهم الأبجدية الفينيقية برسومها وأسامي حروفها. والذي ينتحل الخط لا يبعد أن يستعير من أستاذه القلم.

وثانيًا: لأن العرب حين اتخذوا القلم من القصب بعد عصر القرآن سموا هذا النوع من الأقلام باسمه النوعي: (اليراعة)، وما كان لهم أن يستعيروا اسمه النوعي من اليونانية (كلمس) بمعنى القصبة أو اليراعة، ولديهم المقابل العربي الأصيل، إلا إذا زعمت أن العرب بالمعنى العام، أي سكان شبه الجزيرة، لم يعرفوا القصب – ذلك النبت الأنبوبي الذي يفشو في المناقع ومجاري الأنهار – قبل أن يعرفه اليونان، والعرب بالسبق إليه أشبه، وبالتعرف عليه عند أصحابه – جيرانهم المصريين – أولى.

وثالثًا: لأن اليونان حين اتخذوا العصي من كبار القصب، لم يسموا تلك العصا (كلمس) – أي القصبة – ولكنهم سموها (كنا) *Kanna*، أخذًا عن الفينيقية (قَنُو)، وهي نفسها (قنا) العربية، اسم جنس مفرده (قناة).

---

(١) سورة العلق، الآيات: ٣ – ٥.

(٢) فينيقيا هو الاسم الذي أطلقه اليونان قديمًا على من في قبالتهم من أهل الشام، وهي من (فوينوس) *Phoinos* اليونانية بمعنى الأحمر الداكن، ومن هذه *Phoinikas* اليونانية بمعنى (النخلة). فكأن الفينيقيين عند اليونان هم (أصحاب النخيل) أو هم (السمر في حمرة)، وكأنها من (أدومي) العبرية (جيران لبني إسرائيل)، قارن: (آدم) العربية، بمعنى الشديد السمرة، وهذا نفيس، فتأمله.

ومن هذه العصا ذات (العقل) اتخذ اليونان المقاس الذي تقاس به الأطوال[1]، وتوسعوا فقالوا *Kanon*، أي القانون الذي يقاس به ويقاس عليه. ها أنت ترى أن (القانون) لفظة عربية الجذر يونانية الاشتقاق فحسب، ولو كانت (كلمس)، بمعنى القصبة، أسبق وجودًا في اليونانية لقالوا في معنى القانون: (كلمون) *Kalamon* ولما قالوا (كنون) *Kanon*، بل لما استعاروا (قنو) الفينيقية أصلًا.

كان هذا بحثًا لغويًا مجردًا، أردناه مثالًا لكيفية التدليل على عجمة لفظة ما أو أصالته في لغة بعينها، لا نستطرد منه الآن إلى أمثال (الصراط)[2] و(القسطاس) و(إبليس)... إلخ، عند من قال بعجمتها في عربية القرآن من أدعياء الاستشراق المتطفلين على مباحث اللغة، الذين خبطوا في القرآن خبط عشواء - بعد أن أنكروا على القرآن أن يكون من عند الله، واستعظموا في الوقت ذاته على محمد ﷺ أن يستقل (بصنعه) دون أن يعينه عليه قوم آخرون - فخاضوا على غير علم في إثبات عجمة العديد من ألفاظه، استدلالًا بعجمة اللفظ على عجمة الفكر، فما أثبتوا إلا جهلهم وجهالتهم، وماتوا بغيظهم، وقد تابعهم للأسف أشياع لهم مسلمون عرب فيهم من تجله وتوقره، بل من لا تشك في علمه وإسلامه وعروبته، فلا تملك إلا أن تستغفر الله لهم.

وإذا كنا نعيب هذا التخبط وهذا الإسراف، فنحن لا نقصد إلى تنزيه العربية عن الاقتباس من غيرها، وقد مر بك أن التلاقح بين اللغات أمر محتوم، فوق أنه محمود مقبول حين تدعو

(١) عرف العرب (القصبة) مقاسًا للأطوال، وعرفها العبرانيون أيضًا، ولكنهم اشتقوها من (قني) العبرية - وهي (قنا) العربية - فقالوا: ((قَنِي هَمِّدا)) أي قصبة القياس (هَمِّدا = المدى). انظر أسفار العهد القديم في نصها العبراني: حزقيال ٤٠/ ٣ على سبيل المثال.

(٢) السِّراط (صراط في القرآن) مأخوذ من الجذر العربي (سرط)، و... انسرط الطعام في الحلق: لان وسهل فمرَّ سريعًا، فالسراط هو الطريق الواضح، لا عوج فيه ولا أمت، تسلكه ذلولًا مذللًا، وقريب منه اشتقاق (السبيل) فهو الرخى المرسل. وليس (الصراط) من ستراتا *Strata* الرومية اللاتينية (ومعناها (المرصوفة) أي الطريق المرصوفة *strata Via*)، فلم يعرف العرب الطريق المرصوفة حتى يصطنعوا لها اسمًا، وليست السهولة في (صراط) العربية من الرصف، بل من الاستواء والاستقامة.

إليه الحاجة. بل لا تخلو معاجم أي لغة من ألفاظ أعجمية الأصل. وليست العربية بدعًا بين اللغات. فلا غضاضة في هذا على العربية أو على غيرها.

ونحن ابتداء - ولنفس السبب - لا نحيل على القرآن أن يصطنع اللفظ (الأعجمي المعرب)، فليس هذا مما يقدح في عربية القرآن، وإنما هو يجليها؛ لأن الأعجمي المعرب بمجرد سيرورته على اللسان وإيناسه في الأذن، تنفك بالتعريب عجمته، وتستبين دلالته، فيصير (عربيًّا)، أي يفهمه العربي القح مباشرة، لحظة يقرع مسمعه. أما (الأعجمي الأعجم) الذي يقع في سمع العربي غريبًا بجرسه، مستغلقًا بمعناه، لا يفهمه إلا أن يترجم له، فمحال وقوعه في القرآن، دع عنك سماعه في أي قول فصيح.

ونحن كذلك - ولنفس السبب - نحيل على القرآن (اختراع) ألفاظ أعجمية لا سابقة بها للعرب ولا عهد، يلتقطها من الأعاجم ويعربها للعرب، فالأعجمي المعرب يظل أعجميًّا أعجم حتى تنفك عجمته بطول الاستعمال.

ثم.. ما حاجة القرآن إلى التعاجم على العرب بألفاظ من مثل الصراط والقسطاس[1]، ولديه في الفصحى جم وفير من الألفاظ في معنى (الطريق) ومعنى (العدل والميزان)؟ وإذا كانت (الصراط) و(القسطاس) من محدثات القرآن - وهما كذلك بالفعل - فهل اعتجمتا على العرب، أم فهموا على الفور أن الأولى من السراط والثانية من القسط؟ أم ظل العرب قرونًا لا يفهمون معنى القسطاس على سبيل المثال حتى فسرها لهم ذلك الدعي المستشرق[2]؟

(١) مر بك اشتقاق الصراط. أما القسطاس فهو من القسط، كررت فيه السين تفخيمًا وتغليظًا. والقسطاس أيضًا اسم جنس للميزان العدل لا جمع له، وإنما يجمع - على المعنى - بعبارة الموازين القسط، كما في قوله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. والجذر (قسط) أصيل في العربية، تجد له في الفصيلة السامية قرينًا من العبرية، وهو (قشط) الذي اشتقت منه (قاشاط) العبرية بمعنى الميزان.

(٢) ظنها الشقي من *Justus* اللاتينية نعتًا لما هو حق وعدل، وتندهش كيف خفي عليه أنها تبدأ بالحرف *J* الذي ينطقه اللاتين ياء، فهي عندهم (يستس) لا (جستس) التي تحورت ياؤها جيمًا الآن في الإنجليزية والفرنسية والإيطالية.

بل قد فهم العرب هذا وأمثاله منذ أن تلي عليهم؛ لأنه على جدته في الأذن - عربي الاشتقاق، يرده العربي سليقة، فور سماعه، إلى جذره المشتق منه. ولو كان لفظًا أعجميًا اخترعه القرآن في كلام العرب - لم تتحقق له سيرورة الأعجمي المعرب - بده أسماعهم، لما فهموه قط إلا أن يترجم لهم.

ثم... ماذا يريد ذلك الدعي المستشرق وأضرابه وأشياعهم؟ أينعون على القرآن أن أعيته العربية فتَسقَّط كلام العجم، أم يعيبون على العرب أن جهلوا معاني الصراط والقسطاس حتى ساروا في (صراط) بروما أو ابتاعوا بالموازين (القسط) في أسواقها؟

ألا ما أسخف هذا الكلام وما أحمقه!

ما أكثر ما خاض كفار قريش في مقام النبوة، وكم سفهوا وتسافهوا. ولكنهم ما جرؤوا في لدادتهم أن يمسوا القرآن بسوء، لا تقصيرًا ولا تعففًا. بل لو وجدوا في القرآن مغمزًا لما عفوا وما أقصروا. ولكن القرآن أعجزهم أن ينالوه بسوء، ولو ادعوا عليه العجمة لافتضحوا بين العرب.

بل ما أكثر ما قالوا - وقال الذين لا يعلمون مثل قولهم -: إنما يعلمه بشر. ما قالوه إلا إعظامًا لشأن القرآن - الذي أنكروا عليه الوحي - أن يعلم علمه عربي من العرب، ولكنهم سقطوا وأفحموا. قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[1]، أي لم تكتفوا بإنكار الوحي على القرآن، وإنما استكثرتم على النبي العربي أن تنحلوه إياه، فكيف بعيي أعجمي يلقنه كتابًا هو لب العربية ولبابها؟

هذه القدرة الفذة المذهلة على تعريب أعجمي القرآن وتفسيره بأدق معانيه - كما سترى - وهذا العلم المحيط في لغات درست بألفاظ يحار فيها إلى اليوم علماء اللغات وأحبارها، وهذا التصويب المعجز - كما سترى - لما وقر في وهم كتاب الأسفار وشراحها، أنى لبعض هذا أن يعلمه بشر؟

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

ولكن من دهاقنة هؤلاء الأدعياء من يدس لك السم في العسل، وربما استهواك العجب زهوًا بنبيك، واستخلفك الشيطان فطربت وانتشيت وهو يطري لك خير البرية دون أن يصليَ عليه: كان محمد أفصح العرب، وأحفظهم لما يسمع. كان محمد أبصر الناس بصيرة، وأقدر مصلح اجتماعي على صنع التغيير. كان محمد أعظم من قاد مسيرة التاريخ.. كان محمد عبقريًّا بين البشر!

نعم، كان ﷺ - بفضل من الله ونعمة - العبقري الفذ في تاريخ البشر.

ولكن.. حذار! لعبقرية البشر حدود، تتقاصر - مهما تطاولت - دون قطوف عظمة هذا القرآن وأكنافها.

أنت بإزاء عظمة هذا الكتاب المعجز أمام أمرين اثنين:

إما أن تصدق محمدًا في دعواه لوحي من الله، أو تؤله محمدًا!

ولكنك إن ألهته - معاذ الله - فقد كذبته، واستصغرته وتقمأته؛ كيف تؤله من ادعيت عليه الكذب؟

تلك هي المعضلة الكبرى أمام كل خائض في هذا القرآن، وهذا النبي.

وهي بذاتها أيضًا - ولله على عباده الحجة البالغة - وجه من وجوه إعجاز هذا القرآن، لمن أراد أن يتأمله.

* * * *

الفصل الثاني

الأعجمي المعنوي والأعجمي العلم

(١)

الأعجم أصل معناها (الأعوج)، من عجمه يعني لواه، ومنه عجم عوده، أي ثناه، يختبر صلابته. واعتجم عليك الكلام، واعتجم عليك اللفظ، أي التوى، فلا يستقيم له معنى عندك. ومنه أيضًا (العجماوات)، أي البهائم، التي تعتجم عليك أصواتها، أي تنبهم، فلا تفهم عنها ما تريد، ولا تعي ما تحاول هي أن تفصح عنه، فتظن بها البله، أو تظن بها الحبسة، وهي تتكلم بكلام لا يفهمه إلا بنات جنسها وحدهن[١]، كما لا تفهم أنت إلا كلام بني أمتك، إلا أن تتعلم لغة غير لغة أهلك. وصدق الحق سبحانه إذ يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[٢]، ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[٣]، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٤].

وسمي (الأجنبي) أعجميًّا، لأنه يتكلم لغة لا تفهمها. أنت أيضًا (أعجمي) عنده لأنك لا تفهم ما يقول، أو لأنك تقول ما لا يفهمه هو.

واللفظ (الأعجمي) هو اللفظ بلغة أعجمية، لا تفهم معناه، إلا أن تتعلم تلك اللغة، وهو أعجمي أيضًا لأنه يلتوي به لسانك. إنه في الغالب الأعم لفظ لا تستطيع النطق به على أصل وضعه عند أصحابه: ربما ثقل عليك وزنه، وربما حوى أحرفًا لا مقابل لها

---

(١) يكفيك في هذا قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [النمل: ١٨]، وأيضًا قوله عز وجل على لسان سليمان بن داود عليهما السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٣) سورة النور، الآية: ٤١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

في أصوات لغتك، فتحتال على نطقه قدر ما تستطيع، ولكنك لا تستطيع الاستمرار في المحاكاة والتقليد فتعود إلى سليقتك، وتنطقه محرفًا، بعد أن تهذبه وتنقح فيه، حتى يستقيم لك نطقه على وزن (عربي) بأصوات (عربية): ربما أسقطت حرفًا أو حركة، وربما زدت فيه أو أبدلت منه.

والأعجمي المنقح على هذا النحو - أي المصبوب في قوالب العربية وأوزانها، يسميه اللغويون (الأعجمي المعرب). وفي هذه التسمية إشارة إلى أن الأعجمي المعرب يظل أعجميًّا أيضًا بعد تعريبه، لا بحكم ما كان عليه؛ فقد استعرب لك، ولا بحكم دلالته على مسماه؛ فقد استبان المسمى، ولا بصورته؛ فقد استقامت على موازين العربية ومخارج أصواتها، وإنما هو يظل أعجميًّا بمادته، أي بجذره الأعجمي المشتق منه في لغة أصحابه، وهو جذر لا مفهوم له عندك. بل أنت تدرك من الأعجمي المعرب معناه في مجمله، ولا تدري مم نحت لفظه، أو تركب كي يؤدي هذا المعنى.

خذ مثلًا لفظة (سجيل)، ذلك الرجز الذي وقع على أبرهة وجيشه: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ [1] كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[2]، وعلى قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[3]. أنت في (سجيل) تقف عند المعنى العام. ولكنك لو أخذت برأي من قال: إن (سجيل) معربة عن الفارسية (سكيل)، بمعنى الطين المتحجر (سك = جاف، كِيل = طين) لأدركت ماهية السجيل ومادته في أصل معناه.

(١) أي السجيل جعلهم، لا الحجارة، بدلالة بناء الفعل للمفرد المذكر، السجيل إذن شيء ماديٌّ ما يرمى به، وليس واديًا في جهنم، أو سجل عذاب الكفار، كما تقرأ لبعض المفسرين، ربما استطعت إسناد هذا الفعل المفرد المذكر إلى ﴿رَبُّكَ﴾ في أول سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ...﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ ...﴾، ولكن ما قولك في ﴿سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ في الآية ٨٢ من سورة هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾؟ لا يوصف الوادي بأنه منضود، والسجيل كذلك.

(٢) سورة الفيل، الآيات: ٣ – ٥.

(٣) سورة هود، الآيتان: ٨٢ – ٨٣.

ومن طرائف الأعجمي المعرب أنه يعتجم على أصحابه الأصلاء حين ترد إليهم بضاعتهم (منكرة) متحورة: هب مثلًا أنك ممن يرون أن (المقوقس)، عظيم القبط، معربة عن اليونانية (مِجِسْتُس) *Megistos* (ومعناها (الأعظم)). وهبك أيضًا كلفت بترجمة رسالة النبي ﷺ إلى ذلك اليوناني المتمصر، أفتترك في ترجمتك اليونانية لفظ المقوقس على حاله أم ترده إلى أصله اليوناني (مجستس)؟ إن لم تفعل فلن يفهم عنك المقوقس ما تقول. وهبك كلفت بترجمة رد المقوقس على النبي، أفتقول في ترجمتك العربية: من (مجستس) إلى محمد ﷺ؟ إن فعلت فلن يفقه قارئك العربي ما تريد. وقل مثل هذا في رسالته ﷺ إلى عظيم الروم (هرقل)، وأصلها بالرومية هركليوس *Heraclius*، إمبراطور بيزنطة آنذاك، وإن كان المخاطب بها في واقع الأمر والي هرقل على الشام.

من هنا ترى أن اللفظ الأصيل في بلده حين يرتحل غريبًا في غيرها، يعود إلى أهله - حين يعود - بغير الوجه الذي ذهب به فينكرونه. شأن المغترب في مهاجره، يطول مكثه فتغيره السنون، قلقًا في مهاجره، قلقًا في أهله.

استعرب الأعجمي إذن للعرب، فاستعجم على أهله حين اهتجن.

على أن المستعرب يغدو عربيًا بالتقادم، والأعجمي في اللغة يغدو بعد ذهاب لكنته أصيلًا أو كالأصيل في مفرداتها، يخفى على غير المتخصص أصل منبته، كما ترى في لفظة (المهندس)، المأخوذة من الفارسية (هنداز) بمعنى القدر والحد، وكما رأيت من قبل في (ساذج) و(سجيل) و(المقوقس) و(هرقل) وأمثالها: الأعجمي المعنوي، والأعجمي العلم.

وهذا هو شأن أعجمي القرآن كله: معنويه وأعلامه.

والذي يستوقف النظر أن القرآن لم يسم أحدًا من معاصريه، لم يسم كسرى ولا قيصر أو غيرهما من العجم. وإنما الذي ورد في القرآن من أعلام عصره ثلاثة أسماء لا غير، كلها عربي: محمد ﷺ، ومولاه زيد رضي الله عنه، والذي تب وتبت يداه أبو لهب.

كانت الأولى فيما نرى - وقد وردت في القرآن خمس مرات إحداها بلفظ (أحمد) - تشريفًا - للنبي، وكانت الثانية تنصيصًا على دخول زيد بن حارثة بزينب بنت جحش رضي الله عنهما، وحلها من بعده للنبي تأكيدًا لبطلان بنوة المتبنى[1]، وكانت سورة المسد حكمًا قاطعًا بالتباب والخسران على شخص بعينه، وعلى امرأته حمالة الحطب، وامتناع قبول التوبة منهما، وأريد إعلان هذا الحكم لأبي لهب وقومه في هذه الدنيا، فكان لا بد من تسميته بالاسم، كيلا يختلف فيه أحد.

* * * *

(١) راجع الآيات ٣٧ إلى ٤٠ من سورة الأحزاب.

(٢)

أما الذي نعنيه بالاسم المعنوي - بعيدًا عن مواضعات أهل النحو والصرف - فهو الاسم المشترك الدال بذاته على معنى ما يجتمع فيه كل أفراده لا يشذ منهم أحد، نكرة ما لم يعرف بالإضافة أو بالألف واللام، عام لا يتخصص إلا بالإضافة أو النعت، يقبل بطبيعته الإفراد والتثنية والجمع، إنه بالتحديد أسماء الأفعال والصفات، وأسماء الجنس: أحيائه وجماده.

من ذلك أن لفظة (إنسان) تصدق على كل فرد من بني آدم. أما إن عرفتها بالألف واللام فهي مطلق (الإنسان). وتستطيع أيضًا تعريفها بالإضافة فتقول مثلًا: (إنسان العين)، تعني (بؤبؤها)، أعني صورة ذلك الإنسان التي يطل بها عليك محدثك كلما حدقت في عينيه، وهي صورتك أنت انعكست على بلورية عيني أخيك. وتستطيع أيضًا أن تثني وتجمع، فتقول: (إنسانان) وتقول: (ناس) و(أناسي). وقس على ذلك أمثال الزهرة والسنبلة، والنملة والهدهد، والصخر والحديد، والسندس، والإبريسم، والديباج، والأسد، والقسورة، والبحر والجبل، والشيخ والصبي، والغني والفقير، والصغير والكبير، وقس على ذلك أيضًا أسماء الأفعال من مثل (فلسفة) التي تجمع على فلسفات، أو (تعب) التي تجمع على أتعاب ومتاعب.

لكل من الألفاظ التي ذكرت، وأشباهها، كما ترى، معنى محدد في ذهنك وذهن محدثك، إن تحدثت به إليه فإنما تريد هذا المعنى بالذات، ولا تريد (شخص) من اتصف به أو وقع عليه، فكل الجبال جبل، وكل الآساد أسد، وكل الأثرياء ثري، وكل ما كان من الجمال بوجه فهو جميل.

بل حتى إن خصصت فقلت: هذا الأسد، فقد خصصت (أسدًا) ما بالإشارة، ولم تزد على أن سميته باسمه (المشترك) بين سائر بني جنسه.

وليس هكذا أمثال (زيد) أو (عمرو).

الاسم (المعنوي) يريد المعنى ولا يريد الشخص.

والاسم (العلم)، على النقيض من هذا كما سترى، يريد الشخص ولا يريد المعنى.

* * * *

يطلق الاسم (العلم) لا يراد منه معناه، وإنما يراد منه شخص المسمى ذاته، ناسبه الاسم أو تناقض معه.

خذ مثلًا ذلك الصديق الذي لم يُرَ قَطُّ عبوسًا، بل تلقاه دائمًا أبدًا منفرج الأسارير متهلل الوجه، ولكنك لا تنفك تناديه بما سماه به أبوه، فتقول: يا عباس! أو ذلك الشيخ الذي تمادى به العمر، وهو وليد. بل كم من عبلة عجفاء، وهيفاء ليست بهيفاء، أو خديجة لم يخدج بها[1].

ورب عمرو لم يعمر، أو زيد ولا زيد ثم ولا فضل. وليست (القاهرة) لمجرد اسمها وحده بالتي تقهر دائمًا الغزاة، وإنما سميت عاصمة مصر بهذا الاسم تيمنًا فحسب.

الاسم ههنا (علم) على ذات صاحبه، والعلم من العلامة، إنه مجرد رمز ترمز به إلى شخص أو شعب أو بلدة أو موضع، يلخص في ذهنك كل ما (تعرفه) عن ذلك الشخص أو الشعب أو البلدة أو الموضع، تعلم هذا أو ذاك بتلك العلامة التي اصطلحت مع محدثك عليها كيلا تختلط عليكما الأشخاص والأماكن، مثلما يعلم الأب أبناءه بتلك الأسامي التي يطلقها عليهم، لا يريد من التسمية إلا هذا، ولو سميت ابنك عمرًا بزيد وسميت زيدًا بعمرو، أو خالفوا في التسمية بين بغداد والقاهرة، لجاز، ولكنك متى سميت، فقد خرج الأمر من يدك لا تملك له تبديلًا؛ لصقت التسمية بالمسمى وانتهى الأمر.

(١) الخداج، النقص. وأخدجت الحامل: ألقت بولدها قبل تمام أيامه، وإن كان تام الخلق، فهو خديج.

الاسم العلم إذن هو اسم (الذات) مجردة من الصفات، لا معنى له - مهما كان أصل وضعه واشتقاقه - إلا تلك (الذات) التي يدل عليها في ذهنك وذهن محدثك، لا تختلط بغيرها.

ربما ثنيت فقلت (العمران)، ولكنك عندئذ تريد أبا بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ولا تريد أي أبي بكر وأي عمر.

بل ربما جمعت فقلت (المناذرة)، ولكنك تريد (آل المنذر) ملوك الحيرة، لا كل (منذر).

ومع أن الاسم العلم يطلق على كثيرين؛ أي يطلق نفس الاسم على (ذوات) متعددة، متجاورة أو متباعدة في الزمان والمكان، وربما تكرر اسم جد الحفيد، بل في مصر (إسكندرية)، وفي الولايات المتحدة صنوها، (وفي قرى مصر) (باريس) غير (باريس) عاصمة فرنسا، إلا أنك حين تتحدث بالاسم العلم فإنما تتحدث عن واحد بعينه، لا عن كل من تسموا باسمه، تريد الشخص أو الموضع، ولا تريد (سميه).

لهذا كان الاسم العلم (معرفة) بذاته، لا يتعرف بالإضافة إلى معرفة، ولا يتعرف بالألف واللام، وإنما يتعرف بالعلمية؛ لأن الإبهام لا يرد عليه، والمقصود منه (واحد)، ربما وقعت فيه الألف واللام، ولكن هذا مجرد حشو، كما في أمثال (القاهرة) أو (الحسن)، فأنت تعني في الأولى عاصمة مصر، لا اسم الفاعل المؤنث من (القهر)، ولا تقصد من الثانية صفة (الحسن)، وإنما تريد الحسن بن علي رضي الله عنهما، وربما جازت الإضافة في الاسم العلم، كما في (نيل مصر)، ولكنك تريد ذلك (النهر) الذي في (مصر)، فلا (نيل) في غيرها. كما تقول: (قاهرة المعز)، ولا (قاهرة) في ذهنك وذهن محدثك إلا هي.

من خصائص الاسم العلم أنه لا يوصف إلا على الخبر أو على البدل، ولا يوصف على النعت، لأن النعت يخصص، والاسم العلم متخصص بذات (علميته) لا يحتاج إلى مخصص. من ذلك قولك: (الله أكبر)، على الخبر، تنزه ذات الله عز وجل عن المثيل

والند، ولا تقول: (الله الأكبر) على النعت؛ لأن معنى هذا أن ثمة آلهة الله أكبرهم، وهو لغو أو تجديف، بل زلة ينقطع دونها اللسان، أشبهت بها عبدة الأوثان والأقانيم. أما الوصف على البدل فمنه قوله عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1]، أي: الحمد لله الذي هو رب العالمين، الذي هو الرحمن، الذي هو الرحيم... إلخ. فالله علم على ذاته تباركت أسماؤه، وسائرها بدل منه. ينطبق هذا بتمامه على قولك: زيد وفي، على الخبر، تنبئ محدثك بصفة لمستها في (زيد)، ومثله قولك: زيد الوفى، على البدل لا على النعت، وكأنك قلت: زيد، هذا الوفى... إلخ. متى نعت فقد لقبت على البدل من المنعوت، تؤكد لمحدثك ذاتية زيد الذي تعنيه، كيلا يختلط (الأزياد) عليه، كما في (محمد الفاتح) أو (الحسن البصري)، وكما في (الحسن بن علي) رضي الله عنهما. كل هذا على البدل لا على النعت.

على أن للاسم العلم - فوق اختصاصه بالدلالة على ذات صاحبه - معنى ما كان بالتأكيد وراء اختياره علمًا على أول من تسمى به، ثم جرى من بعد في أسماء الناس؛ ربما لمعناه، وربما لجرسه، وربما إعزازًا لعزيز تسمى به أو عظيم في أمتك ذي شأن. ربما جال بخاطرك هذا كله أو بعضه وأنت تختار اسمًا لمولود ولد لك.

ولكنه يمحي تمامًا من ذهنك بعدما اخترت وسميت، فلا يبقى لديك من معنى الاسم إلا جرسه، وإلا دلالته في سمعك وسمع محدثك على (ذات) المسمى، أي لا يبقى من الاسم إلا ذلك (الصوت) الذي تطلقه فيستجيب المنادى به، وكأنك حين تقول: يا زيد! لا تعني إلا (يا هذا)، لا أكثر ولا أقل.

وهذا يفسر لك لماذا تنبهم على كثير من الناس - بل وعلى أصحابها أحيانًا - معاني الأسماء الأعلام؛ إما لأنهم يطلقون الاسم ولا يتعمقون معناه، وإما لأن الاسم قديم موروث ولا يستعلن بمعناه إلا للباحث العكوف المتخصص. كم من زينب لا تعرف ما الزينب[2]،

(١) سورة الفاتحة، الآيات: ١ - ٣.

(٢) شجر حسن المنظر طيب الرائحة. راجع في معجمك العربي مادة (زنب).

وكم من خديجة ولا تدري أنها من الخداج. بل قد يكون الاسم من أصل أعجمي يفوت معناه على صاحبه، بل وعلى أبيه الذي سماه به، لا يدري من أي لغة هو وعلام يدل؛ لأنه لم يرد المعنى أصلًا، وإنما أراد الجرس، أو أراد شخصًا عزيزًا أو بطلًا، وربما أراد شخص نبي أو أراد ملكًا، كما في جبرائيل وميخائيل (جبريل وميكال في القرآن)، وكما في يونس ويوسف ونوح وإبراهيم، صلوات الله وسلامه على ملائكته وأنبيائه، ثم تمضي القرون، وتتكرر التسمية في أجيال وأجيال، ويذوب المعنى في الجرس فينسى، ثم يندثر.

وليس هذا وقفًا على العربية وحدها، ولكنه شائع ذائع في كل اللغات: كم فرنسية تعلم أن هنرييت[1] معناها (ست الدار)؟ وكم من جورج[2] (جرجس في مصر) يعلم أن معناها (الحارث)؟ وكم من كلود[3] (قلدس وأقلاديوس في مصر) يعتزي فخورًا إلى قيصر تسمى به (كلاوديوس) ولا يدري أن معناها (الأعرج) أو العرجى؟ بل كم من مارك[4] (مرقص في مصر) يدري أنها (المريخي) المزاج، أي الغضوب أو (الحربي) وأن مؤنثه مارسيل كذلك؟ وكم من راشيل (راحيل العبرية) تعلم أن معنى الاسم في العبرية هو (النعجة) أنثى الغنم؟ ربما لو توقف الناس عند معنى الاسم العلم لترددوا في التسمية، ولكنهم لا يتوقفون؛ إما لأن المعنى لا يعنيهم، وإما لأنهم جهلوه أو أنسوه.

وهذا يفسر لك أيضًا لماذا لا تجوز ترجمة الاسم العلم إلى معناها في اللغة المنقول إليها، وإنما الجائز فقط هو (تعريبه)، أي تهذيبه على مقتضى مخارج أصوات اللغة وأوزانها: يجوز لك تعريب (جيورجيوس) اليونانية إلى (جرجس)، ولا يجوز لك ترجمتها إلى (الحارث) أو الفلاح، لا تجوز لك ترجمة الاسم العلم إلا إذا كنيت وأبهمت، أو تظارفت، فقلت في

(١) *Henrieue* مؤنث *Henri* على التصغير من الجرمانية *HEINRICH* المركبة من *HEIN* بمعنى الدار، *RICH* بمعنى السيد.

(٢) جيورجيوس اليونانية المشتقة على التركيب من *GEO+ERGOS* (البادئة بمعنى الأرض واللاحقة بمعنى العامل) والمعنى: العامل في الأرض، وهو الحارث أو الفلاح.

(٣) من *CLAUDUS* اللاتينية ومعناها الأعرج. ومن هذه *CLAUDIUS* أي العرجى.

(٤) *MARCUS* نسبة إلى *MARS* أي كوكب المريخ ،إله الحرب عند الرومان.

معلقة (الحارث بن حلزة): قالها جورج بن حلزة! أو ناديت صديقك (رمسيس) (رع + مسيس المصرية القديمة) بقولك: ابن الشمس! أو أردت كمصري - مطلع هذا القرن - أن تخوض في (جورج الخامس) ملك إنجلترا التي كانت تستعمر مصر آنذاك، فقلت: الفلاح ابن الفلاح! تكني وتبهم، تخشى على نفسك سلطانه وحوارييه، وعيونه وأعوانه.

وكما لا تجوز ترجمة الأعجمي العلم إلى معناه في اللغة المنقول إليها، لا يجوز أيضًا الإبدال منه بمرادف من نفس اللغة في ذات معناه، كأن تنادي صاحبك زيدًا بقولك: يا فضل! ثق أن (زيدًا) لن يسمع منك، وإن سمع فلن يستجيب؛ ذاتيته هي (زيد) لا (فضل)، وإن تطابق المعنى.

وهذا يفسر لك أخيرًا - وهو بيت القصيد في كل ما سبق - ضرورة احتواء القرآن هذا الشطر من اللفظ الأعجمي، أي الأعجمي العلم، ضربة لازب، وهو يحدث بأخبار من لا تشك قط في عجمته ويقص عليك نبأ القرون الأولى، منذ بدء الخلق بآدم. ناهيك بالملأ الأعلى، وناهيك بيأجوج ومأجوج، وهاروت وماروت، وإبليس وفرعون، وعاد وثمود، وقوم لوط وأصحاب مدين.

وإذا كان قد وجد من علماء القرآن من ينكر البتة احتواء القرآن لفظًا أعجميًّا واحدًا، ولو كان من الأعجمي المعرب أمثال سندس وسرادق وإستبرق وقسورة. وبذلوا من الجهد، وأيضًا من الافتعال الشديد الوعر فيما يحسبونه ذودًا عن القرآن بإثبات أصالة هذا اللفظ أو ذاك في العربية ونفي عجمته، إذا كان هذا هو موقف بعض علماء القرآن من أعجمي القرآن، فهذا كله في باب الأعجمي (المعنوي)، لا في باب الأعجمي العلم، لأن العلم الأعجمي لا يصح فيه جدل.

ونحن لا نبتغي جدال هذا الفريق من العلماء في موقفهم من الأعجمي المعنوي في القرآن، وإن ألممنا به في سياق ما نكتب، لأننا في المقام الأول لا نريد أن نخوض بك في جدل يذهب بحلاوة ما هدانا الله إليه بفضل منه ونعمة، وهو تفسير أعجمي القرآن بالقرآن،

وثانيًا لأنه يخالف المقصد الأساسي لهذا الكتاب؛ لأن تفسير القرآن لأعجميه المعنوي - إن وجد - ليس فيه علم ولا إعجاز، وقد عرفها العرب (معربة) قبل القرآن لا تحتاج إلى تفسير.

وإنما الإعجاز كل الإعجاز أن تفسر في لغات شتى - بعضها دارس - علمًا أعجميًّا يفوت معناه على صاحبه، ويجهله أبوه، ناهيك بأساليب القرآن في هذا التفسير، كما سترى.

ربما خالف القرآن مبدأ عدم جواز ترجمة العلم الأعجمي كما ذكرنا آنفًا، أعني إسقاط الأصل الأعجمي جملة والإتيان به مترجمًا، على نحو ما فعل القرآن في أمثال (إدريس) و(ذي الكفل)، مما نتناوله فيما يلي من فصول هذا الكتاب.

ولكن هذه أيضًا من إعجاز القرآن. وسيأتي.

****

(٣)

يكثر في العبرية - كما في الآرامية - التسمية بالفعل المضارع مسندًا إلى المفرد الغائب، لا يعنون منها الفعل، وإنما يقصدون منها اسم الفاعل، وكأن (يقول) بمعنى (قائل) و(يسمع) بمعنى (سامع). ومن هنا كثرة العلم العبراني المبدوء بياء المضارعة، ومثال ذلك (يصحاق)[١] (إسحاق في القرآن) مضارع الفعل العبراني (صحق) (وهي ضحك العربية)، التي لا يقصد منها الفعل (يضحك)، وإنما يقصد منها اسم الفاعل من (ضحك)، أي (الضاحك)، وهذا هو اسم نبي الله إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وقد سمى العرب بمعناه على المبالغة، فقالوا: (الضحاك).

وللتسمية بالفعل المضارع نظير باق في العربية، تجده في أمثال (يزيد) و(يثرب) و(ينبع). والأصل في هذا أن الفعل المضارع يتضمن معنى الاستمرار، فيصلح للحال كما يصلح للاستقبال، والتسمية به تسمية على التيمن والتفاؤل، أي (يضحك) وسيظل، فهو ضاحك وضحوك.

وقس على ذلك أمثال (يعقوب) ومعناه العاقب، و(يوسف) بمعنى يزيد.

****

(١) الصاد السامية، كالصاد العربية، ينطقها يهود العراق صادًا على أصلها، وهو الصحيح. ودع عنك ما تسمعه في العبرية المعاصرة من مثل نطق هذه الصاد بالحرفين ت س، كما في (يتسحاق شامير). تلك (صاد) تحورت عند يهود الشتات بالنطق الجرماني للحرف Z *(tset)*. قارن أيضًا (إيزاك) *Isaac* الفرنسية بمعنى إسحاق.

والذي يستوقف النظر هو سكوت (علماء بني إسرائيل) الذين عاصروا القرآن وعايشوا مفسريه إبان الدولتين الأموية والعباسية عن (تصويب) ما وقع فيه بعض هؤلاء المفسرين الذين تصدوا بغير علم - ولا سند من قرآن أو سنة - لتفسير معاني الأعلام الأعجمية في القرآن - وخاصة أعلام أنبياء بني إسرائيل وكلها عبراني - بالعربية وحدها، فقالوا على سبيل المثال: إن إسحاق من (السحق)، ويوسف من (الأسف)، ويونس من (الإيناس)، في حين أن أبسط علم بالعبرية - ناهيك بيهودي من أهلها- يكفي كي تعرف أن يونس يعني حمامة، وأن يوسف يعني يزيد، وأن إسحاق يعني ضحوك، لا سحق ثَمَّ ولا انسحاق.

وربما بلغ بك العجب وقد علمت أن من علماء بني إسرائيل هؤلاء من أسلم على عصر الرسول حقًّا وصدقًا فحسن إسلامه، بل ومنهم من زكاه الحق تبارك وتعالى فقال فيه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾[1]، كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2].

فكيف سكت أمثال هؤلاء عن هذا العبث، وهم من هم في العلم بالعبرية التي يتدارسون بها التوراة؟

يدفع هذا الاعتراض أن تفسير أسماء الأنبياء لم يثر على عهده ﷺ، ولم يؤثر عنه في المسألة حديث صحيح، وإذن فلم يكن بأمثال ابن سلام ومن في طبقته ورتبته حاجة إلى الرد أو إلى التصويب.

أما من جاءوا من بعدهم من يهود أسلموا فحسن إسلامهم، أو يهود أسلموا تقية ولما يدخل الإسلام في قلوبهم، أو يهود ظلوا على يهوديتهم، فهؤلاء وأولئك فرق: الفرقة الأولى مسلم حسن إسلامه فانقطعت صلته بتوراته وعبريته، والثانية يهودي أسلم على دخل يريد أن يترك وشأنه لا يُزَنُّ بريبة فيبرأ من توراته ومن عبريته، لا يسمع له في المسألة

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٠.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٩٧.

قول وإن علم، والثالثة يهودي في دار إسلام انقطعت صلته بالعبرية ولم تنقطع بالتوراة، ولكنه لا يعلم التوراة إلا (أماني)، أي: تلاوة فحسب، لا يفقه كثيرًا مما يردده في صلواته وأذكاره، شأن مسلم فلبيني لا يعرف من العربية إلا (الفاتحة) التي لقنها في طفولته ليقرأ بها في صلاته، أو شأن قبطي في مطلع القرن الرابع الهجري لا يفهم إلا العربية وحدها يقرأ في صلواته من إنجيله اليوناني، مثل هذا ينأى بنفسه عن مواطن الزلل فيحاذر الخوض فيما لم يعد له به علم.

أما الفرقة الرابعة، المعنية باللوم، أو المعنية بالتساؤل، فهم أحبار اليهود ورؤساء الملة، المتضلعون من العبرية ومن التوراة، المتقنون العربية كأبنائها ومثقفيها. لماذا سكتوا؟

أفلم يكن من بينهم من يعلم أن يوسف ليست من الأسف وإنما هي بمعنى (يزيد)؟ أوليس تفسير اسم يوسف واردًا بنصه العبراني على لسان والدته (راحيل) حين وضعته: (وتِقْرا إتْ - شِمُو يُوسِف لِيمُرْ يُوسِفْ يِهْوَا لِي بِنْ أحِير)، (يعني) ودعت اسمه يوسف قائلة: يزيدني يهوا ابنا آخر. (أي سميته يزيد ويزيدني الله ابنًا آخر)؟[1].

هل سكتوا يأسًا أن يصدقهم أولئك المفسرون وقد وصم القرآن آباءهم من قبل بالكذب على التوراة؟

أم سكتوا ضنًّا بعلمهم أن يُعِينوا أولئك المفسرين على تصويب أخطائهم؟ أي: سكتوا ضغنًا على الإسلام وأهله أن يمنعوا من اللغو في قرآنهم؟

أم لم تكن لمفسري القرآن وأصحاب السير صلة بأحبار يهود؟

كيف وقد نقلوا عنهم ما نقلوه من (إسرائيليات) واضحة الزيف، ليس أقلها ما يروى عن (كعب الأحبار) من قوله في سورة (آل عمران): اسمها في التوراة طيبة! فلا تدري - وليس في التوراة من هذا شيء - أساءت طوية كعب فقالها تملقًا وتدليسًا، أم قالها تعالمًا بما لا يعلم؟

---

(١) تكوين ٣٠/ ٢٤

قل في هذا أو ذاك ما شئت، فقد كان من هؤلاء الأحبار مخلص ليهوديته، باق على وهمه، القرآن عنده مدسوس كله على الله عز وجل، حبذا لو لغا فيه بعض أهله، ولكنه يئس من مناطحة القرآن بالتوراة أو لعله جبن، فانصرف إلى توراته لا يسمع منه قول في غيرها. وكان منهم أيضًا الذي كاد للقرآن وأهله، بكتمان ما علمه الله، أو بالتزييف على التوراة، آمنًا ألا يفضحه مسلم يجهل العبرية ويصدف عن مطالعة التوراة. وكان من هؤلاء الأحبار أيضًا - لا نشك في هذا - أولئك الذين وصفهم الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[1].

أما الذي يجب أن تعلمه أنت وتطمئن إليه، فهو أن التوراة عصر تصنيف تفاسير القرآن، بل وإلى عصر جد متأخر، لم تحظ ببحث لغوي نقدي تحليلي جدير بهذا الوصف، وأن الذين ضربوا بسهم موفور في هذا البحث كانوا - على عكس ما قد تظن - مسيحيين مؤمنين أو ملحدين يرون جميعًا أن التوراة جزء لا يتجزأ من كتابهم المقدس، على خلاف ما بينهم في التفسير بالهوى أو بالعقيدة.

ولكن القرآن سبق ففصل.

ليس (يوسف) من الأسف، وليس بالضرورة (يزيد). القرآن يدلك على معنى آخر لاسم هذا النبي الكريم، الذي ائتمر به إخوته فكان (ضيف) الله في (الجب)، وكادت له النسوة والتي هو في بيتها فكان (ضيف) الله في (السجن). وشاء عز وجل - بيوسف - أن يوطئ لبني إسرائيل في مصر كي يخرج من بينهم - وليس شيء على الله بعزيز - من ينشأ في بلاط طاغوت علا في الأرض، يتخذه ولدًا ليكون له من بعد عدوًّا وحزنًا، يلتقط موسى من اليم ليدسه موسى في ظلمات اليم الأعظم بعد أن أقام الله عليه الحجة. ما كان لرسالة موسى عليه السلام أن تولد في قصر فرعون لو لم يأت الله بيوسف من قبل (ضيفًا) على مصر عند ملك يستخلصه لنفسه فيقيمه على خزائن الأرض، ويستأذن يوسف الملك فيأذن له في الإتيان بأهله إلى مصر جميعًا، ليتم الدور المقدور لهذا النبي الكريم: (إيواء) بني إسرائيل أو (حضانتهم) في مصر إلى حين؛ فتنة لفرعون سيأتي حينه، وإرصادًا له بنبي مصري، من

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

ذرية إبراهيم الآرامي - العبراني، عبر إسحاق، كما سيحدث بعد نحو ألفي سنة أو أقل، بنبي عربي من ذرية إبراهيم أيضًا، عبر إسماعيل، صلوات الله وسلامه على رسله وأنبيائه، يهدم به الله الطواغيت أجمع، على فارق في مدى ما بين الرسالتين عظيم.

نعم، كان يوسف عليه السلام (ضيف) الله في مصر، وكان عليه السلام أيضًا لبني إسرائيل في مصر (الآوي) المضيف[1].

وتندهش إذ تعلم - كما سترى - أن اسم النبي يوسف عليه السلام الذي ينطق في العبرية بكسر السين، يعني أيضًا، بنفس النطق في العبرية، (الآوي) المضيف.

فأي إعجاز، وأي علم!

****

على أنك قد تلتمس العذر لأولئك المفسرين الذين اعتمدوا في تفسير أسماء أنبياء بني إسرائيل على المعجم العربي وحده، فالتشابه القوي بين جذور اللغتين من نفس الفصيلة - أي بين العربية والعبرية على ما مر بك - قمين بالأشباه، إن تصب مرة فقد أخطأت مرات، لا يكفي أن تكون لفظة (عين) العربية هي نفسها (عين) العبرية - الآرامية كي تقرر دون تثبت، ودون الرجوع إلى المعاجم العبرية - الآرامية، أن اسم زوج إبراهيم عليهما السلام (سارة) من السرور، أو أن اسم نبي الله (نوح) عليه السلام من النواح، أو أن اسم (يوسف) عليه السلام مشتق من الأسف على نحو ما قال بعضهم، كما مر بك. نعم، قد أصابوا في أن (يعقوب) من العاقبة، وهو صحيح، ولكن ما كل مرة تسلم الجرة كما يقول المثل.

وأنا أيها القارئ العزيز - إن كنت لا تعرف عبرية التوراة أو يونانية الأناجيل بما في هذه وتلك من أعلام آرامية، بل ومصرية أحيانًا - لا أريد لك أن يفوتك شيء من حلاوة بحث أريد أن أحبره لك تحبيرًا، أريد منك أن تشترط عليَّ توثيق ما أحدثك به، فلا أكيل

(١) الفعل (أوى يأوي أويًا) فعل لازم ومتعد، يصلح أيضًا بمعنى آواه إيواء، أي استضافه، وهو المقصود هنا.

لك القول جزافًا آمنًا ألا تكشف زيفي؛ لأنك لا تعلم شيئًا من أمر تلك اللغات التي ذكرت لك. ليس هذا من العلم في شيء، وإنما هو من التدليس، كمن قال لك: إن (إبراهيم) تعني (الأب الرحيم) لمجرد أنه يرى أن (رحيم) العربية تقابل (رهيم) في الآرامية، ولا تملك أن ترد عليه، فهي كما قال، لأنك لا تدري ما الخطأ وما الصواب في لغة لا تفهمها، ولا علم لك بأن (رهيم) هذه لا وجود لها في الآرامية، ولا في العبرية كذلك، وأن (الرحمة) في هذه وتلك جميعًا بالحاء لا بالهاء، كالعربية تمامًا. كان على مثل هذا القائل أن يدلك علام استند في اشتقاق تلك اللفظة التي ابتدعها في الآرامية، أو على معجم آرامي وجد جذرها فيه، أو على موضع في التوراة (أو ترجمتها العربية) يفسر معنى (إبراهيم) بالأب الرحيم. مثل هذا القائل الذي لا يحترم عقلك لا يصح أن توليه ثقتك، بل عليك أن تكون منه دائمًا على حذر في كل ما يقوله لك، بل ما أدراك أن (إسحاق) هي (يِصْحَاق) أو أن (يِصْحَاق) تعني (الضَّحوك)، أو أن (يونس) هي (يونا) وأن (يونا) يعني (حمامة)، إلى آخر ما دبجته لك أنا فيما سبق وأمثاله مما سوف يلي؟ لا تقبله مني إلا إذا وثقته لك، ورجعت بك معي إلى مراجعي فيه.

فأنا لا أرضى لك متابعتي متابعة صماء فيما أحدثك به، فتسلم لي بكل ما أقول، تاركًا العهدة علي فيما أقصه عليك، ولا أرضى لك أيضًا أن تقفز على التفاصيل سريعًا إلى نتيجة تشبع لديك فضولًا ربما استثاره عنوان هذا الكتاب، أي إلى معرفة مجملة لمعنى العلم الأعجمي في القرآن - أشخاصًا ومواضع - غير مبال بالاشتقاق والتأصيل وكأن هذا أو ذاك لا يعنيك. إن فعلت، فسوف يفوتك الكثير؛ لأن هذه التفاصيل لا تخلو من أسرار هذا اللون من إعجاز القرآن الذي أريد أن أدلك عليه.

ثق أنني لن أشق عليك بعون الله. عليك فقط بالتؤدة والأناة، وأنا ضامن لك بإذن الله ألا تمل.

****

على أن القرآن لا يكتفي بتفسير أعلامه الأعجمية - موضوعنا في هذا الكتاب - ولكنه يفسر أيضًا اللفظ العربي الأصيل المجعول في حكم العلم من مثل (الملك) واحد الملائكة صلوات الله عليهم، أو من مثل (الشيطان) إبليس اللعين، مما تفاوت اللغويون العرب في تحديد أصل اشتقاقه في العربية، ومن ثم تفاوتوا في تأصيل معناه لا يقطعون فيه بيقين. ولكن القرآن سبق فحسم الخلاف وأصّل المعنى.

من ذلك ما تلاحظه من تردد المعجم العربي في اشتقاق لفظة (الملك) واحد الملائكة، أو مطلق جنس الملائكة، هل هو من (الملك) و(الملكوت)، أم هو من (الإلاكة) و(الملأكة)؟ إن كانت الأولى فهو المِلْك المملوك، وإن كانت الثانية فهو الرسول المرسل.

أما (الملك) في القرآن فهي تسمية بالمصدر الميمي (مفعل) من الجذر لأك ومقلوبه ألك[1]، فهو (الملأك) على المصدر، بمعنى الرسالة والرسول، سهلت فيها الهمزة فصارت (الملك). وهي نفسها على التطابق في الآرامية والعبرية، بل وفي الحبشية أيضًا، ملاك، بإثبات الهمزة وتسهيلها، وتنطق في الآرامية والعبرية بالخاء: (ملآخ) و(ملاخ) لتحرك ما قبل الكاف كما مر بك. وعبرية التوراة لا تفرق بين (ملآخ) بمعنى (المَلَك) وبين (ملآخ) بمعنى (الرسول). وإنما هما فيها واحد، كما تجد في سفر حجاي: (وَيُّمِرْ حَجَّاي مَلآخ يِهْوَا بملأخوتْ يهوا)، أي: ((وقال حجاي رسول الله برسالة الله))[2] فتفهم أن (ملآخ) و(ملأخوت) العبريتين بمعنى الرسول والرسالة، لا (المَلَك) أو (الملكوت).

الملك والرسول إذن واحد في أصل معناهما، ولكن عربية القرآن تخصص لفظ الملك لرسل الله من أهل السماء؛ تفرقة بينهم وبين رسل الله من أهل الأرض، صلوات الله وسلامه على ملائكته وأنبيائه. ولعلك تلمس هنا الدقة البالغة لهذا القرآن من نصه في سورة الأحزاب على (خاتم النبيين) ولا يقول (خاتم الرسل)، ليس فقط اكتفاء بدلالة العام على الخاص كما

---

(١) لأك ومقلوبه ألك - بنفس المعنى - يعني أرسله برسالة.

(٢) حجاي ١١:٣.

مر بك[1]، وإنما وبالأخص لأن محمدًا ﷺ إنما ختمت به الرسل من أهل الأرض فحسب، ولا ختام لرسل الله من أهل السماء، أي: الملائكة صلوات الله عليهم؛ لأن الرسالة بهم في ملكوت السماوات والأرض لا تنقطع.

أما أسلوب القرآن في النص على أن (الملك) معناها (الرسول)، فهو التفسير بالترادف على التجاور، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[2] في مقابل قوله عز وجل: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[3]، وقس على ذلك قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[4]، وإبدال (الرسل) من الملائكة مطلقًا، أي إثبات (الرسل) في موضع الملائكة، في مثل قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[5]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[6]، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾[7]، ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾[8]... إلخ، والرسل في هذا كله تعني الملائكة بلا خلاف.

أما لفظة (الشيطان) علمًا على إبليس اللعين، فقد اختلف اللغويون والمفسرون في نونه هل هي زائدة فتكون (شيطان) على وزن (فعلان) من شاط يشيط شيطًا أي احترق، حكمًا على الرجيم بمآله، أم هي أصلية فتكون (شيطان) على وزن (فيعال) من شطن يشطن شطونًا، أي بعد فهو الخاسئ المبعد، أو شطنه شطنًا أي ناوأه وخالفه في القصد والوجهة، فهو المناوئ المعاند؟

(١) راجع في مقدمة هذا الكتاب الحاشية الأولى.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.
(٤) سورة الحج، الآية: ٧٥.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٦) سورة يونس، الآية: ٢١.
(٧) سورة هود، الآية: ٦٩.
(٨) سورة هود، الآية: ٧٧.

والصحيح - بمقتضى (النحو) وحده - أنها (فيعال) من شطن، وليست (فعلان) من شاط؛ لأن (فعلان) كما تعلم يمتنع تنوينه، و(شيطان) مصروفة في كل القرآن، منونة بالألف نصبًا، في مثل قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[1]، فهو الخاسئُ المُبْعَدُ المناوئُ المعاندُ.

أما (سَطَنَ) العبرية - الآرامية، ومنها (ساطان)، أي (شيطان) العربية، فهي في العبرية - الآرامية بمعنى المناوئ المخاصم، أي العدو، والعداوة في العربية من المعاداة، أي المباعدة والمناوأة والمخالفة، ومنها (العُدْوَة) أي شاطئُ الوادي وجانبه، تقف فيه قُبالة الواقف في (العُدْوَةِ) الأخرى.

ولأن (الشيطان) عند الجاهليين لم يكن علمًا على إبليس اللعين، وإنما كان مرتبطًا في ذهنهم الوثني بنقيض معناه اللغوي، فكان عندهم بمعنى المُوالي المعين على الإتيان بالأمر العبقري أو الطريف المُعْجِبِ، كما تجد في مثل (شيطان) الشعر وغيره[2]، فقد رده القرآن إلى أصل معناه في اللغة، أي العدو المناوئ المخالف.

أما أسلوب القرآن في تفسير الشيطان بالعدو، فهو إيراد اللفظتين على التجاور في أكثر من آية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[3]، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[4]، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[5]، ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[6]، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[7]، ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[8]،

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.
(٢) قارن في اللغات الأوروبية الحديثة *Demon* و *Diable* الفرنسيتين، الأولى بالمعنى الحميد، كشيطان الشعر وغيره، والثانية الشيطان نفسه.
(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٦٨، ٢٠٨.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٥.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٦) سورة القصص، الآية: ١٥.
(٧) سورة فاطر، الآية ٦.
(٨) سورة يس، الآية: ٦٠.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1] وغيره كثير.

لو التفت اللغويون والمفسرون إلى هذا التنصيص القرآني على معنى (المَلَكِ) ومعنى (الشيطان) لما ترددت فيهما المعاجم، ولما تخبط المتحذلقون المتفيهقون.

ولكن.. لم يَفْطِنْ إلى هذا من اللغويين والمفسرين أحد.

هذا الجناس المعنوي المفسِّر، إعجازٌ مقصود.

وكما فات هذا الإعجاز مفسري القرآن من أهلِه، فقد اعتجم أيضًا على أدعياء الاستشراق المتطفلين على مباحث اللغة، الذين وهموا أن القرآن - على أصالة لفظي (المَلَك) و(الشيطان) في العربية - استعارهما رأسًا من (التوراة) على العلمية المجردة من المعنى في (ملآخ) و(ساطان).

ولكنك لا تستكثر شيئًا على مرضى الهوى والغرض. أما إن أضفت الجهل والجهالة فحدث ولا حرج. قد قالوا مثله[2] في (فُرقان) و(صِدِّيق) و(طهارة) و(صدقات) و(زكاة)، بل وفي (سُلَّم)! ناهيك برب العالمين! هذا كله صَغَارٌ يُضلون به القارئين لهم، وما يضلون إلا أنفسهم، فأوْلَى لهم، ثم أوْلى لهم.

* * * *

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٢.

(٢) *Joseph Horovitz. JEWISH PROPER NAMES AND DERIVATIVES IN THE KORAN. Georg Olms Verbuchhandlung. Hildesheim. 1964.*

(٤)

مر بك أننا نكتفي في هذا الكتاب بتفسير العلم الأعجمي في القرآن، لا نتجاوزه إلى أعجميه المعنوي - إن سلمت بوجوده - لأن مقصد الكتاب هو استجلاء إعجاز القرآن في تفسير المختلف فيه الذي لا علم للعرب بمعناه، لا الأعجمي المعنوي الذي عربوه من قبل وتكلموا به.

أما لب هذا الوجه من إعجاز القرآن، فمداره أيضًا على (العِلْمِ). القرآن يعلِّم علماء التوراة والإنجيل، أحبار الآرامية والعبرية على عصر النبي ﷺ وفي كل عصر، السابق واللاحق، والخائضين في أسرار اللغة المصرية القديمة منذ القرن الماضي فحسب، علم ما لم يعلموه أو ترددوا فيه؛ جهلوه أو أنسوه.

ولعلك تذكر أن كفار قريش وأهل الكتاب في يثرب ونجران، شأنهم شأن أدعياء الاستشراق في هذا العصر، اتهموا القرآن بالأخذ من الكتب السابقة، وبالنقل عن الأحبار والرهبان من يهود ونصارى، قالوا حين يتفق القرآن مع التوراة والإنجيل: سمع فأدّى، ما أحفظه وما أوعاه! وقالوا عكس هذا تمامًا حين يعارض القرآن كتبهم التي بين أيديهم: تشوشت في ذهنه الأمور، واختلطت الرؤى والأحلام، وتحرفت عليه الوقائع والمواقع والأعلام! فما (آزر) هذا الذي يسميه أبًا لإبراهيم وهو (تارح)؟ أليس قد تحرف عليه اسم (لعازر) خادم إبراهيم فظنه أباه؟ وما (طالوت) تلك التي يسمى بها (شاءول) ملك بني إسرائيل؟ وما (مريم) أخت موسى وهارون التي يخلط بينها وبين (مريم) أم عيسى؟ أين ذهبت حافظته؟ أين إتقانه؟ وما شأن ذلك السامري الذي صنع العجل من ذهب لبني إسرائيل في التيه؟ ألم يلقنه الأحبار أن الذي صنع العجل هارون؟ وما باله ينكر الصلب على (عيسى) ويثبت تشريف الله إياه برفعه

إليه؟ أغاية همه تبرئة الطبقة التي ينتسب إليها - الأنبياء بزعمه - من الدنية والنقيصة[1]، كما فعل في (سليمان) الذي أسجدته زوجته الوثنية للصنم فسجد، وأبى عليه هو ذلك، فقال في (قرآنه): ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾[2]؟ إلى آخر ما قالوه، فخبُّوا وأوضعوا.

ولعلك تذكر أيضًا رد القرآن على هؤلاء الخائنين أنفسهم؛ جادلهم في دعوى النقل بمحض عربية القرآن، الذي تحدى العرب أنفسهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، فكيف بعيي أعجمي يلقنه إياه؟

ولعلك تعلم أيضًا أن التوراة والإنجيل لم يترجما إلى العربية إلا بعد قرون من نزول القرآن، فمن أين أوتي العلم بهما؟ بله ما كان يقرأ قبله من كتاب.

ومن أين له العلم بالعبرية واليونانية وهو يلحن في أسماء الأعلام ويخلط بين خادم إبراهيم وأبيه؟ كيف يسمعها (لعازر) وتتحرف علية إلى (آزر)؟ أثمة عربي لا يحسن نطق العين؟ أم إنجليزي هو أو فرنسي تتحرف عليه (لعازر) إلى (لازار)؟

والقرآن لا يلتفت إلى هذا الهراء، ولكنه صفع المكابر المتعنت المتعالم بالقاطعة الباترة من قوله عز وجل: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

وقد كان من بين الذي علمه الله ولم يعلموه - (آزر) هذه نفسها التي يحاجون بها القرآن، كما سترى.

---

(١) قالها همزة لمزة، أبعده الله، يتفكه بها على الصادق المصدوق ﷺ، فتعجب له وهو الفيلسوف الملحد (برتراند رسل)، يعلى رواية الإنجيل عن صلب المسيح على قول القرآن: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] وكلا الكتابين بزعمه أساطير رواة، ولكن مسيحيته التي يتنكر لها غلبت عليه. إنه الانتماء لا الإيمان. لا يبرأ من هذا ملحد من أبناء أي دين. راجع قوله هذا في كتابه: BERTRAND RUSSELL. *«History of Western Philosophy»*, *George Allen & Unwin. London. 6th impression. 1957. P. 345.*

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٦.

أما الذي لا يعلمه كثيرون فهو أن علماء الآرامية والعبرية الذين عابوا (آزر) على القرآن، لا يعرفون إلى اليوم معنى (تارح) اسم أبي إبراهيم في التوراة، لا يهتدون إلى الجذر المشتق منه في الآرامية والعبرية، ولا يتفقون على معنى (إسرائيل) شهرة يعقوب عليه السلام، ويسيئون فهم معنى اسم (موسى) عليه السلام بإصرارهم على تفسيره بالعبرية (موشيه) على زنة الفاعل في العبرية من (مشا)، (ومقابلها في العربية مسا / يمسو بمعنى سل، أي أخرج، ومنه مسا الناقة يعني أخرج الولد من بطنها ميتًا)، فيخطئون النحو العبري؛ لأن مرادهم من التسمية أنه (المَمْسُوُّ) (من الماء، إشارة إلى التقاط آل فرعون إياه من اليم) لا (الماسي)، (والماسي هو فرعون وآله لا موسى)، والتسمية بالفاعل على قصد المفعول غير واردة في العبرية، فالتفسير مفتعل. وهم أيضًا لا يقطعون برأي في معنى (هارون) (أهارون في العبرية) اسم أخي موسى عليهما السلام، هل هو من الخفة والنشاط (من الجذر (أَرَنْ))؟ أم هو من العلو والاستكبار والنفخ (من الجذر (يَهَرْ))؟ إلى آخر ما نعرض له فيما يلي من فصول هذا الكتاب، استكشافًا لمعنى العلم العبراني في القرآن[1].

والذي يجب أن تعرفه أيضًا، وبالأخص، أن أقدم نسخة للتوراة التي بين يديك لم تكتب على عصر موسى وخلفائه، ولم تكتب على عصر داود وسليمان، وإنما كتبت (من الذاكرة) بعد هدم الهيكل وعودة اليهود من سبي بابل، وأيًّا ما قلت في أمانة الكاتب وحفظه وتقواه، فأنت لا تحيل عليه الخطأ في الحرف والكلمة؛ آية ذلك ما تجده في حواشي التوراة العبرانية تعليقًا على صحة النطق في بعض الكلمات بعبارة: (كِتِيف...: قِري...) (أي: كُتِبَتْ كذا وتُقْرَأُ كذا). ومن ذلك أيضًا التردد في هجاء بعض الأعلام، من مثل (يوسف)، التي كتبت (يِهُوسِفْ) مرة واحدة لم يعلق عليها أحد.

والذي يجب أن تعرفه أيضًا أن النص العبراني للتوراة التي بين يديك، والذي مر بك أنه

(١) راجع في هذا وأمثاله معجمهم التحليلي العبري - الآرامي لألفاظ التوراة.

Benjamin Davidon. The Analytical Hebrew & Chaldee Lexicom. Regency Reference Library. Zondervan Publishing House. Grand Rapids. Michigan. 49506.

مستنسخ من الذاكرة إثر عودة بني إسرائيل من سبي بابل بعد حوالي ثمانية قرون من وفاة موسى عليه السلام، ظل أيضًا نصًّا غير معجم، أي غير مقيد بالشكل والنقط، يلحن فيه قارئه، مثقفًا وغير مثقف[1]، لا سيما بعد تراجع العبرية على الألسنة وحلول الآرامية محلها في ربوع فلسطين منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وقد تصدى لتحقيق النص بالنقط والشكل والتعليق على صحة النطق، في مدى ثمانية قرون، من القرن الثاني الميلادي إلى القرن العاشر، طائفة يدعون (بَعَلِي مَاسورا)، أي: (أهل الأثر)، حفاظ المأثور المتلقن.

ولك أن تتصور ماذا يمكن أن يحدث لنص أعيدت كتابته من الذاكرة بعد وفاة موسى عليه السلام بحوالي ثمانية قرون، غير مضبوط بالشكل والنقط، وظل كذلك إلى القرن الثاني لميلاد المسيح، واستغرق (تحقيقه) بالشكل والنقط والتعقيب ثمانية قرون أخرى، فما اكتمل إلا في القرن العاشر الميلادي.

هذا وذاك يقوي لديك شبهة وقوع الإضافة والحذف في النص الذي بين يديك. أما الحذف، فهذا ما لا سبيل لك اليوم إلى إثباته، وأما الإضافة، فإثباتها هين بين، تحفظ المسيحيون من قبل على بعضها بالنسبة إلى أسفار برمتها سموها (أبوكريفا) أي المنحولة، وتستطيع أنت التحفظ على كثير مما تضمنه صلب أسفار موسى الخمسة نفسها من سفاسف وشناعات لا يقبل ورودها في نص إلهي مقدس، ليس أشنعها زنا بنتي لوط بأبيهما ليكون له منهما (نسل) كما مر بك، وهو يقوي لديك أيضًا شبهة صرف النص في بعض مواضعه - بمجرد النقط والشكل - عن أصل معناه. وهو يقوي لديك أخيرًا - وهنا بيت القصيد في مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب - احتمال وقوع التحريف في نطق الأسماء الأعلام.

وتستطيع أن تقول الشيء نفسه - أو قريبًا منه - في الأناجيل الأربعة المتداولة، التي لم

(١) الخط العربي يهمل حروف العلة في الكتابة حين تقصر، ويثبتها حين تطول، ويهمل أيضًا تكرار الحرف المضعف، وعلاج هذا النقط والشكل، وهما ألزم للخط العبري الذي يهمل أحيانًا كثيرة حروف المد: الألف والواو والياء، بالإضافة إلى ما يهمله الخط العربي.

يخطها عيسى عليه السلام بيده، كما خط موسى عليه السلام بإزميله في الألواح، لولا أن أصحاب هذه الأناجيل لا ينسبونها ابتداء إليه، أي إلى عيسى عليه السلام: لم يُمْلِها عليهم، ولم يراجعوها عليه، وإنما هم ينسبونها إلى ذات أنفسهم، كتبوها من الذاكرة أيضًا بعدما تمادت بهم السن. أو كتبها آخذون عنهم لم يروا المسيح ولم يسمعوا منه. وهؤلاء وأولئك لم يكتبوا ما نطق به المسيح بلغته (الآرامية - العبرية)، وإنما ترجموا ما وعوه إلى لغة ليسوا من أهلها (اليونانية)، لا تستثني (لوقا) الطبيب اليوناني؛ لأنه بنى إنجيله على ما سمعه منهم مترجمًا إلى اليونانية من قبل. وهذا يفسر لك بعض أخطائهم في الترجمة، سواء في ترجمة ما استشهدوا به من التوراة العبرية في الأناجيل اليونانية[١]، أو في اختيار اللفظ اليوناني المناسب للمقابل العبري أو الآرامي: ظنوا (باتر) *Pater* اليونانية (أي (الأب) الوالد لا غير) تصلح ترجمة للفظة (آب) العبرية - الآرامية حيثما وردت، على بون ما بينهما في مجاز اللغات السامية، ومنه معنى الفاطر المنشئ البارئ. وظنوا باسيليا *Basileia* اليونانية (وهي المُلك والمملكة) تصلح دائمًا أبدًا لترجمة اللفظين العبريين الآراميين (مَلْخُوت) و(مَلَخُوت) على السواء، الأولى بمعنى المُلك والملكوت، والثانية بمعنى الرسالة والرسول (على ما مر بك في مقابلهما العربي)، فيتجافى بك المنطق أن تفهم عبارة من مثل: ((من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهم))[٢]، إلا أن يكون أصلها: ((من يسمع كلام الرسول)). أو مثل عبارة: ((فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي

---

(١) هذا هين إثباته، ما عليك إلا أن تطابق اقتباسات الأناجيل من (العهد القديم) على التوراة التي بين يديك، من ذلك ما تجد في سفر ملاخي من قوله: ((ها أنذا أرسل ملاكي يهيئ الطريق أمامي)) (ملاخي ٣/ ١)، المقتبسة في الأناجيل بعبارة: ((ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك)) (لوقا ٧/ ٢٧)، مع تحفظنا على ترجمة ملاخي في هذا النص إلى ملاكي العربية، التي يعني بها المقتبسُ، يوحنا (أي يحيى عليه السلام) نفسه، ويوحنا رسول أو نبي باتفاق لا ملك أو ملاك. على أن الاقتباس ضعيف في أصله؛ لأن ملاخي النبي كان يعني بها نفسه في النص التوراتي؛ لأن اسمه العبري هو نفسه نطقًا وكتابة (ملاخي) التي تعني في العربية (ملاكي) أو (رسولي)، ومثلها (أنجلوس) *Angelos* اليونانية في الاقتباس الإنجيلي.

(٢) متى ١٣/ ١٩.

في السموات! ليتقدس اسمك! ليأت ملكوتك))![1] التي تقرؤها فيأخذك العجب: وهل ملكوت الله عز وجل إلا حاضر في كل آن؟ أليس قد قال عليه السلام في تلك الأناجيل نفسها: ((ملكوت الله فيكم))[2] يعني نفسه؛ أي الرسول والرسالة؟ إذن فما معنى طلبهم في صلواتهم: ((ليأت ملكوتك!))؟ أليس الأرجح أن يكون معناها: ((ليأت رسولك!))؟ يعني محمدًا ﷺ الذي بشر به عيسى عليه السلام مصداقًا لما جاء في القرآن على لسانه: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[3]. نعم، قد استفاد من هذا - وغيره كثير - بطاركةٌ يونانيو اللسان ذهبوا إلى (مجمع نيقية) عام ٣٢٥م[4] لإقرار ألوهية المسيح، على نحو ما تعرف من عقيدة التثليث، أو (الثلاثة في واحد)، التي يدين بها المسيحيون إلى اليوم، ولكنه وضع مترجمي الأناجيل إلى مختلف اللغات - ومنها العربية بالطبع، ناهيك بالمفسرين - في عسر شديد. من ذلك عبارة ((وبعدما أُسْلِمَ يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يَكْرِزُ ببشارة ملكوت الله))[5]، وأصل عبارة ((يكرز ببشارة ملكوت)) في إنجيل مرقس اليوناني: *Kerusson to euaggelion tou theou*، ومعناها بنفس ترتيبها اليوناني: ((مبشرًا بإنجيل الله))، ليس فيها (ملكوت)، وليس فيها أيضًا (بشارة). أضاف المترجم (ملكوت) من عنده ليمنع إضافة البشارة إلى الله، وترجم *euaggelion* (وتنطق إيفانجليون) إلى (بشارة). أما (يكرز) في النص العربي فليست عربية، (وبمعنى أدق: ليست هي يكرز العربية بمعنى يلجأ ويعتصم)، وليست هي أيضًا عبرية، بل ليست سامية، وإنما هي آرامية منحولة عن الفارسية التي جاءت منها *Kerussein* اليونانية بمعنى يعلن ويبشر، (قارن *Herald* الإنجليزية)، ولكن المترجم العربي اضطر إلى استعمال تلك اللفظة الآرامية المنحولة كراهية التكرار في النص العربي، كأن يقول: ((يبشر ببشارة))

---

(١) متى ٦/ ٩ و١٠.

(٢) لوقا ١٧/ ٢١.

(٣) سورة الصف، الآية: ٦.

(٤) راجع بالعربية تفاصيل وقائع (مجمع نيقية) في مصنف الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله: محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي.

(٥) مرقس ١/ ١٤.

وهو ممجوج... العبارة إذن في النص اليوناني ليست ((يكرز ببشارة ملكوت الله))، وإنما هي ببساطة ((يبشر بإنجيل الله)). ولكن إضافة الإنجيل إلى الله تسبب مشاكل لا تخفى؛ إذ ما هي تلك البشارة التي هي لله؟ إنها الإنجيل نفسه، أي (إيفانجليون) اليونانية، التي يفسرونها بالخبر السار أو البشارة، ومن قال: إن (*eu + angelion*) اليونانية تعني الخبر السار؟ أليس (أنجليون) *angelion* اليونانية معناها الرسالة والرسول مثلها مثل (ملآخوت) الآرامية - العبرية، ومنها (أنجلوس) *angelos* يعني المَلَك؛ أي الرسول؟ إلا إذا ظننت أن اليونان يسمون المَلَك (المُخْبِر)، وهذا غير صحيح بالطبع. ومن قال إن المقطع اليوناني eu يعني (السار)؟ ليس له بالسرور أدنى صلة، وإنما معناها حين تكون بادئة في الكلمة: (المرضي المحمود)، كما في (*eu legein*) اليونانية، بمعنى حمده وأثنى عليه. ولو ترجمت (إيفانجليون) اليونانية إلى العبرية (وأنت تعلم أن أنجليون تعني الرسالة) لقلت (ملآخوت حِمِد)[1]. أفيكون المعنى (رسالة أحمد)؟ ربما.

ليس لديك الدليل في هذه أو في غيرها، ليس لديك النص الأصلي لأقوال المسيح عليه السلام بلغته ولغة قومه (العبرية - الآرامية). وإنما لديك ترجمة يونانية لعبارات ربما قالها عليه السلام، ولكنك لا تقطع بصحة الترجمة إلا أن تطابقها على الأصل العبري - الآرامي، وهو غير موجود للأسف. ومهما سلمت بأن رسل الله جميعا قادرون على الحديث بكل لغة يلهمون الحديث بها، فأنت تحيل على المسيح عليه السلام أن يتحدث مع المرسل إليهم وإلى أهله وعشيرته وحوارييه بلغة يونانية لا يفهمونها، لا سيما حين يتحدث في صلب الرسالة والعقيدة. من ذلك حديثه عليه السلام عن الذي يأتي بعده، الذي إن لم يذهب لا يجيء، أعني (الفرقليط) (*Parakletos* في الأناجيل اليونانية) غير الموجودة أصلًا في لغة اليونان قبل عصر المسيح، والتي حار في فهمها تراجمة الأناجيل إلى مختلف اللغات، هل هي المعزِّي أم الناصر أم الشفيع أم المحامي. والأصوب أن يقال[2] إنها عبرية آرامية، تركت

(١) (حِمِد) العبرية وصف على المصدر من حمد، يوصف به مبنيا على المفرد المذكر كل ما أعجبك وحسن لديك.

(٢) هذا جديد نفيس، فتأمله، عسى أن تكون به الإصابة والهداية. ولكنك لن تسلمه لي؛ لأنه ليس=

في إنجيل يوحنا اليوناني على أصلها بعد تهذيبها إلى صورتها اليونانية *Parakletos* نحوًا ونطقًا. إنها إذن اسم مزجي مركب (فرق + ليط) (التي تنطق فاؤها البادئة في العبرية - الآرامية باء ثقيلة (*P*) كما مر بك) فهي (پرقليط) آراميًا وعبريًا. الشق الأول (فرق) جذر آرامي - عبري بمعنى حط عنه ووضع، أي حط عنه الذنب أو الخطيئة، (قارن (فرك) العربي بمعنى حكه ليزيل عنه وسخًا علق به). والشق الثاني من الجذر العبري الآرامي (لاط / يلوط) بمعنى ستره وحجبه وغطاه، (قارن (لاط / يلوط)، (لط / يلط) العربيتين بمعنى ستره وأخفاه)، أو هي بمعنى لزق به وعلق (وهي (لط) العربية أيضًا) كما يعلق الذنب وتعلق الخطيئة. الشق الأول (پرق) ينطق (پارق) (بإطالة مد كسرة الراء) زنة الفاعل آراميًا من (پرق) فهو الحاطّ الواضع الكاشف، والشق الثاني (لاط) ينطق (لايِط) بإطالة مد كسرة الياء)، زنة الفاعل آراميًا أيضًا من (لاط). فهو في الأصل (پارِق + لايِط)، يعني (كاشف الحجاب)، أي: (كاشف الغشاوة)، (والكاشف من أسمائه ﷺ)، أو هو (واضع الذنب والإصر)، ولكن المزجية أحالت النطق إلى (پرقليط) (مدًا بالكسر لا بالياء). يقوى هذا الفهم بشاهد من أهلها: وجود (پرقليط) هذه (مدًا بالياء لا بالكسر) في العبرية المعاصرة بمعنى المحامي الذي يقف إلى جانبك يحاول (إسقاط) التهمة عنك، والتهمة هي مظنة الخطأ والذنب. (الفرقليط) إذن هو (واضع الإصر) أي محمد ﷺ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[1]. والإصر من معانيه (الذنب) كما تقرأ في تفسير القرطبي رحمه الله.

وتستطيع أن تقول الشيء نفسه في لفظة (إنجيل). لم لا تكون آرامية - عبرية في أصلها؟ أليست اسمًا علمًا على الكتاب المنزل على عيسى عليه السلام؟ أفيحتاج المسيح إلى تسميته باليونانية (إيفانجليون) على معنى البشارة ولديه في لغته المقابل العبري (بِسُورا)؟ وإذا افترضت أن أصحاب الأناجيل اليونانية ترجموا (بِسُورا) العبرية إلى اليونانية (إيفانجليون)

= لديك ولا لدي إنجيل عبري - آرامي تطابقه عليه.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

التي لم ينطق بها اليونان قبل عصر المسيح، أما كان أمامهم في اليونانية لفظ يفيد معنى (البشارة) سوى ذاك اللفظ المركب *(eu + angelion)*؟ أليس في اليونانية الفعل (كروسين) بمعنى يعلن ويبشر (*Herald* الإنجليزية) المنقول في اليونانية الكنسية إلى معنى (يعظ) و(يدعو)، منعًا للخلط بين (الكرازة) والبشارة وهما واحد؟

تستطيع أن تقول هذا أو بعضه، ولكننا لا نستطرد بك إليه، وإنما نرجئ الحديث عنه إلى فصل تال في تفسير القرآن لأعجمية العلم، ومنه لفظة (إنجيل).

* * * *

انقطعت سلسلة السند إذن في التوراة وفي الإنجيل. ولكن الانقطاع في الإنجيل أفدح. لأن القائل في الإنجيل رواة يتحدثون غير اللغة. يزيد من فداحة هذا أن الأناجيل كثيرة، قاربت فيما يروى ثلاثمائة إنجيل تتفق وتختلف، اعتمدت منها الكنيسة بعد استقرار عقيدة التثليث تلك الأناجيل الأربعة التي بين يديك، لا سبيل لك اليوم إلى ما كان في غيرها، فقد حرمت وطوردت وأعدمت. بل حتى ما ظهر منها بعد ذلك، كالإنجيل المسمى (برنابا) المكتشف حوالي القرن الثامن عشر بلغة إيطالية تسكانية، مهما اتفقت كمسلم مع الكاتب في مضمونه، لا تستطيع الارتفاع بنسبة ما جاء فيه يقينًا إلى المسيح عليه السلام، لا لشيء إلا لكونه مكتوبًا - على الترجمة - بلغة غير لغته عليه السلام، شأنه شأن الأناجيل الأربعة المتداولة نفسها، لا أكثر ولا أقل.

وليس كذلك (القرآن) المقطوع من الخصم ومن الصديق على السواء بنسبة تلاوته إلى محمد ﷺ بنصه (العربي) الذي بين يديك الآن، لا خلاف على حرفه ولفظه، المكتمل نزوله حوالي سنة ٦٣٢م، وتلا ﷺ الآية بعد الآية، والسورة بعد السورة، على الكاتبين من صحابته، يكتبون ويراجعون عليه ما كتبوا، والمجموع في المصحف الذي بين يديك مراجعًا على حفاظه وكتبته ولما ينقض عقدان على وفاته ﷺ. نعم، لم يكن (المصحف الأم) مصحف عثمان مضبوطًا بالشكل والنقط، ولكنه (مقروء) عليه هو نفسه ﷺ بقراءة أقرها، كل

ما عداها مردود، ولم يظل (مصحف عثمان) غير مقيد بالشكل والنقط حوالي ٢٢٠٠ سنة كما وقع لتوراة موسى عليه السلام[1]، وإنما ضبط بالشكل والنقط على عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ولما تنقض سبعون سنة على وفاة النبي ﷺ. وهو لم يضبط بالشكل والنقط على عصر اضمحلال الفصحى وتراجعها على الألسنة، كما وقع لعبرية التوراة منذ القرن الثالث قبل الميلاد بعد حوالي ألف سنة من نزول التوراة، ولكنه ضبط بالشكل والنقط وعربية القرآن هي لغة الخاصة والعامة، بل وهي مقياس عربية العرب.

نعم، يستطيع المكابر المعاند أن ينكر الوحي على القرآن، شأن كل كافر بوحي السماء، ولكنه لا يستطيع التسليم بالوحي لما بين يديه من الكتب السابقة وهو ينكر الوحي على القرآن؛ لأن إنكار الوحي على القرآن إبطال لدعوى الوحي كله. قد ضاعت أدلة الوحي الأول بضياع معجزات الأنبياء السابقين، وبقي القرآن - المعجزة بذاته - شاهدًا أوحد على معجزات كل من سبقوه.

وتستطيع أيضًا - منصفًا غير متعنت - أن تدفع بانقطاع السند في التوراة والإنجيل اللذين بين يديك. وتستطيع أيضًا - مصيبًا غير مخطئ - أن تدفع بضياع الأصل الآرامي - العبري الذي ترجمت عنه أقوال المسيح عليه السلام في تلك الأناجيل اليونانية الأربعة، بل وفي إنجيل برنابا أيضًا. ولكنك لا تستطيع أن تفعل هذا أو بعضه مع القرآن إلا وأنت موتور متعنت غير مصيب. لا مشاحة في حرف واحد من حروف القرآن: الأصل، واللغة، والسند.

من هنا تفهم قوله عز وجل في وصف القرآن: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[2] يعني القرآن يصدق (ما صدق) في التوراة والإنجيل، أي

(١) إذا رجحت معي أن (فرعون الخروج) هو رمسيس الثاني الذي كان مهلكه حوالي ١٢٢٥ ق م، وأضفت سنوات التيه الأربعين، ترجح لديك اكتمال نزول التوراة حوالي مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد استغرق ضبطها بالشكل والنقط على أيدي (أهل المأثور) (بَعَلِي مَاسورا) ثمانية قرون في ظل المسيحية ثم في ظل القرآن، فلم يكتمل إلا في القرن العاشر الميلادي، والفرق اثنان وعشرون قرنا، أما إن ارتفعت بفرعون الخروج إلى تاريخ أسبق فقد ازداد البون شسوعًا.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

هو الشاهد لهما بالصواب حين الإصابة، أما عند الاختلاف فالقرآن هو المصوِّب الفيصل البات، (قوله الحق).

وتستطيع أن ترتب على هذا أيضًا أن القرآن لا يحاج بما في التوراة والإنجيل، ولكنهما هما اللذان يحاجان به عند الاختلاف.

ولكن لا تتوقع مني أن أقول لك: قد قالها القرآن (آزر) فهي كما قال! وعلى الذين يريدون لأبي إبراهيم اسمًا آخر أن يعودوا إلى معاجمهم يبحثون عن جذر عبري أو آرامي يشتقون منه (تارح) أو يهتدون إلى وجه في هجائه ومعناه، وليتخبطوا كما يتخبطون في أمثال (موسى)، (هارون) بل مثل ما يجدفون في (إسرائيل) ((يسرئيل) في عبرية التوراة) التي استنفج بعضهم ففسرها بأنها مُصارِع الله، واستخذى بعضهم فقال: بل هي (أمير مع الله)! وكلتاهما شهرة يفرق من انتحالها إبليس نفسه، فكيف بعبد الله يعقوب، النبي ابن النبي أبي الأنبياء؟

لا تنتظر مني أن أقولها، وإلا ما كان هذا الكتاب.

على أني لا أكتب لهؤلاء، وإنما أكتب لك أنت، كي نستبين معًا كيف علم القرآن ما جهلوا، وكيف أخطأ هؤلاء وأصاب.

ولكنك لا تهزم ملاكمًا بأن تطرده من الحلبة، وإنما تستدعيه إليها لتصرعه على أرضها، ولا تستدنيه إليك لتباغته بالقاضية على أم رأسه، ولكنك تصاوله حتى يسلم لك بالقاضية (الفنية).

قال عز وجل: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[1].

وإني بها ملتزم بعون الله فيما بقي من فصول هذا الكتاب.

وبعد، ثق أنني لا أبتغي بما أكتب وجه الجدل ولا يستهويني النزال. فليست الشحناء من طبعي. بل (حلاوة الإعجاز) هي كل ما نبغي: نور الحق، ينبوع الجمال.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

الفصل الثالث

العلم الأعجميّ في القرآن

(١)

يجيء العَلَم الأعجمي في القرآن على ثلاثة أنواع: عَلَم الذات، وعَلَم الجنس، وعَلَم الموضع.

* * * *

أما (عَلَم الذات) فهو أسماء الأشخاص: ملائكة وأنبياء وصديقين، وملوكًا وجبابرة وطواغيت. وربما أضفت (إبليس) اللعين - هامة العصاة - إن سلمت بعجمة (إبليس)، وسيأتي.

وأما (عَلَم الجنس) فهو أسامي القبائل، منها بائد كعاد وثمود، ومنها الذي غيبه الغيب كيأجوج ومأجوج، وأسامي الشعوب ورد منها في القرآن (الروم). وربما أضفت أهل الملل على النسب. اليهود، والنصارى، والصابئين، والمجوس. ولكنك تضيف حتمًا تحت (عَلَم الجنس) أسامي كتب ثلاثة: التوراة والزبور والإنجيل، على خلاف في عجمة الزبور.

أما (عَلَم الموضع) فأسامي الأماكن والبلدان، أمثال مصر ومدين وإرم (ذات العماد). وربما جازت إضافة (فردوس) و(عدن) استقصاء لشبهة عجمتهما، وربما أيضًا (جهنم) (المقول بأنها (جِي - هِنُّوم) العبرية). ولكنك لن تجري وراء كل من هب ودب من أدعياء الاستشراق تبحث عجمة ألفاظ بينة العربية من أمثال (عليين) و(سجين)؛ فليس العبث من مقاصد هذا الكتاب.

* * * *

في باب العَلَم على الذات، تندرج أسامي الملائكة رضوان الله عليهم، وقد سمى القرآن منهم خمسة: جبريل، ميكال، مالك، هاروت، ماروت، ولا يعلم جنود ربك إلا هو.

تندرج في باب العلم على الذات أيضًا أسامي الأنبياء والصديقين رضي الله عنهم ورضوا عنه، بدءًا بآدم أبي البشر وانتهاء بعيسى المبشر بخاتم النبيين، صلوات الله وسلامه على رسله وأنبيائه، وهم: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، شعيب، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب (وشهرته إسرائيل)، يوسف، موسى، هارون، داود، سليمان، إلياس، اليسع، ذو الكفل، يونس، أيوب، عزير، لقمان، زكريا، يحيى، مريم، عيسى. فهؤلاء سبعة وعشرون شخصًا عَلَمًا، على خلاف في نبوة بعض وصديقية بعض، وفي عجمة الاسم وعربيته، تزداد إلى ثمانية وعشرين بإضافة (إسرائيل) شهرة يعقوب عليه السلام.

أما الملوك والجبابرة فمن أعجميها في القرآن اثنان: طالوت ملك بني إسرائيل (شاءول في التوراة)، جالوت جبار الفلسطينيين (وهو في التوراة جليات).

وأما المقبوحون في الدنيا والآخرة، الكفرة البغاة الطغاة، فقد سمى القرآن منهم أعلامًا أربعة: آزر، فرعون، هامان، قارون، وربما أضفت رأس الضلالة إبليس اللعين؛ استقصاء لعجمته، فيكون مجموعهم خمسة أعلام.

أما أسامي الأصنام في القرآن، فنحن نضرب الصفح عنها استخفافًا، فلا ذات لها، فضلًا عن أن القرآن لا يفسرها للعرب؛ لأنها عربية الأصل والاشتقاق[1].

****

(١) وهي تسعة أصنام: اللات والعزة ومناة، وكانت لعرب الجاهلية، والبعل، وكان لضلال من بني إسرائيل دعا فيهم إلياس عليه السلام كما يذكر القرآن، ثم وَدّ وسُوَاع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر، وكانت لقوم نوح كما يذكر القرآن، وعبد العرب بعضها في الجاهلية، لا يغمض من هذا على عربي إلا سُوَاع، وهو من التوسعة والفرج والنصرة، ومقلوبها في العبرية الآرامية (شُوَع). أما اللات فلغة في الآلهة. وأما مناة فهي التي يراق عندها الدم، ومن هذه (منى) التي يذبح فيها الحجاج. ومَنَاهُ يعني أراقه، ومنه (المني).

وأما العَلَم على الجنس في أعجمي القرآن، فمن القبائل أربعة: عاد، ثمود، مدين، يأجوج ومأجوج. ومن الشعوب واحد: الروم. ومن الكتب ثلاثة: التوراة، الزبور، الإنجيل (وإن كانت الزبور عربية كما سترى). وربما أضفت على النسب أهل الملل الأربع: اليهود، النصارى، الصابئين، المجوس، فيكون مجموع هذا الصنف اثنى عشر عَلَمًا.

ولـم نذكر في علم الجنس (سَبَأ)، كما لـم نذكر في علم الذات (تُبَّع) ملوك اليمن؛ لعربية هذين العلمين بلا خلاف.

* * * *

أما عَلَم الموضع، أي أسامي الأماكن والمواقع، والمنازل والقرى والبلدان، فمن الأماكن والقرى والبلدان أربعة: بابل، إرم، مصر، سيناء. ومن المواقع واحد: الجودي (مرسى نوح). ومن المنازل ثلاثة: (الفردوس، عدن، جعلنا الله من أهلهما بمنه وفضله، و... جهنم، أعاذنا الله منها. فيكون مجموع هذا الصنف ثمانية أعلام).

* * * *

ومن هنا ترى أن العلم الأعجمي - الذي تتبعناه في القرآن، ولا يستقصي على الله عز وجل أحدٌ - ستون اسمًا علمًا، أو في حكم العَلَم كالأعلام على النسب من أهل الملل، سوف تتناولها بإذن الله مباحث هذا الكتاب. ومن هذه الأعلام مقطوع بعجمته، ومنها المقول بعربيته. ومنها أيضًا العربي في صورته وهو محض ترجمة كما سترى.

* * * *

ويلاحظ أنه لـم يرد في القرآن من أعلام النساء سوى اسم واحد، هو مريم أم عيسى عليهما السلام (لا أخت موسى وإن تشابه الاسمان).

ولكن القرآن أشار إلى نساء أخريات على النسب إلى الابن أو الزوج، وهن خمس: ثلاث

فُضْلَيَات: أم موسى، امرأة فرعون، امرأة عمران (جد عيسى، وليس أبا موسى وإن تشابه الاسمان). وثنتان من الخائنات: امرأة نوح، امرأة لوط.

وليس في المنسوب إليه عَلَم جديد يضاف إلى ما ذكرناه سوى عمران جد المسيح صلوات الله عليه وعلى رسل الله أجمعين.

وهذا يرتفع بالعلم الأعجمي أو المقول بعجمة أصله، الذي نعرض له في هذا الكتاب، إلى واحد وستين اسمًا علمًا.

* * * *

(٢)

الأعلام الأعجمية المذكورة في القرآن ورد أغلبها على أصل لفظه الأعجمي في أسفار اليهود والنصارى، أو - اختصارًا - في التوراة والإنجيل.

وقد ضم المسيحيون أسفارهم إلى أسفار اليهود (على خلاف بينهم في إنكار بعض وإضافة بعض) في مجلد واحد من جزءين هما (العهد القديم) (التوراة) و(العهد الجديد) (الإنجيل) تحت اسم (الكتاب المقدس)[١]، سلموا لهما جميعًا بالوحي من الله، ليس فقط لأن اللاحق يبني على السابق فحسب كما مر بك، وإنما أيضًا وبالأخص اتباعًا لقول المسيح عليه السلام في الأناجيل: ما جئت لأهدم الناموس (أي التوراة)، وإنما جئت لأُكَمِّل (أي بالإنجيل).

أما اليهود فهم بالطبع لا يسلِّمون بالوحي لكتابات (العهد الجديد)، وإلا لما بقوا على يهوديتهم. وهم لا يسلمون بالوحي أيضًا لأسفار أضافتها الكنائس المسيحية إلى أسفارهم المعتبرة عندهم (على خلاف في هذا بين الكنائس المسيحية)[٢].

وقد توقفت (النبوات) في بني إسرائيل قبل قرون من مولد عيسى عليه السلام. ومن هنا يفهم خلو أسفار التوراة من النص على أعلام المسيحية الأربعة: زكريا، يحيى (يوحنا)، مريم، عيسى، عليهم السلام، ولم تذكر أيضًا عمران جد عيسى.

****

(١) لذا خص القرآن أهل الملتين باسم (أهل الكتاب) لا يَدخُل فيه غيرهم. وسيأتي.

(٢) ومثاله سفر (يشوع بن سيراخ) الذي ينكره اليهود وتعتبره الكنيسة الكاثوليكية، ولا تعتبره الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

ويلاحظ أن أسفار (العهد القديم) (أي التوراة) مكتوبة كلها بالعبرية، ما عدا أجزاء قليلة كتبت بالآرامية رأسًا أو متأثرة بها، منها عبارات في سفر التكوين نفسه، أول أسفار العهد القديم، ومنها بعض إصحاحات متفرقة في أسفار ثلاثة هي أسفار إرميا، ودانيال، وعزرا (عزير في القرآن). وإذا علمت أن عزرا كاتب (شريعة الله) بعد سبي بابل - كان من أعلام القرن الخامس قبل الميلاد، فقد علمت مدى طغيان هذه الآرامية على ألسنة الناس، حتى حلت تمامًا - أو تكاد - محل العبرية في ربوع فلسطين منذ ثلاثمائة سنة على الأقل سبقت مولد المسيح، فكان بها جل كلامه عليه السلام.

ولكن أسفار (العهد الجديد) لم تكتب بالآرامية أو العبرية أو بمزيج من هذه و تلك، وإنما الموجود منها بين يديك الآن مكتوب كله - عدا بضع كلمات آرامية أو عبرية - بلغة (يونانية) متأخرة تعرف باليونانية (الكنسية)؛ لاصطناعها ألفاظًا وتراكيب لم تسمع في اليونانية قبل عصر المسيح. ومهما قيل من أن إنجيل (متى) وبعض رسائل الحواريين والآخذين عنهم قد كان لها أصل عبراني ترجمت منه إلى تلك (الأصول) اليونانية التي بين يديك، فهذا الأصل (العبراني) مفقود، لا سبيل لك إليه لتطابقها عليه. ليس لديك من (العهد الجديد) سوى هذه الأصول اليونانية التي بين يديك، وترجمات منها مباشرة إلى مختلف اللغات.

* * * *

ولئن كان موضوع (العهد الجديد) هو رسالة عيسى عليه السلام، آخر رسل الله إلى بني إسرائيل، فهو لا يسمي فقط أعلام المسيحية المذكورين في القرآن، ولكنه يتحدث أيضًا بالتوراة فيذكر بعضًا من أعلامها الذين سماهم القرآن. ولأن (العهد الجديد) يوناني اللسان، فهو حين يذكر أعلامًا من التوراة يسميهم بالطبع على اللفظ اليوناني، لا اللفظ الآرامي - العبري. ومن هنا اختلاف نطق العلم (الإنجيلي) عن سميه في التوراة.

من ذلك أن اليونان لا ينطقون الشين، فأبدلوا كل شينات التوراة سينًا[1]. واليونان أيضًا

(١) عربية القرآن أيضًا تبدل شينات التوراة سينًا، لا عن ضرورة كما فعل كتبة الأناجيل، وإنما رجوعًا=

لا يستطيعون نطق الحاء والعين ويهمسون الهاء، فأهملوها جملة، إلا أن تكون الحاء والعين بادئتين فتبدل منهما الهمزة[1]، وفي اليونانية كذلك علاماتُ (إعراب)، منها إضافة السين للرفع وإضافة النون للنصب، فتظهران هذه أو تلك في نهاية الاسم العَلَم بحسب موقعه من (الإعراب) في الجملة، ويظنها من لا يعرف أصل الاسم جزءًا منه. فعلوا هذا في أعلام التوراة وفي أعلام الإنجيل.

من ذلك (يونا) (يونس في القرآن): يونانيتها (يوناس) *Ionas* (السين للرفع)، وهي نفسها (يونان) التي تقرؤها في الترجمات العربية للعهد الجديد أخذوها بصورة الاسم منصوبًا. من ذلك أيضًا (يوحنا) (يحيى في القرآن): ذهبت حاؤه وأضيفت سين الرفع فصار *Ioannes*، أي (يُوَنِّس). ناهيك بالاسم العلم الأكبر في المسيحية: عيسى عليه السلام، وأصله العبري (يشوع) فصار (يِسُوس) في الرفع، و(يِسُون) في النصب، و(يِسُو) في غير ذلك.

ورغم أن (مسيحيي المشرق) ساميون يستطيعون نطق أعلام الإنجيل على أصل لفظها العبري - الآرامي، فقد التزموا في حالات كثيرة الاقتراب من رسمها اليوناني في العهد الجديد، ضاربين صفحًا عن أصلها العبري - الآرامي وإن خالف الرسم اليوناني أصل الاسم في التوراة. وما كان لك أن تتوقع غير هذا وهم يقرءون في صلواتهم من إنجيل يوناني، يحتاج فهمه وتدارسه إلى عِلْم كاف بتلك اللغة. وقد كانت اليونانية هي اللغة (الرسمية) للكنيسة طوال قرون المسيحية الأولى: بها كتبت مباحث اللاهوت، وبها دارت المناظرات واحتدم الجدل. أضف إلى هذا - بل قل قبل هذا - الرغبة في (التبرك) الناشئ عن التقديس: المسيحيُّ يؤمن بأن (العهد الجديد) كلام مُوحًى به من الله، أو من الروح القدس، على كتبة الأناجيل، وهو يرتب على هذا أن الله هكذا تكلم، أو هكذا أوحى، بتلك الأعلام في لفظها اليوناني وبرسمها المكتوب في تلك الأناجيل اليونانية، أو في أقل القليل أن الإنجيلي (كاتب الوحي) كتب ما كتب و(روح القدس) عليه إنه إذن كلام مقدس لا بمصدره فحسب،

= بجذر اللفظ العلم إلى جذره العربي.

(١) ربما أبدل اليونان من الحاء العبرية خاء.

وإنما بأصل لفظه أيضًا في رسمه اليوناني الذي جرى به قلم الكاتب.

ولعلك تعلم أيضًا أن أسفار (العهد القديم)، أي أسفار التوراة، قد كانت لها قبل عصر المسيح ترجمات إلى اليونانية أشهرها قاطبة الترجمة السبعينية[1]، التي سبقت مولد المسيح بنحو ثلاثة قرون، موجهة إلى يهود الإسكندرية ومتهوديها، وإلى من (تأغرق) منهم في غيرها، الذين أنسوا عبرية التوراة. وقد تضمنت الترجمة بالطبع تحويل صورة العلم التوراتي عن أصله العبري - الآرامي إلى (صورة) يونانية جرت بالتأكيد على (ألسنة متأغرقي) اليهود، لا في أوربا فقط، بل وفي مصر والشام أيضًا.

وتستطيع أن تقول - مصيبًا غير مخطئ -: إن كتبة الأناجيل اليونانية استفادوا من هذا الرسم اليوناني (الجاهز) في الترجمة السبعينية فنسجوا على منواله في (العهد الجديد). وتستطيع أن تقول أيضًا: إن كتبة الإنجيل - حين اقتبسوا من التوراة نصوصًا يستشهدون بها في العهد الجديد - لم يرجعوا إلى أصل التوراة العبراني، وإنما رجعوا رأسًا إلى تلك (السبعينية)، يستقون منها ترجمتهم اليونانية لما أرادوا اقتباسه من التوراة، وهذا يفسر لك سببًا من أسباب عدم تطابق بعض تلك الاقتباسات مع أصلها في التوراة، كما مر بك، لأن في (السبعينية) أخطاء استدركت بعد عصر المسيح بقرون.

ولأنك - مسيحيًا كنت أو مسلمًا - تحيل على المسيح صلوات الله عليه أن يخطئ في الاقتباس من التوراة في عبارات نسبت الأناجيل اقتباسها إليه، فليس أمامك إلا التسليم بأن كتبة الأناجيل اليونانية كتبوا ما كتبوه بوحي من ذاكرة تسعف وتخون، أو رجعوا إلى الأصل العبراني ولكنهم لم يحسنوا الفهم أو الترجمة، أو تعجلوا فاستخدموا ترجمات يونانية جاهزة شاعت من قبل، أو أنهم كتبوا لجمهور يوناني اللسان، جادلوه بما يقرأ من ترجمات يونانية للتوراة في السبعينية أو في غيرها. وربما اشتطت بك الغُلَوَاءُ فقلت: إن كتبة الأناجيل اليونانية الأربعة أو معظمهم، وبالذات لوقا ويوحنا، ما كانوا يتقنون العبرية شأنهم شأن يهود

(١) يروى أنها أعدت لملك مصر بطليموس الثاني (٣٠٩-٢٤٦ ق.م)، أعدها ٧٢ حبرًا من يهود فلسطين في ٧٠ أو ٧٢ يومًا، ومن هنا تسميتها بالسبعينية.

مصر والشام على عصر المسيح، وما كانوا بالتالي يقرءون من توراة عبرية، بل من ترجمات لها. هذا وذاك أبرأ لدينك من أن تقول: أصاب كتبة الأناجيل وأخطأ المسيح - معاذ الله - ناهيك بروح القدس جبريل، صلوات الله وسلامه على جميع ملائكته وأنبيائه.

* * * *

على أننا - في مقاصد هذا الكتاب على الأقل - لا يعنينا هذا أو ذاك - وإنما الذي أردنا التنبيه إليه هو شيوع الرسم اليوناني والنطق اليوناني قبل نزول القرآن بقرون - لا لأعلام المسيحية فحسب، وإنما أيضًا لأعلام ذكرت في التوراة بلفظها العبري وتأغرقت في الأناجيل - بين مسيحيي المشرق ومن سمعوا منهم أو اتصلوا بهم من العرب.

هذا يفسر لك لماذا عرب القرآن أعلامًا من التوراة على رسمها الذي شاع بين الناس، أي: على رسمها اليوناني لا العبري. من ذلك (إلياس) المعربة لا عن العبرية (إِيليَّا)، وإنما عن اليونانية (إيلياس)، وأيضًا (يونس) المعربة لا عن العبرية (يونا)، وإنما عن اليونانية (يوناس)، بإضافة سين الرفع اليونانية في اللفظين.

نخلص من هذا إلى أن التعريب القرآني لأعلام المسيحية لا ينظر إلى (التوراة) التي لم تنص بداهة عليهم، وإنما ينظر إلى رسمها اليوناني الوارد في (العهد الجديد)، أما أعلام التوراة المذكورة في الأناجيل، فهو يعربها غير ناظر بالضرورة إلى رسمها العبري في التوراة، إنما يعربها على لفظها الشائع عصر نزوله - أي المتأثر بالرسم اليوناني - وإن خالف أصلها في التوراة.

ولكن القرآن - وهذا إعجازه - (يعلم) الذي كان، فيفسر العلم الأعجمي المطموس معناه في رسمه اليوناني، بأصله في لغة المتسمى به من أعلام التوراة - أيًّا كانت لغته - متقدمًا بقرون وقرون على (تفاسير) لعلماء تلك اللغات بدأت ولم تنته بعد، أو توقفت دون القطع بيقين.

* * * *

(٣)

يحدثك سفر التكوين - أول أسفار التوراة - عما كان من شأن آدم عليه السلام وزوجته في الملأ الأعلى، وعن الجنة التي (أزلهما الشيطان عنها) فأهبطوا إلى الأرض جميعًا. كما يحدثك عما كان من شأن (قاين) و(هِبِل) (قابيل وهابيل في المراجع الإسلامية) ابني آدم الأولين، ويسمي (شيث) ابنه الثالث وذريته إلى نوح وإبراهيم، ثم يمضي على عمود النسب حريصًا عليه كل الحرص، لا يترك عَلَمًا من أعلامه إلا ويصعد به إلى آدم أبي البشر. وقد ورث (العهدُ الجديد) هذا الحرص[1]، تنصيصًا على موضع المسيح من عمود النسب الذي يصعد به إلى (آدم ابن الله)[2].

والذي يستوقف النظر - في مقاصد هذا الكتاب على الأقل - أن الأعلام على عمود النسب من آدم إلى نوح (وهم ليسوا عبرانيين بالقطع) - ناهيك بالملأ الأعلى - هي في التوراة أعلام عبرية - آرامية. والتوراة لا تقف عند إيراد الاسم عبرانيًا - آراميًا، وإنما هي

(١) راجع الإصحاح الأول من متى والإصحاح الثالث من لوقا.

(٢) هكذا كتب لوقا في إنجيليه: آدم ابن الله! (لوقا ٣:٢٨)، وقوفًا بعمود نسب المسيح عند آدم لا يتجاوزه إلى الله - عز وجل - الذي لم يلد آدم بالطبع، وإنما صنعه (بيديه) كما تنص التوراة. ومن قبل قال كتبة التوراة: ((أبناء الله)) (تكوين ٦: ١ و ٤). وهذا كله لا يؤخذ على أصله، وإنما يؤخذ بمجازه المقصود منه في اللغات السامية ومنها الآرامية والعبرية، ولم يفطن إليه في (مجمع نيقية) بطاركةُ يُونَانِيُّو الفكر واللسان: الأب مجاز على الأصل والمنشأ، أي: الله المبدع الفاطر البارئ، والابن مجاز على النسب إلى الصانع (الباني). مصداق هذا (راجع المعجم التحليلي العبري - الآرامي المذكور في حواشي هذا الكتاب) أن لفظة (بِنْ) العبرية - الآرامية منحوتة على المفعولية من جذر الفعل العبري - الآرامي (بنا) (وهي بنى/ يبني العربية)، ولكنك لا تهدي من أحببت!

أحيانًا كثيرة تفسره بالعبرية، لا على الترجمة؛ فالاسم الذي تفسره عبراني - آرامي في أصله، وإنما على البيان؛ أي: أنها تدلك على مناسبة التسمية وسببها. بعض هذه التفاسير مقبول وبعضها مفتعل، من مثل: ((ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي))[1]، وحواء كما تعلم ليست (أم كل حي) بإطلاق، وإنما هي أم كل حي من البشر فحسب، باستثناء (آدم) بالطبع.

والأكثر استيقافًا للنظر - لا سيما في آدم والملائكة من مثل جبريل وميكال رضوان الله عليهم - أن القرآن يتابع التوراة على تسمياتها هذه لهؤلاء الأعلام الثلاثة، بل قد أثبت القرآن لآدم اسمه هذا العبري - الآرامي على النداء من الله عز وجل: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[2].

أفكان آدم رجلًا عبرانيًا أو آراميًا؟ كيف وهو أبو كل البشر؟

أفكانت العبرية أو الآرامية هي اللغة التي عُلِّمَ بها آدم (الأسماء) كلها؟ أكانت هذه أو تلك هي لغة الملأ الأعلى؟ أكانت هذه أو تلك هي اللغة الأولى التي هبط بها آدم من الجنة؟

ليس لك أن تخوض في لغة الملأ الأعلى. هذا من غيب الله. ليس لك أن تفترض ضرورة وجود (لغة) لفظية - صوتية ما، أيًا كانت، أداة للتلقي والفهم والخطاب فيما بين الملأ الأعلى. ليس لك أن تخوض فيما لم يعلمك الله.

أما لغة آدم التي تكلم بها على الأرض مهبطه من الجنة، فالراجح عندي - ولا ألزمك إياه - أنها هي نفسها اللغة التي علم بها آدم الأسماء في الملأ الأعلى، لا سيما اسمه هو نفسه الذي خاطبه به الله في الجنة، وثبت له عَلَمًا في الأرض بين زوجته وبنيه. والذي أقطع به - ويلزمك المنطق الصرف إياه - أن ثبوت العلمية لأبي البشر في الجنة وعلى الأرض - وكذلك لجبريل وميكال - بأسماء لا تفسر إلا بجذور ألفاظ تستخدمها اللغات السامية إلى الآن يعني أن لغة أبي البشر آدم كانت لغة سامية ما، بل قد كانت هي أم اللغات السامية جميعًا،

(١) تكوين ٣: ٢٠

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩.

أو أن اللغات السامية - دون سائر اللغات - هي الأحفظ لما بقي من لغة آدم بعدما تفرقت في لغات البشر. لا أقول لك - وإن كنت أُرَجِّحُ - أن العربية الأولى - قبل أن تتطور إلى اللغة التي نزل بها القرآن - قد كانت هي لغة آدم. يكفى العربية فخرًا أن قد كان بها ختام كلام الله إلى أهل الأرض، يكفي العربية فخرًا قرآنها.

أما لماذا يتابع القرآن التوراة في تسمياتها العبرية - الآرامية - وإن تعلقت بذوات غير آرامية وغير عبرية البتة، من مثل الملائكة رضوان الله عليهم، ومن مثل الأنبياء من آدم إلى نوح - فيعرِّب صورتها الآرامية - العبرية على نحو ما وردت في الصحف الأولى، ولا يُعَرِّبها عن الصورة المجهولة لنا الآن التي كانت عليها في لغة أصحابها قبل مولد هاتين اللغتين الآرامية والعبرية، فهذا هو منطق (العَلَمِيَّة) كما مر بك؟ قد سبق الوحي الأول بتلك الأعلام على صورتها في التوراة فثبتت، أي صارت علمًا على الذات التاريخية لأصحابها، إن عَدَّلتْهَا ولو بقصد التصحيح فقد حرفت وصحفت، بل لما جاز، قد ضللت سامعك إذن، ونكَّرت عليه شخص الذي تعني.

ولكن القرآن في تفسيره الفذ لأعلامه الأعجمية يعمد أحيانًا إلى التفسير بالتعريب وحده، كما سترى في (ميكال) صلوات الله عليه، فيجمع بين المعنى وبين الصورة التي استقر عليها الاسم العلم، في مزيج جل من أوحى.

❋ ❋ ❋ ❋

من خصائص العربية التنوين في الأسماء، أي الوقوف بالاسم - في اللفظ لا في الرسم - على نون ساكنة تلي حركة الإعراب، ولعلماء العربية وعلماء الصوتيات أيضًا وجوه في (تعليل) التنوين، ليس موضعها هذا الكتاب.

وقد شذت كما تعلم صور وأوزان وأعلام منع تنوينها. والاسم الذي يقبل حركة الإعراب ويمتنع تنوينه يسميه النحاة (الممنوع من الصرف).

والاسم الممنوع من الصرف - الاسم المعنوي والاسم العلم - لا يمتنع تنوينه فحسب حيث يجب التنوين، وإنما أيضًا يجر بالفتح في موضع الكسر.

ولأن الأصل في (العلم الأعجمي) منعه من الصرف (للعجمة)، فما كان أيسر عليك أن تحصي العلم الأعجمي في القرآن استنادًا إلى هذه القاعدة وحدها، فتسلم بعجمة تلك الأعلام التي امتنع تنوينها حيث يجب التنوين، أو جرت بالفتح في موضع الكسر، ثم ترفض دعوى العجمة في غيرها.

ولكنك لا تستطيع الاستناد إلى هذه القاعدة وحدها في التسليم بدعوى العجمة أو رفضها، فقد (صرف) العرب - أي نونوا وجروا بالكسر - أعلامًا أعجمية لخفة أوزانها، تجد منها في القرآن (نوحًا)، (لوطًا) المقطوع بعجمتهما، ومنعوا من الصرف في المقابل أعلامًا مقطوعًا بعربيتها مثل (أحمد) لمجيئه على وزن (أفعل) الممنوع من الصرف. تجد على هذا الوزن في القرآن (آدم)، (آزر) الممنوعين من الصرف في كل القرآن، فلا تدري أمنعا من الصرف للعجمة أم للوزن.

كذلك يمنع من الصرف في العربية للعلمية والتأنيث، أي العلم المؤنث مثل (فاطمة)، (زينب)، عربيًا كان الاسم العلم أم أعجميًا، ومثاله من الأعجمي المؤنث في القرآن الاسم (مريم)، الممنوع من الصرف في كل القرآن للعلمية والتأنيث قبل العجمة، فلا تقطع بعجمته مستندًا إلى منعه من الصرف فحسب، وإنما تنتظر حتى تؤصل الاسم في لغة صاحبه.

يمنع من الصرف أيضًا للعلمية والتأنيث قبل العجمة أسامي القبائل، إلا إذا أردت (القبيلة) أي القوم، ولم ترد (الحي) أي الموضع. من هذا في القرآن أمثال (ثمود)، (مدين) الممنوعتين من الصرف في القرآن. ولكن (ثمود)، (مدين) لا يمنعان من الصرف في القرآن على الموضع فحسب، وإنما هما ممنوعان من الصرف في كل القرآن حتى حين يراد منهما (القبيلة) صراحة، أي القوم، بدلالة ورودهما على جمع المذكر صريحًا، في مثل قوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾[1]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ

(١) سورة هود، الآية: ٦١.

أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[1]، فتستدل من هذا على أن (ثمود)، (مدين) لفظان أعجميان منعا من الصرف للعجمة. أما (عاد) فصرفت لخفة الوزن فحسب. إلى غير ذلك من موانع الصرف وشواذه مما لا نستطرد بك إليه؛ لأن مرادنا التمثيل فقط.

على أن كثرة الشواذ في القاعدة لا تبطل حكمها متى راعيت إعمالها بضوابطها. مثال ذلك أن تنعدم في الاسم كافة موانع الصرف إلا العجمة، كأن يكون اسمًا علمًا مذكرًا، من مقطعين فأكثر، على زنة لا يجوز فيها إلا الصرف، عندئذ تكون العجمة هي الوجه الوحيد لامتناع صرفه. من هذا اسم النبي (صالح) المصروف في كل القرآن، فتقطع لهذا السبب وحده بعربية هذا الاسم غير منازع.

ولكن عربية الاسم لا تعني عربية (صاحبه) بدليل عجمة من أرسل إليهم: ثمود. لأن (ثمود) - أو بالأحرى (قرى صالح) - لم تكن جغرافيًا على عصر صالح عليه السلام من منازل العرب الناطقين بالعربية التي نزل بها القرآن. كان صالح النبي آراميًا من قوم آراميين، ولكن اسمه الآرامي (صاليح) (والمد فيها بعد اللام مد بالكسر لا مد بالياء)، تواطأ لفظه ومعناه مع (صالح) العربية في القرآن، فصرف لخفة وزنه. وربما كانت (صالح) أبين الأمثلة على أسلوب القرآن في التفسير بالتعريب، وسيأتي هذا في موضعه.

وردت في التوراة أعلام أنبياء لم يذكرهم القرآن، مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[2]. وبالمثل، سمى القرآن أنبياء ثلاثة لم تذكرهم التوراة، ولم تذكرهم أيضًا الأناجيل، وهم (هود)، (صالح)، (شعيب).

وسمى القرآن أيضًا (إبليس) المختلف في عجمته، ولم ترد في التوراة إلا (ساطان) (شيطان)، المترجمة في الأناجيل اليونانية إلى (ذِيَبُلُس) *Dialbolos* وإن كانت الترجمة اليونانية غير دقيقة، لأن (ذيبلس) تعني (الرجيم)، لا العدو أو المناوئ - الذي تعنيه (ساطان)

(١) سورة هود، الآية: ٨٤. (٢) سورة غافر، الآية: ٧٨.

العبرية – الآرامية. ويزعم أدعياء الاستشراق(١)، وتابعهم للأسف علماء عرب(٢)، أن القرآن نحت (إبليسه) من ذيبلس اليونانية هذه، كما عرب من قبل (ساطان) العبرية إلى (شيطان)، دون أن يدري أن الأولى ترجمة للثانية، لا أكثر ولا أقل.

والملاحظ أن (إبليس) ممنوعة من الصرف في كل القرآن، لا يلحقها قط التنوين، ولا تجر إلا بالفتح، والمنع من الصرف كما تعلم من دلائل العجمة، ولكنه ليس بدليل كاف في (إبليس) بالذات؛ لمجيئه على زنة (إفعيل) وهو وزن نادر في العربية، واقترنت الندرة بالعلمية فأشبه الأعجمي، فمنع صرفه.

والرأي في (إبليس) وأمثالها مما أخبر به الله عز وجل في القرآن على غير سابقة في التوراة والإنجيل – ومنه من الأنبياء هود وصالح وشعيب، أو من الملائكة: مالك وهاروت وماروت، صلوات الله وسلامه على ملائكته وأنبيائه – أنها من أنباء الغيب غير المتحدث به في التوراة والإنجيل اللذين بين يديك اليوم، وأن القرآن الذي لا يُحَاجُّ بما في التوراة والإنجيل، لا يُحَاجُّ من باب أولى بما ليس فيهما.

على أن لنا في (إبليس) رأيًا آخر يأتي في موضعه.

****

أما ما جاء من أعلام القرآن على المخالفة الصريحة لنظرائها في التوراة والإنجيل، فمنها مرسى سفينة نوح عليه السلام: (الجودي)، وهي في التوراة (آراراط)، ومنها اسم أبي إبراهيم عليه السلام: (آزر) الذي سمته التوراة (تيرح) (بإمالة الألف في (تارح)) وحرفته الأناجيل اليونانية إلى (ثارا) *Thara*(٣). ومنها أيضًا (طالوت) المسمى في التوراة (شاءول). ومنها

(١) منهم على سبيل المثال *Joseph Horovitz*، المرجع السابق.

(٢) أبرزهم (مجمع اللغة العربية) الذي يكفك في المعجم الوسيط عن اشتقاق إبليس من (أبلس) في باب الباء من (بلس)، ويحيلك إليه في موضعه من باب الهمزة بوصفه من الأعجمي المعرب الذي لا اشتقاق له في العربية.

(٣) انظر النص اليوناني الأصلي لإنجيل لوقا ٣: ٣٤.

(يحيى) - عليه السلام - المرسوم في النص اليوناني للأناجيل بالرسم (يُوَنِّس) *Ioannes* على أصل عبري مظنون هو (يوحنان)، أو آراميِّه (يوحنا)، أبدلت حاؤه همزة (سهلت لكونها غير بادئة)، وختم - على خلاف صورته الآرامية - بالكسر لا بالفتح، وأضيفت سين الرفع. وأخيرًا عَلَم المسيحية الأكبر عيسى - عليه السلام - المرسوم في الأناجيل اليونانية (يِسُوس) *Iesous* على الرفع، (يِسُون) على النصب، (يِسُو) في غير ذلك، وكأنها من (يِشُوَع) العبرانية؛ ذهبت عينها وأبدلت شينها سينًا.

هذا الاختلاف البين في تلك الأعلام الخمسة بين رسمها في القرآن ورسمها في التوراة والإنجيل، ليس - كما ترى - ناشئًا عن مجرد (التعريب)، وإنما هو خلاف في جذر الاسم نفسه، رغم أن القرآن ينص تنصيصًا على أنه يعني على القطع بأعلامه هذه نفس مسماها في التوراة والإنجيل، فالجودي هو نفسه مرسى سفينة نوح، وآزر هو أبو إبراهيم وجد إسماعيل وإسحاق، وطالوت هو الملك شاءول الذي خرج داود من عسكره لمبارزة جالوت، ويحيى هو نفسه يوحنا بن زكريا المصدق بالذي هو (كلمة من الله)، عيسى هو نفسه المولود من عذراء، الذي أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الميت.

أتظن أن القرآن - الذي يقص عليك بدقة مذهلة وعلم محيط أنباء أولئك وهؤلاء - يخفى عليه أسماء أبطال (قَصَصِهِ) في رسمها الآخر، وهو شائع ذائع بين معاصريه من أهل الملتين: يهود يثرب، ونصارى نجران؟ كيف يدقق في النبأ ويخطئ في البطل؟ كيف يذكر لك من أنباء الطوفان ما سكتت التوراة عنه[1]، ثم (يخترع) لمُرسى السفينة اسمًا مخالفًا

(١) لم تتحدث التوراة عن امرأة نوح التي خانته، ولا عن ابنه الذي اعتصم من الماء بجبل ولا عاصم، ولم تتحدث عن جدال نوح ربه فيه. والملاحظ على التوراة التي بين يديك أنها تجتزئ اجتزاء مخلًا بالنسبة لأنباء ما قبل إبراهيم عليه السلام، لا هَمَّ لها إلا عمود النسب من آدم إلى إبراهيم، ثم هي لا تقص عليك شيئًا من نبوة إبراهيم ورسالته إلى قومه، وتحطيمه الأصنام، وتحريقه في النار، ولا عن جدال إبراهيم أباه، الذي لم يهجره إبراهيم وإنما ((هاجر معه)) كما تقرأ في سفر التكوين، وكأنما كل أهمية إبراهيم ليست في أنه نبي رسول، وإنما في أنه (البطريرك) (أبراهام أبينو)، وصاحب (الموعد) الذي رسم لليهود حدودهم الجغرافية - السياسية. أما باقي التوراة فكله حديث عن =

لما سمته التوراة؟ ألم يقع في سمع محمد ﷺ من أحبار يهود أسلموا أن اسم أبي إبراهيم في التوراة هو تيرح، فلماذا يصر على تسميته آزر؟ كيف يسمي داود وجالوت فيصيب، ثم (يفقد الذاكرة) فجأة في شاءول فيسميه طالوت؟ ألم يحاوره أساقفة نجران ثلاث ليال في مسجده بيثرب وهو يعرض عليهم الإسلام، أفجادلوه بيوحنا ويسوع؟ أم جادلوه بيحيى وعيسى؟ أيتقن في (قرآنه) كل هذا الإتقان، ثم يسفسف ويخلط في أعلام خمسة؟ أما كانت له في (الناسخ والمنسوخ) مندوحة فيصوب (أخطاءه) في أعلام التوراة والإنجيل برجال أسلموا من أهلهما؛ أمثال ابن سلام اليهودي وصهيب الرومي؟ أم هو يتحدى بالخطأ ويصر عليه؟

لا يظن هذا من خصوم القرآن إلا هازل. ولكنَّ من علمائهم وأحبارهم من فعلوه.

كان أحرى بهؤلاء وأولئك ألا يطيلوا الوقوف عند أوجه التطابق بين (كتابهم المقدس) وبين القرآن مطنطنين بدعوى النقل والاستنساخ: إن صح لهم الوحي فالمُوحِي واحد بنص القرآن، وقد تابع الإنجيل التوراة ولم يعيبوا عليه. بل كان عليهم أن يتوقفوا فيطيلوا الوقوف حقًّا عند نقاط مخالفة القرآن الصريحة - عامدًا متعمدًا - لمحفوظ مأثور، مسجل في كتبهم؛ ليتبينوا أي الوجهين أصوب وأدق؟ ولكنهم لم يفعلوا.

بل من خصوم القرآن هؤلاء ملحدون يدعون اصطناع المنهج العلمي في مقارنة (الأديان)، يستوي عندهم - في بطلان دعوى الوحي - التوراة والإنجيل والقرآن جميعًا، فتندهش كيف استباحوا مجادلة القرآن - ثابت الأصل والسند باعترافهم هم أنفسهم - بتوراة مقطوعة السند عندهم قالوا: إنها كتبت من الذاكرة بعد صاحبها بعدة قرون؟ أو بأناجيل أو ترجمات أناجيل يقولون: إن أصلها العبراني المفترض مفقود، لا تدري أين أخطأ المترجم أو أصاب، إلا أن تسلم بالوحي لكتبة الأناجيل اليونانية - كما ارتأت الكنيسة من قبل؟ الملحد والمتعالم ينكر الوحي على كائن من كان.

ولكنك تعلم أن هؤلاء ليسوا بعلماء، وإنما هم (خدام سياسة)، والهوى والغرض - كما تعلم - داءٌ عضال لا يرجى منه بُرْء.

= الذي ورث (الموعد): يعقوب وبنوه. إنها (توراة بني إسرائيل).

أما علماء الملتين فما أنصفوا وما سددوا. القرآن هو السند الأوحد لرأب ما انقطع سنده في التوراة والإنجيل، وهو سند أي سند!

بل ماذا ينكرون من القرآن وقد جاءهم القرآن بالخلق والبعث وبالتوحيد (الخالص) غير ملبوس وغير مهموس؟

ألأنه جاء (بالنبي) الخاتم من نسل إسماعيل لا من نسل إسحاق؟ أليس كلاهما نسل إبراهيم؟

ألأنه وقد أله الواحد، أثبت لعيسى وجبريل عليهما السلام الربانية والملأكة[1]، ونزههما عن دعوى الربوبية والتأله؟ وهل يؤمن في قرارة قلبه حقًّا بتعدد الآلهة أحد؟

أليس أبلغ في تكريم المسيح عليه السلام - وقد شرفه الله برفعه إياه إليه - أن يستجيب الله لابتهالات نبيه[2]، فيخلصه من كيد الذين كفروا، ويجيز عنه (الكأس) فلا يوقع الصلب عليه؟

أيهما أبين في الإعجاز، وأيهما أنبل وأشرف، أن يولد (ابن الإنسان)[3] بشرًا من عذراء؟

(١) أي الملأكة لجبريل والربانية لعيسى عليهما السلام. أما (رباني) (وهي ربي، وربوني العبرية) فليست ياؤها ياء الملك (أي ربي أنا) وإنما هي ياء النسب، أي المنسوب إلى الرب، الذي يَعْلَم ما للرب ويُعَلِّمه، وهكذا كان اليهود يسمون الدارسين الحافظين للتوراة، الذين يعلمونها للناس، وهكذا لقَّب المسيح حواريوه الذين عرفوه بهذه الصفة أول ما عرفوه، حتى بعد أن آمنوا به رسولًا إلى بني إسرائيل. وقد حذر القرآن من الخلط بين الربوبية والربانية في قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠]. لم يقل المسيح هذا بالطبع حتى في الأناجيل التي بين يديك، وإنما قالته (مجامع) انعقد أولها بعد رفعه بنحو ثلاثة قرون.

(٢) انظر على سبيل المثال إنجيل مرقس (١٤ : ٣٦).

(٣) (ابن الإنسان) بالعبرية هي (بن أدام) أي ابن آدم لا ابن الله. وما فتئ المسيح يسمي نفسه في الأناجيل بابن الإنسان حتى رفع. فتأمل.

أم أن يتأنس الإله ويتأله الإنسان؟

ما ضرهم لو آمنوا بالقرآن مصدقًا لما معهم، محققًا، مصوبًا، مهيمنًا؟

ولكن.. لا أحد يلزمه في عقيدته أحد. بل يهدي الله لنوره من يشاء..

* * * *

أما الوجه الذي خالف به القرآن كلًّا من التوراة والإنجيل في تلك الأعلام الخمسة، فالحديث عنه يأتي بإذن الله في موضعه، عندما نتناول بالتحليل أعلام القرآن المعنية في هذا الكتاب عَلَمًا عَلَمًا.

لم يبق من هذا الفصل إلا الحديث عن (أساليب القرآن) في تفسير علمه الأعجمي، وعن خطة البحث فيما بقي من فصول الكتاب. وهذا هو ما ننتقل إليه الآن بعد تمهيد ليس منه بد.

* * * *

(٤)

استعرضنا في الفصل الأول من هذا الكتاب الفوارق الأساسية التي تفصل ما بين العربية وبين أختيها العبرية والآرامية، على رغم اتحاد الجذور وتقارب مخارج الأصوات، وعللنا إسهابنا هناك بأنه يفيد في استجلاء معنى العَلَم العبراني في التوراة والإنجيل. ونحن نضيف هنا فوارق أخرى بين العربية والعبرية يتعين الإلمام بها قبل المضي في البحث، كي يسهل على القارئ الذي لا يعرف تلك اللغة متابعة المقابلة بين لفظ العَلَم العبراني في التوراة والإنجيل وبين صورته الواردة في القرآن.

وسنقتصر بالطبع من تلك الفوارق على الضروري منها لمباحث هذا الكتاب دون أن نغفل فوارق ما بين العبرية والآرامية حال ضرورتها لما نتحدث عنه.

١ - أداة التعريف

أداة التعريف في العبرية ليست هي الألف واللام (الـ)، وإنما هي الهاء والألف (ها). وعلماء العبرية يقولون: إن أصلها قد كان الهاء واللام (هل). وكأنها هي نفسها (الـ) العربية أبدلت ألفها هاء. والعبرية أيضًا تسقط الحرف الثاني من أداة التعريف (ها)، أي ألف المد، وتستعيض عنه بتضعيف أول الاسم المعرف. من ذلك، (هاتُورا) (أي التوراة)، التي تصبح (هَتُّورا)، حذف ألف (ها) وضعفت التاء. يستثنى من ذلك أن يبدأ الاسم بأحد أحرف خمسة: أ - هـ - حـ - عـ - ر، عندئذ تظل (ها) ممدودة على أصلها ولا يضعف ما بعدها، كما في (ها أرِص) (أي: الأرض). وهذا يذكرك بما يسمى (اللام الشمسية)، (اللام القمرية) في العربية.

أما أداة التعريف في الآرامية فليست (الـ) العربية، ولا (ها) العبرية، وإنما هي ألف مد، يختم بها الاسم ولا تَبْدَؤه، وكأنها - كما يقول علماء الآرامية - أثارة من ألف تنوين المنصوب في العربية سقطت نون تنوينه عند الوقف عليه في مثل: (وبالوالدين إحسانا)، لا يظهر التنوين في (إحسانا)، وإن بقيت علامته في النطق ألفًا ممدودة في آخر الاسم؛ لوقوفك على رأس آية وانتهاء الكلام. من ذلك في الآرامية (مَلْكَا) (أي: الملك)، عرفت بزيادة ألف ممدودة في آخرها.

وأداة التعريف الآرامية، وكذلك العبرية، تصلح أيضًا أداة للنداء، من ذلك في الآرامية قول عيسى عليه السلام للصبية التي حسبت ميتة: ((طاليثا قومي!))[1]، أي: ((قومي يا طلوة))[2]، وأصلها (طاليث) زيدت بألف التعريف على النداء في آخرها. ومنه أيضًا في الآرامية (أَبَّا)، وأصلها (آب) زيدت بألف التعريف الممدودة في آخرها على النداء، وضعفت الباء بديلًا من تقصير مد الألف البادئة، فأصبح معناها (أيها الأب!). تجد (أبا) هذه على لسان المسيح في الأصول اليونانية (مرقس ١٤/ ٣٦) في عبارة *o Abba pater* اليونانية. أضاف مرقس *Pater* اليونانية على التكرار ليترجم (أبا) الآرامية لقارئه اليوناني. وإن لم يقلها المسيح بالطبع، الذي اكتفى بـ (أبا) الآرامية التي لا يفهم غيرها حواريوه، لا يحتاجون أن يترجمها لهم المسيح، ناهيك بأن يترجمها لربه الذي يناجيه[3]. ولكن المترجم العربي لم يرد أن يسقط حرفًا مما قاله مرقس في إنجيله اليوناني، فترجم عبارة مرقس اليونانية هكذا: ((يا أبا الآب!))، فأعضلت على القارئ العربي. صحيح أن (أبا) عربيًّا لغة في (أب) كما يقول المعجم العربي، ولكن ما الداعي للمجيء بلفظة (الآب) بعدها؟ أيترجم عربيًّا

(١) مرقس ٥/ ٤١.

(٢) طلوة العربية يعني الصغير من كل شيء، أي: قومي يا صبية! ورغم عدم شيوع طلوة العربية، فهي مكافئ (طاليث) الآرامية، اخترت الترجمة بها تدليلًا على قوة التقارب بين العربية والآرامية، ناهيك بـ (قومي)! وهي في اللغتين بنفس النطق والمعنى.

(٣) مر بك أن (آب) العبرية الآرامية تعني الأب المعروف، كما تعني الفاطر المبدع البارئ. كان المسيح يناجي (ربه) كما ترى، ولكن هكذا كان.

بعربي؟ ألا يخشى على القارئ المتعجل الذي يفوته الشكل والنقط أن يفهمها على المنادى المضاف إلى (الآب)، وكأن المسيح يناجي بها أبًا للآب؟ إن أراد التبرك بلفظ المسيح (أبا) فاستبقاه على آراميته، لكان يجمل به أن يقول: ((أبًا! أيها الآب!)) كما فعل مرقس في إنجيله اليوناني. أو لقال على الترجمة: ((أبًا!)) (يعني: أيها الأب).

٢- ألف التحلية[١]

يحدث في العبرية إضافة ألف في أول بعض الأسماء، لا لمعنى، ولا لوزن أو اشتقاق، وإنما للاسمية فقط، فهي الألف الزائدة للتحلية. ويحدث هذا في الاسم المعنوي، كما يحدث في الاسم العلم. من ذلك في الاسم المعنوي أمثال (أكزاب) (وتنطق كافها خاء لتحرك الهمزة قبلها كما مر بك)، وأصلها (كِزاب) يعني (كذوب)، تطلق على الجدول الذي يغيض ماؤه. ومنها أيضًا (أدون) يعني (سيد)، وأصلها (دون) تسمية بالمصدر من دان / يدون العبري (وهو دان / يدين العربي). ومن ذلك في الاسم العلم أمثال (أهارون) وهي (هارون) في القرآن، وسيأتي.

٣- المزيد بالنون

يُزاد بالألف والنون في العربية لمعان: منها الصفة مثل غضبان، ومنها النسب مثل إنسان (المنسوب إلى الإنس)، أو دعامة للنسب مثل رباني (المنسوب إلى الرب)، ومنها المصدر واسم الفعل مثل غفران وعصيان وغليان وطوفان، ومنها مجرد الاسم مثل عقربان (ذكر العقرب)، وثعبان، وعثمان (فرخ الثعبان أو فرخ (الحبارى) الطائر المعروف). وقد تقع الزيادة أيضًا في العربية بالواو والنون وصفًا على المبالغة، كما في ميسون، وحيزبون، وهو قليل.

والأكثر في العبرية هو وقوع الزيادة بالواو والنون، وتجيء أيضًا لمعان منها إفادة التصغير مثل (إيشون) مصغر (إيش) (إيش = إنسان) أي (أُنَيْسان)، ومنها المبالغة مثل (عِلْيُون)

(١) التسمية من عندي للتوضيح، ترجمة للإنجليزية *Prosthetic Aleph* لأن المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، الذي أحلتك إليه فيما سبق، معجم موضوع بالإنجليزية.

على المبالغة في العلو، ومثل (شِمْرُون) (شَمَر = حَفِظ) فهو (حفيظ)، ومنها الصفة على النسب مثل (إِشْتُون) (إشِت = امرأة)، فهو (المتأنث) الذي يحاكي النساء، ومنها الصفة على الفاعلية مثل (حارون) (حَرَا = حمي أو احترَّ) فهو الحميُّ أو الحرور والمحتر، ومنها كذلك المصدرية واسم الفعل مثل (هِرْيُون) (هَرَا = حبلت المرأة) فهو الحَمْل والحَبَل.

على أن العبرية لا تخلو أيضًا من الزيادة بالألف والنون، والأمثلة كثيرة، منها (هاران) اسم أخ لإبراهيم (هار = جبل) فهو (الجبلي) المنسوب إلى الجبال، ومنها (زِمْران) (زَمَر = غنى) أي (المغني)، ومنها (كوشان) يعني الحبشي (نسبة إلى (كوش) بن نوح)... إلخ.

وأحيانًا تضع العبرية الميم موضع النون في هذا وذاك، فتقول: (فِدْيُوم) تريد (فِدْيُون) يعني (الفدية). وتقول: (مِرْيَام) والأصل (مريان) مصدرًا من (مَرَا) العبري بمعنى المراء والتمري، وهو قول علماء العبرية وعلماء التوراة في تفسير معنى اسم أخت موسى وهارون (مريام) وسيأتي. وربما قلت إن (عَمْرَام) اسم أبي موسى في التوراة هو نفسه (عِمْرَان) الذي في القرآن أبدلت نونه ميمًا.

ويحدث في العبرية أيضًا حذف النون جملة، استخفافًا، كما تجد في (يِثْرُو) اسم حَمِي موسى في التوراة، من الثراء والثروة والتنعم، وأصلها (يِثْرُون)، وكما تجد في (شْلُومُو) وهو سليمان بن داود عليهما السلام، وأصلها (شْلُومُون).

وكما تحذف العبرية النون أحيانًا من الوزن (فعلون)، تحذف أيضًا ياءه البادئة استخفافًا حين تكون مادة الجذر مبدوءة بالياء، في مثل (يَشَر) العبري بمعنى الاستواء والاستقامة، فتقول (يَشَرُون)، ثم تخففها فتقول (شارون) أي السوي المستقيم. وهذا أحد وجوه تفسير الاسم (هارون)، تأخذه من (يَهَر) العبري بمعنى علا، فتقول: أولًا (يَهَرون)، ثم تخففها إلى (هارون)، ثم تضيف ألف التحلية، فتصبح (أهارون) كما تقرؤها في التوراة العبرانية. ومن هذا أيضًا (قارون) التي في القرآن - كما نرجح نحن - صيغت على حذف الياء من يَقَر العبري (وهو (وقر) العربي) فقيل (قارون) أي (المُوقر غِنًى). وسيأتي.

٤- المبادلة بالأحرف والأصوات

تتألف الأبجدية العبرية (وهي نفسها الأبجدية الآرامية) من ٢٢ حرفًا يجمعها قولك: أبجد - هوز - حطي - كلمن - سعفص - قرشت، ليس فيها المجموعتان (ثخذ - ضظغ) اللتان تختص بهما العربية وحدها. وقد أدى افتقاد العبرية والآرامية هذه الأحرف الستة الموجودة في العربية (ث - خ - ذ - ض - ظ - غ) إلى مغايرة بين العربية وبين هاتين اللغتين في أحرف الجذر المشترك، حين يدخل في أصله العربي واحد من أحرف المجموعتين (ثخذ - ضظغ)، فَتُبْدِلُ منه العبرية والآرامية حرفًا آخر قريبًا من مخرجه. وقد مر بك من هذا (ضحك) العربية، (صحق) العبرية بنفس المعنى، كما مر بك (ظَبْي) العربية التي تقابلها (صَبْي) في العبرية، وهلم جرًّا. من ذلك أيضًا (غَدَن) العربية بمعنى استرخى ولان، ومنه (اغدودن) بمعنى طال والتف، أو كان ناعمًا متثنيًا، واغدودن النبت أي اخضرَّ حتى مال إلى السواد من شدة ريه: ليس في العبرية أو الآرامية (غين)، فتستعملان (العين) (غير منقوطة) موضع الغين في (غدن) العربية، فتصبح (عدن)، وهو اسم جنة عدن في التوراة بمعنى (جنة النعيم)، فلا تدري هل عرب القرآن (عِدِن) العبرية إلى (عَدْنٍ)، أم أن القرآن يريد المعنى الآخر من (عَدَن) العربية بمعنى (أقام)، وتكون (جنات عَدْنٍ) جنات إقامة؟ وسيأتي. كذلك ليس في العبرية والآرامية خاء أصلية، وحين تشتركان مع العربية في جذر تدخل فيه الخاء، يتحول توًّا في العبرية والآرامية إلى حاء (غير منقوطة)، فتصبح (خلق) العربية مثلًا (حَلَق) في العبرية والآرامية، أما ما كان أصلًا في العربية بالحاء فيظل على أصله العربي، فلا تدري هل اسم نوح عليه السلام في التوراة (وينطق (نُوَح)) من النواح، أم هو من الإناخة والتنوُّخ، أي البُقْيَا والتلبث، وقد فصل القرآن في هذا كما سترى، ولكن المفسرين لم يفطنوا إليه، وسيأتي. وقس على ذلك باقي الحروف الستة المشار إليها، مما يأتي في موضعه حين الحاجة إليه.

٥- التحورات في الجذر الثلاثي

لا تكتفي العبرية والآرامية بمغايرة العربية لضرورة أملاها افتقارهما إلى تلك الأحرف

الستة التي ذكرت لك، ولكن العبرية (والآرامية أيضًا) تغاير العربية بتنويعات في أحرف الجذر الثلاثي رغم وجود نفس الأحرف في الأبجدية العبرية - الآرامية. وهي تنويعات لا بد أن تتوقعها في لغات من نفس الفصيلة، وإلا لما اختلفت. من ذلك أن الفعل العربي (نصر) بمعنى أيد وأعان، لا وجود له في العبرية بهذا المعنى رغم امتلاك العبرية لهذه الأحرف الثلاثة، وإنما (نصر) العبري هو بمعنى (نطر) العربي، أي حفظ وراقب ومنه النواطير في بيت المتنبي: (نامت نواطير مصر عن ثعالبها)، أي الرقباء الحراس الحفاظ، (أو حراس الكرم خاصة)، أما الجذر العبري (نطر) فهو ليس نطر العربي، وإنما معناه احتجز، ومنه (مَطَّارَا) (وأصلها (مَنْطَارَا)) بمعنى (السِّجن). هذا وغيره كثير يجعلك تلتزم الحذر في تفسير العبري بالعربي عند تطابق الحروف، بل لا بد لك من استشارة المعجم العبري.

من ذلك أيضًا أن السين العربية تنقلب شينًا في العبرية، ومن ثم تفهم أن (يسوع) أصلها العبري (يشوع)، والخاء العبرية أصلها كاف في العبرية، فتفهم لماذا أصبحت (ميخائيل) ميكائيل (ميكال في القرآن).

كل هذا وما جرى مجراه يسمى الإبدال، أي وضع حرف مكان حرف، سواء تطابق المعنى أو تفاوت. ومن أهم أنواع الإبدال التي تغاير العبرية بها العربية وضع الياء موضع الواو البادئة في الجذر العربي، (وهي قاعدة لا تتخلف في العبرية والآرامية). من ذلك أن (وَسُع) العربية تصبح (يَشَع)، ولكنه في العبرية بمعنى (نجا) أي أُوسِع له وَفُرِّجَ عنه. ومنه اسم عيسى عليه السلام كما سترى. أما الفعل العربي المعتل الآخر بالألف (وقد ترسم في الخط العربي ياء مثل (جرى)) فهو في العبرية ينتهي أيضًا في النطق بالألف الممدودة، ولكنه يرسم ألفًا في النادر ويرسم غالبًا بالهاء، ولكنها هاء خاملة لا صوت لها إلا المد، ولكننا سنلتزم في هذا الكتاب رسمها دومًا بالألف منعًا للخلط بينها وبين الجذر العربي. من ذلك (ورى) العربية تصبح (يَرَا)، ومنها اشتقت (هَتُورَا) (أي: التوراة)، وسيأتي. والمهم أن تلاحظ أن هذه الياء في (يَرَا)، (يَشَع) وأمثالهما ليست ياء المضارعة، وإنما هي ياء فعل ماض بدئ جذره بالياء، مثل (يَسَرَ) العربية بمعنى سَهُل وأمكن.

ومن الفوارق أيضًا في تصريف الأفعال وصيغ الفعل، أن صيغة (أفعل) التي يسميها النحاة (صيغة التعدية بالهمزة)، تصبح في العبرية (هِفْعِيل) بتغيير الهمزة هاء، وتظهر الهاء في المصدر (إفعال في العربية) أيضًا، مثل (هُوشِيَع) أي (إيساع) العربية، من التوسعة، وهي في العبرية بمعنى الإنجاء والتخليص والنصرة، (وهُوشِيَعْ اسم نبي لبني إسرائيل). ومن ذلك أيضًا صيغة (اِنْفَعَلَ) (المسمى بصيغة المطاوعة من (فَعَلَ))، وهي في العبرية (نِفْعَل) بحذف الهمزة تمامًا وإسقاط كسرتها على النون. وتظهر هذه النون في اسم الفاعل، فيصبح (نُوشَع) بمعنى (منصور) أو (منتصر).

ونحن نكتفي بهذا القدر على سبيل التمهيد لما سنوضحه بالنسبة لكل عَلَمَ عبراني نتناوله بالتحليل في موضعه.

في اللغة العربية - كما في غيرها من اللغات - جذور أميتت، أعني خرجت من نطاق الاستعمال كفعل يشتق منه ويتصرف فيه، وتبقى منها فقط في الاستعمال صيغ جامدة يعكف اللغويون على ردها إلى أصل مفترض، مستعينين بالسياق الذي تستخدم فيه، فيقتربون من الصواب، ولكنهم لا يحسمون.

أما اللغويون الأثبات فهم يلجئون إلى أداة أكثر حسمًا وأقمن بالإصابة، فيبحثون عن الجذر المفقود في لغة من ذات الفصيلة، وقد يتسعون فيلتمسون الجذر المفقود في جميع لغات الأسرة اللغوية بكل فصائلها. وهم يستندون في هذا إلى حقيقة ثابتة: الجذر الممات في لغة ما قد يظل حيًّا في أخواتها وفي بنات عمومتها.

والجذور التي أميتت في العبرية والآرامية وبقيت حية نابضة في لغتنا العربية كَمٌّ ضخم. أما الذي أميت في العربية وبقى حيًّا في العبرية والآرامية فهو نزر قليل. والذي يعنينا من هذا النزر القليل في مقاصد هذا الكتاب لفظتان اثنتان: (لَيْسَ)، (وَيْب).

أما النحاة فيقولون لك: إن (ليس) فعل جامد (ناقص) لا مضارع له ولا مصدر ولا اسم فاعل، يستفاد منه نفي المضارعة من الفعل (كان)، أي أن (ليس) تفيد نفي الكينونة، نفي

الوجود، نفي الحدوث، ونفي التحقق. ولكن مم اشتقت (ليس)؟ أصح ما قيل في هذا: إنها لفظ مزجي مركب من شقين (لا + أيس) أي هي نفي (أيس).

ولكن ما (أيس) هذه؟ إنها صيغة مماتة الجذر أيضًا، يقول لك المعجم العربي: إنها ضد (ليس) بدليل عبارة وقعت في كلام العرب: ائت به من حيث أيس وليس. أي ائت به على كل حال، من حيث وجد أم لم يوجد. لم تقع (أيس) في كلام العرب إلا في هذه العبارة، على التضاد من (ليس). وإذا كانت (ليس) موضوعة لنفي الصفة والحال، ونفي الوجود والتحقق، فلا بد أن تكون (أيس) لإثبات الصفة والحال، وإثبات الوجود والتحقق. أفتكون (أيس) بمعنى الوجود و(ليس) بمعنى العدم؟

ولكن (أيس) أميتت، وبقيت (ليس).

على أن (أيس) لم تمت في الآرامية والعبرية. فهي في العبرية يِشْ بمعنى التحقق والوجود، ومنها عبارة يِشْ لي، أي يوجد لدي، ومنها أيضًا عبارة بَرَا يِشْ مِئَيْن؛ أي برأ الوجود من عدم، تقولها متحدثًا عن الباري عز وجل. ولكن (ليس) هي التي أميتت في العبرية، وحلت محلها إِين (على الإمالة) وهي التي في مِئَين في برا يش مئين، وأصلها (مِنْ + إِين). أما في الآرامية فقد عاشت (أيس) وعاشت (ليس) كلتاهما، ولكن بالتاء المنطوقة ثاء، فهما إِيث ولِيث، الأولى لإثبات الوجود والصفة، والثانية لنفي الوجود والصفة. وتجيء (ليث) الآرامية أيضًا اسمًا بمعنى البطلان والعدم.

هذا الاتئناس بالجذر الحي في لغة من ذات الفصيلة يجلي فهمك (أيس) بمعنى الوجود والتحقق، ويجلي فهمك (ليس) بمعنى الانتفاء والبطلان واللاوجود.

أفتكون (إبليس) من (ليس)، أي (أبو ليس) بمعنى (أبو الباطل)، مركبة من (أب + ليس) - وهي في الآرامية آب + ليث - كنية صارت عليه علمًا لحظة فسق اللعين عن أمر ربه؟ ألأنه أول من تأبى على خالقه واستن به بعده كل العصاة؟ ألأنه أول من قال: لا. لمولاه؟ ألأن عصيانه بدأ بقوله حين أمر بالسجود لآدم: لست بساجد! (وهي بالآرامية ليث أنا يِسجد)؟ إن صح هذا، كانت إبليس اسمًا مزجيًا (أب + ليس) صيغ على زنة نادرة في العربية (إفعيل).

ولأن الاسم المزجي يمنع من الصرف وجوبًا، مثل حضرموت ومعد يكرب وتأبط شرًّا، فربما كانت إبليس ممنوعة من الصرف في القرآن لهذا السبب وحده، لا لعجمتها.

هذا ما لم تكن إبليس عربية من الإبلاس كما قال بعض المفسرين. ولنا في هذا كلام يأتي بإذن الله في موضعه من هذا الكتاب عند تحليل اسم إبليس.

ولا عليك الآن من (وَيْب) بمعنى الويل والضر والمكروه، فقد فهمت ما أعني.

****

من أعلام التوراة والإنجيل ما يجيء على النبوءة، وكأن الذي سماه يتنبأ له بما سيصير إليه، فيصدق. وهذا سائغ مقبول إذا كان المسمي هو الله تبارك وتعالى. أي بوحي منه عز وجل. من ذلك قوله تباركت أسماؤه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[1] تنصيصًا على تسميته من الله عز وجل باسمه هذا الذي تقرؤه في الأناجيل اليونانية (يِسُوس) كما تقرؤه في الترجمات العربية (يَسُوع)، تأصيلًا على جذر عبري هو يَشَع / يِيشَع أو شاع / يشوع (مقلوب الجذر العربي (وسع)) من السعة والفرج، أي الذي يوسع له ويفرج عنه، فيخلص وينجو، فهو الناجي الذي يخلصه الله من كيد شانئيه ومبغضيه وطالبي دمه، فيرفعه إليه، فكان كما سماه الله عز وجل.

أما أن يجيء الاسم العلم على النبوءة من غير الله عز وجل، أي بغير وحي منه تبارك وتعالى، ثم تصدق النبوءة بحذافيرها في المسمى، فهذا رجم بالغيب لا يصح أن تفترضه في المسمي، ولا يليق بك أن تظن به القدرة عليه وإن صدف. قد يولد لك ابن فتسميه باسم (صادق) فيكون أو لا يكون. أما أن يولد لك ابن فتسميه يوم مولده (السقا)، وإذا هو يَشُبُّ فيمتهن السقاية بالفعل، فهذا بعيد وغير مقبول. الصحيح أن أصحاب تلك الأسماء وأمثالها لم يتسموا بها يوم ولدوا، وإنما هم شهروا بها بعد تحقق الصفة والحال. من ذلك اسم (أيوب) عليه السلام، حين تشتقه - لا من الأوب والتوب كما فعل المفسرون

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

الذين افترضوا عربية هذا الاسم - وإنما من الوَيْب بمعنى الويل والضر والمكروه كما يفعل العبرانيون الذين يشتقونه من جذر عبري غير ممات هو أَيَب العبري بمعنى ضار / يَضِير أو ضرَّ / يضر، فهو (الضرير) المبتلى، أي ذو الضر، كما تجده في القرآن مفسرًا بهذا المعنى ذاته: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1]، فلا تكاد تشك لحظة في أن أبا أيوب لم يسم ابنه بهذا الاسم يوم مولده (تيمنًا) بما سيقع لابنه من صنوف الضر والبلوى، بل ترجح أن (أيوب) شهرة شهر بها إمام المبتلين بعد أن تأيب.

وغير أيوب من الأعلام كثير، حتى لتظن أن من أعلام التوراة والإنجيل من لم يسموا حتى أسنوا، ولكنها ألقاب وأسماء شهرة كما مر بك.

على أن الشهرة كالاسم تمامًا، عَلَم على صاحبها عرف به. وهذا يوضح لك لماذا يفسر القرآن أحيانًا العلم المقصود بشهرة صاحبه، فيظن الجاهل أن القرآن أخطأ ولم يصب، كما في شاءول وطالوت، ولكن القرآن المعجز لا يترك مثل هذا الجاهل على وهمه، وإنما هو يُلِمُّ في ثنايا الآيات بما ظن الجاهل أنه جهله أو غفل عنه، فيصوره لك بمعناه، حتى ليخيل إليك أنه ينص عليه نصًا. بل ربما شخص لك القرآن العلم المقصود دون أن يتقدم له ذكر في سياق الآيات، وكأنه يكني عنه، فتفهم اسم من ذا الذي يعني.

ولكن هذا بعض أساليب القرآن في تفسير أعلامه الأعجمية، تلك الأساليب التي ننتقل إليها الآن.

* * * *

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

(٥)

للقرآن في تفسير عَلَمه الأعجمي طرائق شتى، وقع لي بفضل من الله ونعمة استظهار ست منها وهي:

التفسير بالتعريب (ومثاله ميكال) - التفسير بالترجمة (ومثاله ذو الكفل) - التفسير بالمرادف (ومثاله موسى) -التفسير بالمشاكلة (ومثاله زكريا) - التفسير بالمقابلة (ومثاله عاد) - التفسير بالسياق العام (ومثاله لوط).

وقد تجتمع في تفسير عَلَم واحد أكثر من أداة، فيفسر مرة بالترادف، ويفسر أخرى بالسياق العام... إلخ، بنفس المعنى أو بقريب منه.

* * * *

أما التفسير بالتعريب فهو تعريب العلم الأعجمي على وزن عربي يفيد بذاته أصل معناه في لغته.

من ذلك أن القرآن في (ميكائيل) (وتنطق كافها في العبرية خاء لتقدم الياء عليها كما مر بك) لا يعربها على (مكئال)، ولا على (مكئيل)، ولا على (مئكال)، وإنما يعربها على (ميكال)، فيصيب التعريب ويصيب المعنى في آن واحد، كما سترى.

وشرط إمكان التفسير بالتعريب، اتحاد الجذر في اللفظين: **الأعجمي والمعرب**. ولا يتسنى هذا إلا في لغتين من نفس الأسرة اللغوية، كما هو الحال في اللغتين العربية والعبرية.

ويتعين التنبيه إلى أن التفسير بالتعريب ليس هو التفسير بالترجمة. التعريب - كما مر بك - هو استبقاء اللفظ الأعجمي في صورته الأعجمية بعد تهذيبه على مقتضى مخارج أصوات العربية وأوزانها، من مثل جيورجيوس التي عربت إلى جرجس، باستبقاء أحرف الاسم الصحيحة (ج - ر - ج - س) والاستغناء عما عداها، فاستقام نطقه على وزن عربي، أي أصبح الاسم الأعجمي عربيًا بصورته، وإن بقي أعجميًا بمعناه؛ إذ لا معنى للفظ جرجس في العربية؛ لأن اللغتين اليونانية والعربية ليستا من نفس الأسرة اللغوية، فلا تفهم معنى جرجس إلا أن يقال لك إن أصلها في اليونانية (جيورجيوس) وأن معنى (جيورجيوس) هذه في اليونانية (الحارث)، أعني أنك في التعريب تبقى محتاجًا إلى من يترجم لك، أما إن ترجمت الاسم العلم إلى معناه في لغتك، غير عابئ بأصل صورته في لغته، كأن تسمي جيورجيوس باسم الحارث مباشرة فقد أصبت المعنى وفاتك المبنى، وينتج عن هذا أن من يسمعك تقول: الحارث، لا يدري إن كنت تقصد رجلًا عربيًا اسمه الحارث، أم تقصد رجلًا يونانيًا اسمه جيورجيوس ترجمت أنت معناه إلى الحارث.

من ذلك في القرآن ذو الكفل الذي لا خلاف على عربيته مبنًى ومعنًى، ولا مجال لاشتقاقه من العبرية أو الآرامية، فتتوقف فيه: هل هو نبي عربي لم تتحدث عنه التوراة؟ أم هو علم من أعلام التوراة نص القرآن على معناه، ولم ينص على مبناه؟ وسيأتي.

أما لماذا يعمد القرآن أحيانًا إلى الترجمة ويهمل التعريب، فهذا إعجاز من ثلاثة أوجه: الوجه الأول العِلْم أصل كل إعجاز في القرآن. والوجه الثاني تحاشي التعريب حين تفيد الصورة التي يُعرَّب عليها الاسم عكس معناه في لغته، مثل يِشُوَع بمعنى الناجي في العبرية (عيسى في القرآن) المعدول عن تعريبها يَسُوع (كما فعل المترجم العربي في الأناجيل اليونانية)؛ لأن يسوع معناها في العربية الهالك[1]. وأما الوجه الثالث فهو خِصِّيْصَة من

(١) راجع في معجمك العربي مادة ساع/ يسوع، ساع/ يسيع، وكلتاهما بمعنى ضاع وهلك، وقد صحت في العربية التسمية بالفعل المضارع المفرد الغائب، يقصد بها اسم الفاعل، كما في يزيد على الفاعلية من زاد/ يزيد. فـ (يسوع) بمعنى السائع.

خصائص لغة القرآن: تحاشي الوحشي وتحري الجمال. ولو علمت أصل ذي الكفل في التوراة لأدركت ما أعني، ولما جَوَّزت فيه إلا الترجمة. وسيأتي.

التفسير بالتعريب والتفسير بالترجمة، هو كما ترى مُتَضَمَّن في بنية الاسم ذاته، معرَّبًا أو مترجمًا، لا يحتاج من ثم إلى مزيد بيان، فلا يفسر بغيرهما من أدوات التفسير الست في القرآن: الترادف، والمشاكلة، والمقابلة، والسياق العام.

* * * *

أما التفسير بالمرادف فهو الإتيان بالعلم الأعجمي على التجاور مع مرادف له في العربية يفيد معناه في لغة المتسمى به، كما رأيت من قبل في (ملك / رسول)، وكما رأيت في (شيطان / عدو). ولا يشترط في المرادف العربي أن يأتي على صيغة اسمية تفسر معنى العلم الأعجمي، كما في موسى، ومعناها في المصرية القديمة وليد، تجدها في: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[1]، وإنما قد يأتي المرادف أيضًا على صيغة جملة اسمية أو فعلية، كما في: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[2]، والمقصود في الحالتين موسى، المحذوف لدلالة السياق عليه، وسيأتي. من ذلك أيضًا إسحاق في قوله عز وجل: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾[3]، وفي ميلاد مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[4]، وكما في قوله عز وجل: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾[5]، وسيأتي بيان هذا كله في موضعه إن شاء الله.

وليس التفسير بالمرادف كالتفسير بالترجمة - كما لعلك حَدَسْت -: في التفسير بالمرادف يظهر العلم الأعجمي إلى جوار مرادفه العربي الدال على معناه. أما في التفسير بالترجمة

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٩.

(٣) سورة هود، الآية: ٧١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

فالعلم الأعجمي يختفي تمامًا في كل القرآن، ولا يظهر في القرآن إلا باسمه العربي ترجمة، كما سترى في ذي الكفل.

أما التفسير بالمشاكلة فهو ذلك الجناس المعجب الذي مر بك من قبل في قوله عز وجل: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[1] بين زِكر العبرية، ذِكر العربية، لا فرق بينهما إلا إبدال الزاي العبرية ذالًا، مع اتحاد المعنى. إنه فرع من التفسير بالمرادف - ولكنه ليس هو - لاتفاق المرادف العربي مع مرادفه العبري في اللفظ والمعنى، لا في المعنى فقط. والتفسير بالمشاكلة ليس هو أيضًا التفسير بالتعريب؛ لأن المُفَسَّر بالتعريب لا يظهر في القرآن إلا بصورته المُعَرَّبة، كما في ميكال، أما المفسر بالمشاكلة مثل زكريا فيظهر بصورته المعربة هذه مفسرًا بغيرها.

وأما التفسير بالمقابلة - والمقابلة هي الطباق عند أهل البديع - فهي الإتيان بالعلم الأعجمي مقابلًا بعكس معناه، أي أنها عكس الترادف تمامًا. من ذلك في القرآن عاد قوم هود، وهي في العبرية - الآرامية من الأبد: الخلود، و(عُدْنِي) عبريًّا بمعنى ما زلت وما أزال. ولكن القرآن يقول: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾[2]، أي أنه سبحانه أزال الباقية الخالدة التي لا تزول، فيفسرها بما آلت إليه. وسيأتي.

أما التفسير بالسياق العام فهو أنك تستخلص من سياق الآيات وصفًا لبطل الحدث المروي في القرآن، يلابسه ويلازمه حتى تكاد تسميه به، وإذا هو نفسه معنى اسمه العلم في التوراة.

من ذلك اسم لوط، ومعناه بالعبرية محجوب، الذي تجده مفسرًا بالمقابلة في قوله عز وجل: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾[3][4]. ولكنك تجده

(١) سورة مريم، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٥٠، ٥١.

(٣) سورة الحجر، الآيتان: ٦٧، ٦٨.

(٤) فضحه أصلها بمعنى كشف ستره وعراه، ومنه افتضاح السر الذي لم يعد سرًّا، ثم غلبت في =

أيضًا مفسرًا بالسياق العام أو الجو العام الذي توحي به إليك الآيات التي تصور لك لوطا وهو يراود عن ضيفه ولا يملك ما يدافع به إلا أن يفتدي ببناته فلا يقبل منه، ويهمون به ليبطشوا به إلا أن يخلي بينهم وبين ضيفه هؤلاء ليفعلوا بهم ما أرادوا، ويجزع لوط أشد الجزع وقد غُلب على ضيفه فيتوجع: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]، ولكن ضيفه يهونون عليه: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾[2]، ولكن الملائكة المكْرَمين لا يحاجزون عن لوط، ولا يبطشون بالكفرة الفجرة، فلم تحن بعد ساعتهم، بل يضربون بينه وبينهم بحجاب، فتغشى الذين ظلموا الظلمة: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾[3]، فيحتجب منهم لوط كما تحتجب الملائكة، ويضرب الليل بأستاره على القرية المجرمة، ويمضي لوط في ساتر الليل متبعًا ما أمر به: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[4]، لينجو بسحر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾[5]، ولا ينجلي الليل عن القرية إلا وقد صبحهم عذاب مستقر: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾[6]، وهلك الظَّلَمة رَدْمًا وعُمْيانًا: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[7]. هذا الحجاب المضروب على لوط في إفلاته من بطش الذين كفروا، وفي فراره من القرية الظالم أهلها، حجاب باطنه من قبله الرحمة، وظاهره من ورائه العذاب، ولذلك قيل له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾[8]، أي النجاء أمامك، وكل ما وراءك هالك، فاجعل القوم وراءك ولا تلتفت.

= التحدث بالمعايب والمثالب، وهو غير المقصود في الآيات.

(١) سورة هود، الآية: ٨٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٨١.

(٣) سورة القمر، الآية: ٣٧.

(٤) سورة هود، الآية: ٨١.

(٥) سورة القمر، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

(٦) سورة القمر، الآية: ٣٨.

(٧) سورة الحجر، الآيات: ٧٢ - ٧٤.

(٨) سورة الحجر، الآية: ٦٥.

هذا الجو العام الذي توحيه الآيات، سمة يتفرد بها القصص القرآني من دون كل قصص. الحدث المروي في القرآن لا يسرد عليك كما يسرد الخبر، ولكنه - على خلاف ما تجد في التوراة والإنجيل - يُبْعَث لك من غياهب التاريخ حيًّا نابضًا مشخصًا، وإذا أنت في قلب الحدث تسمع وترى، وقد طويت المسافات واستدار الزمن. تجد قريبًا من هذا في قصة نوح مع قومه (الآيات ٢٥-٤٨ من سورة هود) حين يبلغ الحدث ذروته، فتحسب أنك من ركاب السفينة مع نوح وهي تجري بك في موج كالجبال، وربما اشتد بك (الحضور) فهممت بأن تمد يدك إلى قمة جبل حاذاها الماء، تريد أن تلتقط الابن العاق وهو يغرق، ولكن موجة عاتية تحول دونك، فتسترجع ويسترجع نوح، فقد نُهِيَ عن ذلك من قَبْلِك، ولا يفرخ روعك إلا بانتهاء المشهد وقيله عز وجل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾[1]. فتثوب إليك نفسك.

هذا لون من وجوه الإبداع الفني المعجز في القرآن، ولو كان موضوع كتابنا هو هذا الإبداع لزدناك، ولكنك تعلم منه ما أعلم، ولم أرد من هذا إلا التمثيل لأسلوب القرآن في التفسير بالسياق العام، أي التفسير بالتصوير.

****

والذي يجب التنبيه إليه أن التفسير القرآني لأعلامه الأعجمية، أيًّا كانت أداة التفسير المستخدمة، تفسير به خفاء، ليس هو خفاء التطابق بين المفسَّر والمفسَّر به فالتطابق تام، ولكنه خفاء القصد؛ لأن النسيج القرآني نسيج محكم، بالغ الإيجاز، بريء من الحشو والافتعال، كل لفظ فيه موزون بميزان، معناه مطلوب لذات معنى الآية، واللفظة أو العبارة المفسِّرة لمعنى الاسم العلم جزء في هذا البنيان المتضام المتكامل، أو أداة لتصوير الحدث نفسه، لا لتفسير الاسم، فلا تفطن إن كنت لا تعرف لغة الاسم العلم لوجه التناسب بين المفسَّر والمفسَّر به، أو لوجه المشاكلة بين هذا وذاك، كما تجد في تفسير اسم إسحاق

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.

بقوله عز وجل: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾[1]، فالعبارة هنا تعطيك وقائع الحدث المروي عليك بالكلمة والصورة باختصار بليغ اقتضى من كتبة التوراة عدة أسطر، دون أن يُلِمَّ سفر التكوين[2] بكل ما ألمت به تلك الألفاظ الخمسة من سورة هود، فقد سقط منها على سبيل المثال اسم المبشر به إسحاق، فتنتظر إلى الإصحاح ٢١ (٢-٥) كي تعلم أن إبراهيم هو الذي سمى ابنه إسحاق، وأن امرأته سارة قالت في تفسير الاسم: قد صنع إليَّ الله ضحكًا. كل من يسمع يضحك لي. ولكنك أمام تلك الألفاظ الخمسة في القرآن بمحضر من مشهد متكامل: ترى سارة قائمة تخدم ضيف إبراهيم، وتفهم بغير كلام أن الضيف (وهم وفد من الملائكة صلوات الله عليهم) قالوا شيئًا ما يتعلق بسارة رضي الله عنها، ضحكت له عجبًا وحياء، فأعيد عليها القول، فتفهم أن الذي قالوه قد كان بشارة بالمحال وقوعه لعجوز عقيم أيأستها السنون، وكأن الملائكة قالوا: ضحكت يا أم ضحاك! تسمية من الملائكة للمولود المبشر به، ولكنك لا تفطن لوجه التناسب بين ضحكت وإسحاق؛ لأنك لا تعلم أن إسحاق هي ضحاك، كما لا تفطن لوجه المشاكلة في عبارة من مثل: أحسنت يا حسن! إن قيلت لك بالإنجليزية هكذا: *Well-done, Hassan!*.

ولكن علمك بلغة الاسم العلم لا يكفي - وإن كان شرطًا أول - لأن القرآن لا يفسر لك أعلامه الأعجمية بمثل تلك الصورة المباشرة الفجة: أحسنت يا حسن! فلا يقول لك مثلًا: وامرأته قائمة فضحكت ولذا سمينا إسحاق، حتى يستثار فضولك إلى معرفة معنى إسحاق في لغة إبراهيم وسارة، ولا يقصد إلى التفسير قصدًا كما فعل كتبة التوراة، فيخطئ الكاتب ويصيب، كما رأيت في تفسير اسم حواء الذي تصدى الكاتب لتفسيره فقال: ((ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي))[3]، يريد أن اسمها أخذ من الحياة: (وإن كان آدم أول الأحياء من البشر كما تعلم)[4]. القرآن لا يعلل لك تسمية إسحاق بضحك سارة، فضحكها واقع

(١) سورة هود، الآية: ٧١. (٢) تكوين ١٨/ ٩-١٥.

(٣) تكوين ٣/ ٢٠.

(٤) لا ينص القرآن على حواء ولكننا سنتناوله بإذن الله في تحليل اسم آدم، تصحيحًا لما ذكره كتبة =

وقع، وجزء لا يتجزأ من صور الحدث المروي عليك، ملتحم بالمعنى العام للآية، لا حشو ولا افتعال، ولا خروج عن القصد، بل تأتي العبارة سلسة، ويجيء إسحاق في موضعه غير مقحم، فتظن أنت أن التفسير عارض عرض - بعد علمك بأن إسحاق هي ضحاك - لا مدخل له البتة في مقصود الآية، فلا تلتفت إليه.

ولكن هذا الذي لا تلتفت إليه يتواتر في كل علم أعجمي مذكور باسمه أو بكنيته في القرآن. فتتساءل أمقصود هو أم غير مقصود؟ أم أنه الإعجاز البياني الذي يؤلف بين الألفاظ والصور على هذا النسق المتناغم المتجانس لا يراد منه إلا هذا؟

وأنا لا أقول لك: إن المقصود هو هذا أو ذاك، فلا يملك مخلوق تقييد مقاصد الخالق عز وجل، وإنما الذي أقوله لك هو أن لإعجاز القرآن وجوهًا هذا أحدها. إنه دليل العلم ودليل القدرة.

****

ثمة محاذير في تفسير معنى العلم الأعجمي من القرآن وبالقرآن. وأهم هذه المحاذير ألا تقع فيما وقع فيه بعض قدامى المفسرين، كأن تقول: إن يوسف من الأسف، معتلا بالمشاكلة والتجاور بين اللفظين في قوله عز وجل على لسان يعقوب: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[1]، دون أن تمحص معنى يوسف من العبرية نفسها، وكأن يوسف أصلها يؤسف لأن يوسف كان سببًا في أسف أبيه. هذه تخريجات لا تفيدك شيئًا، لأن أسف العربية ليست بالضرورة جذرًا مشتركًا بين اللغتين، بل هي بالأحرى من جذر عربي آخر لحقه القلب والإبدال: إنها في العبرية من ضَفَا العربية بمعنى نما وكَثُر، وهي أيضًا من ضاف / يَضِيف العربية بمعنى أماله إليه وضمه وأضافه، وأيضًا آواه واستضافه. وهذا كله لا صلة له بالأسف الذي تعنيه مادة (أَسِفَ) العربية.

= التوراة من أن حواء من الحياة.

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

والذي أقصده من هذا ألا تتلمس معنى العلم الأعجمي مستدلًا عليه بقرينة التجاور وحدها، فالتجاور ليس هو بالضرورة الترادف، وإلا خبطت خبط عشواء فظننت أن إسحاق بمعنى العِلْم في اللسان العبراني، مستدلًا على ذلك بتواتر وصف إسحاق بالعلم في القرآن مرتين: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[1]، ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[2] - يريدون إسحاق. هذا عبث لا يليق ببحث جاد، ولغو لا يصح في كتاب الله عز وجل.

وإنما الصحيح أن تؤصل أولًا معنى العلم الأعجمي في لغته، ثم تتلمس هذا المعنى نفسه في الآيات من القرآن التي تتحدث عن هذا الاسم مصرحًا به، أو مكنًّى عنه، أو محذوفًا لدلالة السياق عليه، وأنا زعيم لك بأنك ستجد هذا المعنى في كل عَلَم مرة واحدة على الأقل، وهذا كاف. وحبذا لو تواتر هذا الترادف في أكثر من موضع[3]، إذن لاستبان لك أن هذا الترادف لم يأت عرضًا. وحبذا أيضًا لو أتيح لك ترجمة تلك الآية من القرآن إلى لغة ذلك الاسم العلم، كي يتجلى لك كالشمس سطوعًا تطابق اللفظين في تلك اللغة: الاسم العلم ومعناه. من ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾[4]، وترجمتها الحرفية بالعبرية هي: (وَيبُؤُو إِل يُوسِف ويُوسِف إلاوْ أَحِيو)، ومرة أخرى في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾[5]، وترجمتها العبرية هي: وَيبُؤُو إِل يُوسِف ويُوسِف إلاوْ أَبُوتَاوْ. في الترجمة العبرية (والترجمة من عندي فلا ذكر لهذا في التوراة العبرانية) تجد لفظة (يُوسِفْ) مكررة على التلاصق - يُوسِفْ ويُوسِفْ[6] - الأولى هي الاسم العَلَم يوسف عليه السلام،

(١) سورة الحجر، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢٨.

(٣) هذا حادث بالفعل في القرآن، ولكننا في مباحث هذا الكتاب سنقتصر على أبرزها وأوضحها؛ قطعًا لكل جدل.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٦٩.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٩٩.

(٦) يوسف العبرية يعني يؤوي على المضارعة من آوى، ولكن العبرية تستعمل في الحكاية الزمن المضارع تريد به الزمن الماضي.

أما يوسف الثانية فهي فعله (ترجمة آوى: فلما دخلوا على يوسف آوى إليه) فتستخلص أن القرآن يدلك على معنى اسم يوسف عليه السلام بفعل صدر منه - الإيواء والاستضافة - كان بحق محور دوره عليه السلام في تاريخ بني إسرائيل، وكأن الاسم يلخص لك هذا الدور أصدق تلخيص: كان يوسف لبني إسرائيل في مصر نِعْمَ الآوي - المضيف.

ولكن علماء التوراة - وعلماء العبرية أيضًا - يرون أن يوسف مشتق من جذر عبري آخر هو يَسَفْ الذي يفيد الإضافة بمعنى الزيادة، ولا يفيد الإضافة بمعنى الضيافة، فهو عندهم بمعنى يزيد، ربما لأن أم يوسف قالت في سفر التكوين وهي تضعه: إنها سمته يوسف ويزيدها الله ابنًا آخر. نعم، قد استجيبت دعوة راحيل فولدت ليعقوب وهي تجود بنفسها ابنًا آخر هو بنيامين (أي ابن اليمن والسعد)، وكأنها وهي تسمي يوسف تريد معنى يزيد. وليس لنا بالطبع - ولا لعلماء التوراة أيضًا - ادعاء العلم بمقصد راحيل رضي الله عنها من تسمية مولودها يوسف - إن صح أنها هي التي سمته ولم يسمه أبوه[1] - وإنما الذي يعنينا من الاسم منطوقه ودلالته: النطق على المعنيين (يزيد، يستضيف) في العبرية واحد، ولم يَتَسَمَّ باسم يوسف من العبرانيين قبل يوسف بن يعقوب أحد، ودلالة الاسم على مسماه تصح بالمعنى الذي تستخلصه من القرآن (يستضيف) ولا تصح بالمعنى الذي يريده علماء التوراة (يزيد)، لأن يوسف لم يكن أكثر الأسباط الاثني عشر نسلًا، ولكنه كان وحده لبني إسرائيل جميعًا الآوي المضيف، والتسمية على قصد النبوءة فاشية كما تعلم في أعلام التوراة (أو في سفر التكوين على الأقل)، لا يكاد يخلو علم من النص على أن التسمية تنظر إلى ما سوف يئول إليه، والذي أفسر لك به اسم يوسف الآن مفيد لعلماء التوراة في هذا الباب، ولكنهم لم يفطنوا إليه.

والذي يعنينا في هذا المقام أن نسجل للقرآن هذه الأستاذية السامقة في فقه اللغة العبرية، فيستخلص الإيواء من يوسف التي تفيد أيضًا يزيد، فيصيب المنطوق والمعنى كما يصيب

(١) يستوقفك في سفر التكوين على الأقل اختصاص الأم بتسمية مولودها لحظة ميلاده، لا سيما في تسميات أبناء يعقوب الاثني عشر، لم يفلت منهم إلا بنيامين، الذي تعسرت ولادته فأرادت أمه تسميته - بن - أوني، أي: ابن شقوتي، ولكن راحيل جادت بنفسها وهي تضعه، فسوغ يعقوب لنفسه تسميته. (تكوين ٣٥/ ١٩).

الدلالة التاريخية ليوسف في بني إسرائيل، وسبحان العليم الخبير. وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله عند تحليل اسم يوسف في موضعه.

ويعنينا أيضًا في هذا المقام التنبيه على محذور ثان، وهو فرط الوثوق بما ورد في نصوص التوراة من تفاسير تبرر التسمية، فليست هذه التبريرات جزءًا من وحي الله على رسله، وإنما هي اجتهادات الكاتب الذي يخطئ ويصيب. بعض هذه الاجتهادات متناقض مع نحو اللغة، فتحيل على الله عز وجل أن يكون هو الموحي، وبعضه حشو مقحم يتعالم به الكاتب فيزل القلم، ويفتضح الجهل. من ذلك ما تقرؤه في سفر التكوين (تكوين ١١/ ١-٩) من تفسير الكاتب لاسم مدينة بابل، فيقول على لسان الله عز وجل: ((وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعي اسمها بابل. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض)). تصدى الكاتب هنا لما لا يعرف فتردى في أخطاء جسيمة لا تصح من كاتب وحي؛ أخطأ في حق التاريخ، فظن أن أهل بابل كفوا عن بناء المدينة فلم يكتمل بناؤها، والواقع التاريخي أنها بنيت وحسن بناؤها، بل وكانت من أعظم مدائن التاريخ. وأراد تفسير ظاهرة اختلاف لغات البشر، فوقع في خطأ علمي بيِّن؛ لأن الناس لا تتباين ألسنتهم فيتفرقون، وإنما يتفرقون فتتباين الألسنة. ولم يكتف بهذا بل افترى على الله عز وجل الغَيْرَة من عباده الذين أتقنوا الصنعة، فبدد شملهم كيلا يتموا ما بدأوه، كما افترى على الله من قبل (تكوين ٣/ ٢٢-٢٤) الخشية من أن يغافله آدم، الذي ((صار كواحد منا عارفًا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا (بعد أن أكل من شجرة المعرفة) ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخِذَ منها. فَطَرَدَ آدم[1] وأقام شرقي جنة عدن الكَرُوبِيمَ ولهيب

(١) تجدها فَطَرَدَ الإنسان في الترجمة العربية، ولكنها في الأصل العبراني أدام أي آدم. صحيح أنه يسوغ في العبرية التعبير عن مطلق جنس الإنسان بلفظ أدام، ولكنه لا يصح في هذا الموضع؛ لأن المطرود من الجنة ليس مطلق جنس الإنسان، بل أبوهم. أما إنسان في العبرية فهي إِنُوش (من =

سيف مُتَقَلِّبٍ لحراسة طريق شجرة الحياة)). وهذا كله أدخل في باب الأساطير والقصص الشعبي، لا يصح في جنب الله عز وجل، فتقطع بأن هذا النص من عند غير الله، لا يلزمك. أما خطأ الكاتب في جنب اللغة فقد توهم أن بابل من البلبلة، فبنى على هذا الوهم كل ما سبق. والصحيح أن بابل لفظة أَكَّادية (أي بابلية - أشورية) أصلها باب + إيلو تحورت في الآرامية إلى باب + إيل، أي باب الله، وظنها الكاتب العبراني من الجذر العبري بَلَلْ بمعنى خلط واختلط، ضُعِّفَ كما في زلَّ، زلزل العربية، فصار بلبل، ولكن كيف تأتي بابل من بلبل؟ لا يستقيم هذا بالطبع في نحو اللغة، فيضطر علماء العبرية رغمًا عنهم من بعد هذا الكاتب إلى افتراض ما لا يصح افتراضه، وهو أن بابل كان أصلها بَلْبِلْ![1] كل هذا ولا يتوقف أحد ليتساءل: ولماذا يستعير البابليون اسمًا من العبرانية لمدينتهم؟

عليك أن تكون من هذه التخريجات وأمثالها على حذر، فليست لها حجية النصوص الموحى بها. تقطع بهذا آمنًا مطمئنًا؛ لأن نسبة الخطأ إلى الله عز وجل لا تصح. بل ينبغي لك أن تؤصل معنى العلم الأعجمي في لغة صاحبه غير متأثر بتفاسير ساذجة أو مغرضة، كما رأيت من قبل في اختراع قصة زنا لوط بابنتيه ليكون لهما نسل من ماء الأب (مو + آب) فيكون منه الموآبيون، تشنيعًا على قبائل الموآبيين بعد أن قهروا بني إسرائيل، رغم أن الموآبيين أسبق وجودًا على الأرض من لوط وابنتيه. أو بتفاسير أملتها العقيدة من بعد، كما تقرأ في إنجيل متى[2]: ((فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم. وهذا كله كان ليتم ما قيل من الرب بالنبي القائل: هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنًا يدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره: الله معنا)). فتفهم أن الكاتب يفسر لك هذا الاسم العبراني يِشُوَع بأن معناه المخلص، بل هل هذا هو ما تصر عليه كل المعاجم المسيحية، رغم تصادم الترجمة مع منطق اللغة العبرية، ولكنهم يقولون لك: إن أصلها يِهِي - يِهِي شُوَع[3] اختزلت إلى يِشُوَع،

= إِنْس العربية).

(١) راجع المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة المذكور في حواشي هذا الكتاب، صفحة ٨٧.

(٢) متى ١/ ٢١-٢٣.

(٣) المرجع نفسه، صفحة ٣٥٤. أما (يِهِي) العبرية فمعناها (يكون) أضيفت إليها (شُوَع) بمعنى =

فلا تفهم لماذا وكيف، ولا تفهم لماذا يتفرد عيسى عليه السلام بهذا التفسير المفتعل من دون كل يِشُوَع قبله في بني إسرائيل وقد تسمى به كثيرون، ولا تفهم أيضًا لماذا يستدل متى بنبوءة النبي القائل بأن العذراء تحبل وتلد ابنًا يدعون اسمه (عِمَّانُوئِيل) (الله معنا) وهو ينص في العبارة السابقة على أن اسم المولود سيكون يسوع، وقد كذبت النبوءة بهذا المفهوم؛ لأن ابن مريم عليهما السلام دعي بالفعل يسوع، ولم يدع عمانوئيل. أيريد متى أن يعرِّض بأن هذا المولود هو الله، صار جسدًا وحل بيننا كما قال يوحنا في إنجيله؟[1] وإذا كان هو الله فكيف يخلص شعبه كما قال متى آنفًا؟ أفلله شعب يختص به من دون البشر؟ إن صح هذا في عقيدة اليهود (شعب الله المختار) فهو لا يصح البتة في دين المسيح عليه السلام، الذي شدد النكير على دعوى اختصاص أبناء إبراهيم بالخلاص، فقال: إن الله عز وجل قادر على أن يخلق من الحجارة أبناء لإبراهيم، ولكن (متَّى) كما تعلم يهودي تنصر. إلى هذا ومثله يفضي التفسير بالهوى والتفسير بالعقيدة، أو التفسير بغير علم، وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله عند تحليل اسم عيسى عليه السلام في موضعه.

أما المحذور الثالث، فهو أن تظن أن أعلام التوراة والإنجيل جميعًا أعلام عبرانية تفسر بالعبرية وحدها، غير ملتفت إلى الإطار الجغرافي التاريخي لصاحب الاسم العلم. فأنت لا تتصور مثلًا أن يلتقط آل فرعون موسى من اليم، ثم يتكلفون تسميته تسمية عبرانية (مُوشِيه) بمعنى اللقيط (أو المَمْسُوِّ من الماء)، وإنما المنطقي أن يتحدث آل فرعون فيما بينهم بالمصرية القديمة، فيسمون الذي عثروا عليه في التابوت باسم مشتق من لغتهم هم، ولا ينتظرون حتى تسميه أخته (التي قصته)، أو أمه التي صارت مرضعًا له. ولا تظن أيضًا أن أم موسى رضي الله عنها ألهمت تسميته (موشيه) يوم وضعته أو يوم قذفت به في اليم، تفاؤلًا بما سيكون من أمر التقاطه من الماء، لو صح هذا لما أخطأت التسمية، ولما قالت (موشيه) على الفاعلية (أي الماسي)، بل لقالت (مَاشُويْ) على المفعولية (أي الممسو)؛ كي لا يحار من بعدها علماء

= الخلاص والنصرة، والمعنى أنه سيكون خلاصًا أو يكون به الخلاص. ولو كان المراد التسمية على الفاعلية من الإنجاء والتخليص لكان الاسم يُوشَع أو يُوشِيَع دون حاجة إلى كل هذا الافتعال.

(١) يوحنا ١/ ١٤.

العبرية في تعليل سبب التسمية على زنة الفاعل، لا على زنة المفعول. عليك إذن أن تلتمس للفظ موسى معناه في لغة آل فرعون، وستجد أن أصله مسو ومعناها وليد. وسيأتي.

من ذلك أيضًا اسم مريم أم عيسى عليهما السلام، تجدها في أصول الأناجيل اليونانية مرسومة *MARIAM* بفتح الميم والياء(أي بنفس نطقها في القرآن). كما تجدها أيضًا في تلك الأناجيل اليونانية مرسومة أحيانا *MARIA* ماريا محذوفة الميم في آخرها، على غير علة من الإعراب في اللغة اليونانية. ولكن أحدًا لم يتوقف ليتساءل لماذا فتح كتبة الأناجيل اليونانية ميم مريم ولم يكسروها كما في (مِرْيَام) أخت موسى عليه السلام، بل أجمعوا على أن مريم أم عيسى عليهما السلام سمية (مِرْيَام) أخت موسى (مكسورة الميم) التي يفسرونها في العبرية من التمري، الامتراء. بل ذهب أدعياء الاستشراق إلى أن القرآن، بقوله في سورة مريم: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[1]، يخلط بين مريم أم عيسى ومريام أخت موسى وهارون، بدلالة تقريعهم إياها في القرآن بعبارة: يا أخت هارون! أي ما كان يليق بك هذا وأنت من أنت، أخت هارون! وسيأتي تفنيد هذا في موضعه إن شاء الله عند تحليل اسم مريم عليها السلام. ولكن أحدًا لم يلتفت إلى أن الجليل، موطن مريم عليها السلام شمالي فلسطين، لم يكن عصر المسيح وقبله بثلاثة قرون على الأقل يتكلم العبرية، بل كانت اللغة الفاشية على ألسنة الناس هي الآرامية، بعد أن توارت عبرية التوراة في كل فلسطين منذ القرن الخامس قبل الميلاد، فلا تسمع إلا من حبر أو رباني (وهي رَبُّونِي كما تقول الأناجيل) يقرأ من التوراة فلا يُفهم منه إلا أن يفسر ما يقرؤه. وقد مر بك أن إصحاحات كاملة من سفر عزرا (القرن الخامس قبل الميلاد) كتبت بالآرامية مباشرة. كما تقرأ في سفر نِحْمِيا (معاصر عزرا) ما يلي: ((وقرأوا في السفر في شريعة الله ببيان وفسروا المعنى وأفهموهم القراءة))[2]. وبهذه الآرامية نفسها كان كلام المسيح عليه السلام مع عشيرته وحوارييه. ولا بد أن تتوقع لهذه الآرامية تأثيرًا في

(١) سورة مريم، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٢) نحميا: ٨/٨.

نطق الأسماء الأعلام، بل وفي صياغة الأسماء الأعلام، على الأقل بالنسبة لأعلام المسيحية الواردة في الأناجيل، فلا تستبعد أن تبتكر في بني إسرائيل - عصر غلبة الآرامية على ألسنة الناس - أعلام آرامية التركيب والصياغة يستشكل تفسيرها بالعبرية، ولا يفهم معناها إلا أن تُرَدَّ إلى الآرامية التي اشتقت منها. من ذلك اسم مريم بفتح الميم البادئة لا يصح أن تكون هي (مِرْيَام) العبرية مكسورة الميم البادئة، ممدودة الياء، إلا إذا خطأت كتبة الأناجيل اليونانية في رسمها مفتوحة الميم، والإنصاف يقتضي منك - وتوجب نزاهة البحث عليك - ألا تبادر إلى تخطئة كتبة الأناجيل في تهجئة الأسماء الأعلام خاصة، قبل أن تلتمس لهم العلة؛ فقد كانوا - ومنهم خلصاء المسيح وحواريوه - ينطقون تلك الأعلام على الوجه الذي به كتبت، لا سيما والخط اليوناني لا يحتاج إلى الشكل والنقط، بل تكتب مَرْيَم مثلًا: ما - رى - أم *MARIAM*، لا شبهة في فتح ميمها البادئة. فهي إذن غير مِرْيَام *MIRIAM* العبرية، أخت موسى وهارون، من المراء والمرية. ولا يجوز أيضًا افتراض جواز كسر الميم وفتحها في مريام العبرية، لأن هذا غير جائز في نحو تلك اللغة. ولا يصح افتراض أنهم لحنوا في نطق مريام العبرية بتأثير آرامي؛ لأن الآرامية لا تفتح مكسورًا في العبرية، وإلا لفتحوا ياء يِشُوَع اسم المسيح عليه السلام، وهو اسم عبري خالص، تسمى به قبله في بني إسرائيل أعداد لا تحصى. وإنما الذي يصح منك هو افتراض آرامية اسم مريم أم عيسى عليهما السلام، لا شأن لك بمريام أخت موسى وهارون.

ونحن في هذا البحث نفترض آرامية اسم مريم أم عيسى عليهما السلام، مفتوحَ الميم، لأنه لا يصح لدينا وجه في تفسير معناه إلا بافتراض آراميته. وهو عندنا اسم مزجي، مركب من عنصرين آراميين: ماري + أمَا، سهلت همزته، ثم رُخِّم، فأصبح مارِيَ +م، أي مريم (قارن (فاطمة) العربية التي ترخم فاطم). أما ماري فمعناها بالآرامية الرب، أو رَبِّ! على النداء والمناجاة والابتهال، أما (أَمَ) الآرامية فهي نفسها أمة العربية، مؤنث العبد، فهي عليها السلام أمة الرب. والذي يستوقف النظر أنها عليها السلام فسرت اسمها بهذا المعنى نفسه فيما يرويه على لسانها لوقا في إنجيله، ولم يفطن إليه من قارئي هذا الإنجيل أحد:

((فقالت مريم هو ذا أنا أمة الرب. ليكن لي كقولك. فمضى من عندها الملاك))[1]. ولو ترجمت عبارة ((أنا أمة الرب)) إلى الآرامية لغة مريم وعشيرتها، لجاز لك أن تقول باللسان الآرامي: أنا لـ(ماري) أمَا[2]، أي أنا للرب أمة. أما القرآن فيقول: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ ﴾[3] ومعنى القنوت في العربية - كما يقول معجمك العربي - هو (الإقرار بالعبودية) لله، كما تقرأ في القرآن في مناسبة تسمية مريم قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾[4]. كانت أم مريم رضي الله عنهما في الآية ٣٥ من سورة آل عمران قد نذرت ما في بطنها للرب محررًا، أي خالصًا لعبادته عز وجل، أي للخدمة في المعبد، عابدًا متحنفًا، وكانت ترجوه ذكرًا تهبه لله، وسألته عز وجل أن (يتقبل منها). وتنبئك الآيتان ٣٦ و٣٧ بأن المولود جاء أنثى على خلاف رجائها، فخشيت ألا يصح نذرها بأنثى فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وكأنها حين فوجئت قالت: أمة يا رب أمة! وهي بالآرامية: ماري! أما! ولكن العالم بما وضعت تقبلها بقبول حسن، فهو عز وجل هكذا أراد وقدر، ليخرج منها عِلم للساعة[5]، عيسى عليه السلام، المولود لغير أب، مولودًا من عذراء لا تُزَنُّ بريبة، كما قال عز وجل: ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[6].

****

أظنك أيها القارئ العزيز قد تهيأت الآن لمصاحبتي فيما بقي من فصول هذا الكتاب،

---

(١) لوقا: ١/ ٣٨.

(٢) العبارة الآرامية: (أنا لـ(ماري) أما) تنحل عناصرها إلى العربية كما يلي: أنا = أنا، لـ = لـ، ماري = الرب، أما = أمة.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٦ - ٣٧.

(٥) أي أنه عليه السلام من أشراط الساعة كما قال الصادق المصدوق ﷺ، وكما في القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ﴾ [الزخرف: ٦١].

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

لنحلل معا العلم الأعجمي في القرآن - عَلَمًا عَلَمًا - معناه في لغة أصحابه، قول مفسري القرآن فيه (إن وجد)، تفسيره من القرآن بالقرآن، وهو المقصد النهائي لهذا الكتاب الذي نكتب.

❋ ❋ ❋ ❋

أما من حيث ترتيب تناولنا لتلك الأسماء الأعلام عَلَمًا عَلَمًا، فقد كانت أمامنا خيارات ثلاثة:

الخيار الأول: أن نتناولها بترتيب ألفبائي، أي بترتيب أوائلها على حروف المعجم العربي، فنبدأ (بإبراهيم) وننتهي (بيحيى) عليهما السلام مراعين ذات الترتيب في أحرف الاسم التالية للحرف الأول، فيجيء بعد (إبراهيم) (إبليس)، وبعد (إبليس) (آدم)، وبعد (آدم) (آزر)... إلخ.

الخيار الثاني: وهو تناول الأعلام بترتيب نوعها، كأن نبدأ بأعلام الذات، ونثني بأعلام الجنس، وننتهي بأعلام الموضع.

الخيار الثالث: وهو تناول تلك الأعلام بترتيبها التاريخي، فنبدأ بالملائكة و(آدم)، وننتهي بعيسى ابن مريم، صلوات الله وسلامه على ملائكته ورسله وأنبيائه، غير مفرقين بين علم الذات وعلم الجنس وعلم الموضع، بل يجيء كلٌّ في إطاره، فتجيء مثلًا التوراة ومصر مع موسى، ويجيء هود مع عاد، وثمود مع صالح، وشعيب مع مدين، والجودي مع نوح، والإنجيل مع المسيح ابن مريم.

وقد آثرنا في هذا الكتاب الأخذ بالخيار الثالث الذي يتناول الأسماء الأعلام بترتيبها التاريخي؛ لأن الخيار الأول - الألفبائي - وإن كان ييسر رجوع القارئ إلى الاسم العلم بترتيبه المفهرس، يعيبه أن ترتيب الأسماء الأعلام ترتيبًا أصم على حروف المعجم يقتطعها من إطارها الجغرافي - التاريخي - اللغوي، فتجيء توراة موسى العبرانية بعد إنجيل عيسى

الآرامي اليوناني، ويجيء عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل قبل نوح خليفة آدم، بل وقبل أمه مريم رضي الله عنها. أما الخيار الثاني الذي يفصل بين علم الذات وعلم الجنس وعلم الموضع، فيعيبه أنه يقطع مثلًا ما بين الإنجيل وصاحبه، وبين مدين ورسولهم، وبين فرعون ومصر.

أما الخيار الثالث الذي يحترم وحدة الأرض والتاريخ واللغة، ويراعي التسلسل التاريخي للأسماء الأعلام، فهو في رأينا أفضل الخيارات الثلاثة جميعًا؛ لأنه يضع الاسم العلم على أرضه، وبين معاصريه، حيًّا مشخصًا، يفسر بعضه بعضًا. وهو النهج الذي نلتزمه في أغراض هذا البحث.

أما الترتيب التاريخي فنحن نستدل عليه من القرآن حين ينص القرآن عليه، ضاربين صفحًا عما سواه، وإن خالفه وتعارض معه، ونستدل عليه من التوراة حين لا ينص عليه القرآن. أما أعلام الإنجيل الخمسة التي يتناولها البحث زكريا - يحيى - عمران - مريم - عيسى، فترتيبهم التاريخي منصوص عليه في القرآن الواحد بعد الآخر، ترتيبًا يتفق فيه الإنجيل مع القرآن.

ولأن الملائكة رضوان الله عليهم الذين يتناولهم هذا البحث: جبريل وميكال ومالك وهاروت وماروت، هم خارج الزمان والمكان، وكذلك الفردوس، عدن، جهنم، إبليس، فسوف نفتتح بحثنا بفصل يتناول هذه الأعلام التسعة مع آدم عليه السلام.

ولأنه ليس في القرآن - ما بين آدم إلى نوح - أعلام، باستثناء (إدريس) عليه السلام، الذي اختلف المفسرون في ترتيبه التاريخي على عمود الأنبياء: أهو قبل نوح أم بعده؟ وإن كانت الكثرة على أنه قبل نوح، فنحن نلحقه أيضًا بالفصل الذي يتحدث عن آدم، لا على وجه التسليم لرأي الجمهور، وإنما استدلالًا عليه باسمه في التوراة، لأن إدريس في رأينا ترجمة قرآنية دقيقة للفظة (أخنوخ) جد (لامك) أبي نوح، و(أخنوخ) أصلها العبراني (حَنُوك) (التي تنطق كافها خاءً لاعتلال ما قبلها)، ومعناها المحنك المحنوك، وسيأتي.

أما باقي الأعلام من نوح إلى عيسى عليهما السلام، فتجيء موزعة على خمسة فصول، بترتيبها التاريخي.

وكما لعلك حدست، سيأتي تفسير أعلام الجنس وأعلام الموضع في سياقها المناسب، أي في سياق تفسير أعلام الذوات المتصلة بها.

والله سبحانه ولي التوفيق.

* * * *

الفصل الرابع

آدم في الملأ الأعلى

تمهيد

يتناول هذا الفصل تفسير اثني عشر علمًا، هي: جبريل - ميكال - مالك - هاروت - ماروت - بابل - الفردوس - عدن - جهنم - إبليس - آدم - إدريس.

****

يتقدم الملائكة، والجن أيضًا، في الخلق على آدم، أي كانوا قبل أن يوجد. تستدل على هذا بمثل قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

تستدل من هذا، ومثله في القرآن كثير، على أن الملائكة رضوان الله عليهم أسبق وجودًا من آدم؛ لأنهم نبئوا بخلقه من قبل أن يُخْلَق، وأمروا بالسجود له من قبل أن يشرع الله عز وجل في خلقه، وقبل أن يفرغ عز وجل من تسويته وينفخ فيه من روحه.

وتستدل منه أيضًا على أن (إبليس) كان موجودًا في الملأ الأعلى يوم فرغ الله عز وجل من خلق آدم، بدلالة توجه الأمر إليه بالسجود لآدم. وإبليس من الجن بمقتضى قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[2]. بل الجن أسبق

(١) سورة ص، الآيات: ٧١ - ٨٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

وجودًا من الإنس بنص قاطع في القرآن: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[1]، والجان هم الجن بلا خلاف.

وتستدل من هذا أيضًا على أن اسم (جهنم)، علمًا على النار التي يعذب بها العصاة والكفرة كان معلومًا لإبليس لحظة أن (فسق عن أمر ربه)؛ لأن الله عز وجل توعده بها هو ومن اتبعه، والوعيد لا يكون إلا بموجود معلوم، فدل هذا على أن جهنم أسبق وجودًا من آدم؛ لأن إبليس علم أمرها قبل أن يتأبى على السجود، أي قبل النفخ في آدم.

بل الجنة أيضًا - أعني (الفردوس)، (عدن) - أسبق وجودًا من آدم؛ لأن الحكم باللعن تضمن طرد إبليس منها لحظة تأبى على السجود: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾[2]، وقوله عز وجل عَقِيب هذا مباشرة لآدم: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3]. وهي نفسها الجنة التي أهبط منها آدم وزوجه بإتيان ما نهيا عنه استجابة لوسوسة إبليس. وهي نفسها أيضًا الجنة التي وعد بها المتقون يوم توفى كل نفس ما كسبت. وما (عدن) إلا نعت لتلك الجنة على الإضافة: لا (عدن) في كل القرآن إلا ولفظ الجنة مضاف إليها، منعوت بها. أما (الفردوس) التي وردت مرتين فقط في كل القرآن، فهي كما قال ﷺ: «**أوسط الجنة**». سيأتي بيان هذا في موضعه.

* * * *

ومن المفسرين[4] من غلبت عليه إسرائيلياته فظن أن (إبليس) لم يكن من الجن، وإنما كان من الملائكة[5]، بل كان رفيع الرتبة فيهم، فكان قائد جند الملائكة الذين حاربوا الجن

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩.
(٤) راجع في هذا ما حكاه القرطبي في تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة.
(٥) هذا هو قول أهل الكتاب في (إبليس) قبل أن يبلس. والقرآن على عكسه، كما سترى. ولم يؤثر عن النبي ﷺ فيه حديث، فليس في الحديث الصحيح ما يعارض القرآن.

حين أفسد الجن في الأرض قبل خلق آدم، فدخله من ذلك خيلاء وعجب أهلكاه حين أمر بالسجود لمن ظن أنه خير منه. ومنهم من قال: بل كان إبليس من الجن الذين حاربهم الملائكة فأسروه صغيرًا وربي فيهم، حتى أسجد الله الملائكة لآدم فشمله الأمر بالسجود. وهي تعلات لتبرير وجود إبليس في الملأ الأعلى يوم أمر الملائكة بالسجود لآدم ودخوله من ثم في جملة المأمورين بالسجود لآدم، أو لتبرير الاستثناء في قوله عز وجل: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ...﴾[1]. وهي في رأينا تعلات افتعلوها لحل إشكال ما كان لهم أن يفتعلوه، فقد نص القرآن على أن إبليس كان من الجن: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[2]. ولم يخبر القرآن ولا الحديث الصحيح بأن صنف الجن كانوا قبل زلة إبليس ممنوعين من دخول الجنة. أما القول بأن إبليس كان من الملائكة المأمورين بالسجود بدليل استثنائه بالحرف (إلا)، فليس بشيء. لأن (إلا) ههنا يتعين فهمها بمعنى (لكن) – وهذا من فصيح العربية – أي سجد الملائكة، لكن إبليس لم يسجد. يتعين هذا لأن النص القرآني المحكم، أي الذي لا يحتمل إلا معنى واحدًا فقط، يحكم النص القرآني الذي يحتمل معنيين فأكثر، وليس لعبارة (كان من الجن) إلا هذا المعنى القاطع[3].

أما دخول إبليس في جملة المأمورين بالسجود لآدم، رغم اتجاه الأمر بالسجود للملائكة وحدهم وليس إبليس منهم، فلك أن تفسره على أحد قولين:

الأول: – الذي نرجحه – أن الأمر للملائكة بالسجود يتجه إلى كل من شهده حتى النبت والشجر، فهو سجود الطاعة والإذعان لله عز وجل، لا لآدم، وإن كان مناسبة لتشريفه، وإشعارًا بما سيكون من شأنه. فلا يجوز لكائن من كان أن يحضر سجدة لله عز وجل في غير الصلاة ولا يسجد. ولا يجوز لكائن من كان أن يشهد الملائكة سُجَّدًا ولا يخر على جبهته.

(١) سورة ص، الآيتان: ٧٣ – ٧٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٣) من المفسرين (راجع (القرطبي) في نفس الموضع) من تظارف موفقًا بين النصين فقال: بل كان إبليس ملكًا من طائفة رفيعة القدر من الملائكة تدعى (الجِنَّة) وهو تظارف مموج.

وما يكون لك أن تتخيل الملائكة سُجَّدًا خُشَّعًا وإبليس منتصب في مكانه لا يخنع. وما كانت هذه لتفوت إبليس لولا أن الحقد أطغى قلبه، وأعمى بصيرته. لم تكن هذه السجدة امتحانًا للملائكة؛ فقد علم عز وجل أنهم لا يعصون له أمرًا، ولكنها كانت امتحانًا لإبليس، فكشف اللعين عن مكنونة نفسه. فأَثِمَ بها في حق الله، لا في حق آدم، وأصر عليها فلم يعتذر منها ولم يتب، بل استدرك على مولاه: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[1]، أي ليس لك أن تأمرني بهذا، فأنا أرفع منه. يحيل على خالقه عز وجل أن يحكم في ملكه كيفما شاء، ويؤصل حجته بما يفندها، فيقول: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[2]؛ مقرًّا بأن الله خالقه، فكيف يعصيه؟

أما على القول الثاني فهو أن إبليس أمر بالسجود لآدم أمرًا مباشرًا لحظة إسجاد الملائكة لآدم، ولم ينص القرآن عليه اكتفاءً بدلالة ما تلاه من قوله عز وجل: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[3].

كيفما كان الأمر، فإبليس ليس بالقطع من الملائكة رضوان الله عليهم، فهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[4]. ولم يُسَوِّ القرآن بين الجن والملائكة، بل هو يضع الجن والإنس في زمرة واحدة، هي زمرة المبتلين بالطاعة والمعصية، من كليهما مؤمن وكافر، ومنهم الفاسق والبار، فريق في الجنة وفريق في السعير، مصداق هذا قوله عز وجل على لسان نفر من الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[5]، ومنه أيضًا سورة الرحمن التي تخاطب الإنس والجن على سواء، وفيها: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[6]، أي أبكار لأصحاب الجنة

(١) سورة الحجر، الآية: ٣٣.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٧.

(٥) سورة الجن، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٦) سورة الرحمن، الآية: ٥٦.

من الإنس لم يطمثهن إنس فيمن طمثوا من نساء الإنس، وأبكارًا لأصحاب الجنة من الجن لم يطمثهن جان فيمن طمثوا من نساء الجن[1].

وهذا يفسر لك بأجلى بيان قوله عز وجل: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[2]، التي تفهم على التفسير كما تفهم على الخبر، أي أنه لو لم يكن من الجن لما فسق عن أمر ربه، ولكنه كان في زمرة المبتلين بالطاعة والمعصية، فغلبته شقوته، وأهلكته كبرياؤه، ولا يظلم ربك أحدًا.

ولكن إبليس - وقد خرب آخرته بيديه - استمهل الله عز وجل ألا يزج به من فوره في دار العذاب ريثما ينتقم لنفسه من آدم وبنيه إلى قيام الساعة، متبجحًا على الله عز وجل بأن نسب إليه غوايته بآدم: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[3]. لم يطلب التوبة والمغفرة، بل آثر أن يزداد رجسًا إلى رجسه. لم يقل فأنظرني إلى يوم يبعثون أندم وأتب، بل قال: فلأضلنهم كما ضللت، ولأغوينهم كما غويت، فنكون في النار سواء: لا أهلك أنا وينجو آدم وبنوه. ولو تاب إبليس لتاب الله عليه، ولكنه الحسد الأسود، والحقد المهلك.

وليست زلة إبليس بالتي تعدل زلة آدم، لأن إبليس زين المعصية لآدم، فكان لإبليس كفل منها، وشرك فيها. أما إبليس فزل بنفسه، أزلته كبرياؤه، فقصد المعصية قصدًا، واستكبر بها استكبارًا.

كانت زلة آدم زلة الغافل الناسي: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ﴾[4]. وكانت زلة إبليس على علم، ولا أفدح من سقطة عالم.

---

(١) وليس كما يذهب إليه أهل الخرافة والشعوذة ورواة الأساطير عن إلمام رجال من الجن بنساء من الإنس، أو العكس.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦، ١٧.

(٤) سورة طه، الآية: ١١٥.

على أن الدرس المستفاد من الزلتين واحد: إنه درس الطاعة، أمرك مولاك فأطعه، لا تتمحك بطلب العلة، وكأنك مفوض في الطاعة والمعصية، أو كأن الطاعة والمعصية رهن باستحسانك.

****

ولا شك أن إبليس كان قبل أن (يبلس) في عداد الجن المؤمن، يعمل في طاعة الله عز وجل، بل سكن الجنة، وجاور الملائكة رضوان الله عليهم، بدليل طرده منها فور عصيانه: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[1]. خرج منها الرجيم ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾[2] لإصراره على المعصية، كما خرج منها أيضًا آدم وزوجه حين استجابا لإغواء إبليس. ولكن آدم وزوجه اعترفا بذنبهما وسألا الله الرحمة والمغفرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3]. طلبا التوبة فلقنهما الله عز وجل ما يسألان به التوبة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4]. ولم يسألها إبليس؛ لأنه شغل بعداوته لآدم عما سواها، وإن كان فيها هلاكه هو ذات نفسه. وهذا هو الضلال المبين.

أخرج الله آدم وزوجه من الجنة تائبين، قد أخذ عليهما العهد أن يخلصا له الدين. وما الدنيا بكل ما عليها إلا تمحيص من الله عز وجل لعباده: أيهم باق على هذا العهد مخلص له الدين؟ وما كان آدم الذي شهد وعاين بالذي ينخدع مرة أخرى بإبليس، فيعصي الله في الأرض بعد زلته في الجنة، ولكن الاختبار لبنيه.

ولأن نسل آدم لم يشهد ولم يعاين: لم يشهد إسجاد الله الملائكة لآدم، ولم يشهد عصيان إبليس، ولم يشهد زلة آدم، ولم يسمع إبليس يستعلن له العداوة إلى يوم الدين، فما كان من العدل أن يتركوا في جهالتهم، يصول فيهم إبليس ويجول. بل شاء الله عز وجل - عدلًا منه

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

ورحمة - أن يودع فيهم دين الحق فطرة، فأشهدهم قبل الاختبار على أنفسهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[1]، ووصى بها آدم حين مهبطه من الجنة، وقد أهبط معه إبليس عدوًّا: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[2]، فكان آدم عليه السلام أول الرسل والأنبياء، يقص ما كان: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[3]، وتتابعت الرسل تترى؛ كي لا تكون للناس على الله حجة من بعد الرسل، ومن ضل من بعد فإنما يضل عليها، وما ربك بظلام للعبيد.

* * * *

ويرى المفسرون بحق أن إبليس لم يسم (إبليس) إلا بعد أن أبلس، لأن هذا الاسم - إن اشتققته من العربية - فيه مذمة، والمذمة تكون بعد اجتراح الذنب لا قبله. وهي تكون مساوية للذنب، دالة عليه، أو صفة لصاحبه بما آل إليه. ويروي المفسرون أن إبليس قبل أن يبلس كان اسمه (عزازيل) ثم أبلس بعد، ولم يتعرض المفسرون لمعنى (عزازيل) هذه؛ لأنهم لا يعرفون العبرية التي يسهل اشتقاق هذا الاسم منها، فتفهم أن الرواية من أقاصيص أهل الكتاب، تصح أو لا تصح، فالله عز وجل أعلم بغيبه. ونحن في هذا الكتاب لا يعنينا في المقام الأول اسم إبليس قبل أن يبلس، لأننا لا نتعرض إلا للأعلام المنصوص عليها في القرآن، لا المروية في غيره.

ولكن الطريف أن (عزازيل) هذا اسم عبراني مركب (عَزاز + إيل) يفسره علماء العبرية بمعنى (الذي أعزه الله)، فهو (العزيز بالله)، وهو علم وقعت التسمية به في العبرية، ومثله:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) سورة طه، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(عُزِّيئيل) (عزي + إيل)، أي (عزة الله)، وكأن اللعين حين أقسم بعزة الله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1]، كان يُورِّي باسمه هو، يقسم بنفسه، لا بعزة الله عز وجل. والله بغيبه أعلم.

والذي يجب التنصيص عليه في هذا السياق، هو النعي على أهل التفسير والسِّيَرِ، وأيضًا على أهل الفن والفكر والأدب، الذين تناقلوا ما دسه إبليس على أوليائه من أساطير وتهاويل لا يخلوا منها (أدب الخرافة) في كل الشعوب، تتحدث عن (أمجاد) إبليس قبل أن يبلس، تريد تفخيمه وتعظيمه وغرس المهابة منه في صدور الناس، حتى خصوه بأضوأ كوكب في السماء الدنيا، كوكب الصبح! أي كوكب (الزهرة)، وجعله بعضهم ندًّا لله، وجعله بعضهم شهيد البطولة في محنة السجود لآدم، وأول من قال: (لا)! ليس التنكر للخالق عز وجل بطولة، لا صحيحة ولا زائفة، وإنما هو وضاعة. هذا كله فسوق وصغار. لا يجوز لمؤمن تجميل ما قبحه الله، ولا يجوز لمؤمن إعلاء ما وضعه الله أسفل سافلين. لا يجوز لمؤمن تمجيد ما رذله الله، ولا يجوز لمؤمن تعظيم من لعنه الله، ناهيك بموالاة عدو الله. بل لا يجوز لعاقل موالاة من أقسم ليجرنه وراءه إلى قاع جهنم.

أيًا ما كان الأمر، وأيًا ما كان حال إبليس قبل أن يبلس، فقد ضرب لك الله بإبليس المثل: لا يتعظمن أحد على الله، ولا يستكبرن أحد على طاعة الله، ولا يستنكفن أحد من الخضوع لله. وقد هلك بها إبليس أول هالك، فحذار أن تزل به، فتشركه المصير الذي اختار لنفسه.

لا يترحمن أحد على إبليس، وقد أقسم لا يرحمك. ولا يتباكين أحد على إبليس، فلم تدمع لإبليس عين. كان إبليس عدو نفسه، قبل أن يكون عدوك.

****

أما الملائكة رضوان الله عليهم، ولا يعلم جنود ربك إلا هو، فقد سمى القرآن منهم خمسة: جبريل - ميكال - مالك - هاروت - ماروت.

(١) سورة ص، الآية: ٨٢.

والملائكة من غيب الله عز وجل. وغيب الله عز وجل حضور غير مشهود، إلا من ارتضى من نبي أو رسول. إنهم جند الله عز وجل العاملون بأمره، المتنزلون برسالاته، الساعون في قضائه. منهم حملة عرش ذي الجلال، ومنهم الحفظة الكتبة، ومنهم السفرة الكرام البررة. أثنى الله عليهم في القرآن الثناء الحسن، ونعتهم بكل جميل؛ امتدحهم بالإخبات والطاعة: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[1]، وضرب بهم المثل في القدر والقدرة: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ﴾[2]، وأنعم عليهم بالقرب: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾[3]، وخصهم بالجوار منه عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾[4]، وشرفهم بالمعية: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[5]، وبسط لهم في الخلق: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ﴾[6].

وهم رضي الله عنهم رتب ومراتب، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[7]، أعلاهم الروح الأمين، وأدناهم إليك رفيق عمرك، الحافظ الكاتب: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[8]. وهما اثنان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[9]، لا يتركانك حتى يسلماك إلى ما قدمت لنفسك: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[10].

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.

(٥) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

(٦) سورة فاطر، الآية: ١.

(٧) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

(٨) سورة الطارق، الآية: ٤.

(٩) سورة ق، الآيات: ١٦ – ١٨.

(١٠) سورة ق، الآية: ٢١.

كلهم من أمر الله، وبأمر الله، وفي أمر الله، محمود بالطاعة فيما أُمِرَ، سواء ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[1]، يمتدحهم بالغلظة والشدة في طاعته عز وجل، صدوعًا بأمره، وتحقيقًا لوعيده. ومنهم أيضًا - رضي الله عنهم - الذين يصلون عليك: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾[2]، ويستغفرون لكل من آمن: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[3]. والملائكة الذين يستغفرون للذين آمنوا في هذه الدنيا، يتلقونهم في الجنة بالسلام، وقد استجاب الله دعاء الملائكة فيهم: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[4]. والسلام - الذي هو تحية الملائكة، رضوان الله عليهم، لأهل الجنة - نشيد في الجنة دائم: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾[5].

* * * *

ولأن الملائكة رضوان الله عليهم أقرب الخلق من الله عز وجل، فهم أعبد الخلق لله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[6]، لا يملون ولا يسأمون: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.

(٣) سورة غافر، الآيات: ٧ - ٩.

(٤) سورة الرعد، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٥) سورة الواقعة، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٦) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٩، ٢٠.

﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾[1]. ولأنهم رضي الله عنهم أعرف الخلق بالله عز وجل، فهم أخشاهم له: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾[2]، ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[3]. وهم على مكانتهم - رضي الله عنهم ورضوا عنه - لا يتجاوزون أقدارهم، فلا يسبقونه عز وجل بالقول، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾[4].

عصم الله الملائكة من أن يفتتنوا بأنفسهم، ولكن من الناس من افتتنوا بهم فعبدوهم، بل اتخذ بعضهم من الملائكة أصنامًا إناثًا آلهة، من مثل العزى واللات ومناة، وقد رد الملائكة على أولئك الذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾[5].

هذا قول الملائكة رضوان الله عليهم فيمن عبدوهم من أهل الجاهلية الأولى، وهو قولهم فيمن يعبدون إلى اليوم (روحَ القدس) جبريل عليه السلام: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾[6].

* * * *

ومن الملائكة أيضًا من جعله الله فتنة وابتلاء. ذكر الله من هؤلاء في القرآن اثنين: هاروت وماروت.

وشبيه بفتنة هاروت وماروت في بابل فتنة السامري الذي صنع لبني إسرائيل في التيه ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾. صنعه من ذهب القوم. أوقد عليه ثم ألقى فيه ﴿قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٣.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٤) سورة النجم، الآية: ٢٦.
(٥) سورة سبأ، الآيتان: ٤٠ – ٤١.
(٦) سورة مريم، الآية: ٨٢.

﴿ٱلرَّسُولِ﴾، أي: من جبريل الروح الأمين، فصارت به صورة من حياة، هي ذلك الخوار: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾[1]. ضل السامري بما انكشف له، فأضل بني إسرائيل معه على علم: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾[2]، أي ذهب موسى لموعدة ربه في جانب الطور الأيمن، ناسيًا أن (العجل) الذي خلفه وراءه هو إلهه!

وشبيه بهذا أيضًا محنة داود - عليه السلام - حين افتتن بامرأة صاحب جنده، فضمها إلى نعاجه ولديه من قبل تسع وتسعون، فتَسوَّرَ عليه الملائكة المحراب؛ يضربون له المثل ويذكرونه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[3]. فَهِمَ داود عليه السلام أنه مدعوٌّ إلى الحكم في قضيته هو نفسه. أفتأخذه العزة بالإثم؟ كلا، بل تاب وأناب؛ أدان نفسه قبل أن تدان. وكانت فتنة الملائكة لداود تذكرة: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[4].

والذي يجب التنبيه إليه أن الفتنة من الله عز وجل هي على أصل معناها في اللغة: تمحيص واختبار. ليست هي الغواية والإضلال، بل هذان هما عاقبة الفتنة حين يسوء المآل. إنها امتحان فرض عليك، وموقف زج بك فيه، تخرج منه إما إلى الهدى وإما إلى الضلال. وطوق النجاة ذكر الله عز وجل. إن ذكرته ذكرك فنجاك. وإن عميت فقد اخترت لنفسك.

---

(١) سورة طه، الآيتان: ٩٥، ٩٦.

(٢) سورة طه، الآية: ٨٨.

(٣) سورة ص، الآيات: ٢١ - ٢٥.

(٤) سورة ص، الآية: ٢٦.

وليست الفتنة بالملائكة كغواية إبليس. فتنة الملائكة تمكين وتعليم. ثم تنبيه وتحذير، كما تجد في قوله عز وجل على لسان هاروت وماروت: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾(1)، أما غواية إبليس فإملاء واستدراج إلى الزيغ والضلال. إنه يُعمّي عليك أمره. لا يقول لك: أنا إبليس، جئت أضلك وأغويك! ولكنه يأتيك في ثوب الوسواس الخناس، يخامر عقلك، ويحدثك بلسانك، فتظنه حديث النفس. وربما ضبطته وهو يفسد قراءتك ويقطع عليك صلاتك. وهو حين يحدثك يجمل لك السيئة ويحسن القبيح، وربما أطراك فأرداك. وهو يقعد بك عن النهوض في طاعات الله عز وجل، ويهيجك إلى الفحشاء والمنكر والبغي. وهو لا يكتفي منك بمعصية الله خالقك، وإنما لا يزال بك حتى يُوئِسَك من رحمته، فتمعن ولا تبالي، وتصر على ما أنت فيه قد أخذتك العزة بالإثم، فيعمى البصر والبصيرة، ولا يُفْلِتُكَ حتى تنطق بكلمة الكفر، فيهوي بك معه في قاع جهنم، وكأن الله لم يحذرك وينذرك.

وقد تتساءل: أو لم يكف بني آدم الغواية بإبليس، حتى يفتنهم الله بالملائكة؟ لا عليك. هذا من تلبيس إبليس. الله عز وجل لا يفتنك بالملائكة فحسب، وإنما هو يفتنك بهذه الدنيا جميعًا خيرها وشرها: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(2)، لأن هذه الدنيا بكل ما عليها هي دار الفتنة، أي دار التمحيص والابتلاء، على أصل معنى الفتنة في اللغة كما مر بك. وإبليس يريد منك أن تنسى هذا، فتضيّع فرصتك، وتسقط في الامتحان. يريد منك أن تنسى الغاية الوحيدة من وجودك في هذه الدنيا، فتجعل الدنيا غايتك، وتظن أنه ليس بعد هذه الحياة حياة: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(3). والله عز وجل لا يفتنك ليرديك، وإنما هو يفتنك ليكشف لك عن معدنك، ويشهدك على نفسك، وهو بها أعلم: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(4). فكن منه عز وجل على ذكر لا يغيب، فلا تضل ولا تنسى.

(1) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(2) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(3) سورة الأنعام، الآية: ٢٩.
(4) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

وذكر الله عز وجل أكبر من العبادات كلها، وهو أكبر منها لأنه الغاية من ورائها جميعًا: الصلاة تريك نفسك في صورة العبد خمس مرات في اليوم والليلة، فتذكرك بمن أنت. والزكاة تدلك على أنك عامل في أرض الله بأمر الله، تؤدي خراجها في سبيله عز وجل وفق ما أمرك. والصوم يذكرك بأنك طاعم من رزق الله، إن شاء أطعمك، وإن شاء حرمك. والحج لمن استطاع إليه سبيلًا يذكرك بالمنتهى، في يوم مجموع له الناس، وقد تقطعت بهم الأسباب إلا من وجهه عز وجل، كلهم ضارع إليه يستغفره ويسأله ويستعينه. إن أحسنت الذكر أحسنت العمل، لا سبيل إلى هذا إلا بذاك. العبادات غايتها الذكر، والذكر غايته العمل، أي أن تعمل في هذه الدنيا بما ذكرت به في كتاب ربك وسنة نبيك: منهاجًا وتطبيقًا. هذه هي غايتك العظمى لا غاية بعدها؛ لأنها وحدها مدخلك إلى الجنة التي أهبط منها أبواك من قبل بإغواء إبليس، وتريد رغم أنفه أن تعود إليها.

أكرم العباد على الله أعبدهم، وأعبد العبد أعمله بما أُمِر. قد أصاب من قال: (العمل عبادة)، إن أراد هذا المعنى وحده، لا من أضله إبليس فقطع ما بين العبادة والعمل[1].

ولا يكتمل الحديث عن الملائكة رضوان الله عليهم إلا بالحديث عن (الرُوح)، وقد ورد لفظ (الرَوْح) بفتح الراء في القرآن ثلاث مرات، وورد لفظ (الرُوح) بضم الراء في القرآن عشرين مرة. وليست هذه كتلك، وإن اشتق اللفظان كلاهما من مادة لغوية واحدة، تدور معانيها على الحركة والخفة والانتشار.

أما (الرَوح) مفتوح الراء، فمن الراحة والترويح، أي الفرج وذهاب الهم والغم، وقد وردت في القرآن مرتين مضافة إلى الله عز وجل في قول يعقوب لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[2]، وفسرت

(١) مثل هذا الضلال من يفصلون بين الدين والدنيا، وما الدنيا لمن أراد الآخرة إلا إعمال هذا الدين في كل أمر، أو من يفصلون بين الدين والسياسة، وما الدين في المجتمع المسلم إلا هذه السياسة بعينها.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

في الموضعين بمعنى (فرج الله)، وقيل: بل (رحمة الله)، وليس للرحمة هنا مكان من أصل معنى اللفظ في اللغة، ولكنه تفسير بمجمل المعنى المستفاد من السياق العام للآية، وقد درج على هذا كثير من المفسرين، فأقحموا على معاني المادة اللغوية في المعجم العربي (مجازات) لا داعي لها. لا شك أن فرج الله رحمة منه عز وجل، ولكنك هنا تفسر الشيء لا بماهيته وإنما بالدافع إليه. وهذا لا يصح في اللغة، إلا أن يقال لك إنه تأويل ارتآه بعض المفسرين لا أصل له من ذات مادة اللفظ، أرادوا به تقريب المعنى للقارئ، وغيره كثير. أما المرة الثالثة التي وردت فيها كلمة (الرَوح) مفتوحة الراء، فهي في سورة الواقعة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[1]، وهى على أصلها بمعنى الراحة والاسترواح، وإن تأولها بعض المفسرين على معنى النعمة والنعيم.

وليست كذلك (الرُوح) مضمومة الراء، وهى التي تعنينا هنا. (الرُوح) بضم الراء معناها النفس، أو ما تكون به حياة النفس. والنفس من النَفَس. هكذا هي في كل اللغات (قارن: *Psyche* اليونانية وأيضًا *Spiritus* و *Anima* اللاتينيتين وما اشتق منهما في اللغات الأوروبية الحديثة)، لأن الروح من (الرِّيح) أي الهواء إذا تحرك.

أما لماذا جاءت (النَّفس) من النَّفَس، واشتقت (الرُوح) من الرِّيح؛ فلأن الناس منذ أن وجدوا أدركوا أن النَّفَس والتنفس هما علامة بدء الحياة في الحي يوم ولد، وأن انقطاعهما علامة موته حين يموت. فاستنبطوا من هذا أن الحياة هي تلك النَّسْمَة التي بها قوام الجسد، إن دخلته حَيِيَ، وإن فارقته عاد كأن لم يكن. ولكنها خفيت ودقت كما تخفى النَّسْمَة وتدق، يحس أثرها ولا يرى شخصها. وهي تدخل أنف المولود رغم أنفه لحظة يولد، وتخرج منه رغم أنفه حين يموت، لا يملك استبقاءها، ولا يملك استرجاعها. فمن أين جاءت، وإلى أين تذهب؟ أما الجسد الذي خلفته وراءها فقد عرفوه، رأوه يفسد بذهابها، ثم ينحل ترابًا وكأنه من التراب جُبِلَ. أما هي فإلى أين صعدت؟ أمن العلاء جاءت وإلى العلاء تئوب؟ فمم هي؟ بل ما هي؟ قد كانت في الجسم هي صاحبة الأمر والفعل، وفارقته فلا حس ثَمَّ ولا كيان

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

ولا شأن. أتكون هي عين وجوده؟ أتكون هي هو؟ بل هي ذاته، اتخذته رداء تلبست به زمنًا، ثم انسلت منه.

وللروح في القرآن معنى آخر. فأنت تعلم مثلًا أن الملَك المُتنزِّل بالقرآن على محمد ﷺ هو جبريل عليه السلام: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]، كما تقرأ في مصحفك قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[2]، فتستدل من هذا على أن (روح القدس) هو جبريل بلا خلاف. وتقرأ في مصحفك أيضًا قوله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[3]، فتعلم أن جبريل هو (الروح الأمين)، أي أنه روح أو هو الروح. وهو أيضًا رسول الله إلى مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[4]، النافخ في التي تبتلت لله عز وجل: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[5]. وهو أيضًا روح القدس الذي أيد الله به عيسى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[6]، كرم الله جبريل عليه السلام بالإضافة إليه جل وعلا، كما رأيت في قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾. وكرمه أيضًا بإفراده بالذكر مع الملائكة: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[7]، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾[8]، ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾[9]. ولا يصح أن تقول في جبريل عليه السلام - بله في كائن من كان -: إنه (روح الله)؛ لأن في هذا شبهة الإلحاق بالذات، وذات الله عز وجل أعظم وأجل من أن يخوض فيها بالقول ذو علم، وإنما تقولها كما قال

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٩٣.
(٤) سورة مريم، الآية: ١٧.
(٥) سورة التحريم، الآية: ١٢.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.
(٧) سورة المعارج، الآية: ٤.
(٨) سورة النبأ، الآية: ٣٨.
(٩) سورة القدر، الآية: ٤.

القرآن مضافة إلى ضمير منه عز وجل، على التبعية والمِلْك، أو تقول كما قال القرآن: (روح من أمره) أو (روح منه).

ليست الروح إذن - في كل القرآن - هي تلك الذات المتلبسة بالجسد، فهو لا يستعمل في معنى تلك الذات إلا لفظ (النفس)، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[1]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾[2] ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[3]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾[4]، ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[5]، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[6]، فتقطع بأن النفس غير الجسد بدليل خطابها على حدة بعد خروجها منه، وتوقن أنها باقية بعد فنائه، لأنها تؤمر بالدخول فيه يوم النشور.

وليست الروح أيضًا هي القرآن، كما فسر بعض المفسرين قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾[7] لأن الروح ههنا هو جبريل، وأوحينا إليك يعني أرسلنا إليك، تنسيقًا على قوله عز وجل في الآية السابقة مباشرة: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ.....﴾، والرسول هنا هو الملك بلا خلاف. ولكن هؤلاء المفسرين يتوسعون كما مر بك، فيأخذ عنهم أصحاب المعاجم، ويقحمون على المعجم العربي أن (الرُّوح) مضموم الراء من معانيه (القرآن)، كما أقحموا عليه من قبل أن (الرَّوْح) مفتوح الراء من بعض معانيه (الرحمة).

---

(١) سورة الشمس، الآية: ٧.

(٢) سورة الانفطار، الآية: ١٩.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

(٥) سورة التكوير، الآية: ٧.

(٦) سورة الفجر، الآيات: ٢٧ - ٣٠.

(٧) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

أما قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[1]، فتفهم منه أن عيسى عليه السلام كلمة من الله عز وجل، أي كان بكلمة منه: قال له: كن! فكان، شأن الخلق أجمع. وأنه عليه السلام روح منه أي نفخة منه عز وجل، كنفخته في آدم أبي البشر، لا أب لآدم ولا أم، والنفخة في اللغة والنفثة والنفس أيضًا واحد، ومن هنا جاءت تسمية النَّفْس روحًا؛ لأنها كانت به.

أفكان النافخ جبريل عليه السلام بأمر منه عز وجل؟ قد تستظهر هذا من قوله تبارك وتعالى على لسان جبريل: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[2]، وأسند فعل (النفخ) إلى الله عز وجل: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ لأنه تبارك وتعالى هو الآمر به، لا حول ولا فعل إلا بأمره، أي هي نفخة من الملك بأمر من مالك الملك.

وتستطيع أن تنسق على هذا قوله عز وجل: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[3]، فتفهم أن جبريل روح من الله عز وجل، وأن النفخة في آدم كانت به كما كانت في عيسى عليه السلام، شأن الخلق أجمع. وربما قلت: إن جبريل عليه السلام هو الملك الموكل بنفث الحياة في الأحياء بأمر الله عز وجل، كما قيل: إن ميكال عليه السلام هو الملك الموكل بقبضها. هذا يفسر لك فتنة النصارى بجبريل عليه السلام، الذي أيد الله به عيسى حين صنع من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فصار طيرًا بإذن الله، كما أيده في إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الميت. ويروي بعض المفسرين أن جبريل عليه السلام ما وطئ ترابًا إلا صارت فيه نسمة من حياة. وهذا يفسر لك فتنة (السامري) بجبريل: بصر بما كان من أثره، فقبض قبضة منه، ونبذها في مصهر الذهب الذي صنع منه

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٩.

(٣) سورة ص، الآيتان: ٧١، ٧٢.

العجل، صنمًا ليس له من الحياة نصيب إلا هذا الخوار الذي كان فيه من أثر جبريل.

وإذا كان القرآن قد خص جبريل عليه السلام تخصيصًا باسم هو (روح القدس)، (الروح الأمين)، وبعبارة (روحنا) في قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، والمعني بها جبريل بلا خلاف فلك أن تقول: إن (الرُّوح) مضمومة الراء في القرآن معناها المَلَك، أو مَلَك رفيع الرتبة في ملائكة الله عز وجل، ولا يعلم جنود ربك إلا هو، لا تستطيع أن تخص بها جبريل وحده، فالله بغيبه أعلم. وربما جاز لك أن تقول إن (الروح) مضمومة الراء في القرآن هي تسمية على المصدر من (راح) بمعنى (ذهب)، أي الذاهب في أمر الله، فهي بمعنى الرسول، تمامًا كما تعنى لفظة (المَلَك).

ولكنك لا تخوض في غيب الله، فأنت مكفوف عن استقصاء ماهية (الروح) بمقتضى قوله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]. وسواء أكانت الروح المعنية هنا هي جبريل كما قال بعض المفسرين، أو هي النفس المتلبسة بالجسد كما قال أكثرهم، فأنت مَنْهِيٌّ عن الخوض في هذا أو ذاك، محجوب عنك في هذه الدنيا حقيقة هذا أو ذاك. ومن إعجاز الله في خلقه - إن كانت (النفس) هي المعنية في الآية - أن السائل يتساءل عن نفسه، لا يدري ما هي وهى ذاته، فما بالك بالخائضين في ذات الله عز وجل؟

نقول لهذا السائل وأمثاله من الخائضين فى (عالم الروح): لن تعلم النفس حقيقة ما هي حتى تغادر هذا الجسد في يوم جِدٍّ قريب؛ طال الأجل أم قصر - فسح الله لك في عمرك بالخير - فلا تتعجل.

* * * *

وقد جعل الله الإيمان بالملائكة رضوان الله عليهم فرعًا من الإيمان به عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[2]، وجعلهم شهوده: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾[1]، وجعل الكفر بهم فرعًا من الكفر به عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[2]، وجعل عداوتهم من عداوته سبحانه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

حسبك هذا في الملائكة رضوان الله عليهم، فليس بعده مزيد يقال.

****

كان هذا أيها القارئ العزيز تمهيدًا لا بد منه للتعرف على أعلام هذا الفصل، التى نتناول إن شاء الله تفسير معناها من القرآن بالقرآن، وهي: جبريل - ميكال - مالك - هاروت - ماروت - الفردوس - عدن - جهنم - إبليس - آدم، نضيف إليها من عَلَم الذات نبي الله (إدريس) على افتراض تقدمه في الترتيب التاريخي على نبي الله نوح عليه السلام. كما نضيف من علم الموضع (بابل)، التي وقعت بها الفتنة بهاروت وماروت، ومجموع هذا وذاك اثنا عشر اسمًا علمًا.

ولأن الله عز وجل قدم جبريل، فنحن نبدأ به، متوكلين على الله عز وجل، نستلهمه الصواب، ونعوذ به من الجهل والجهالة، ونسأله الصفح والمغفرة إن نسينا أو أخطأنا.

****

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(١)

جبريل

(جبريل) علم أعجمي بلا خلاف، إنه تعريب (جَبْرِيئيل) العبرية. وهو اسم (مزجى)، مركب من شقين عبريين: جَبْري + إيل.

أما الشق الأول، جَبِري، فأصلها (جِبِر) زيد بياء علامة على الإضافة إلى ما بعده[١]، وتحولت حركة حرفيه الأولين - بسبب الإضافة أيضًا - من كسرتين متتابعتين (جِبِر)، إلى فتح فسكون (جَبْر)[٢]. أما معناها في العبرية فهي اسم صفة على الفاعلية من الجذر العبري (جَبَرْ) بمعنى (قوي) و(اشتد)، فهو الشديد القوي، وهذا هو أصل معنى مادة جَبَرَ في لغتنا العربية، جمد في العبرية على أصله، وفرعت منه العربية معاني تدور - إن تمعنت - على هذا الأصل نفسه، من مثل (جبر عظمًا)، (جبر خاطرًا)، (جبر ناقصًا) (وهذا أصل معنى عِلْم الجَبْر)، ومنها أيضًا (أجبره) أي قهره وغلبه وألزمه، أي كان عليه مكينًا متمكنًا، (تَجَبَّر عليه) أي كان عليه (جَبَّارًا). (جِبِرْ) العبرية إذن من الشدة والقوة. لهذا تستخدم العبرية الاسم (جِبِرْ) بمعنى (رجل)، والمقصود منه تمام الرجولة، أي الفحولة، فتجيء (جِبِرْ) بمعنى الزوج والبعل، كما تجيء بمعنى السيد القِرْم الشجاع (وهى نفسها (جبار) العربية)، وتجيء أيضًا بمعنى الجندي الشديد المراس في الحرب أو البطل. وهذا كله لا يخرج باللفظ عن أصل معناه: (القوة والشدة والجبروت (جِبُورَ) العبرية). ويلاحظ أن الآرامية والعبرية في هذا كله - أو معظمه - سواء.

---

(١) تفعله العبرية أحيانًا ولكنها لا تلتزمه في كل حال.

(٢) كدأب العبرية في كل ما كان اسمًا أو صفة على وزن (فِعِل).

أما الشق الثاني من (جَبْرِئِيل) العبرية - الآرامية فهو (إيل) اسم الله عز وجل.

معنى (جَبْرِئِيل) إذن في العبرية - الآرامية هو (جَبَّار الله) أي مَلَك الله الشديد القوي.

ولا عليك ممن يترجمون (جَبْرِئيل) العبرية إلى الإنجليزية *God of Man* (رجل الله)، أو *God of Soldier* (جندي الله)، فهؤلاء لا يتعمقون أصل المادة في اللغات السامية: الملائكة كلهم (رجال) الله وجنده، والعلمية لقب للمنعوت يميزه بصفة فيه. الصحيح أن تترجم (جبرئيل) إلى الإنجليزية مثلًا هكذا: *The God of one mighty* أي (جبار الله).

وهذا هو نعت (جبريل) عليه السلام في القرآن: شديد القوى ذو المرة.

****

أما مفسرو القرآن، الذين تصدوا لتفسير اسم (جبريل)، فمنهم الماوردي[1] الذي وَهِمَ أن (جبريل) تعني عبد الله، ينسبه إلى عبد الله بن عباس. وهذا لا يصح أيًّا كان القائل والناقل، ناهيك بحبر في رتبة ابن عباس؛ لأن الافتعال واضح والخطأ بَيِّن. لا مجال لاشتقاق معنى (العبد) من (جبر) العربية، وما كان هذا ليفوت ابن عباس أو غير ابن عباس. أما (جِبْرْ) العبرية - الآرامية معناها (العبد) فلا يقول هذا إلا جاهل بهاتين اللغتين، أو عابث يخبط خبط عشواء، آمنًا ألا يرد عليه أحد.

إن صحت الرواية عن ابن عباس أو غيره من أهل التفسير، فربما دسها عليه قوم من يهود لغوا في القرآن ونقل عنهم المفسرون دون تثبت. أو من يهود أبغضوا جبريل لمجرد تنزله بالقرآن على محمد ﷺ، فوصمهم القرآن بالكفر[2]. ظنوا أنهم ينالون من جبريل عليه السلام حين يفسرون اسمه للمسلمين بمعنى العبد، ولم يفطنوا إلى أن العبودية لله عز وجل ليست فحسب شرفًا لا يعدله شرف، وإنما هي تقرير لواقع الحال: الخلق كلهم عبيد الله، شريفهم ووضعيهم، مؤمنهم وكافرهم، وإن بطر وجحد.

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٩٧ من سورة البقرة.

(٢) راجع الآيتين ٩٧، ٩٨ من سورة البقرة.

على أن القرآن لم ينتظر من يفسرون له معنى اسم (جبريل)، بل سبق فنص على معناه بالمرادف في أكثر من موضع كما سترى.

* * * *

ورد اسم (جبريل) في القرآن ثلاث مرات فقط: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1]، ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[2]، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[3]. وليس في أي منها كما ترى تفسير لمعنى (جبريل).

ولكن اسم (جبريل) المحذوف لدلالة السياق عليه في سورتي (النجم)، (التكوير) يظهر بمرادفه الدال على معناه في قوله عز وجل: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[4]، وأيضًا في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[5]. أما ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ في السورتين فهو محمد ﷺ بلا خلاف، والذي (علمه)، أي تنزل عليه بالوحي، هو (جبريل) بلا خلاف أيضًا: إنه الذي دنا فتدلى، فأوحى إلى محمد ما أوحى الله لجبريل أن يوحيه إلى عبده ورسوله محمد ﷺ.

وليس أبلغ من تفسير معنى (جبريل) بأنه ذو قوة عند ذي العرش، فهي نفسها (جبار الله)، أي الجبار عند الله بتمكين الله إياه، المُمَكَّن فيما يكلف به من أمر الله، تستجيب له قوى الكون بأمر الله، وتطيعه الملائكة في أمر الله؛ لأنه الأمين على أمر الله. ولكنك لا تفطن

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٤) سورة النجم، الآيات: ١ – ١٠.

(٥) سورة التكوير، الآيات: ١٩ – ٢٣.

إلى هذا التفسير لأن السياق يوجبه، ولا تلمح (مقصودًا) آخر من ورائه، لأن عبارة (ذي قوة عند ذي العرش) - على متانتها - سلسة، والكلام في موضعه غير مقحم، بل هو وصف مطابق لمن هو (شديد القوى ذو مرة)، الذي استوى بالأفق الأعلى، وما أدراك ما الأفق الأعلى[1]، وهو مع ذلك يدنو ويتدلى، فيكون من محمد ﷺ في مكة قاب قوسين أو أدنى. إنه جبريل الذي رآه الصادق المصدوق في شعاب مكة يملأ الأفق بعدما جاءه بالوحي الأول في صورة إنسان، ورآه الصادق المصدوق ليلة المعراج نزلة أخرى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[2]. هذا التمكين من الله عز وجل لجبريل تمكين يهولك، ويملأ عليك أقطار نفسك فتذهل عما سواه، بل تهاب مجرد التفكير فيه، فتخشع النفس، ويخشع العقل، وتخشع المدارك.

ولإعجاز القرآن وجه آخر في تعريبه (جبرئيل) العبرية على (جبريل)، حين تنطقها بفتح الجيم - جبريل - وقد صحت بها قراءات. أنت تعلم من معجمك العربي أن (جَبْر) العربية وصف بالمصدر من (جَبَرَ)، والوصف بالمصدر يفيد بذاته المبالغة التي في (جَبَّار)، وتعلم من معجمك العربي أن العرب تكلموا، بـ (إيل) العبرية (وتكتب أيضا (إل)) عَلَمًا على الله عز وجل[3]، كما تجد في قول الصديق رضي الله عنه حين أُسْمِع قول مسيلمة الكذاب: هذا كلام لم يخرج من إل! أي ليس مصدره الله تبارك وتعالى. ومن هنا تدرك أن جبريل

(١) الأفق الأعلى يعني (الحافة العليا) لهذا الكون كله، أرضه وقمره وشمسه ونجمه ومجراته، ما علمنا منه وما لا نعلم، وما أقل ما نعلم! فتأمل.

(٢) سورة النجم، الآيات: ١٣ - ١٧.

(٣) يفسر المعجم العربي لفظ الجلالة (الله) بأن أصله (الإله)، حذفت همزته وأدغمت لاماه. ولي تفسير آخر أطرحه عليك وأرجو أن أكون مصيبًا: إنه (أل) (أداة التعريف) دخلت على ضمير المفرد المذكر الغائب (هو)، أي (الـ + هُوَ)، أي الذي هُوَ هُوَ، وقد صحت (الـ) عند علماء العربية بمعنى الذي. وهذا على الراجح عندي هو أصل (إل)، (إيل) العبرية، وهو نفسه معنى (يِهْوَا) العبرية، أي الذي هو هو، أخذت من قوله عز وجل لموسى في التوراة (إِهْيِهِ أَشِر إِهْيِهِ) (الهاء فيها خاملة للوقف)، أي أنا الذي هو أنا! (قارن قوله عز وجل في القرآن: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤]، فهو الذي هو، جل جلاله، يكني بها الخلق عنه مهابة وتعظيمًا. والله باسمه الأعظم أعلم.

(جبر + إيل) تعنى بذاتها، عربيًّا، على المضاف والمضاف إليه، (جَبْرُ الله)، أي جبار الله (على ما مر بك من معنى (جبر) العربية كاسم صفة)، ولكنها مزجت، أي صارت اسمًا مزجيًّا، اتخذ وزنًا نادرًا في العربية هو (فِعليل) (مثل عِتريس)، فكسرت جيمه.

ومن ثم تكون (جبريل) ممنوعة من الصرف في كل القرآن للمزجية قبل العجمة، شأن حضرموت وأمثالها[1].

فسر القرآن (جبريل) بالمرادف كما فسرها بالتعريب، ولم يفطن إلى هذا أو ذاك من تصدوا لتفسير معنى هذا الاسم من مفسري القرآن؛ لأن النبي ﷺ لم يسمع منه فيه حديث، ولو شاء الله لحدث به. ولم يفطن إلى هذا أو ذاك أيضًا من لغوا في (جبريل) من خصوم القرآن أدعياء العربية وأدعياء الاستشراق على عصر النبي وإلى هذا العصر. وها قد رأيت أن القرآن كان أسبق من هؤلاء إلى صحيح معنى (جبريل)، وأفقه بالعبرية من أهلها على عصر النبي والى هذا العصر. وكفى بهذا - وغيره كثير كما سترى - ردًّا على دعوى التلقين، ودعوى النقل والاقتباس.

سلام الله على جبريل الروح الأمين، وصلوات الله وسلامه على جميع ملائكته ورسله وأنبيائه.

****

(١) حضرموت اسم مزجي أصله بالظاء، والمعنى (حظيرة الموت) أو (ساحة الموت). وهو في العبرية بالصاد (حصرموت) بنفس المعنى.

(٢)
ميكال

ميكال عليه السلام ملك مقرب، رفيع الرتبة في ملائكة الله عز وجل، أفرده الحق تبارك وتعالى بالذكر على التعظيم قرينًا لجبريل عليهما السلام في قوله عز من قائل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. ولم ترد (ميكال) في كل القرآن إلا مرة واحدة، وفي هذه الآية فحسب.

و (ميكال) تعريب (ميكائيل) العبرية، تكتب بالكاف في العبرية وتنطق بالخاء (ميخائيل)؛ لاعتلال ما قبلها على ما مر بك من قواعد النطق في تلك اللغة.

أما علماء العبرية، وعلماء التوراة أيضًا، فهم يفسرون (ميكائيل) بأنها اسم مزجي، يتكون من ثلاثة أجزاء: مي – كا – إيل (أي مَن – كَـ – الله)، وليست هي عندهم على التقرير، بل على الاستفهام، أو إن شئت على التعجب: (من كالله!)؛ لأن (مي) العبرية (والآرامية أيضًا) لا تصلح إلا لهذا، فلا تقع اسمًا موصولًا بمعنى (الذي) كما يحدث في (من) العربية[2].

ونحن لا نحيل على العبرية والآرامية اشتقاق الأسماء الأعلام من صيغ الاستفهام أو التعجب، فقد وقع هذا بالفعل لعبرية التوراة في تسمية (رِئُوبِن) (رأوبين في الترجمات العربية لسفر التكوين) ابن يعقوب البكر من زوجته (لِيئَة) التي صاحت فرحًا حين وضعت بكرها ذكرًا: رِئُو! بِنّ! (أي انظروا! ابن (ذكر)!) فسمي به رِئُو بِنّ. فلا يبعد أن يقع هذا في تسمية ميكال عليه السلام من كالله؟! أي (ميكائيل).

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(٢) تستخدم العبرية في معنى (الذي) أحد الحرفين: إما (شِ) وإما (أَشِرْ).

بل قد فعلناه نحن أيضًا كما مر بك في اشتقاقنا اسم (مريم) عليها السلام من قول والدتها حين فوجئت بها أنثى: ماري! أما! أي (أمة يا رب أمة!).

وربما قلت: إن (مِي) العبرية كانت قبل عصر التوراة - وميكائيل بالطبع أقدم ظهورًا لأنبياء الله ورسله من نزول التوراة على موسى - تصلح لكل ما تصلح له (من) العربية، فتجيء على الاستفهام أو التعجب، كما تجيء على الاسم الموصول بمعنى الذي، فيكون معنى (ميكائيل) الذي هو كالله، على التقرير، أي مُمَثِّل الله عز وجل، المفوض منه تبارك وتعالى. وهذا نفسه غاية ما يستفاد من قولها على الاستفهام أو التعجب: من كالله؟!

وتستطيع أن تقول أيضًا - وأنت هنا إلى الصواب أقرب -: إن الألف في الخط العبري، على خلاف الحال في الخط العربي، تكتب دائمًا غير مهموزة، وإنما هي تهمز نطقًا فحسب إن وقعت في أول الكلمة أو وقعت في وسطها مشكولة بإحدى حركات الفتح والكسر والضم والسكون، وتسهل فيما عدا ذلك فتنطق ألفًا لينة، أي مفتوحة ممدودة غير مهموزة. وتقول أيضًا: إن الشكل والنقط في النص العبراني لأسفار التوراة التي بين يديك ليست لهما حجية الشيء الموحى به، وإنما هما - كما مر بك - من صنع طائفة غَلَبُوا على أمرهم من أهل الأثر (بَعَلي ماسورا) ما بين القرن الثاني والقرن العاشر للميلاد في ظل المسيحية ثم في ظل القرآن، عصر اضمحلال عبرية التوراة وتراجعها على الألسنة والأقلام، لم يخل عملهم مع ذلك من نقد، وأنه لو خلي بينك وبين حروف ميكائيل بالخط العبري في التوراة دون شكل أو نقط (م - ي - ك - ا - ل) لجاز لك أن تنطقها (ميكال) كما نطقها القرآن، وتكون (ميكال) لا اسمًا مزجيًا مؤلفًا من ثلاثة أجزاء (من كالله؟!)، بل اسم وحيد الجذر، على زنة (مفعال) من الجذر العبري (يَكُل)، وصفًا بالمصدر على المبالغة[1]، وهو جذر عبري مكافئ لـ (وَكَلَ) العربي في أصل معناه: أوكلت إليه الأمر، ووكلته إليه، فهو مُوكَل ووكيل،

(١) صح استخدام الوزن (مفعال) في العبرية بهذا المعنى: قارن (مِيشَاع) من (يشع) بمعنى الإيساع والتوسعة والفرج والنجاء والنصرة، (مِيطَاب) بمعنى الأمثل، من (يَطَب) بمعنى طاب وجاد وحسن، وغيره كثير.

بمعنى فوضته فيه وخليت بينه وبينه، أصلها أمكنتهُ منه، وأقدرته عليه، فأصبح عليه قديرًا. هذا هو أصل المعنى الرئيسي للجذر العربي (وكل) - لازما غير متعد - بمعنى القدرة، وبه يكون التفسير الجيد لقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1]، أي قدير مقتدر. لم تَسْتَبْقِ العربية (وكل) - لازما غير متعد - بمعنى قدر وتمكن، ولكن هذا وحده هو المعنى الباقي في الجذر العبري (يَكُل) - لازمًا متعديًا باللام - بمعنى قدر عليه وتمكن منه. فيكون معنى (ميكال) - عبريًّا - الوكيل المُوكَل المفوض، بمعنى القدير الممكن.

وهذا هو نفسه معنى (ميكال) - عربيًا - وإن لم تُسمع من العرب، إن اشْتَقَقْتَهُ على (مفعال) من (وكل) - لازمًا غير متعد - بمعنى الوكيل، الذي يفيد القادر المقتدر، أو المُوكَل المفوض. وهكذا هو ميكال صلوات الله عليه وعلى من عنده عز وجل من الملائكة المقربين.

* * * *

أما مفسرو القرآن الذين تصدوا لتفسير اسم (ميكائيل)، فأنت تذكر ما رواه الماوردي في تفسير اسم (جبريل) منسوبًا إلى عبد الله بن عباس[2]، وقد زاد فيه أن (ميكائيل) معناها في العبرية - الآرامية (عبيد الله)، كما قال من قبل إن (جبريل) معناها في هاتين اللغتين (عبد الله)، يريد أن (ميكال) هي تصغير (جبر)، أي تصغير (عَبْد)، فهو (عُبَيْد)، فلا تدري كيف استجاز أن تجيء تصغيرًا لـ (جبر) وهي من غير مادتها، بل لا وجود لـ (ميكا) هذه في العبرية - الآرامية أصلًا، ولا تدري - إن صحت الرواية - كيف استجاز الراوي لنفسه - دون سند من حديث صحيح - الخوض في لغات لا يعرف من أمرها شيئًا. إن أحسنت الظن بالراوي - وأنت بإحسان الظن في كل الأحوال مأمور - فربما تعللت له - كما تعللت له في (جبريل) - بأنها دست عليه من أهل كتاب تحسن بهم الظن أيضًا فتقول: إنهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني. ولكنك لا تعذر الراوي؛ كان عليه أن يتثبت قبل أن يُحَمِّلَ وزرها ابن عباس.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآيتين ٩٧، ٩٨من سورة البقرة.

فسر القرآن كما ترى (ميكائيل) بالتعريب وحده، فأصاب المعنى وأصاب التعريب. وقطع أيضًا بعجمة هذا الاسم فجره بالفتح في موضع الكسر: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ معطوفًا بالواو على المجرور باللام في لله، ممنوعًا من الصرف غير منون، ولا علة لهذا إلا العجمة.

ومن إعجاز القرآن أنه يصحح لأهل العبرية نطق (ميكائيل)، ويصحح لهم أيضًا اشتقاقه. لا يَجْمُل اشتقاق (الوكيل) على المماثلة بالله عز وجل في عبارة (مي - كا - إيل) (من هو كالله) لا على الاستفهام، ولا على التعجب والإكبار، بل ولا على التقرير. إن جاز هذا لغة، وهو بعيد، فلا يصح البتة في أدب الحديث عن الله عز وجل.

* * * *

(٣)
مالك

مالك - صلوات الله عليه وعلى ملائكته أجمعين - ملك كريم، شرفه الله عز وجل بتسميته في القرآن على غير سابقة في التوراة والإنجيل: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[١]، فتستدل من هذا على أن (مالكًا) رضي الله عنه وأرضاه هو خازن النار، أي الملك الموكل بعذاب من حق عليه العذاب. وتستدل من قوله رضي الله عنه ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ إن أسندته إليه كما هو السياق، على أنه يتحدث باسم الملائكة جميعًا، فهو ملك مقرب رفيع الرتبة في ملائكة الله عز وجل. وقد مر بك أن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب في رضوان الله سواء، وفي القرب منه عز وجل سواء، لا فرق بين المُنْفِذِين وعده والمُنْفِذِين وعيده.

وربما لبس عليك إبليس فأشفقت على ملائكة العذاب من جوار أهل النار: ماذا جنى مالك وأعوانه المكرمون، بل وزبانية النار، حتى يخلدوا مع الأشرار ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[٢]؟ في حين أن خزنة الجنة رضوان الله عليهم مع أصحاب اليمين: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[٣]؟

لا عليك. ليس الملائكة إنسًا ولا جنًّا. الملائكة لا ينعمون كالذي تنعم، ولا يألمون كالذي

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٧٤ – ٧٨.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٤٢ – ٤٤.

(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٢٨ – ٣٠.

تألم. لا يُلِذُّهم الذي تَلِذُّ له، ولا يَمُضُّهم الذي تَمُضُّ أنت به أو تَجْوَى. بل نعيمهم وعذابهم رضوان الله أو سخطه، وقد أعاذهم الله من سخطه بأن خلقهم - وليس بعد إنس،لا جان - على الطاعة، لا يعصون له أمرًا، فهم في رضوانه عز وجل منذ أن خلقوا، لأنهم في شغل بأمره عز وجل عما سواه. هذا ومن النار برد وسلام: قد ألقي بإبراهيم في جوف نار أكلت كل ما حوله، وهو في جوفها كمن في روضة من رياض الجنة. كانت هذه تكرمة لإبراهيم خليل الرحمن، وخزنة النار - رضوان الله عليهم - بهذه التكرمة أولى.

* * * *

ولفظ (مالك) علم عربي مقطوع بعربيته بلا خلاف، لا مدخل فيه لشبهة عجمة. ومن ثم فهو يقع خارج نطاق مباحث هذا الكتاب.

ولكنك تستنبط من عربية هذا الاسم أمرًا خطير الدلالة: العلم غير الموحى به في التوراة والإنجيل، ولا ذكر له في كتبهم وقصصهم، يجيء في القرآن على أصله عربيًا، على خلاف الأعلام التي ثبتت لها العلمية من قبل بغير لغة القرآن، فيعربها القرآن[1].

وربما استنبطت من هذا أيضًا - مستدلًا بقوله عز وجل: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[2] - أن ثبوت العلمية على النداء من أهل النار لمالك باسم عربي - وأهل النار أمم شتى يتفاوتون لغات وأجناسًا - يعني أن لسان الخلق أجمع سيرتد في الآخرة عربيًا. وهو نفس ما تستنبطه من قيل الملائكة: ﴿سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾[3] لأهل الجنة عربًا وغير عرب، فتفهم أن لسان أهل الجنة عربي، وقد روي بمعناه عن الصادق المصدوق ﷺ.

* * * *

(١) انظر *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص ٢٠، ٢١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٢٦.

(٤) هاروت (٥) ماروت
(٦) بابل

ليس في التوراة والإنجيل (هاروت وماروت)، ولا ذكر في قصص أهل الكتاب لفتنة هاروت وماروت في بابل على نحو ما يقصه القرآن: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ولم تأت (هاروت) و (ماروت) و (بابل) في كل القرآن إلا مرة واحدة فقط، هي هذه الآية.

* * * *

وقد حار المستشرقون المنكرون للوحي على القرآن في تفسير أصل (هاروت) و(ماروت)؛ لأنهم يبنون مقولاتهم في أعلام القرآن على فرض بات مسلَّمًا عندهم، لغوا به حتى حسبوه حقيقة: القرآن يتوكأ على التوراة والإنجيل، ولا علم له بما وراء أقاصيص أهل الكتاب. وقد خلت التوراة والإنجيل من ذكر (هاروت) و(ماروت)، فمن أين أتى القرآن بهما؟

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

قالوا: ربما أخذهما القرآن نقلًا عن الديانة الزرادشتية من (خُرْدَت)، (أَمُرْدَت) في الفارسية البهلوية ((هَرْفُوتَت)، (أمُورتَت) في الفارسية الأفستية) ومعناها (الكمال)، (الخلود)، جائزة المتقين بعد الموت. ثم استدركوا على أنفسهم فقالوا: إن العرب الجاهليين لم يستقوا عقائدهم من الفرس، فضلًا عن أن التسمية بهذين الاسمين الفارسيين تشخيصًا لملكين هبطا من السماء إلى الأرض ليعملا عمل هاروت وماروت تسمية لا تنطبق، ومن ثم لا تصح.

وقالوا أيضًا: ربما أخذ القرآن (هاروت) و (ماروت) من كتاب ينسب إلى أخنوخ (إدريس في القرآن على ما نرجحه نحن)، ضاع أصله وبقيت منه ترجمة باللغة السلافية القديمة، وفيه أن ملكين أحدهما (أَرْيُوخ) والآخر (مَرْيوخ) أُمِرا بإغلاق الكتاب على نبوءات أخنوخ حتى تمام الدهور. وهي كما ترى ليست مهمة هاروت وماروت في بابل على نحو ما وصفها القرآن. ولكنهم وجدوا في كتاب بالحبشية ينسب إلى أخنوخ أيضًا، أن ثمة ملائكة هبطوا يعلمون الناس فنون السحر والشعوذة وقطع الأرحام، فربما أخذ القرآن التسمية من أخنوخ السّلافي، وأخذ الوظيفة من أخنوخ الحبشي. إلى آخر ما قالوا.

لم يهتد المستشرقون إذن إلى وجه في (هاروت وماروت) إلا هذا، وهو ركيك كما ترى، ولكنه يريك إلى أي مدى يتخبط أولئك المستشرقون المنكرون الوحي على القرآن: زعموا أن القرآن يتوكأ على معاصريه من أهل الكتاب فكيف علم القرآن ما جهلوه؟ كيف حفظ هو أخبار أخنوخ السلافي وأخنوخ الحبشي، وأضاع أصحاب التوراة الأصل العبري لسفر ينسب إلى أخنوخ. أكانت أنباء أخنوخ أخبارًا يتناقلها الرواة على عصر النبي، خفي أمرها على يهود اليمن والحجاز والشام؟ فكيف خفيت على مفسري القرآن وقد توقفوا في هاروت وماروت؟ ولماذا اختلفت رواية أخنوخ السلافي عن رواية أخنوخ الحبشي؟ أترجم المترجمان كل بمعزل عن (أخنوخ) واحدٍ؟ أم عن (أخنوخين) اثنين؟ فكيف أخذ القرآن نتفة من هنا ونتفة من هناك؟ كيف تسنى له الجمع بين هاتين الروايتين في نسيج واحد؟ أفقد اطلع القرآن على الترجمتين معًا فانفرد وحده بعلم السلاف والأحباش وخفي علم هؤلاء على هؤلاء؟ أوقد فرغ القرآن نفسه لجهد استنفد من جمهرة المستشرقين سنين في

تتبع أخبار السلاف والأحباش والجمع بينها كي يصوغ منها في النهاية خبرًا يأتي عرضًا في آية أو بعض آية؟ فما بالك بغير (هاروت وماروت) من أخبار القرآن، ومن علوم القرآن، وما أدراك ما علوم القرآن؟ أنى يتسع لبعض هذا جهد بشر، أو عقل بشر، أو عمر بشر، فردًا أو جماعة، وإن عكفوا عليه أجيالًا؟

على أن أحدًا من هؤلاء المستشرقين: يهود ومسيحيين، ومنهم المؤمن والملحد، لم يتوقف لمناقشة (سفر التكوين) في روايته لفتنة الملائكة ببابل، على ما مر بك من قوله: إن (الله) هبط ببابل ليبلبل ألسنة الخلق فيتفرق شملهم ولا يتموا بناء المدينة، ومقصوده بالطبع أن (الملائكة) هم الذين هبطوا، لا الله عز وجل[1]. صاغ كاتب سفر التكوين روايته ليؤصل بها فهمه لمعنى (بابل)، وليفسر رأيه في سبب اختلاف ألسنة البشر، ولم يُصِب الكاتب - كما مر بك في هذا وذاك جميعًا - ناهيك بوهمه أن المدينة لم يتم بناؤها، وربما شهد فيها أطلالًا ظنها أبنية لم تكتمل[2].

هبط الملائكة إذن في بابل كما يقول سفر التكوين، ولكن لمهمة غير التي ذكرها الكاتب، لأن الملائكة إذا أُمِروا فعلوا، فتحقق مراد الله عز وجل، ولكن الملائكة لم يؤمروا بهذا الذي ذكره سفر التكوين، فلم يهبطوا من أجله ولم يفعلوه، بدليل أنه لم يحدث، وهو لم يحدث - تقولها بيقين لا شك معه - لأن ألسنة الناس لم تتبلبل في (بابل) التي بنيت أول ما بنيت في مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد، وإنما هي تبلبلت قبل مولد بابل - ومن ثم

(١) هذا كثير في لغة التوراة: تريد (الملائكة) وتقول (الله) باعتبار الآمر الموحي عز وجل، وقد ضل بهذا الخلط بين الألوهية والملائكة كثيرون ممن يتكئون على التوراة في تأصيل عقيدة التثليث، بل منهم من أخطأ فقه اللغة العبرية فوهم أن (إلوهيم) على الجمع بمعنى (الله) تشير إلى تعدد (الأقانيم) في ذات الله سبحانه، وفاته أنها تجيء على الجمع للتعظيم مع إسناد الفعل للمفرد، واحد أحد سبحانه. ليس في العبرية (إلوه) على المفرد، وإنما هي (إلوهيم) للتعظيم، ومثلها (أدوناي)، أي (ربي!) في قول النحاة.

(٢) بنيت بابل حوالي ٢٨٠٠ق. م، وقد خربت وأعيد بناؤها مرات، وكتب سفر التكوين على الراجح عند محققي نصوص التوراة بعد بابل الأولى بنحو ألفي سنة.

قبل نزول أولئك الملائكة المكرمين - بقرون لا يعلم عدتها إلا الله. حسبك أن المصريين وجدوا في مصر قبل أن توجد بابل، وهم كما تعلم يتكلمون لغة غير اللغة، بل حسبك أن الشومريين الذين غلبهم الساميون البابليون على أرض العراق (بابل من بعد) عاشوا على أرض بابل قبل وفود البابليين على تلك الأرض، ولا صلة محققة بين اللغتين الشومرية والبابلية. قد تباينت ألسنة الناس إذن وتفارق الخلق من قبل أن تولد بابل، ولا حاجة من ثم بالملائكة إلى إحداث ما هو حادث.

فيم إذن كان نزول الملائكة ببابل؟ أليس أقرب إلى المعقول ما ذكر في سفر أخنوخ الحبشي من أن ملائكة هبطوا إلى الأرض يعلمون الناس فنون السحر والشعوذة و(قطع الأرحام)؟ ألا يذكرك (قطع الأرحام) بما قاله القرآن في شأن هاروت وماروت: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[1]؟

كيفما كان الأمر، فقد كان هاروت وماروت فتنة للناس. ولكنها لم تكن فتنة معماة، وإنما فتنة على بصيرة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، أي تعلم منا هذا كيلا تعمله، إن حدثتك به النفس أو علمك إياه شيطان.

* * * *

وإتيان السحر - تعلمه وتعليمه والاستعانة به - إثم منهي عنه في القرآن، بل هو في القرآن كفر بواح: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾. وتستدل على هذا أيضًا من قوله عز وجل على لسان سحرة فرعون: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾[2]، فتفهم أن تعاطي السحر خطيئة يستغفر منها الذي آمن. والساحر أول من يعلم هذا، فقد باع آخرته بدنياه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾، ولكنه لا يدري كم هو في الصفقة مغبون: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[3].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(٢) سورة طه، الآية: ٧٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

أما حقيقة السحر - وللسحر حقيقة لا يجحدها إلا مكابر - فهي كما قال القرآن على لسان نفر من الجن المؤمن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1][2]. الإنس والجن عالَمان منفصلان، بينهما حجاب حاجز، لا ينخرق إلا لِغَوِيٍّ فاسق من هؤلاء وهؤلاء، يدعوه فيستجيب. الجن المؤمن لا يفعله، والإنس المؤمن لا يطلبه، وإنما يفعله الجن الكافر، إبليس وقبيله، إن عذت به أعاذك، وإن استعنته أعانك. وهو لا يعينك في خير مهما توهمت؛ لأنه مكفوف بكفره عن فعل الخير؛ لا يستطيعه لك ولا يريده بك، وإنما هو يعينك على الشر والضر والأذى. يمهد لك بادئ بدء بما يستهويك، حتى إذا آنست في نفسك به قوة، ركنت إليه، فصرت في قبضته، تظن (الخاتم) في أصبعك، وهو فيك الآمر الناهي، الفعل له والإثم عليك، فأنت الساحر والمسحور معًا، وإن شَدَهْتَ أبصار الناس وثملت بهتافهم، ولذَّ لك انبهارهم بك، وتوجسهم منك، وتحيرهم في أمرك.

السحر إذن هو استخدام الجن الكافر، أي الشياطين (والشياطين عَلَم على صنف الجن الكافر) - وقد علمت أن الشيطان معناها العدو - في الإتيان بخارق يهولك. وهو يهولك لأنك لا تعلم القوى الفاعلة فيه، ولا علم لك بالوسائل التي يتحقق بها الفعل. أنت مثلًا لا تسمي المعجزة سحرًا لأنك تعلم يقينًا أن الله عز وجل هو الفاعل. ولا تهولك عجائب العلم في هذا العصر ومخترعاته، فقد علمت ما وراءها. حتى الصعود إلى القمر ونقل صور صوتية - مرئية منه إلى الأرض في ثوان لم يعد يهولك؛ لأنك أنت نفسك تستطيعه متى توسلت إليه بوسائله المعروفة لك الآن. وهو بلا شك أعتى وأدهى من إتيان ذلك العفريت من الجن[3] بعرش (بلقيس) من سبأ في اليمن إلى (سليمان) في فلسطين قبل أن يقوم من مقامه [النمل: ٣٩]، أي في نحو ساعة أو ساعتين، وهو ما تستطيعه اليوم طائرة متوسطة

(١) سورة الجن، الآية: ٦.

(٢) أي يَزيدونهم خبالاً: لا ترى ساحرًا إلا منقلب السحنة، متقبض الأسارير، زائغ النظرة كملبوس أو به مس، وهو كذلك بالفعل.

(٣) العفريت يعني الداهية الخبيث، أو هو الشديد القوي، شاعت في مطلق الجن، وليس كذلك، وإنما هي الداهية القوي، جنًّا وغير جن.

الحجم، غير بالغة السرعة. ولكن اقتراح هذا العفريت ما زال إلى اليوم يهولك؛ لأنك لا ترى هذا العفريت، ولا ترى الوسيلة التي يتحقق بها الفعل، وإنما ترى العرش أمامك. على أن سليمان لم يشده باقتراح هذا العفريت من الجن الذي سخره الله له، فقد مكنه عز وجل فيما هو أعظم: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[1]، قالها بشر من ملأ سليمان علمه الله، فهو مستجاب الدعوة، تطوى له المسافات وينعدم الزمن[2]، ساءه أن يستعلي هذا العفريت فرد عليه بما أسكته، وألزمه مكانه لا يتعداه. الجن مهما عظم - شأن هذا العفريت من جن سليمان - محدود القدرة، محكوم بمدى الاستطاعة، لأن استطاعته من ذاته بقدر طاقته، تعوقه المسافة، ويعوزه الزمن. أما المَلَك فمن أمر الله تبارك وتعالى، كُلِّي القدرة سبحانه. وكأن تلك الآيات من سورة النمل - وهي تقص عليك من أنباء سليمان عليه السلام - تريد أن تبين لك الفرق بين فعل الجن محدود القدرة، وبين فعل المَلَك العامل بأمر الله لا يحد من قدرته حد. وهو نفسه الفرق بين السحر والمعجزة. إنه الفرق بين (عصا موسى) وبين حبال السحرة وعصيهم: الأولى عاملة بأمر الله عز وجل، نافذ بها أمره، لا يعجزها شيء، والأخرى ﴿كَيْدُ سَـٰحِرٍ﴾[3] يستعين الجن على باطله.

وليس فعل الجن - أي السحر - تخييلًا كله، وإنما هو تخييل فحسب إن تعلق بتغيير الصورة المادية لشيء مادي ما، كما مر بك في حبال السحرة وعصيهم: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[4]، قد خلت الساحة من الحبال والعصي وامتلأت حيات وأفاعي. أما ثعبان موسى الذي خلق الله عز وجل من تلك العصا وأعادها من بعدُ سيرتَها الأولى، فقد أكل الحيات والأفاعي، لا على التخييل، وإنما على الحقيقة. دليلك في هذا أنه أتى أيضًا على الحبال والعصي، أصلِ تلك الحيات والأفاعي: التقط موسى عصاه، ولم يستطع السحرة استعادة حبالهم وعصيهم، فقد أعدمها الله عز وجل، بارئ كل صورة ومفنيها. على

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٢) الذي نراه أنه استجيب له فيه بملك؛ لا يستطيع هذا إلا ملك.

(٣) سورة طه، الآية: ٦٩.

(٤) سورة طه، الآية: ٦٦.

أنك مهما قلت في هذا (التخييل) الحادث بفعل السحرة، فهو واقع وَقَعَ، ليس تهاويم نائم منوَّم أو مخدور، دليلك في هذا أن الذي (خيل إليه) في الآية السابقة هو موسى نفسه، البريء من ذلك.

ومن السحر أيضًا فعل محض، أي باق أثره في المادة بعد زوال المؤثر، لا كالتخييل الموقوت بزواله، بل منه الذي تلمسه بيديك، وتسجله عدسات التصوير البريئة من التخيُّل والوهم، كالذي تراه في ألعاب السحرة التي يحتشد لها الناس، ومنها خارق لا تفسير له بمنطق العقل والعلم، والحق أنه لا محال فيه عقلًا وعلمًا، متى سلمت بوجود الجن الذي خلقه الله من ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[1] لا تعكس صورته الأشعة الضوئية التي ترى أنت بها، ولا تنقل صوته ذبذبات الصوت التي تسمع أنت في نطاقها، وكم في خلق الله عز وجل من كائنات تلمس آثارها، وإن لم تدرك أجسامها أو تحس حسيسها.

من عمل الجن إذن أفعال مادية متحققة في الزمان والمكان، مدارها على مدى الاستطاعة، يستطيعها المؤهل لها، أي يستطيعها الجن ولا يستطيعها الإنس. ولكن الجن محجوب عنك، غير مرئي لك، فتنسبها إلى الساحر، الذي (علمه) الجن كيف ينصب له الأدوات، ويهيئ له المسرح، والذي لقنه (التعازيم) التي يستدعيه بها، وعلَّمه الإشارات والرموز[2] التي (يتراسل) بها معه: يضعها له في قاع بئر معطلة، أو يدسها في نواحي خِرْبة[3]، أو تحت وسادة المراد تسحيره، وربما أضاف إليها شيئًا من (أثر) الشخص الذي يراد الكيد له، حتى إذا مر بها الجن في تطوافه فهم المطلوب، وقام بالمهمة غير مرئي ولا محسوس. وقل الشيء نفسه في ألعاب السحرة: الفاعل هو الجن، والظاهر لك هو الساحر. وليس علم السحر وتعلمه وتعليمه إلا هذا.

أما الهدف فهو افتتان الإنس بالجن، أي استهواء الإنس بالجن، ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٥.

(٢) أي: (العمل) في لغة السحر والشعوذة. ومنه السحر الذي صنعه لبيد بن الأعصم اليهودي للنبي ﷺ، فكشف الله خِبْثَه.

(٣) الخِرْبة: بكسر فسكون، يعني الأرض الخَرِبَة، وهي (الخرابة) بلغة العامة.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾[1]، وغرس المهابة في صدور الناس من إبليس وصنائعه، قد خومر عقلك، وذهب علمك، وضاع إيمانك. ومتى انهزم العقل والعلم، فقد انتصر الجهل وسادت الخرافة، فزادك خبالًا على خبالك، تخاف ظلك، وتؤرقك أشباحك، تأتمر بالدجال والعراف والكاهن، وتنحت لك من الوهم أصنامًا وأوثانًا، ومعبودك في واقع الأمر هو الشيطان نفسه، قد أسلست له قيادك، وكفى بهذا إثمًا وخسرانًا.

قد كفر الشياطين إذن الذين علموا الناس السحر، وزينوا لهم ما أنزل على الملكين ببابل، وكفر أيضًا صنائعهم الذين تقبلوا منهم هذا السحر وعملوا به، أي الذين استعاذوا بالشياطين فأعاذوهم، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾[2]؛ لأنه لم يستعذ بالجن، وإنما سخرت له الجن تسخيرًا: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ[3] وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾[4]. سأل سليمان ربه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5]. كانت الجن في هذا كله مأمورة، وكان سليمان فيها حاكمًا محكمًا بسلطان الله. على أن سليمان عليه السلام لم يستخدم الجن فيما يفتن الناس، ولم يستخدمه فيما يضل عن سبيل الله، بل في الهداية إليه سبحانه، كما تجد في قصته مع ملكة سبأ: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[6].

وتستطيع أن تنسق على هذا أن (هاروت) و (ماروت) الملكين المكرمين لم يكفرا بما

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٣) أصلها (كالجوابي)، جمع جابية، حذفت ياؤها ترخيمًا.

(٤) سورة سبأ، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٥) سورة ص، الآيات: ٣٥ - ٣٩.

(٦) سورة النمل، الآية: ٤٤.

علماء الناس في بابل؛ لأنهما كانا به مأمورين فتنة للمتلقِّين منهما؛ تبصيرًا للناس، وزجرًا للناس عن إتيان السحر وعن تعلمه وتعليمه.

أما قول مفسري القرآن في (هاروت) و(ماروت) و (بابل)[1]، فقد توقفوا في تفسير معنى (هاروت) و(ماروت) مكتفين بأنهما عَلَمان أعجميان منعا من الصرف للعجمة، وهذا يدلك على أن أهل الكتاب المعاصرين لهؤلاء المفسرين لم يكن لديهم هم أيضًا شيء في تفسير معنى هذين العلمين، فتستنبط من هذا أن أهل الكتاب هؤلاء كانوا إلى ما بعد عصر نزول القرآن لا يعلمون شيئًا عن (أريوخ) و (مريوخ) في أخنوخ السلافي، ولا عن الملائكة الذين هبطوا إلى الأرض يعلمون الناس فنون السحر والشعوذة وقطع الأرحام في أخنوخ الحبشي، لا بأصل هذه الرواية ولا بترجمتها السلافية أو الحبشية اللتين استخرجهما المستشرقون من أوراق الكنيستين البلغارية والحبشية، وأن القرآن كان أسبق من هؤلاء وهؤلاء إلى مجمل هاتين الروايتين.

وأما قول مفسري القرآن في معنى (بابل)، فقد تابعوا أهل الكتاب في تفسير معناها بالبلبلة، ورددوا دون تثبت رواية سفر التكوين في المقصود من ذلك وهو التعليل لتفاوت ألسنة الخلق، ولم يلتفتوا إلى قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[2]. أي أن المخالفة بين ألسنة الناس آية ماضية في الخلق منذ بدء الخلق بآدم، شأنها شأن المخالفة بين ألوانهم، لا شأن لها ببلبلة الملائكة في بابل. لو صح هذا الذي رواه سفر التكوين لتوقف عدد لغات أهل الأرض عند الذي انتهت إليه محنة بابل، ولكن الذي حدث هو أن لغات البشر لا تزال إلى اليوم تموت وتتوالد.

***

على أن (أريوخ)، (مريوخ)، لم يجيئا في (أخنوخ السلافي) عبثًا، إنهما على الراجح عندي الرسم السلافي لهذين العلمين القرآنيين: (هاروت)، (ماروت). ولكن القرآن

(١) راجع: تفسير القرطبي للآية ١٠٢ من سورة البقرة.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٢.

لم يعربهما عن السلاف كما ظن أدعياء الاستشراق على ما مر بك، ولكنه عربهما عن الأصل الذي تكلم به الناس في بابل، والذي تحرف على قلم مترجم كتاب (أخنوخ السلافي).

فأنت تعلم أن مهبط هذين الملكين قد كان ببابل، فتقطع بأنهما تعرفا - أي تسميًا - لأهل بابل بلغة أهلها. والبابلية لغة سامية بادت، وما تجمع للغويين من ألفاظها نزر يسير، على شك في صحة نطقه ومعناه، استظهروه من كتابات بخط مسماري سبق إليه شومريون - غير ساميين - فخلا من أصوات تختص بها اللغات السامية، واستخدمه من بعدهم البابليون على علاته، فلا تدري أفسد لسانهم باستخدام ذلك الخط أم اعتجم علينا نطق ما كتبوه، أم كلا الأمرين معًا. ومن ثم لا يستطاع رد اشتقاق هذين الاسمين (أريوخ)، (مريوخ) إلى أصل بابلي مقطوع بمعناه. على أن في عبرية التوراة الاسمين العلمين (أريوخ)، (مِرَيُوت)، الأول بمعنى (الأسدي) (أي الشبيه بالأسد) والثاني بمعنى (المراء) على الجمع (أي (مِراءات)) وكلاهما في عبرية التوراة علم مذكر. واللفظ (آرا)، (آري) في كل من البابلية والعبرانية والآرامية معناه (الأسد) (وهي (هُرّ) العربية بضم الهاء وتشديد الراء ومعناها الأسد لا (هِرّ) مكسورة الهاء بمعنى (القط))، أما الواو والخاء في (أريوخ) فهي في البابلية الفارسية كاسعة تفيد النسب على الصفة. وربما قلت إن (مِرَيوت) العبرانية أصلها (مريوخ) البابلية الفارسية (مري + وخ) على النسب إلى (مَرِي) يعني العجل المسمن (وهو (المارِيُّ) في العربية). ومن ثم يكون معنى هذين الاسمين (أريوخ)، (مريوخ)، هو المنسوب إلى الأسد والمنسوب إلى العجل (الماري). وليس على هذا أو ذاك دليل تستريح إليه.

أما الذي نقوله نحن، فهو أن العلمين (هاروت)، (ماروت) لم تثبت لهما العلمية في الكتب السابقة حتى يلتزم القرآن بالإتيان بهما على ما جاءا به في التوراة والإنجيل على نحو ما مر بك في شأن (جبريل)، (ميكال). وإنما جاء بهما القرآن على أصلهما في العربية الأولى. وقد جاء بهما القرآن على زنة المبالغة (فعلوت)، كما تجيء (طاغوت) من (طغى)، (جالوت) من (جلا)، (طالوت) من (طال). إنهما على الراجح عندي تعريب على التفسير من الهراء

والمرية، أو الهَرْء والمَأْر (أي القطع والإفساد)، تسمية لهما بذلك (العِلم) الذي علماه الناس في بابل، وكانت به (الفتنة) التي تعرفا بها للناس: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[1].

أما (بابل) في القرآن فهي مفسرة بذاتها لا تحتاج إلى تفسير، وقد علمت أنها من البابلية (باب + إيلو)، أي (باب + إل)، يعني (باب الله)، سهلت همزتها على المزجية، ورغم أنها جاءت على وزن شائع في العربية وهو (فاعل)، فقد منعت من الصرف للعلمية والتأنيث قبل المزجية وقبل العجمة.

ولكنك تستشف من القرآن تفسيرًا لمعنى بابل بالتصوير، أي بالسياق العام. فأنت تعلم أن البابليين كانوا من عبدة الكواكب، يديمون النظر في النجوم، وأنهم بنوا ذلك (البرج) الذي سميت به المدينة من بعد (باب إيلو)، والمقصود بالطبع (باب السماء)، معبدًا لإلههم الأكبر (مَرْدُوخ) (كوكب المريخ على الراجح)، كوة نافذة في السماء يرصدون منها آلهتهم هذه، على نحو ما فعل فرعون: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[2]. أرادوها كوة نافذة في السماء يرقبون ويتسمعون، فكان لهم ما أرادوا، كان (الباب) الذي صنعوا، بابًا نزل عليهم منه هاروت وماروت بالفتنة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[3].

* * * *

(1) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(2) سورة القصص، الآية: ٣٨.

(3) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٧) الفردوس (٨) عدن

ليس في التوراة (فردوس) - وهي پَرْدِيس العبرية (بإمالة الياء). وليس في التوراة أيضًا (عَدْن) - وهي عِدِن العبرية - لا بمعنى (النعيم) (من عَدَن العبري المكافئ في العربية للجذر (غَدِنَ) ولا بمعنى (الإقامة) (من (عدن) العربي)، وإنما عِدِن في التوراة اسم موضع في هذه الأرض التي نعيش عليها، يطلقه علماء التوراة على إقليمٍ ما فيما بين النهرين (العراق). أما (الجنة) (جانْ العبرية) فهي (حديقة) لا أكثر ولا أقل في إقليم (عِدِن) هذا (جَانْ بعِدِن، أي جنة في عِدِن) (غرسها الرب الإله في عِدِن شرقًا)، ووضع آدم هناك كالبستاني (يُفلحها ويحفظها)[1].

ومن عِدِن هذه خرج نهر يسقي تلك الحديقة (الجنة)، ومن هناك ينقسم أربعة رءوس أنهار، أصل كل أنهار الأرض[2]. ليست الجنة المعنية في التوراة هي (الجنة) المعنية في القرآن، وإنما هي حديقة صنعها الله لآدم ثم طرده منها لعصيانه، لا يعود إليها من بعد، لا هو ولا بنوه. ليست هي في السماء كما تستظهر من قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾[3]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾[4]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[5]، ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾[6]، ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ

---

(١) العبارة في ترجمة التوراة العربية (ليعملها ويحفظها)، وليس بالجيد في ترجمة (لِعَبِدَاه ولِشَمِرَاه) العبرية. (عَبِدَ) العبري هنا بمعنى (الفلاحة)، ومنه في العبرية (عبودت - أدما) يعني الزراعة عِلمًا وحرفة (أدما العبري يعني الأرض، مأخوذة من الأدمة والأديم في العربية، وسيأتي).

(٢) راجع في هذا كله سفر التكوين ٢/ ٨ - ١٥.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.

(٥) سورة النجم، الآيات: ١٣ - ١٥.

(٦) سورة الحاقة، الآيتان: ٢١، ٢٢.

رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]، وأكبر من هذا كله وأبين قوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾[2]. وليست كذلك الجنة في التوراة. (جنة التوراة) هي جنة آدم، بقعة في إقليم من هذه الأرض، لا (جنة عرضها السماوات والأرض) كما أخبر القرآن: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، لا تسعها (عدن) التي في العراق، ولا العراق أجمع، ولا هذا الكوكب كله.

والحق أنك لا تجد في التوراة، ولا في الإنجيل أيضًا، حديثًا عن الدار الآخرة، لا مستفيضًا ولا مجملًا، وكأن (أهل الكتاب) أعرف بتلك الدار من أن تعرف لهم. فقد شغل كتبة أسفار التوراة بالأخبار والأنساب والسير، وشغل كتبة الأناجيل بسيرة عيسى عليه السلام وأعمال (الرسل)، ومجيء المخلِّص (عند اكتمال الزمان يضعون عليه أحمالهم. كان على الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر أن ينتظروا نزول القرآن حتى يعلموا علم تلك الدار مبسوطًا مفصلًا، مبينًا ومعرفًا: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[4].

والإنجيل أيضًا يتابع التوراة في قصرها (الجنة) على تلك (الحديقة) التي طرد منها آدم وحواء (وهي باليونانية كِيبوس *Kipos*). أما الجنة بمعنى دار النعيم في الآخرة فالإنجيل يسميها (ملكوت السماوات) (في أحد معاني هذا التعبير الإنجيلي)، و(بنو الملكوت) في لغة الإنجيل هم (أصحاب الجنة) بالمعنى القرآني، أما (أصحاب النار) فهم الممنوعون من دخول الملكوت. ولكنك لا تعلم من الإنجيل شيئًا في وصف نعيم (بني الملكوت) هؤلاء إلا أنهم في صحبة الملائكة والأنبياء والصديقين الأطهار. من هنا كانت السماء ***(Heaven)*** مرادفًا لمعنى الجنة عند الأوروبيين المسيحيين. ولئن كان الإنجيل - بوضعه الجنة في السماء - قد سجل تقدمًا بالغ الخطورة على التوراة التي بين يديك، فقد كان التعبير بلفظ

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٢.

(٢) سورة العلق، الآية: ٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٤) سورة محمد، الآية: ٦.

(الملكوت) عن دار النعيم في الآخرة غير دقيق؛ لأنك تعلم من القرآن أن هذا الملكوت الذي في السماء يتجاور فيه على سواء أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾[1]، يتنادون: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾[2].

وينفرد الإنجيل من دون التوراة التي بين يديك بالنص في ترجمته العربية على (الفردوس) بالاسم: (فقال له يسوع: الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس)[3]، ترجمة لليونانية (پراذيسو) *Paradeiso* التي أخذتها اللاتينية على علاتها *Paradisus*، ومنها *Paradis* الفرنسية و *Paradise* الإنجليزية.

وقد أعضلت (پراذيسو) اليونانية هذه على الذين ترجموا من بعد الأناجيل اليونانية الأصل إلى العبرية (لغة المسيح)، ولكنهم فهموا من السياق وحده أن المسيح يعني (جنة عدن)، أي (الجنة التي في عدن) أعني (جَانْ بِعِدِن)، فترجموا (اليوم تكون معي في الفردوس) إلى العبرية هكذا: (تِهْيِه هَيُوم عِمَّادي بجان عِدِن)، وقد مر بك أن (جنة عدن) في التوراة هي (جنة آدم)، لا شأن لها بدار النعيم في الآخرة، فتفهم أنهم لا يعرفون للفردوس مقابلًا في العبرية هو (پَرْدِيس)، أو بالأحرى أنهم لا يفهمون من (پرديس) العبرية المعنى الذي أراده المسيح والمفهوم من السياق. وتدرك أيضًا أن مترجمي الأناجيل إلى العربية ما كان ليضعوا (الفردوس) موضع (پراذيسو) اليونانية لو لم يتنزل القرآن بتسمية (الفردوس)، وإلا لقالوا: (البستان) أو (الحائط) (بمعنى البستان)، وهي الترجمة الدقيقة للفظ (پراذيسو) اليونانية، كما تدرك لماذا لم يقولوا (الجنة)؛ لأنهم يعلمون أن (جان) العبرية هي (جنة آدم)، لا دار النعيم في الآخرة. وتدرك أخيرًا كم استفادت اليهودية والمسيحية من القرآن في جلاء الضباب عن كثير من غوامض تلك المعاني العليا.

ولكن المستشرقين مرضى الهوى والغرض يقولون لك: إن القرآن نحت (فرودسه) من

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٠.

(٣) لوقا: ٢٣/ ٤٣.

(پراديسو) التي في إنجيل لوقا، وأخذ (جنات عدن) عن تلك الجنة التي في عدن، (جَانْ بِعِدِن) من سفر التكوين.

* * * *

أما (پراديسو) اليونانية هذه فليست يونانية، ولا علم لليونان بها قبل عصر المسيح، وإنما هي منحولة كما يقول اللغويون من الفارسية (پَيْرِي + دَيْزَا) *Pairi + Daeza* (پيري = حول، ديزا = جدار) فهي السور أو الحائط، استعير للبستان أو الحديقة، كما استعارت العربية لفظ (الحائط) أي المحوط، لهذا المعنى نفسه، باعتبار السور الذي يحوطه ويحفظه، لا باعتبار محتواه. فلا تدري لماذا يأخذ كتبة الأناجيل من الفارسية القديمة ولديهم في اليونانية (پِريبولي) *Periboli* بنفس المعنى - أي الحائط بمعنى البستان - ولديهم أيضًا مطلق الحديقة Kipos، أما إن أرادوا حديقة الفاكهة خاصة فلديهم (أُپورُوكيپوس) *Oporokipos*. لا يفعل كتبة الأناجيل اليونانية هذا إلا إذا كانوا قد سمعوه من المسيح عليه السلام ملفوظًا على نحو قريب من (پراديسو) فتأول لها اللغويون هذا الأصل الفارسي القديم كما مر بك، دون أن يتساءلوا عن سبب نطق المسيح عليه السلام بهذا اللفظ الفارسي القديم، ولديه في لغته (جَانْ) و(جَنًّا)، إلا إن كان عليه السلام يقصد جنة بعينها، كما قال الصادق المصدوق ﷺ ما معناه: «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة**».

وهذا يعود بك مباشرة إلى (پَرْديس) العبرية، التي تنكر لها مترجمو (پراديسو) في الترجمة العبرية للأناجيل اليونانية.

ولكن (پرديس) العبرية اسم جامد، لا اشتقاق له في المعجم العبري ولا جذر له في العبرية يرد إليه، فهو إما دخيل على تلك اللغة، وإما اسم أميت جذره وبقي الاسم بمعناه.

* * * *

وردت الفردوس في القرآن مرتين فحسب: الأولى مضافًا إليها (الجنات) على النسب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[1]، والثانية منفردة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2]. والجمع بين حديثه ﷺ في وصف الفردوس بأنه أوسط الجنة، وبين الفردوس في سورتي الكهف والمؤمنون، يقتضي فهم الفردوس بأنها علم على موضع متميز في قلب الجنة يرثه الأخيار من عباد الله الذين اكتملت فيهم صفة المؤمن على ما تعرف من أشراطها في أول سورة المؤمنون، تحيط به جنات تنسب إليه - (جنات الفردوس) في سورة الكهف - يرثها المؤمنون الذين يعملون الصالحات بعامة، أي مطلق المؤمن، لا خيار المؤمن.

مصداق هذا التمييز بين (أصحاب اليمين) بعامة، وبين (السابقين المقربين)، أي الخِيرة: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾[3]، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه، لا بعملنا وهو في جنب الله عز وجل قليل. ومصداقه أيضًا في سورة الرحمن، تمييزًا بين الجنتين اللتين لمن خاف مقام ربه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[4]، وبين الجنتين اللتين لمن دون هذا في المنزلة: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[5]، أي لعموم المؤمن.

والقائلون بعربية الفردوس يشتقونه من (الفردسة)، أي التوسعة والتعريش، من فردس الكرم أي وسعه وعرشه، وفردس قِرْنَه يعني صرعه، وفردس وعاء التمر ونحوه يعني حشاه وغلا في حشوه، ورجل فُرادِس يعني ضخم العظام، والفُردوس بضم الفاء الزيادة والسعة في الحنطة ونحوها. وهذا كله يقطع ما بين اشتقاق (الفِرْدَوْس) في العربية وما بين اشتقاق (پراذيسو) اليونانية و(پِيْري + دَيْزا) الفارسية ومعناه السور أو الحائط. العربية من الضخامة والسعة والبسط، والأعجمية من التسوير والإحاطة.

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٧.
(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠، ١١.
(٣) سورة الواقعة، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.
(٥) سورة الرحمن، الآية: ٦٢.

(فردس) العربية كما ترى جذر رباعي، والمادة الرباعية في اللغات السامية ليست بالجذر الأصيل، إنها غالبًا إما على التضعيف مثل (زل + زل)، وإما ثلاثي زيد بحرف مثل (خَتْرَ + م) بمعنى غِلَظِ الشفة أو طرف أرنبة الأنف (وختر بمعنى غلظ)، وإما مزجي يجمع بين معنيين مثل (دح + رج) أي دفعه متحدرًا، من الدحي والرجرجة.

أصل (فردس) إذن إما (فَرَدَ + س) من فَرَدَ بمعنى نثر وفرق وباعد مزيدًا بالسين على المبالغة، كما في (قَسَطَ + س)، وإما أن تكون على المزجية (فر + دس) من الفراهة والدِّياسة، أو من الفُرَّة والدِّيسة. الأولى - (فَرَدَ + س) - تطابق معاني (فردس) في المعجم العربي، أي البسط والسعة والتعريش، والثانية (فر + دس)، التي لم يقل بها أحد، تطابق تعريفه ﷺ معنى (الفردوس) بأنه أوسط الجنة وأعلى الجنة. وأما (الدِّيسة) فمعناها العشب الطري (وهي (ديشه) العبرية و(ديثه) الآرامية)، ومعناها أيضًا - الذي أعنيه هنا - الغابة الكثيرة الشجر. وقد علمت أن (الجنة) في اللغة معناها الحديقة ذات النخل والشجر، من (جَنَّه) يعني ستره، فالدِّيسة بهذا المعنى تكافئ الجنة. وأما (فَرُهَ) من الفراهة فمعناها جَمُل وحَسُن. وأما الفُرُّ والفُرَّة (من الجذر ف / ر / ر) فهو خيار الشيء. فيكون معنى الفِرْدَوْس (خيار الجنة) كما قال الصادق المصدوق ﷺ.

وقد عرف العرب (الفردوس)، (الفراديس) قبل القرآن، يطلقونها على بساتين الكرم خاصة، ومنه (فراديس الشام)، ومنه أيضًا قول أمية بن أبي الصلت في عجز بيت له: (فيها الفراديس والفُومان والبصل). ولأن (الكروم) هي (أكرم) البساتين عند العرب - وليس مصادفة أن يشتق الكَرْم من الكَرَم أو العكس - فقد شاع (الفردوس) على بساتين الكرم خاصة، وإن كان المعجم العربي يطلقه على (البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين)، وهذا عندي محدث، متأثر في تأصيله بمعنى (الفردوس) في القرآن والحديث.

أما (پرديس) العبرية، فالمعجم الحديث لألفاظ التوراة (هَمِّلُّون هِحَدَاش لَتَنَاخ)[1] يعرفها

(١) انظر ثبت المراجع في نهاية هذا الكتاب.

دون تأصيل بأنها (جَانْ عِصِي بِرِي (جَدُور))، أي: (جنة الشجر المثمر (مسورة))، فلا تدري كيف أقحم (التسوير) على اللفظ إلا إذا كان قد تأثر بلفظ (پراديسو) اليونانية بمعنى السور أو الحائط، المنسوبة إلى المسيح عليه السلام في إنجيل لوقا، وليس في (پراديسو) من الشجر المثمر شيء، رغم أن (جان) العبرية تفيد بذاتها التسوير والستر.

إن صحت نسبة (پراديسو) اليونانية إلى المسيح عليه السلام في إنجيل لوقا، فالراجح عندي أنه عليه السلام نطقها على العبرانية (پرديس)، التي ترد آخر الأمر إلى العربية (فردوس)، لا حاجة به إلى اصطناع (پراديسو)، التي جاء بها لوقا في إنجيله - لا على الترجمة كما يظن - وإنما على الرسم (اليوناني)، شأنها شأن كثير من ألفاظ الإنجيل العبرية - الآرامية.

لا يحتاج المسيح إلى (پراديسو) اليونانية وعنده (پرديس)، وإنما احتاج إليها لوقا اليوناني. ولا يحتاج القرآن إلى (پراديسو) اليونانية، فليس (الفردوس) في القرآن سورًا أو حائطًا، وليس بستانًا كأي بستان. ولا يحتاج القرآن من باب أولى إلى (پرديس) العبرية ولديه العربية (فردوس)، خيار الجنة.

****

أما مفسرو القرآن[1]، فهم يجمعون على عربية (الفردوس) من (فردسه) بمعنى وسعه وعرشه. وشذ بعضهم فقال: بل هي يونانية (على ما مر بك من معنى (پراديسو))، أو هي فارسية (على ما مر بك من إرجاع (پراديسو) الإنجيلية إلى (پيري + ديزا) الفارسية. وهذا يدلك على أن (پراديسو) و(پيري + ديزا) وقعتا في كلام الفرس والروم على السواء عصر تصنيف تفاسير القرآن. ولم يصب هؤلاء فيما قالوه - وتوكأ عليه من بعد أدعياء الاستشراق في العصر الحديث - لأن جعل (الفردوس) بمعنى الجنة أو البستان يصطدم بقوله عز وجل في سورة الكهف: (جنات الفردوس)، التي تؤول على هذا القول إلى (جنات الجنة) أو (جنات البستان)، وهو لغو يتنزه عنه القرآن؛ لأن إضافة الشيء إلى مرادفه لا تصح إلا بزيادة في

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ١٠٧ من سورة الكهف، والآية ١١ من سورة (المؤمنون).

معناه. وهو يصطدم أيضًا بتعريفه ﷺ معنى الفردوس بأنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أي (خيار الجنة).

الفردوس إذن عربية لا مشاحة. وسترى الآن توًّا أن (عدن) كذلك.

****

عَدَنَ بالمكان عَدْنًا يعني أقام. وعَدَنَ البلدَ عَدْنًا يعني تَوطَّنَهُ، لا يريمُ ولا يَبْرَح. فـ(جنات عدن) يعني (جنات إقامة). مصداق هذا قوله عز وجل: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[1]. ودفع عز وجل مَظِنَّةَ السأم من هذا التأبيد وإن كان في الجنة بقوله في ختام السورة: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[2]. إنها جنة المأوى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[3]، ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4]، وهي دار المقامة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾[5]، وجنة الخلد: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[6]، ودار الخلود: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾[7].

وردت (عدن) في كل القرآن إحدى عشرة مرة. وهي لا تجيء قط في القرآن منفردة، وإنما تجيء تسبقها (جنات) على الإضافة التي تفيد النعت، أي جنات يُعْدن بها، لا رَيْمَ ولا بَراح.

ولم تجئ قط في القرآن (جنة عدن) على إفراد لفظ (الجنة)؛ لأن مفرد (الجنة) معرفًا بالألف واللام، علم بذاته على دار النعيم في الآخرة بكل درجاتها، فردوسًا وغير فردوس: إنه اسم جنس لمجموع (الجنات) التي في تلك الدار، يختص فيها كل مؤمن بجنته. ولأن

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٨.

(٣) سورة النجم، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٤) سورة السجدة، الآية: ١٩.

(٥) سورة فاطر، الآية: ٣٥.

(٦) سورة الفرقان، الآية: ١٥.

(٧) سورة ق، الآية: ٣٤.

الجنس لا يكون إلا مفردًا، فلم يقل القرآن (جنة عدن) على الإفراد، كي لا يظن أن (جنة عدن) اسم جنس لمطلق الجنة، كما وهِم سفر التكوين، وكي لا يظن أن (جنة عدن) - كالحال في (فردوس) - جنة متميزة عما دونها من الجنات، كما تروي إسرائيليات دست على تفاسير القرآن، بل الجنات كلها جنات عدن على سواء، أي جنات إقامة، فردوسًا وغير فردوس: إنها ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾[1]، ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2].

ومن إعجاز القرآن - بل ومن دقيق القرآن - أنه في حديثه عن قصة آدم لا يسميها قط - على خلاف سفر التكوين - (جنة عدن)؛ لأنها لم تدم لآدم. وهذا يدلك على أن (عدن) ليست وصفًا للجنة بذاتها، لا على النسب إلى إقليم أرض كما وهم سفر التكوين، ولا بمعنى النعمة والتنعم من (عَدَن) العبري المأخوذ من (غَدِنَ) العربي، كما قال علماء العبرية من بعد، فقد كانت الجنة لآدم وزوجته نعيمًا أي نعيم: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[3]، ولكن (عدن) وصف لدوام الحال في تلك الجنة، فلا توصف به إقامة آدم فيها قبل إهباطه منها، وإنما توصف به الإقامة في تلك الجنة لمن حُقَّت له الجنة في الدار الآخرة، ليطمئن القلب إلى أنها إقامة خالدة لا تزول، كما زالت من قبل عن آدم، وإيناسًا لآدم نفسه بعد أن تاب الله عليه كي يخرج منها على رجاء العودة إليها خالدًا فيها لا يخشى الخروج منها كرة أخرى.

إلى هذه الجنة (الدائمة) الخالدة دعا آدم أبناء جيله، وتحدث بها من بعده أبناؤه وذراريه أجيالًا بعد أجيال، حثًا على طلب الجنة التي لا تزول، حتى التصق النعت بالمنعوت، فصار في العبرية الأولى (جَانْ عِدِن)، نقلًا عن العربية الأم - أعني عربية آدم وبنيه - أي (جنة المقامة)، علمًا على مطلق تلك الجنة.

ولكن العبرية على عصر سفر التكوين تخلط بين العين والغين،[4] أي بين (عدن)، (غدن)،

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

(٤) مثل حَلَق العبري بمعنى حَلَقَ وخَلَقَ على السواء، يتمايزان بالسياق.

تكتبهما وتنطقهما سواء بالعين غير المنقوطة. وقد سقط من المعجم العبري (عدن) بمعنى أقام، وبقيت فيه (عدن) بمعنى (غَدِنَ) العربي، أي خصُب ولان ونعُم، ففهمها الكاتب بهذا المعنى، وراح كدأبه يلتمس لها التفاسير، حتى استقام له إسقاط تلك الجنة من السماء إلى الأرض، ينسبها إلى موضع في ذلك الإقليم الخصيب في العراق، إقليم (عدن) وفاته ما كتبه هو نفسه (تكوين ٣/ ٢٢-٢٤) من أن الله عز وجل خشي أن (يغافله) آدم إلى شجرة الحياة في (جان عدن) بعد طرده منها، فأقام على تلك الجنة حرسًا يمنعونه من دخولها، فكيف عاد إليها أبناء آدم الذين سكنوا إقليم (عِدِن) يحرثون ويزرعون ويأكلون ويتناسلون؟

شرط الوحي (الصادق) ألا تكذبه السنون. لم تعد على أرض هذا الكوكب، لا في العراق ولا في غيره، بقعة أرض لم تزر إن لم تعمر، ناهيك بأرض تمنع الملائكة الناس أن يطئوها. فهل غافل الإنسان الملائكة من بعد، أم حرمت الجنة على آدم، وأبيحت من بعد لبنيه؟

أما علماء العبرية الذين قالوا من بعد: إن (جان عدن) يعني (جنة النعيم)، فليس بشيء؛ لأن سفر التكوين يضع الجنة (في عدن شرقًا)، وينص تنصيصًا على (جان بِعِدِن)، أي جنة في عدن (والباء في العبرية تكافئ (في) العربية). ليست (عدن) في سفر التكوين من أسماء المعاني، وإنما هي بيقين لا يصح فيه جدل اسم موضع، كيفما اخترت له الأرض والموقع.

* * * *

(٩)

جهنم

ليس في التوراة من أسماء النار (جهنم)، وإنما فيها (شِئُول) أي الهاوية، وهي *Hades* اليونانية في الترجمة السبعينية للتوراة. والهاوية من أسماء النار في القرآن. وليس في المعجم العبري أصلًا (جهنم) أو (جِهِنَّام) العربيتان بمعنى البئر البعيدة القعر، وهي نفسها (الهاوية) إن تَمَعَّنْتَ.

وإنما هي في العبرية (جي - بِني - هِنُّوم)، أي وادي أبناء (هنوم)، التي اختصرت إلى (جي - هِنُّوم)، أي (وادي هِنُّوم)، وموضعه بالحي الجنوبي الشرقي من أورشليم كما يقول علماء التوراة. ضَحَّى فيه (آحَاز)، (منسا) بأبناء لهما قربانًا للإله (مولخ)، وغدا من بعد مَزبلَة ومحرقة للنفايات، تحقيرًا.

ولعلماء العبرية في اشتقاق (شِئُول) قولًا: إما أنها من (شَأَلْ) العبري (وهو (سأل) العربي ومن معانيه (الطلب)) فيكون معناها التي تطلب ولا تشبع، شأن جهنم في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[1]، وإما على القول الثاني - وهو غير قوي - إنها مُتَحَرِّفَةٌ عن (شِعُول) من (شَعَلْ) العبري بمعنى خوى وتجوف، فهي (الهاوية) أيضًا.

أما الإنجيل فهو يذكر في ترجمته العربية (جهنم) بالاسم: ((بل أريكم ممن تخافون. خافوا من الذي بعدما يَقْتُل، له سلطان أن يُلْقِيَ في جهنم))[2]، يترجم به (جِهِنَّا) *Gehenna*

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٠.

(٢) لوقا: ١٢/ ٥.

في الأصل اليوناني، وهي باتفاق ليست يونانية، وإنما هي عبرية أو آرامية، فالأصيل في اليونانية (كولاسي) *Kolasi*، ومعناها (دار العقاب)، جهنم أو الجحيم أو الهاوية أو ما شئت من أسماء النار، ولكن لوقا كدأبه آثر استبقاء (جِهِنًّا) على أصلها، أقرب ما تكون إلى ما نطق به المسيح.

والراجح عندي أن المسيح عليه السلام نطق بها على أصلها العربي (جِهِنَّام)، حذف لوقا ميمها في الرسم اليوناني، على نحو ما فعل في إنجيله أحيانًا من حذف ميم (مريم) التي رسمها في بعض مواضع *Maria*، أو أنه عليه السلام نطقها (جِهِنًّا) بحذف الميم ترخيمًا على نحو ما كتبها لوقا، وأن (جِهِنًّا) هذه أو (جِهِنَّام)، هي المقابل الآرامي - لا العبري - لجهنم أو جهنام العربية، بمعنى البعيدة القعر، أي الهاوية، يعني بها (شئول) العبرية لا أكثر ولا أقل.

ولكن (اليونانية الكنسية) التي لم تجد في المعجم العبري أصلًا تشتق منه (جِهِنًّا) الإنجيلية هذه أقرب من (جِي - هِنُّوم) ظنتها الصورة الآرامية لـ (جِهِنًّا) أو (جِهِنَّام)، وفاتها أن المسيح عليه السلام في السياق المتقدم يخوف السامع بما بعد الموت، أي يخوفه بدار العذاب في الآخرة، لا بمحرقة للنفايات على أطراف أورشليم، أعني (جِي - هِنُّوم)، التي لا تخيف أحدًا مات أو قتل، فلا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها. وعلى هذا النحو مضى أدعياء الاستشراق يطنطنون بأن القرآن أخذ (جهنم) من (جي - هنوم) كما فعل لوقا من قبل في إنجيله.

وقد ضل هؤلاء المستشرقون على علم؛ لأنهم أرادوا لأنفسهم هذا الضلال. القرآن لا يسمي (جهنم) اعتباطًا، وإنما هو يصورها أبلغ تصوير وأبينه بمعنى الهاوية البعيدة القعر، تمامًا كمعنى جَهَنَّم وجِهِنَّام في المعجم العربي: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1]، ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[2]، ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[3]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.

جِثِيًّا﴾[1]، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾[3]... إلخ.

أفي (جي - هنوم) العبرية من هذه المعاني شيء؟ أليست (جِي - هِنُّوم)، أعني ذلك الوادي الذي لأبناء هنوم، اسم موضع معلوم؟ أليست (جِي) العبرية (وهي من (جواء) العربية)[4] تعني (الوادي)، بل الواسع من الأودية؟ فكيف تجيء جهنم (الهاوية) من (الجِواء) وهي أقرب إلى الضد منه؟ أليست الهاوية في المعجم العربي[5] تعني البعيدة القعر؟ أليست هي وجِهِنَّام في المعجم العربي على الترادف والتطابق؟ أفي معنى (الوادي) و(الجواء) من هذا شيء؟

والذي يستوقف النظر أن المعاجم العبرية الأحادية اللغة، أي العبري - عبري[6]، لا تفسر (جِي - هِنُّوم) بأنها تعني (دار العذاب في الآخرة)، وإنما تدرجها في ثَبَت الأعلام على الموضع والمكان، أي ذلك الوادي في الجنوب الشرقي من أورشليم. أما المعاجم العبرية الثنائية اللغة، عبري - فرنسي على سبيل المثال[7]، فهي لا تترجم (جِهِنَّا) الإنجيلية إلى (جِي - هِنُّوم) العبرية وإنما تترجمها إلى (شِئُول) أي الهاوية، وحين تترجم (جِي - هِنُّوم) العبرية إلى الفرنسية تقول: (وادي هِنُّوم) الذي في أورشليم، ثم تثني فتقول: ومجازًا = (جِهِنَّا). وقد أتى هذا (المجاز) بالطبع تأثرًا بما جاءت به المسيحية من بعد، في تصورها أن (جِهِنَّا) الإنجيلية مشتقة من (جِي - هِنُّوم)، وليس بصحيح في ديانة اليهود.

على أن القرآن لم يحتج إلى (جِهِنَّا) ولديه في أصيل العربية (جِهِنَّام)، ولم يعرب لفظ

(١) سورة مريم، الآية: ٦٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.
(٤) راجع في المعجم العربي الجذر (جوي).
(٥) راجع في المعجم العربي الجذر (هوى).
(٦) راجع المعجم العبري لألفاظ التوراة (هَمِلُّون هِحَدَاش لَتَنَاخ) وهو من مراجع هذا الكتاب.
(٧) انظر معجم لاروس (عبري/ فرنسي - فرنسي/ عبري).

(جَهَنَّم) عن (جِي - هِنُّوم) البعيدة كل البعد عن معناه.

جهنم في القرآن عربية لا مشاحة، وإن رغمت أنوف[1].

أما أن (جهنم) ممنوعة من الصرف في كل القرآن فليس هذا لعجمتها، وإنما هو فقط للعلمية والتأنيث.

* * * *

(١) الذي يجب التذكير به فيما مضى من مباحث هذا الكتاب وفيما سوف يلي، أن أدعياء الاستشراق هؤلاء - معظمهم إن لم يكن جميعهم - دلفوا إلى المعجم العربي مثقلين بما حُمِّلوه من عبرية التوراة، يفسرون العربي بالعبري على قدر محفوظهم من تلك العبرية التي انقرضت أو غابت أصول جذورها تحت ركام من تفاسير وضعت بعد نحو ألف سنة من عصر موسى عليه السلام، تخطئ وتصيب. في وهمهم أن العبرية أقدم وجودًا من العربية لمجرد أن التوراة أقدم نزولًا من القرآن. وقد لغوا بهذا وسكنت إليه نفوسهم؛ لأنه يفيدهم في دعوى استنساخ القرآن من التوراة، وهي دعوى لا يقول بها إلا هازل، جاهل بالقرآن والتوراة. وقد تظاهرت الآن علوم اللغات والتاريخ والآثار على أن اللغة العربية هي أم الساميات جميعًا، إليها يرد علم ما باد وانقرض في تلك اللغات السامية، ومنها يؤخذ تفسير ما غمض فيها، أو شَحُبَ معناه، أو فقد جذره. ومضى عصر كان ينظر فيه إلى أولئك المستشرقين نظرة الهيبة والإكبار، يؤخذ عنهم ويتتلمذ عليهم دون نقد أو تمحيص الغث والسمين. نقول هذا دون أن نقلل من جهدهم الضخم، وكان أولى بنا أن نقوم به نحن، فنأمن الهوى والضلال.

(١٠)
إبليس

ليس في التوراة (إبليس)، وإنما فيها (ساطان) بمعنى العدو، وهي نفسها (شيطان) العربية، كما مر بك.

وفي العبرية أيضًا (عزازيل) اسمًا علمًا لإبليس، ومعناها (عزيز الله)، على ما يروى من شأنه قبل أن يبلس في أقاصيص أهل الكتاب، وتابعهم فيه لفيف من مفسري القرآن الذين قالوا بأن إبليس كان من الملائكة ثم (أبلس) بعد، وهذا لا يصح فيه عن الصادق المصدوق حديث، بل يعارض صريح القرآن: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[1]، على ما ذكرناه آنفًا. وربما جاء الخلط عند أهل الكتاب من افتقار العبرية إلى اسم لصنف الجن، بل تسوي في الاسم بين الملائكة والجن؛ كلاهما فيها (روح)، (ملآخ) أي روح، ملك.

* * * *

وليس في الأناجيل اليونانية أيضًا (إبليس)، بل فيها (ساتان) *Satan* وهي نفسها (ساطان) العبرية على الرسم اليوناني، وترجمت في الأناجيل العربية بلفظ (شيطان)، وبلفظ (إبليس) أحيانًا، لا على الترجمة، وإنما استئناسًا باسمه الوارد في القرآن.

وفي الأناجيل اليونانية اسم آخر للشيطان، وهو (دِيَبُلُس) *Diabolos* (والسين فيه للرفع وتحذف غيره) ومن هذه جاءت *Diable* الفرنسية و *Devil* الإنجليزية، وأشباههما في اللغات الأوروبية الحديثة بمعنى (الشيطان) لا أكثر ولا أقل. وقد خالفت تلك اللغات بين

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

أصل وضع اللفظين (ساطان) و(ذِيَبُلِيُس)، فهي تجعل (ساطان) اسمًا علمًا للشيطان يناظر (إبليس) في العربية، وتأخذ (ذِيَبُلِيُس) على أنه (اسم معنى) يقبل التنكير كما يقبل الإفراد والجمع.

أما (ذِيَبُلِيُس) اليونانية فليست ترجمة يونانية للفظ (ساطان) العبري (بمعنى العدو كما قد يظن، وإنما هي على الفاعلية من اليونانية (ذِيَابُولي) *Diaboli* وهو (القذف) بالمعنى القانوني أي الرجم بالباطل، فهو الرجيم بمعنى الراجم، لا رجيم بمعنى مرجوم كما تجد في القرآن. وربما تعللت لهم في هذه التسمية بقولهم: إن الشيطان افترى على الله الكذب، يَنْسِبُه إلى الظلم لأنه عز وجل فضل عليه آدم، فلما اعترض - وكأنه محق في هذا الاعتراض - سلبه الله عز وجل كل جماله، وأودع فيه كل قبح، أي مسخ الملك الذي كانه، على نحو ما تجد في أقاصيص أهل الكتاب وفي الأساطير التي نسجت حول إبليس.

وربما أيضًا لأنه أبو الباطل، أي أصل كل تجديف على الواحد الأحد جل جلاله، من عقائد باطلة وآلهة مصنوعة، كما تجد في قوله عز وجل على لسان نفر من الجن المؤمن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[1] ومن هنا ترى أن (ذيبليس) اليونانية هذه ليست ترجمة للفظ (ساطان) العبري بمعنى العدو، وهي شيطان العربية، وإنما هي بالأحرى صفة لإبليس بمعنى القاذف الراجم، أي الذي يفتري الباطل.

وربما ظننت أن (ذيبليس) *Diabolos* اليونانية هذه ليست أصلًا يونانية، بل عبرية - آرامية نطق بها المسيح وتحرفت في الأناجيل: ربما كانت (دي - هَبَلَ)، تحرفت إلى (ذيبليس) عند من يهمسون الهاء وينطقون دالهم ذالًا - اليونان كما مر بك - أما (دي) عبريًا فمعناها (ذو)، وأما (هبل) عبريًا فمعناها الباطل الذاهب هباء.

****

(١) سورة الجن، الآيات: ٣ - ٥.

ومن المستشرقين[1] من قال بأن (إبليس) معربة في القرآن عن (ذيبليس) التي في الأناجيل، كما أخذ (شيطان) من (ساطان) العبرية.

ومن مفسري القرآن[2] من قال بعجمة (إبليس)، وأنها منعت من الصرف لهذا السبب وحده، ولكنهم لم يذكروا الأصل الذي عرب عنه، ولم يسموا اللغة المشتق منها.

ومن اللغويين العرب كذلك[3] من يرون أن (إبليس) من الأعجمي المعرب، يكتفون بذلك ولا يسمون اللغة المشتق منها.

أما الكثرة من مفسري القرآن[4] فهم يقولون بعربية (إبليس) يشتقونها من الإبلاس، ويعللون امتناع الصرف بالعلمية وانعدام النظير في أسماء المعاني، فشبه بالأعجمي.

والذي يستوقف النظر، أن أشهر معاجم اللغة الإنجليزية،[5] على شغفه برد الألفاظ والأعلام الأعجمية (أعني غير الإنجليزية) إلى جذورها البعيدة في شتى اللغات الحية والميتة على السواء، يتوقف في (إبليس) فيقول: اسم عربي يطلقه المسلمون على الشيطان، ولا يذكر أصله من العربية أو غيرها.

هذا وذاك يدلانك على أن عجمة (إبليس)، أو اشتقاقها من (ذيبليس) اليونانية بالذات، مسألة فيها شك عند اللغويين الأثبات لا يقطعون فيها بيقين؛ لأن القول بعجمة لفظ في لغة ما يتطلب - أول ما يتطلب - التدليل على وجود أصل لهذا اللفظ في لغة بعينها استعير منها.

والملاحظة الأولى على خطأ القول بأن (إبليس) معربة من (ذيبليس) بحذف دالها البادئة (المنطوقة في اليونانية ذالًا) وإبدال الهمزة منها، أنه قول لا يصح في حق القرآن،

---

(١) *J. HOROVITZ*، المرجع المذكور.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ٣٤ من سورة البقرة.

(٣) أبرزهم (مجمع اللغة العربية)، راجع (المعجم الوسيط) الذي يضع (إبليس) في باب الهمزة.

(٤) راجع القرطبي في نفس الموضع.

(٥) *WEBSTER>S NEW WORLD DICTIONARY. Third College Edition. 1988*.

الذي يتنزه عن هذه الصورة (البتراء) من صور التعريب، التي لم يقع مثلها قط في معربات) القرآن. هذا ما لم يسلم أولئك المستشرقون للقرآن بالتضلع من فقه اللغة اليونانية، فيدرك أن المقطع (ذِيا) *DIA* من مقاطع الزيادة في تلك اللغة، يجوز الاستغناء عنه. والفقيه باليونانية لا يستعصي عليه أصلًا معنى لفظ (ذيبليس) في تلك اللغة - وقد مر بك معناه - فلا يستعيره ولديه من العربية في معناه ما هو أبلغ وأبين.

أما الملاحظة الثانية فهي أن العرب لم يعرفوا (ذيبليس) اليونانية هذه قبل القرآن أو بعده، لا على أصلها ولا في صورة محرفة، وإلا لوقعت في تفاسير المفسرين وليس من شأن القرآن كما مر بك أن يتعاجم على المنزل إليهم بالأعجمي الأعجم.

إبليس عربية. ولكنها من (العربي) المشكل.

ووجود اللفظ المشكل في القرآن مقصود؛ إنه يستثيرك إلى تحري المعنى، فتزداد علمًا، وتزداد فهمًا، وتزداد إيمانًا. وقد روي عن الصادق المصدوق ﷺ ما معناه: «**ثَوِّرُوا القرآن!**». أي ابحثوا وتمعنوا. والمشكل يستوقفك للبحث والنظر، فتكون ممن قال فيهم الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[1].

❋❋❋❋

وقد أشكلت (إبليس) على القائلين بعجمتها وعلى القائلين بعربيتها معًا.

أما الأولون فهم ذلك الفريق من المفسرين واللغويين الذين إذا استغلق عليهم لفظ في العربية سارعوا إلى افتراض عجمته، وتلمسوا له النظير في غيرها من اللغات. وقد أسرفوا في هذا أيما إسراف، بل كانوا التكأة التي توكأ عليها أدعياء الاستشراق الذين بهروا تلاميذهم، وقد ظنوا أنهم أتوا بجديد. من ذلك قولهم[2] إن (غساق) يعني اللحم البارد المنتن في

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٣.

(٢) راجع مقدمة تفسير القرطبي.

لغة الترك! فلا تدري كيف يجتمع الحميم والغساق في قوله عز وجل: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[١]، وقولهم إن (القسطاس) يعني الميزان بالرومية، وليس في الرومية من هذا شيء، بل (قسط) العربي، (قاشاط) العبري، أولى، وقد مر بك القول في (قسطاس). ولكن (إبليس) استعصت على هؤلاء المفسرين فلم (يهتدوا) إلى أصل لها في لغة أعجمية[٢]، واهتدى إلى هذا الأصل المستشرقون من بعد في دعواهم أن (إبليس) من (ذِيَبُلِيس) الإنجيلية، وكأن القرآن يخاطب العرب بيونانية يفهمونها، كما ظنوا أن المسيح عليه السلام يخاطب قومه الآرامي اللسان بيونانية فشت فيهم.

أما الفريق الثاني القائل بعربية (إبليس) فلم يكن أمامه إلا اشتقاقها من الإبلاس. يعني أنها (إفعيل) من (أَبْلَس)، فهو المُبْلِس على المبالغة. وقد ورد لفظ (الإبلاس) في القرآن خمس مرات: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[٣]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٤]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[٥]، ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[٦]، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾[٧]. وليس في هذه الآيات ما يشهد لمعنى الإبلاس إلا الشاهدان الثاني والخامس، أي وضع الإبلاس في مقابلة الفرح

---

(١) سورة النبأ، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

(٢) مصداق هذا أن القرطبي رحمه الله، الذي جاور الإسبان في الأندلس وفهم لسانهم، يذكر في تفسير الآية ٩ من سورة يس: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] كيف أنجته تلاوة هذه الآية من عِلْجَين من الأعاجم أرادا الانقضاض عليه فأعماهما الله عنه فلم يرياه فقالا: هذه دِيَبْلُه! وفسر القرطبي ديبله هذه (وهي *Diablo* الإسبانية أي (ذِيَبُلِيس) اليونانية) بأنها تعني شيطان بلسانهم، ولم يقل إبليس؛ لأنه لم يسمع بتعريب إبليس عن ذيبليس.

(٣) سورة الروم، الآية: ١٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٧٧.

(٦) سورة الزخرف، الآيتان: ٧٤، ٧٥.

(٧) سورة الروم، الآيتان: ٤٨، ٤٩.

والاستبشار، وربما استنبطت من (إبلاس المجرمين يوم تقوم الساعة) في الشاهد الأول أن الإبلاس حال من اليأس وانقطاع الرجاء، ومن الشاهدين الثالث والرابع كذلك.

أما المعجم العربي فيقول لك: إن (أَبْلَسَ) يعني سكت لحيرة أو انقطاع حجة، وليس في العربية إلا أبلس بالهمزة غير متعد، وكأنها من (بَلَسَه فأَبْلَس) إلا أنه لم تسمع (بَلَسَ). وفي (العبرية) بَلَسْ يعني قطف، أي جمع ثمار التين خاصة. والبَلَس في العربية نوع من التين. هذا وذاك يَدُلَّانِك على أن المعنى الأصلي لمادة (بَلَسَ) هو القطع، وكأنه مبدل من (بلت) يعني (قطع). والانقطاع يفسر (الإبلاس) أبين تفسير في الآيات التي تلوت توًّا، تطبقه على الشواهد القرآنية الخمسة فيستجيب. وهو يفيد أيضًا في تأصيل معنى (أبلس) في المعجم العربي، وهو الإطراق تحيرًا والسكوت لانقطاع الحجة. وفي العربية أيضًا (بَلْسَمَ) وهي (بلس) مزيدة بالميم، ومعناها أطرق وعبَّس وجهه، وهي من (أبلس) قريب. وكأن معنى (إبليس) المقطوع الحجة في الامتناع عن السجود لآدم، أو هو - كما ذكر القرطبي - الآيس من رحمة الله وقد فعل ما فعل.

هذا إن اشتققت (إبليس) من الإبلاس، وليس عندي بوجيه، كما سترى.

****

مر بك أن العلم المذكور في القرآن على غير سابقة في التوراة والإنجيل يرد في القرآن على أصله عربيًّا؛ لأنه لم تثبت له العلمية من قبل بلفظ مغاير يوجب على القرآن التزامه، كما ثبتت العلمية لجبريل وميكال ونوح ولوط... إلخ، على اللفظ الآرامي - العبري في صحف إبراهيم وموسى. ولم يرد ذكر للفظ إبليس في التوراة والإنجيل بنصهما المعاصر لنزول القرآن.

وقد ثبتت العلمية لإبليس بهذا الاسم في الملأ الأعلى على النداء من الله عز وجل: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾[1]، وهذا قاطع في أن إبليس سمي بهذا الاسم قبل

(١) سورة الحجر، الآية: ٣٢.

إهباط آدم من الجنة، أي على اللفظ العربي قبل أن تتفرق ألسنة البشر لهجات فَلُغَاتٍ، شأنه شأن آدم، خلافًا لجبريل وميكال اللذين لم يخاطبا في القرآن على النداء من الله عز وجل لسبق ثبوت العلمية لهما على اللفظ الآرامي - العبري في التوراة والإنجيل. أما إبليس وآدم فقد خوطبا على النداء من الله عز وجل باسميهما هذين، فهما كما قال سبحانه، لا يبدل القول لديه.

والذي يتعين التنبيه إليه، أن تسمية إبليس بهذا الاسم في القرآن جاءت مقترنة بعصيانه، أي بامتناعه عن السجود لآدم، فور هذا الامتناع مباشرة، قبل صدور الحكم الإلهي بإدانته وانقطاع رجائه: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[1]، والذي يلعنه الله فقد انقطع رجاؤه.

وهذا يعني أن إبليس سمي بهذا الاسم لمجرد امتناعه، وقبل انقطاع رجائه. فلا يصح أن تكون (إبليس) بمعنى الآيس من رحمة الله، كما تجد في القرطبي؛ لأن إبليس لم يكن قد يئس بعد. ولا يصح أن تكون بمعنى المقطوع الحجة، فلم يكن قد أدلى بعد بحجته: ﴿ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾. ولا يصح أن تكون بمعنى الذي أطرق تحيرًا، لا يحير جوابًا، فقد استعلن إبليس بمكنونة نفسه مجترئًا على خالقه، مستدركًا على مولاه، فضلًا عن أن (الإطراق تحيرًا) قليل في وصف حال إبليس. وإنما الذي يصح هو أن تكون (إبليس) بمعنى العاصي، الرافض، المتأبي، الممتنع. وليس في (الإبلاس) من هذه المعاني شيء.

الراجح عندي، والله عز وجل بغيبه أعلم، أن (إبليس) تعني (الذي أبى)، كنية له بحال امتناعه وتأبِّيه، جاءت على المزجية من (أبٌ + لَيْسَ)، أي هو (أَبُو لَيْسَ)، وقد مر تفصيل هذا في موضعه من (الفصل الثالث) من هذا الكتاب، في اشتقاق (ليس) ومعناها، فارجع إليه.

وقد وردت (إبليس) في القرآن إحدى عشرة مرة، معقبًا على سبع منها بالتأبي والامتناع

(١) سورة ص، الآيات: ٧٥ - ٧٨.

والرفض: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾[1]، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾[2]، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾[3]، ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾[4]، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[5] - وفسق عن الأمر يعني خرج عليه -، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾[6]، ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾[7] وجاءت أيضًا معقبًا عليها بالاستكبار الذي يفيد الامتناع مرتين: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾[8]، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[9]. أما في المرتين العاشرة[10] والحادية عشرة[11] فهما فقط اللتان جاءت فيهما (إبليس) على العلمية المجردة غيرَ معقب عليها بشيء.

(إبليس) إذن هو (هامة العصاة)، أي (أبوهم).

والله عز وجل بغيبه أعلم.

* * * *

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١١، ١٢.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٣١.
(٤) سورة الحجر، الآيتان: ٣٢، ٣٣.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٦) سورة طه، الآية: ١١٦.
(٧) سورة ص، الآية: ٧٥.
(٨) سورة الإسراء، الآية: ٦١.
(٩) سورة ص، الآية: ٧٤.
(١٠) سورة الشعراء، الآية: ٩٥.
(١١) سورة سبأ، الآية: ٢٠.

(١١)
آدم

من دلائل قدم العربية على العبرية، أن اسم (آدم) أبي البشر (وينطق في العبرية (أدام) بألف ممدودة بعد الدال)، ليس له جذر في العبرية يشتق منه إلا الجذر العبري (أَدَمْ) أي (اِحْمَرَّ) بمعنى كان أحمر اللون. و(أدوم) في العبرية يعني (الأحمر)، ومنه كما يقول علماء العبرية لفظ (دام) أي (الدم)، فلا تدري هل اشتق (آدم) من الدم أم اشتق (الدم) من آدم. وفى العبرية أيضًا (أَدَمَا) بمعنى الأرض[١]، أي التربة، ومنه ما جاء في سفر التكوين: ((ويِّصِر يِهْوَا إِلوهيم إِت - ها أدام عَفَرْ من ها أَدَمَا وَيِّپَّح بأَپَاوْ نِشْمَت حاييم))، وهي في الترجمة العربية ((وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة))[٢]. والأرض هنا يعني التربة، أي قشرة الأرض، يعني أديمها الظاهر منها، لا الأرض نفسها وهى في العبرية (ها آرص). ولا سبيل لك إلى اشتقاق (أدما) هذه - إن أردتها عبرية - إلا من الجذر العبري (أَدَم)، أي (اِحْمَرَّ)، يعني كان أحمر اللون، فهي (الحمراء)، وكأن (آدم) يعني (الأحمر) المجبول من (الحمراء). ولو قابلت هذا بمكافئه العربي لقلت: إن (آدم) يعني (الأغبر) المجبول من (الغبراء) (وهو الاسم الذي يطلقه العرب على أديم الأرض)، وكأن الحمرة هي اللون الغالب على تربة الأرض عند العبرانيين فسميت به. ولا يصح هذا بالطبع، وإنما الصحيح هو أن العبرية لم تشتق (أدما) من الجذر العبري (أدم)، وإنما نقلتها نقلًا عن العربية (الأَدَمَة)، اسمًا جامدًا لا اشتقاق له عندها.

---

(١) ومنه في العبرية إلى الآن (عَبُودَتْ - أَدَمَا) (حرفيًا عبادة الأدمة)، بمعنى (الزراعة)، أي الفلاحة، وظيفة آدم في الجنة كما مر بك في سفر التكوين.

(٢) تكوين ٢/ ٧.

أما (أَدَمَ) العربي، فهو جذر غزير المعاني، ليس فيه من الحمرة شيء. من معانيه الامتزاج والخلط والإيلاف: من ذلك (الائتدام) أي المزاوجة بين أنواع الطعام كأكل الأرز باللحم، والخبز بالخضر. و(الإدام) هو المضاف من الطعام إلى بعضه ليستمرأ. و(آدَمَ) بين الزوجين يعنى آلف بينهما وأصلح. و(أَدَمَ الصانع الجلد) يعني أصلحه بنزع الزائد من (أَدَمَتِه)، و(الأَدَمَة) هي باطن الجلد تحت البشرة اللصيق باللحم (المخالط) له. و(أدمة الأرض) ما يلي وجهها، أي غلافها، ومنه (الأديم) بمعنى الجلد، وأديم الأرض يعني (جلدها)، وهو (التربة). و(أَدِم يأدَم)، وأيضًا (أَدُم يأدُم) فهو (آدم) (نسبة إلى (الأَدَمَة) أي (التربة)) يعني من كانت بشرته في لونها، أي الشديد السمرة. و(آدمته الشمس) يعني لوَّحَت لونه، أي صيرته إلى السمرة.

وهكذا ترى أن (أَدَما) العبرية بمعنى الأرض والتربة، ليست بعبرية، وإنما هي دخيلة على تلك اللغة، استعارتها رأسًا من العربية.

وتستطيع أن ترتب على هذا مباشرة أن العبرية وَرِثت أيضًا اسم (آدم) عن هذه العربية نفسها، أعني العربية الأولى - عربية آدم - ذلك الاسم الذي سماه الله به في الجنة، وهبط به إلى الأرض، فصار له علمًا بين زوجه وبنيه وحفدته وذراريه. دليلك في هذا أن سفر التكوين ينص تنصيصًا على أنه لا يشتق (آدم) من لون بشرته عبريًّا، أي الحمرة، ولكنه يشتقه من الأرض التي أخذ منها وإليها يعود، أي من (الأَدَمَة) (وهي عربية لا عبرية كما مر بك): (عادْ شُوبخا إلْ - ها أدَما، كي مِمِّنا لُقَّحتا، كي - عَفَرْ أتَّ، وإِلْ - عَفَر تَشُوبْ) أي ((حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها؛ لأنك تراب وإلى التراب تعود))(١).

آدم من الأدمة في التوراة، ليس من الحمرة، وهو كذلك في العربية، كما سترى، بل هو أولى.

****

(١) تكوين ٣/ ١٩.

أما مفسرو القرآن[1] فهم على أنه مشتق من أدمة الأرض وأديمها، وهو وجهها، فسمي بما خلق منه. وقال بعضهم: إنه مشتق من الأُدْمة (بضم الهمزة) وهي السمرة. وزعم بعضهم أن الأدمة هي البياض، وأن آدم كان أبيض. وليس هذا وذاك بشيء؛ لأن الأُدْمة نفسها مشتقة من الأديم، أي من لون الأدَمَة، وهي إلى السمرة أقرب، ثم إنه لا مدخل للون آدم في تسميته، ليكن آدم أسمر أو أبيض أو ما شئت من أبشار البشر إن صح في لونه عن الصادق المصدوق حديث، ولكنه قبل كل شيء منسوب إلى هذه الأَدَمة التي جبل منها أيًا كان لونها وأيًا كان لونه.

وقد عقب القرطبي رحمه الله على أقوال المفسرين في هذا بقوله: والصحيح أنه مشتق من أديم الأرض..

وهذا هو (التفسير القرآني) لمعنى (آدم)، كما سترى.

* * * *

ورد آدم في القرآن منفردًا - أي ليس مضافًا إليه بنوه كما في (بني آدم)، (ابني آدم) - ١٨ مرة، منها أربع على النداء من الله عز وجل في الملأ الأعلى، ومنها واحدة خاطبه بها إبليس يغريه بالأكل من الشجرة، والباقي في الحديث عن قصة آدم في الملأ الأعلى، إلا اثنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾[3]. وليس في هذا كله من تفسير معنى آدم شيء إلا قوله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[4]. ولكنك تجد هذا المعنى فصيحًا بينًا في مثل قوله عز وجل: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[5]. في هذه - وغيرها من مثلها في القرآن كثير - الكفاية

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٣١ من سورة البقرة.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.

(٣) سورة مريم، الآية: ٥٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٥) سورة ص، الآية: ٧١.

كل الكفاية في تفسير معنى (آدم). أما الطين فقد علمته، وأما (البشر) فمن البشرة، وهي وجه (الأديم)، و(بَشَر) الأديم يعني قَشَرَهُ.

(آدم) عربية كما ترى، تخرج عن مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب، ولكن القرآن فصَل في وجه اشتقاقها: إنها من (الأَدَمَة) و (الأديم)، لا من (البياض) و(السمرة).

ويخرج عن مقاصد هذا الكتاب أيضًا تفسير اسم (حواء)، زوج (آدم) في الجنة؛ لأنها لم تذكر بالاسم في القرآن.

ولكنا وعدناك فيما سبق بتفسير هذا الاسم مع (آدم). وقلنا لك أيضًا فيما سبق: إن القرآن - حين لا ينص على اسمِ علمٍ - يلم بمعناه أحيانًا في ثنايا الآيات، فيصوره لك حتى لتكاد تسميه به، وإذا هو نفسه اسم العلم المعني في التوراة. و(حواء) من هذا كما سترى.

****

يشتق علماء العبرية اسم (حواء) من الجذر العبري (حَوَا)، ويقولون: إنه من (الحياة)، أي أن (حواء) يعني (الحياة). وهم يقسرون الجذر العبري (حوا) على هذا المعنى قسرًا، رغم أن لفظ الحياة في العبرية هو (حاييم)، المشتق من جذر عبري آخر هو (حيا) بالياء، المطابق لنظيره العربي بنفس المعنى. ولكنهم يقولون لك: إن (حوًّا) (وهو اسم (حواء) في العبرية غير مهموز) يعني (الحياة) في اسم (حواء) فقط، لا يجوز استخدامه بهذا المعنى في غيرها، بل تستخدم (حاييم) على أصلها.

وقد (اضطر) علماء العبرية إلى هذا اتباعًا لسفر التكوين الذي ينص تنصيصًا على أن (حواء) من الحياة. وقد مر بك هذا في موضعه. ولا تستطيع أن تقول: إن كاتب سفر التكوين تورط في هذا التفسير مدفوعًا بتغيير طرأ في زمنه على معنى الجذر (حَوَا)، لو صح هذا لما جاز لعلماء العبرية حظر استخدام (حَوًّا) بمعنى الحياة في غير اسم (حواء). وإنما تستطيع أن تقول: إن كاتب سفر التكوين تورط في هذا فألزم به من جاءوا بعده، مثلما فعل في تفسير اسم (بابل) بالبلبلة، فشاعت شرقًا وغربًا في كل اللغات. دليلك في هذا من العبرية المعاصرة

التي تستخدم الفعل (حَوَا) بمعنى عاش، أي عاش حدثًا ما أو تجربة ما، بمعنى (شَهِد)، ولكنها لا تستخدمه قط بمعنى (حيا). على أن (عاش)، (حيا) ليسا سواء: عاش بمعنى شهد يسهل اشتقاقه من أصل معنى الجذر العبري (حوا)، وهو يطابق (حوى) العربي.

وقد تابع مفسرو القرآن أهل التوراة في تفسيرهم اسم (حواء) بالحياة، لا تجد لهم في تفسيره قولًا يغايره[1].

****

أما الفعل (حوى) في العربية فأصل معناه التجمع والاستدارة والتقبض، ومنه (الحية) لأنها (تتحوى) أي تستدير على نفسها، ومنه أيضا (حواه) بمعنى استولى عليه وملكه، وكأنه (استدار عليه)، ومنه كذلك (الحِوَاء) أي المكان الذي يحوي الشيء، ويجمع على (أحوية)، و(الأحوية) يعني البيوت التي تحوي الناس، والباقي الآن منها في معناه البيوت من الوبر مجتمعة على ماء. والحَوَّاءة من الرجال يعني اللازم بيته.

وقد رجع (علماء العبرية) إلى هذه المعاني حين أرادوا تأصيل معنى الجذر العبري (حوا) - بعيدًا من اسم (حواء) بالطبع الذي لا يملكون له تعديلًا - عندما تصدوا للفظ العبري (حَوُّوت) (على جمع التأنيث العبري من (حَوًّا) بمعنى (القرية) - الذي لا يستقيم معناه بالإصرار على أن الفعل (حوا) العبري يعني (حيا))، فتبينوا أن (حوُّوت) العبري يعني بالضبط (الأحوية) العربي وانتهوا إلى أن (حوا) العبري يأخذ من (حوى) العربي معنى التجمع والاجتماع.

وقال آخرون من علماء العبرية هؤلاء: إنه لا داعي لأخذ (حوا) العبري من (حوى) العربي؛ لأنه إذا كان (حوا) العبري يعني (حيا) كما يريد سفر التكوين، فإن معنى (الحياة) *Living* يفيد معنى (السكنى) و (الإقامة) أيضًا. ومهما قلت في تأثر هذا القائل بلسانه الأوروبي، فهو في أعماقه يريد أن يوفق بين ما قاله سفر التكوين في معنى (حواء) بأنها من

---

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٣٥ من سورة البقرة.

(الحياة)، وبين تلك (الأحوية) (حَوُّوت العبرية)، أي تلك (القرى) الماثلة أمامه، ليس فيها من اشتقاقات (الحياة) شيء إلا إن أخذت (الحياة) بمعنى (المعيشة)، وهو بعيد عما أراده سفر التكوين بقوله إن حواء هي واهبة الحياة (أم كل حي).

أيما صح هذا أو ذاك، فأنت لا بد مُنْتَبِهٍ إلى أن (الفعل حوا) العبري أصل معناه من التجمع والانضمام والسكنى والتوطن والإقامة، لا شأن لك بما آل إليه معناه عند كاتب سفر التكوين، فأم البشر (حواء) ليست فقط أقدم من مولد هذا الكتاب ولكنها أقدم بقرون لا يعلم مدتها إلا الله من مولد تلك اللغة العبرية نفسها.

والذي لا شك عندي فيه أن (حواء) عرفت بهذا الاسم في الملأ الأعلى، وأنه قد تكلم به معها آدم الذي عُلِّم الأسماء كلها، وأنها هبطت بهذا الاسم إلى الأرض مع آدم، فصار لها علمًا في أجيال بنيها، يتوارثونه جيلًا بعد جيل، حتى آل إلى ما صار إليه في سفر التكوين، لا على النحت من العبرية ذاتها، وإنما على النقل من (العربية الأولى)، عربية آدم وحواء، شأنه شأن اسم (آدم) سواءٌ بسواءٍ.

والذي لا شك عندي فيه أيضًا - ولا خلاف فيه مع سفر التكوين - أن دلالة الاسم على مسماه قد روعيت في تسمية (حواء) كما روعيت من قبل في تسمية (آدم): أما آدم فقد سمي بما خلق منه وأما حواء فقد سميت بما خلقت له.

وقد أصاب سفر التكوين في آدم، ولم يصب في حواء، التي تعلَّلَ في تسميتها بمعنى الحياة (لأنها أم كل حي): ((ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي))[1]، أي أنها سميت بما خلقت له وهو (الإنجاب)، أي ولادة الأحياء.

ولم يصب الكاتب في حواء من وجهين: الأول لغوي بحت؛ لأنه لا يصح اشتقاق الحياة من الجذر العبري (حوا) إلا بافتعال شديد كما مر بك. والثاني بيولوجي بحت: لا يصح أن يقال: إن المرأة هي (واهبة الحياة)، فبالذكر والأنثى معًا يكون النسل، لا نسل إلا باجتماعهما

(١) تكوين ٣/ ٢٠.

معًا. وفى الكون كائنات (وحيدة الجنس) تتناسل لا حاجة بها إلى ذكر وأنثى، ولو شاء الله لآدم أن يكون من هذه الكائنات لفعل. وسفر التكوين نفسه ينص على سبب إيجاد (حواء) أنثى: ((وقال الرب الإله: ليس جيدًا أن يكون آدم وحده. فأصنع له معينًا نظيره))[1]، أي أن يكون لآدم زوج. بل وراء جعل النسل من ذكر وأنثى هدف أجل منه، وهو إلزام شطري الخلق بالعيش في جماعة من نوعها. تجد هذا في الأحياء كافة حتى الحشرة. وفي إطالة أمد طفولة النوع الإنساني - وهي في الإنسان من دون كافة الأنواع أطولها أمدًا - إلزام الأبوين بالإيلاف والتضامِّ، و (التحوّى) عمرهما كله لرعاية هذا النسل وإعالته وتنشئته، فتكون (الأسرة). وفي المخالفة بين نسل الأسرة والأسرة - عددًا ونوعًا - إلزام الأسر بالتزاوج فيما بينها، فتنشأ بالنسب والصهر شعوب وقبائل، يتعارفون على أصول وقيم يتبارون في السبق إليها. ولا يتحقق هذا إلا بالخلق من ذكر وأنثى. تجد هذا كله في قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[2]. ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ في هذه الآية على التقرير والتفسير معًا، أي خلقناكم من ذكر وأنثى لنجعلكم شعوبًا وقبائل.

وقد شاءت حكمته عز وجل أن يجعل المرأة للرجل (سكنًا)، مستقرًّا له ومقامًا. إنها الزوج والإلف والسكن. وهذا هو ما خلقت له (حواء) فسميت به، لا (ولادة الأحياء) كما تجد في سفر التكوين، فما كان لآدم وحواء وهما في الجنة التفكير في الإنجاب والتناسل.

ليست (ولادة الأحياء) هي العلة من التسمية، وإنما العلة هي أنها (الحِوَاء) لآدم: السكينة والسكنى.

والقرآن لا ينص على اسم (حواء)، فلا يسميها بما سماها به آدم، إن صح ما قاله سفر التكوين من أن آدم هو الذي سمى، وإنما القرآن يسميها (زوج آدم)، أي إلفه: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾[3].

(١) تكوين ٢/ ١٨.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

ولكن القرآن يفسر اسم (حواء) بما فسرناه به نحن فيصوره أبلغ تصوير في قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾[2]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[3].

* * * *

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٨.

(١٢)
إدريس

ليس في التوراة والإنجيل اسم (إدريس)، وإنما ذكر إدريس عليه السلام في القرآن وحده في زمرة من ذكرهم القرآن من النبيين والصديقين.

وقد وردت (إدريس) في القرآن مرتين فحسب: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1]، ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

وقد اختلف مفسرو القرآن في (إدريس)[3]: أعجمي اسمه أم عربي؟ سبق نوحًا أم كان من ذرية نوح؟ والمشهور عند الرواة أن اسمه في العبرية (أخنوخ)، وأنه أول نبي من ذرية آدم سابق على نوح. ومنهم من أصر على أن (إدريس) لفظ أعجمي؛ لأنه ممنوع من الصرف في القرآن لغير علة إلا العجمة، دون أن يذكروا من أي لغة أعجمية هو، كدأبهم حين يعضل الاشتقاق عليهم. والكثرة على أنه من (درس) العربية فهو (الدارس) من المدارسة والتدارس على المبالغة، الكثير العلم. وليس في (إدريس) حديث صحيح يَفْصِلُ في المسألة، إلا ما جاء في صحيح مسلم من حديث الإسراء قوله ﷺ: **«لما عرج بي أتيت على إدريس في السماء الرابعة»**، تفسيرًا لقوله عز وجل في شأن إدريس: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[4]، وهذا لا يفصل في الترتيب التاريخي لإدريس عليه السلام بين الأنبياء صلوات الله عليهم، ولا يقطع أيضًا بأن إدريس رفع إلى السماء الرابعة ومات هناك، كما وقع في إسرائيليات نسبت إلى ابن عباس

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٥٦، ٥٧. (٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٥.

(٣) راجع تفسير القرطبي للآية ٥٦ من سورة مريم.

(٤) سورة مريم، الآية: ٥٧.

وكعب الأحبار وغيرهما من الناقلين عنهما، فقد التقى الصادق المصدوق في معراجه بأنبياء غير إدريس ماتوا على هذه الأرض ودفنوا فيها.

على أن منشأ القول بأن إدريس في القرآن هو (أخنوخ) في التوراة يرد بالقطع إلى يهود من أهل الكتاب عرفوا أن (إدريس) في العربية تكافئ (أخنوخ) في العبرية، وربطوا بين ما جاء في القرآن عن إدريس: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1] وبين ما جاء في سفر التكوين في شأن أخنوخ، أبي متوشالح، أبي لامك، أبي نوح: (وعاش أخنوخ خمسًا وستين سنة وولد متوشالح. وسار أخنوخ مع الله بعد ما ولد متوشالح ثلاثمائة سنة، وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام أخنوخ ثلاثمائة وخمسًا وستين سنة. وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه)[2]. اللفظ العبري (أخنوخ) يفيد بذاته الدارس الإدريس، (وسيرته مع الله) تفيد (الصديقية) التي في قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[3]، وعبارة (ولم يوجد لأن الله أخذه) تجد صداها في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[4]. ولم يقع هذا في القرآن في شأن أي نبي على ارتفاع مكانتهم إلا في إدريس، وهذا يدلك على أنه ارتفاع على الموضع حقيقة لا مجازًا. لا تستثني من هذا إلا عيسى عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[5].

لهذا كله فنحن مع القائلين بأن أخنوخ في التوراة هو نبي الله إدريس عليه السلام. والله عز وجل بغيبه أعلم.

****

أما المستشرقون[6] المنكرون الوحي على القرآن فلم يقولوا بهذا، ولم يلتفتوا إلى وحدة المعنى في (إدريس) و(أخنوخ) وإنما ذهبوا يتلمسون لاسم (إدريس) نظيرًا أعجميًّا في

(١) سورة مريم، الآية: ٥٧.
(٢) تكوين ٥/ ٢١ – ٢٤.
(٣) سورة مريم، الآية: ٥٦.
(٤) سورة مريم، الآية: ٥٧.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.
(٦) *J. HOROVITZ*، المرجع المذكور.

أقاصيص أهل الكتاب، فلما أعياهم البحث رأى بعضهم أن أقرب الأسماء إليه (أَنْدِرْياس) اليوناني، وهذا عبث لا يليق بنا الالتفات إليه، ناهيك عن مناقشته والإفاضة فيه.

****

أما أن (أخنوخ) - لغة - هي (إدريس) فقد علمت أن (الإدريس) هو الدارس الفاقه الحاذق. وأما (أخنوخ) فأصلها العبري (حَنُوك)، التي تنطق كافها خاء، على ما مر بك من قواعد النطق في العبرية التي تنطق الكاف خاء إذا تحرك أو اعتل ما قبلها، فهي عندهم (حنوخ) عربها العرب إلى (أخنوخ). وأما معنى (حنوك) العبرية هذه فهي على المفعولية من الفعل العبري (حنك) على معنى (حنّكه) العربي، أي فقهه وثقفه وعلمه، فهو المحنك المحنوك.

وقد جاءت (إدريس) في القرآن على الترجمة لا غير، تحاشيًا لثقل (أخنوخ) التي شهر بها هذا الاسم العلم قبل القرآن.

وأما لماذا كانت (إدريس) ممنوعة من الصرف في القرآن، فهذا من إعجاز القرآن الذي لم يفطن إليه الزمخشري وغيره[1] الذين لم يستطيعوا الجمع بين عربية هذا الاسم في لفظه، وبين عجمته في أصله. القرآن - بمنعه (إدريس) من الصرف - يدلك على أصله الأعجمي، وكأنه يوصيك بأن تتلمسه في (أخنوخ) لا في نبي مجهول من بني إسماعيل عليه السلام[2].

(١) راجع تفسير القرطبي للآيتين ٥٦، ٥٧ من سورة مريم.

(٢) راجع أيضًا قوله عز وجل في سورة مريم يصف الأنبياء المذكورين في السورة وآخرهم إدريس: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ [مريم: ٥٨]. ولئن كان الخلق كلهم من ذرية آدم، فالتفصيل في الآية يفيد أن من النبيين في السورة من ليس من ذرية إبراهيم ويعقوب (إسرائيل)، وليس من المحمولين في الفلك مع نوح، لا تصح نسبتهم إليه لأنهم قبله، فهم من ذرية آدم. والأنبياء المذكورون في سورة مريم كلها هم بترتيب ورودهم فيها: زكريا - يحيى - عيسى - إبراهيم - إسحاق - يعقوب - موسى - هارون - إسماعيل - إدريس، ليس فيهم من تشك في نسبته إلى إبراهيم، وإبراهيم من ذرية المحمولين مع نوح، إلا إدريس، فهو المعني إذن، على الراجح عندي، بهذا الإفراد والتنصيص على النبيين من ذرية آدم.

الفصل الخامس

آدم الثاني

من نوح إلى إبراهيم

تمهيد

يتناول هذا الفصل تفسير تسعة أعلام: نوح، ومُرْساه (الجودي)، هود، عاد، إرم، صالح، ثمود، شعيب، مدين.

ولا يعرف أهل الكتاب من هذه الأسماء التسعة على التقابل سوى ثلاثة أسماء: نوح وثمود ومدين. لا علم لهم البتة بهود وعاد وصالح وشعيب. أما (الجودي) مرسى نوح، فهي في التوراة (أراراط)، وأما (إرم) فهي في العبرية الآرامية (آرام)، وإليها تنتسب اللغة الآرامية كما لعلك حدست.

وعاد في القرآن هم قوم هود، وإرم مدينتهم، وثمود هم قوم صالح، ومدين قوم شعيب.

وقد فصل القرآن في الترتيب التاريخي لهؤلاء الأنبياء الأربعة: نوح، ثم هود، ثم صالح، وأخيرًا شعيب. وإن كان (لوط) بين صالح وشعيب، ولكننا نرجئ الحديث عن لوط ليجيء في سياق الحدث عن نبي الله إبراهيم، عم لوط.

تستظهر هذا التتابع من قوله عز وجل على لسان هود: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[1]، فتفهم أن (هودًا) أرسل بعد نوح وتفهم أيضًا أنه ليس بين هذين نبي مذكور في القرآن؛ لأن هودًا لا يحذر قومه إلا مصير قوم نوح، لا علم له بما سيئول إليه مصير قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب الذين جاءوا بعد هود. وأما صالح فيقول القرآن على لسانه: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾[2]، فتفهم أن صالحًا جاء بعد هود ليس بينهما نبي؛ لأنه يحذر قومه مصير قوم هود، لا علم له بما سيكون من شأن قوم لوط وقوم شعيب اللذين

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٩. (٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.

جاءا بعده. وأما شعيب فيقول القرآن على لسانه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾[1] فتفهم أن لوطًا بين صالح وشعيب.

وأما أن (إرم) مدينة قوم هود فتستظهره من قوله عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾[2].

* * * *

ولقد شهر نوح عليه السلام بأنه آدم الثاني، لأن الخلق كلهم بعد الطوفان ينسبون إليه: قال عز وجل في نوح: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾[3]، وهذا من مجاز المجمل، والصحيح أنهم ذريته وذرية من آمن معه وركب الفلك: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍ﴾[4].

والذي بين آدم ونوح عليهما السلام قرون لا يعلم عدتها إلا الله، والذي بين نوح وإبراهيم عليهما السلام كذلك. تستطيع بالحساب التقريبي أن تضع إبراهيم عليه السلام بين أعلام القرن الثامن عشر قبل الميلاد أو التاسع عشر لا تزيد: أنجب إبراهيم وقد ناهز المائة عام ابنه الثاني إسحاق، وأنجب إسحاق بدوره ابنيه التوءمين (عِيسو)، (يعقوب) وهو (إسرائيل) أبو يوسف الذي وطأ لبني إسرائيل في مصر، فمكثوا بها - كما تقول التوراة - أربعمائة وثلاثين سنة[5]، وكان خروجهم على الراجح عندي - كما مر بك - أواخر عصر (رمسيس الثاني) الذي كان مهلكه حوالي ١٢٢٥ ق م. تستطيع بالتقريب إذن (١٢٢٥ + ٤٣٠ = ١٦٦٥) أن تضع يعقوب بين أعلام القرن السابع عشر قبل الميلاد وأن تضع جده إبراهيم عليهما السلام بين أعلام القرن التاسع عشر. ولكن ليس لديك من معالم التاريخ ما تستدل به على عصر نوح، إلا أن تستظهر من علم الآثار تاريخًا تقريبيًّا لعصر الطوفان،

(١) سورة هود، الآية: ٨٩.
(٢) سورة الفجر، الآيتان: ٦، ٧.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٧٧.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣.
(٥) خروج ١٢/ ٤٠.

وليس بين يديك من هذا شيء. ناهيك بأن تحدد تاريخًا تقريبيًا لمهبط آدم وحواء إلى هذه الأرض، فتقدر الفترة ما بين آدم ونوح، والأحافير تنبئك بالعثور على عظام بشرية في طبقات يرجع تاريخها إلى ما بين مائة ومائتي ألف عام.

ولكن سفر التكوين - كدأبه في النص على المحالات - يتورط فيحصر الفترة ما بين آدم إلى نوح في تسعة آباء، هي على النسب الصاعد: نوح - لامك - متوشالح - أخنوخ - يارد - مُهللئيل - قينان - أنوش - شيث - آدم، ولا يكتفي بهذا، بل يحدد لكل منهم تاريخ مولده وتاريخ وفاته، فتستخلص منه[1]، أن آدم توفي سنة ٩٣٠ ب خ (ب خ = بدء الخليقة)، وأن نوحًا ولد سنة ١٠٥٦ ب خ، وأن الطوفان - الذي حدث ونوح عمره ستمائة سنة - كان سنة ١٦٥٦ ب خ. ولعلك تعلم أن التقويم اليهودي يبدأ ببدء الخليقة، وأن بدء الخليقة هذا - القائم على حسابات سفر التكوين - يناهز عام ٣٧٦١ قبل الميلاد، وهذا يعني أن المصريين على الأقل - الذين كان لهم وجود في مصر منذ حوالي ٤٢٠٠ قبل الميلاد كما يقول علماء الآثار والحضارات - ولدوا قبل بدء الخليقة لا قبل مهبط آدم فحسب. ويعني أيضًا أن الطوفان الذي حدث على هذا التقدير عام ٢١٠٥ قبل الميلاد، حدث بعد بناء بابل (٢٨٠٠ ق. م) بنحو سبعة قرون ويعني أيضًا أن نوحًا - الذي عاش ثلاثمائة وخمسين عامًا بعد الطوفان - مات سنة ١٧٥٥ ق م، أي أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد، فكان من معاصري إبراهيم.

هذا كله يقطع الصلة ما بين سفر التكوين والعلم، وما بين سفر التكوين والوحي الصادق، فلا تلتفت إليه. ولكن هذا الذي تورط فيه سفر التكوين فألزم نفسه ما لا يلزمه، لم يسئ إلى أسفار التوراة فحسب، ولكنه نال من (جدية الوحي) بعامة، وزعزع هيبة الدين في صدور الذين نُشِّئُوا على أن التوراة والإنجيل معًا (كتاب مقدس)، الذين لا يرون في غير التوراة والإنجيل وحيًا منزلًا، فلم يبحثوا عن الحق في غيرهما، والحق منهم قريب، في القرآن المصدق (المهيمن).

(١) راجع الإصحاح الخامس من سفر التكوين.

على أن موسى عليه السلام - صاحب التوراة - لم يتورط فيما تورط فيه سفر التكوين، بل فوض العلم بالقرون الأولى إلى الخلاق العليم. جهل فرعون ما كان من شأن تلك القرون - والمصريون على عصره أوفر أهل زمانهم علمًا وحضارة - فسأل موسى أن ينبئه بأنبائهم: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[1].

والقرآن يباعد ما بين نوح وإبراهيم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾[2].

والقرآن يباعد أيضًا ما بين آدم ونوح. تستظهر هذا من قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3]. قد مضت القرون إذن من بعد آدم إلى نوح حتى أنسوا ما نزل به آدم. ولو صح ما قاله سفر التكوين كما مر بك لكان ما بين وفاة آدم (٩٣٠ ب خ) ومولد نوح (١٠٥٦ ب خ) مائة وستة وعشرين عامًا لا تزيد، ولكاد آدم نفسه يرد على هؤلاء المعاندين المكذبين، أو لرد عليهم (أنوش)، بن (شيث)، بن (آدم)، الذي ما مات حتى ناهز نوح الرابعة والثمانين![4]

لا يعارض القرآن التوراة إلا ويصح القرآن. ولا يعارض القرآن علومَ (العصر) إلا ويصح القرآن. ولا (يتفق) العلم مع القرآن إلا وقد سبق القرآن العلم ومهد الطريق.

* * * *

(١) سورة طه، الآيات: ٤٩ - ٥٢.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٤) راجع هذه (الحسابات) على الإصحاح الخامس من سفر التكوين.

(١٣)
نوح

(نُوح) في القرآن هي تعريب (نوح) في التوراة، التي تنطق في العبرية لا مدًّا بالواو وإنما مدًّا بالضم بعده فتح: (نُو - وَح)، ومن هنا كتابتها بالإنجليزية *Noah*.

وهي في العبرية من الفعل العبري نَاح / يَنُوح، مشتقة على المصدر أو اسم الفعل، فهي (نوح) (نُو - وَح).

أما معاني هذا الفعل في العبرية فهي: البُقْيا والتلبث - الدعة والسكون - الكف والتوقف - الراحة والاسترواح والتنعم[١]. وهو في العبرية والآرامية سواء.

على أنك تستطيع أن ترد هذه المعاني جميعًا إلى معنى الفعل الرئيسي، وهو البقيا والتلبث. والمعنى الرئيسي للفعل هو أقدم معانيه، أي أسبقها وجودًا.

وقِدَم نوح على عبرية التوراة - وهو قدم جد بعيد - يجعلك تؤثر أخذ معنى اسمه من المعنى الرئيسي لهذا الفعل (ناحْ / ينوحُ) العبري - الآرامي، أعني تأخذه من البقيا والتلبث، غير ملتفت إلى عبارة في سفر التكوين يحاول بها الكاتب تفسير هذا الاسم بمعنى العزاء والراحة: ((ودعا اسمه نوحًا. قائلًا هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قِبل الأرض التي لعنها الرب))[٢]. تأخذه من البقيا والتلبث، ولا تأخذه من العزاء والراحة، لا حبًّا في مخالفة

(١) من هذه يجيء - بتأثير آرامي سرياني - استخدام المسيحيين لفظ (المُتَنَيِّح) بمعنى (المرحوم)، وصفًا على الدعاء للميت.

(٢) تكوين ٥/ ٢٩.

كاتب سفر التكوين، وإنما تفعله انحيازًا للتأصيل اللغوي العلمي لمعنى هذا الجذر العبري - الآرامي (ناحْ / ينوح).

فقد مر بك أن ما كان في العربية أصيلًا بالخاء (المنقوطة) يُرَدُّ في العبرية والآرامية فورًا إلى الحاء (غير المنقوطة). وما كان في العربية أصيلًا بالحاء (غير المنقوطة)، يظل في العبرية والآرامية على أصله بالحاء. مثال ذلك (خلق)، العربي يصبح في العبرية والآرامية (حَلَقْ) بينما (جَلَحَ / يَجْلَح) العربي يظل في العبرية - الآرامية بالحاء (جَلَحْ / يِجْلَحْ).

(ناحْ) العبري إذن هو إما (ناح) العربي نفسه، من (النُّواح)، كما ظن بعض مفسري القرآن، ولم يوفقوا فيه، فليس في (ناح) العبري من معاني (النواح) شيء كما مر بك، وإما هو (ناخ) العربي بخاء منقوطة، من الإناخة والتَّنَوُّخ، أي التلبث والبقيا، وهو الصحيح؛ لأن هذا هو المعنى الرئيسي للفعل العبري (ناحْ / ينوحُ).

ليس مسموعًا في العربية ناخ وينوخ، ولكنك تأخذه من أناخ / ينيخ بنفس معناه: أناخ بالمكان، أقام، وأناخ به البلاء، حل به ولزمه، ومنه أناخ الجمل يعني أبركه، والمناخ: محل الإقامة، والنَّوْخَة مثله.

(نوح) إذن من النوخة والإناخة، فهوى النائخ المتنوخ، أي اللابث لا يَرِيم. صار له علمًا لطول مكثه في قومه (﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كما في التوراة وفي القرآن) وطول ملاحاتهم له.

وهذا هو التفسير القرآني لمعنى (نوح)، فسره بالمرادف في مثل قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[(١)]، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾[(٢)]، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[(٣)].

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٧١.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٧٧.

صحح القرآن معنى (نوح) لمفسري القرآن الذين تكلموا فيه، وصححه أيضًا لكاتب سفر التكوين كما مر بك. وسبحان العليم الخبير.

* * * *

(١٤)
الجودي

الجودي هو اسم مُرْسَى سفينة نوح في القرآن. وردت في القرآن مرة واحدة في قوله عز وجل: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ولم يتعرض مفسرو القرآن[2] لتفسير معنى (الجودي)، مكتفين بأنه اسم جبل في الموصل شمالي العراق، القريبة من حدودها مع تركيا، ومن مقاطعة (أرمينية) في تركيا على حدودها المشتركة مع إيران.

والمعروف عند أهل الكتاب من (سفر التكوين)[3] أن مُرْسَى سفينة نوح هو (أراراط): ((واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط)).

وإذا علمت أن (أراراط) في عبرية التوراة يعني (أرمينية) نفسها[4]، فقد علمت أن سفر التكوين لم يسم جبلًا بعينه لمرسى نوح، وإنما قال ببساطة أن السفينة رَسَت على (جبال أرمينية).

ولكن الناس تناسوا هذا أو أُنسوه، فوهموا أن ثمة جبلًا بعينه اسمه (أراراط) رست عليه

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ٤٤ من سورة هود.

(٣) تكوين ٨/ ٤.

(٤) راجع (أراراط) في المعجم العبري، (هِمِلُّون هحداش لتناخ) المذكور في حواشي هذا الكتاب، ص ٦٦٠.

السفينة، وأن رحالة عثروا في قمته على حطام رجحوا أنه حطام (الفلك المشحون)، رغم أن الفلك لم يتحطم على قمة الجبل، بل رست السفينة بسلام: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾(1). ولكن التسمية ثبتت وانتهى الأمر، تجدها في المعاجم الأوروبية علمًا على جبل بعينه في أرمينية شرقي تركيا، قرب حدود أرمينية المشتركة مع إيران، يبلغ ارتفاع إحدى قمتيه حوالي ١٢٨ , ٥ مترًا.

من هنا طنطن مستشرقون(2) عدوًا بغير علم: قال القرآن: (الجودي)، وقالت التوارة: (أراراط). ولكن التوراة لم تقل (أراراط) كما مر بك، وإنما قالت (جبل من جبال في (أراراط))، أي في أرمينية لم تسمه، وسماه القرآن.

أما ذلك (الجودي) الذي في الموصل على ما ذكره مفسرو القرآن، فليس هو بالضرورة الجودي المعني في القرآن، بل الراجح عندي أنه جبل تسمى بهذا الاسم بعد نزول القرآن.

لا خلاف إذن بين التوراة والقرآن في تسمية مرسى نوح، لا لأنهما تطابقا، وإنما لأن التوراة عممت، وخصص القرآن(3).

وقد مر بك أن الأعلام الموحى بها في القرآن على غير سابقة في التوراة والإنجيل تجيء في القرآن (عربية) على أصلها. وأما معنى (الجودي) في العربية فلك أن تفسره بأنه المنسوب إلى الجود، أي (ذو الجود) وجاد المطر يعني كثر، والجَوْد بفتح الجيم يعني المطر الغزير الذي لا مطر فوقه. وأنت تعلم أن الجبال العالية التي تذوب ثلوجها في الربيع تفيض منها المياه سهولًا وأنهارًا، ومنها جبال (أرمينية) منابع الفرات.

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٨.

(٢) راجع مادة *Ararat* في *Webesters Dictionary* المرجع المذكور.

(٣) انظر *Joseph Horovitz* المرجع المذكور، ص ٣٢ - ٣٣، وقد خاض الرجل فقال: إن القرآن أرد بتسمية الجودي، وهو جبل في بلاد العرب، نقل مرسى نوح من أرمينية إلى بلاد العرب كي يخصها بهذا الشرف، وزعم أيضًا أن محمدًا ﷺ عرف (الجودي) هذا في وطنه فوهم أنه أعلى الجبال قاطبة. وقد قصصت عليك هذا كي تتبين أن هؤلاء المستشرقين يعبثون ولا يتعمقون.

ولكنك إن تمعنت في مراحل بدء الطوفان وانحساره ورُسُوِّ الفلك، قارنت بين ما ذكره سفر التكوين من ذلك وبين ما قاله القرآن، تجد أن سفر التكوين ينبئك أن السفينة رست على جبال (أراراط) في السابع عشر من الشهر السابع لبدء الطوفان، ((وكانت المياه تنقص نقصًا متواليًا إلى الشهر العاشر. وفي العاشر من أول الشهر ظهرت رءوس الجبال))[1]. فتفهم أن السفينة رست قبل نحو ٧٣ يومًا من ظهور رءوس الجبال، فعلى أي الجبال رست إذن إن لم تكن قد رست على أعلاها، بل وعلى أمعنها ارتفاعًا، الذي يصل ارتفاع إحدى قمتيه كما تقول المعاجم إلى ١٨٢ , ٥ م؟ وهذا غير منطقي لأنه بالغ المشقة على نوح والذين معه، شبابًا وشيوخًا ونساءً وأطفالًا، الذين سيهبطون إلى السهول من هذا الارتفاع الشامخ. أما القرآن فيقول لك إن الماء (غيض أولًا)، ثم استوت السفينة، استوت بعد أن غيض الماء تمامًا حتى استوت السفينة على (قاع من الأرض، هبط إليه نوح والذين معه بسلام). [هود: ٤٤].

كان بسم الله مجراها ومرساها، أي كان بسم الله حملها على سفح الماء، وكان باسمه عز وجل أيضًا إهباطها إلى سفح من الأرض، شاطئ نهر أو ناحية جبل.

والعرب يسمون شاطئ النهر وناحية الجبل، (الجُدّ)[2]، (الجُدَّة) (ومنه اسم الميناء المعروف (جُدَّة) بالمملكة العربية السعودية).

أفيكون (الجُودي) أصله (الجُدِّي) المنسوب إلى (الجُدِّ)، فهو المُرْسَى، استعيض عن تشديد داله بمد حركة جيمه؟

إن صح ذلك - وهو غير بعيد -[3] كان معنى (استوت على الجودي)، والله بغيبه أعلم، أن السفينة رست على مرساها، لا أكثر ولا أقل، دون تحديد لموقع.

****

(١) تكوين ٨/ ٤ - ٥.

(٢) وهي في العبرية - الآرامية (جاداه) (الهاء خاملة للوقف فقط) بنفس معناها.

(٣) ومنها قوله ﷺ: (ما زالت أكلة خيبر تُعادُّني). يريد تعاودني.

(١٥) هود (١٦) عاد
(١٧) إرم

لا يعرف أهل الكتاب (هودًا) ولا (عادًا) ولكنهم يعرفون (إرم)، وهي عندهم (آرام) يعني (العالية) أو (المعلاة)، من الجذر العبري (رام / يَرُومْ) أو (رام / يَرَام)، أي ارتفع وعلا، فهو عال وعَلِيّ، ومن هذه (أَبْرَام)، أي (أبو العلاء)، اسم إبراهيم عليه السلام في التوراة، قبل أن يبتليه الله بكلمات فيتمهن، فيسميه باسمه المعروف (إبراهيم). وسيأتي. ولا تزال أحرف هذا الجذر باقية في العربية تجدها في (رامه) يعني طلبه، وكأنها من استشرفه وتطلع إليه، وتجدها أيضًا في (رمى) (لازمًا غير متعد) بمعنى ربا وزاد، وتجدها كذلك في (رام عليه) بمعنى فضل عليه وزاد. ولكن (رام) بمعنى علا وارتفع، غير معروف في العربية، فتستظهر من هذا أن (إرم) أعجمي غير عربي، يحتاج إلى تفسير في القرآن، وإلا لظننت (إرم) عربية من (أَرَمَه) يعني استأصله وأفناه، أو أنها (الإرم) بمعنى الحجارة أو نحوها تنصب في المفازة ليهتدي بها (وتجمع على آرام وأروم) أو ظننتها بمعنى الأصل و(الأُرُومة)، وقد فصل القرآن في هذا كما سترى.

على أن عجمة (إرم)، وهي مدينة عاد قوم هود، توحي إليك بأن عادًا وهودًا لفظان أعجميان كذلك، أعني أنهما من (العربية الأولى)، التي يحتاج فهمها أحيانًا إلى بحث في فصائل سامية عن جذور أميتت في العربية وبقيت حية في غيرها تقول بعجمة (هود) و(عاد) على الإتباع لعجمة (إرم) جازمًا قاطعًا؛ لأن الرسول والمرسل إليهم واحد.

أما مفسرو القرآن[١] فقد اتفقوا على عجمة (عاد)، اسم رجل تسمت به قبيلته، نسبه

(١) راجع تفسير القرطبي للآيات ٦٥-٦٩ من سورة الأعراف، والآيات ٥٠-٦٠ من سورة هود.

ابن إسحاق إلى نوح فقال: هو عاد بن عوص بن إرم بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح، (وكأنه يستقي من أحبار يهود، ولكنهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني كما قال الحق سبحانه؛ فليس هذا هو عمود النسب في سفر التكوين، بل ليس فيه أصلًا (عاد)). ولكنهم تفاوتوا في عجمة (هود) (الاسم لا المسمى بالطبع)، فقال بعضهم: هو عربي تشتقه من الجذر العربي (هاد / يهود)، أي: تاب ورجع إلى الحق، وقال الباقون ومنهم ابن إسحاق: إن (هودًا) أعجمي، فهو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم... إلخ. وهذا أيضًا على خلاف عمود النسب في سفر التكوين، بل ليس فيه أصلًا هود، ناهيك بعبد الله والجلود. أما قول مفسري القرآن في (إرم)[1] فمنهم من قال: جد عاد، نسبت إليه القبيلة فجاء اللفظ على التأنيث (ذات العماد)، ومنهم من قال: بل هو اسم مدينتهم، وشرحوا (ذات العماد) بأنها الأبنية العالية المرتفعة - وهو الصحيح في اللغة - وكأنهم يبنون أبنيتهم على العمد[2]. ومنهم من أشكلت عليه ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾[3]، فظن أنهم (عادان)، أولى وثانية، (عاد إرم)، (عاد هود)، والصحيح ما قاله الآخرون، فليس إلا (عاد) واحدة، أهلكها الله أولًا، ثم ثنى بـ (ثمود)، فالقرآن لا يذكر عادًا قوم هود إلا وهو يتبعها بثمود قوم صالح.

على أن في حضرموت نبعًا يدعى (برا - هوت)، اشتهر منذ القدم بأدخنته الكبريتية، بجواره قبر يدعى قبر (هود) يزوره الناس إلى اليوم ويتبركون به، يصح هذا أو لا يصح فنحن لا نستطرد بك إليه، ولكن المستشرقين الذين ذكروه[4] يلفتون النظر إلى ما قاله المفسرون من أن (عادًا) كانت منازلهم ما بين اليمن وحضرموت، فهو إذن من أنبياء العرب. ويرى هؤلاء المستشرقون أيضًا أن هودًا هو نفسه (عابر) الذي يرتفع بنسبه إلى سام بن نوح. وإلى عابر هذا ينتسب (العبرانيون) كما تعلم. وربما شجعت الجالية اليهودية في شبه الجزيرة هذه المقولة رغبة في إيجاد نسب موغل في القدم بينهم وبين مُضيفيهم، تألُّفًا لقلوب العرب

(١) راجع تفسير القرطبي للآيتين ٦-٧ من سورة الفجر.

(٢) ربما ذكرك هذا (بالحدائق المعلقة) التي اكتشفت آثارها في نواحي بابل.

(٣) سورة النجم، الآية: ٥٠.

(٤) انظر مثلًا *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص ٢٨، ٢٩.

عليهم، فقالوا: إن (يهود) جاءت من (هود)، فهم إذن بنو - هود النبي العربي. وليس بشيء إن أردت قرابة النسب، فاليهود أنفسهم يشتقون (هو) من (يهودا) بن يعقوب (وتنطق دالة في العبرية ذالًا لاعتلال ما قبلها كما مر بك)، وليس تأصيل الأنساب من مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب. ولكن لا بأس بهذا الذي قيل في أخذ (يهود) من (هود) إن أردت القرابة اللغوية في النحت والاشتقاق، ولو أن اللغات السامية جميعًا في هذا سواء.

****

أما (هود) - إن أردتها عربية - فهي تسمية مشتقة من الجذر العربي هَادَ / يَهُودُ / هَوْدًا، فهو (الهائد)، أي التائب الراجع إلى الحق (وتاب وثاب وآب كله واحد). تجد تأصيل هذا في القرآن من قوله عز وجل على لسان موسى في فتنة السامري: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۝١٥٥ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[1]، أي رجعنا وأنبنا. لا تجد لها تأصيلاً في العربية إلا من القرآن، وفي هذه الآية بالذات. ومنها أيضًا يشتق القرآن معنى اسم اليهود (وسيأتي في موضعه) فيسميهم الذين هادوا في عشرة مواضع من مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾[2]، ويسميهم أيضًا (هود) (جمع (هائد) أي الذي هاد) في ثلاثة مواضع من مثل قوله عز وجل يحكي مقالتهم: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾[3]، نافيًا أن يكون هذا هو اسمهم قبل أن يقولها موسى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[4].

وليس معنى القول بعربية اسم (هود) - على إيغاله في القدم كما مر بك - أنه بالضرورة من هذه العربية نفسها التي نزل بها القرآن، وإنما المعنى أن اسمه من (العربية الأولى) التي

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٥، ١٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.

تكلم بها سكان شبه الجزيرة جميعًا منذ أزمان سحيقة لا يعلمها إلا الله، وتفرقت من بعد في الساميات جميعًا، وإنما نفهم نحن مفرداتها الآن بخاصية في تلك اللغة الفذة، هي (جذرها الثلاثي)، الذي تدور معانيه على أصل حروفه. وقد أصل القرآن معنى (هاد) على التوبة والإنابة، فهو كما قال، لأن القرآن هو الشاهد لتلك اللغة العربية في كافة مراحل تطورها، لا حاجة بك معه إلى غيره.

وربما قلت: إن (الهائد) تفيد (المهدي)، لا لقرابة ما بين الجذرين (هَدَى) و(هاد) فحسب، وإنما أيضًا لأن (الهائد) هو عكس (الضال). وفي هذا لفتة بعيدة المغزى قد تفوت على كثيرين؛ إنه نعت ينطبق على كل نبي بعث في قوم ضلوا جميعًا سواء السبيل، ليس فيهم إلا هو وحده الذي انسلخ من ضلالتهم، هاد إلى الله وحده، فبعثه الله إليهم ليهديهم به، ولا يهدي غيره إلا الذي هاد من قبل، فهو الهائد المهدي، وهو الهادي المهتدي.

لم يكن (هود عليه السلام) من أنبياء التوراة، فجاء اسمه في القرآن على أصله عربيًّا، على ما مر بك من منهجنا في هذا الكتاب، لا يحتاج إلى (فك عجمته) بالتفسير، إلا ما كان من تأصيل معنى الجذر (هاد) في قوله عز وجل على لسان موسى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾.

على أن في أسفار التوراة (أخبار الأيام الأول ٧/ ٣٧) الاسم (هود) (مدًّا بالضم لا بالواو كما في (يُوم) العربية العامية أو في *Home* الإنجليزية) علمًا على رجل من عامة سبط أشير، ليس بنبي أو رسول. ولكن علماء التوراة لا يشتقون (هود) الإسرائيلي هذا من التوبة والإنابة، ولكنه عندهم مصدر أميت جذره وبقي المصدر في لغتهم بمعنى الجلال والجمال والسناء، ومنه في العبرية المعاصرة (هود ملخوتو) خطابًا للملوك بمعنى (صاحب الجلالة). ولو كان المَعْنِيُّ هو (هود) النبي لشاعت التسمية في بني إسرائيل، وهو ما لم يحدث.

***

أما عاد، (إرم) فلا مجال لاشتقاقهما من العربية التي نزل بها القرآن، وإنما تشتقهما من

العربية الأولى مستعينًا بما بقي من جذورها في الآرامية والعبرية، ومن ثم كانتا من الأعجمي الذي يفسره القرآن.

(عاد) في الآرامية - العبرية معناها (الأبد) و(الخلود). ومنها في العبرية (لَعَاد)، يعني (إلى الأبد). فهي الباقية الخالدة التي لا تزول. وقد جاءت مفسرة في القرآن مرتين، الأولى على الترادف في قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[1]. وفسرت في المرة الثانية على التقابل في قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾[2]، أي ما عادت عاد ولن تعود.

وأما (إرم) فهي في الآرامية - العبرية مشتقة من العلو والعلاء، فهي العالية والمعلاة، كما مر بك من معنى الجذر العبري (رام - يَرُوم). وقد وردت (إرم) في القرآن مرة واحدة فسرت فيها بهذا المعنى نفسه، ولم يفطن إليه مفسرو القرآن رغم علمهم بأن (ذات العماد) تعني المدينة ذات الأبنية العالية المرتفعة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[3]. وهو تفسير على الترادف اللصيق: إرم = ذات العماد. ودل قوله عز وجل: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾، على أن القرآن يريد إرم المدينة لا عادًا القبيلة كما وَهِم بعض المفسرين الذين ظنوا أن إرم في القرآن هي نفسها عاد، اسم القبيلة، نسبة إلى الرجل إرم بن سام بن نوح، وليس هذا بفصيح في عربية القرآن الذي إذا أراد القبيلة جاء بضمير الجمع للمذكر: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا﴾، وإذا أراد المدينة أي الموضع استخدم ضمير المؤنث: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

أما (الإرميون) أصحاب إرم، أعني الناجي منهم مع هود، فهم آباء (الآراميين) الذين قدر لسلالة منهم في (الحجر) إلى الجنوب الغربي من تيماء بالمملكة العربية السعودية على

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٦ – ٨.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٥٠، ٥١.

(٣) سورة الفجر، الآيات: ٦ – ٨.

طريق القوافل إلى الشام أن تسكن في نواحي (الحجر) ما يعرف إلى اليوم باسم (مدائن صالح) أو (قرى صالح)، التي نهى ﷺ في غزوة تبوك عن التلبث بأطلالها كراهة المكث بموضع السخط والنقمة: إنهم (ثمود) أصحاب (الحجر)، قوم صالح.

* * * *

(١٨) صالح (١٩) ثمود

يرد الاسم (إرم) في التاريخ المدون، وفي جغرافية التوراة، بصورة عبرية آرامية هي (آرام) ليست هي إرم عاد التي في القرآن، وإنما المراد منها هو (سورية) بالمعنى العام، سميت بهذا الاسم نسبة إلى قوم من العرب وفدوا عليها حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد. جاءوها بلغتهم هم (الآرامية)، وخلعوا عليها اسمهم هم (الآراميين)، فصارت سورية (آرص آرام) أي أرض آرام. وقد مر بك أن (إرم) فسرت في القرآن بمعنى العالية أو المعلاة (إرم ذات العماد)، وهو نفسه معنى لفظ (آرام) في اللغتين العبرية والآرامية، فتقطع بأن (الآراميين) هو (الإرميون) أصحاب إرم التي في القرآن، سلالة من الناجين مع هود تفرقوا في البلاد في عصور سابقة على وجود الآراميين في سورية. دليلك في هذا من القرآن على لسان صالح عليه السلام يحذر قومه مصير أسلافهم قوم هود: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]، ولم تتخلف ثمود عادًا على نفس الأرض، فشتان ما بين الحجر في الشمال الغربي من شبه الجزيرة وبين (آرام نَهْرَيم) أي آرام ما بين النهرين، يعني (إرم العراق)، وإنما كان أصحاب الحجر فحسب (سلالة من الناجين مع هود) خرجوا بعد نكبة (إرم ذات العماد) من ناحية ما في جنوبي بابل إلى حضرموت واليمن يحملون معهم اسم مدينتهم (إرم) أو (آرام) التي صارت علمًا عليهم فسموا (الإرميين) أو (الآراميين)، ثم ارتحلت بطون منهم في زمن لاحق إلى الشمال، ثم استقرت فصائل منهم في منطقة الحجر على طريق القوافل إلى الشام، كانوا هم (ثمود) قوم صالح. وتلمح في قول صالح عليه السلام يعظ قومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.

ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[1] أن ثمود أرادوا محاكاة (إرم ذات العماد) في العلو تحنانًا إلى موطنهم القديم، ولكنهم لم يذكروا آلاء الله عليهم، بل ظلموا بها، فدمر الله عليهم[2] (إرم الثانية) - إرم صالح - كما أهلك من قبل (عادًا الأولى)، إرم هود، ومن هذا قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾[3] فتفهم أن ثمود هي (عاد الثانية).

* * * *

لم يكن صالح عليه السلام من أنبياء التوراة، ومن ثم فاسمه كما علمت من منهجنا في هذا الكتاب، يجيء على أصله عربيًّا، لا يحتاج إلى تفسير، ولا يترتب على عربية هذا الاسم أن صالحًا عليه السلام كان عربيًّا من بني إسماعيل، بل هو آرامي من قوم آراميين، سلالة من الناجين مع هود، واسمه - كاسم هود - مشتق من العربية الأولى التي تفرقت جذورها في الساميات جميعًا. دليلك في هذا أن صالحًا سبق إبراهيم - أبا إسماعيل وعم لوط - بقرون لا يعلم عدتها إلا الله. ودليلك فيه أيضًا أن (قرى صالح) أقرب إلى الشام من الحجاز، ناهيك باليمن.

على أن الجذر العربي (صلح) باق بذات حروفه ولفظه ومعناه في العبرية والآرامية، ومنه على زنة الفاعل في الآرامية بالذات - لغة قوم صالح كما مر بك - (صاليح) (مدًّا للام بالكسر لا بالياء كما تنطق في (ليه) العربية العامية أو في *Late* الإنجليزية) بمعنى (الذي صلح). فهو إذن في العربية والآرامية واحد، يعرب فقط بتقصير مد (كسرة اللام)، فيئول إلى (صالح) العربية بنفس معناها ونطقها في القرآن.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.

(٢) عبارة القرآن: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ [الشمس: ١٤]، والدمدمة هي قعقعة الزلزال، ولم يكن ثم زلزال، وإنما كانت صيحة من جبريل عليه السلام تَرْجُف بها الأرض من تحتهم وترتج الجبال، صرعتهم: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

(٣) سورة النجم، الآيتان: ٥٠، ٥١.

(صالح) إذن مفسر في القرآن بالتعريب وحده، بل هو أبين أمثلة القرآن في التفسير بالتعريب.

* * * *

وقد ذهب مفسرو القرآن[1] إلى أن صالحًا وقومه كانوا قومًا عربًا، ولكنهم نسبوهم إلى العرب البائدة كعاد وطسم وجديس، وهذا يطابق ما قلناه نحن إن تمعنت؛ لأن سكان شبه الجزيرة جميعًا عرب بالمعنى العام، لا يقدح في هذا تفاوت لهجاتهم ومنطقهم مهما بعدت عن العربية التي نزل بها القرآن. وهذا يدلك أيضًا على علم العرب قبل القرآن بثمود، لا بوصفهم قوم صالح، وإنما بوصفهم قبيلة من قبائل العرب التي بادت، وهو عِلْم شاركهم فيه أهل الكتاب معاصرو القرآن، وإن خلت أسفار التوراة من النص على قصة صالح مع قومه. بل قد ذكر مؤرخو اليونان[2] قبل القرآن بقرون (ثمود) و(لحيان)، وقالوا: إن منازلهم كانت من جنوب العقبة[3] إلى نواحي شمال ينبع بالقرب من المويلح وأنه كانت منهم جموع منتشرة في داخل البلاد إلى نواحي خيبر وفدك. وليس هؤلاء بالطبع هم (ثمود صالح) وإنما هم سلالة من الناجين مع صالح، خلفوهم وانتسبوا إليهم.

* * * *

أما (ثمود) فهي عربية أيضًا بالمعنى الذي ذكرناه: ثمد الماء يعني قل، وثمده هو يعني استنفد معظمه، وثمد الناقة يعنى اشتفها بالحلب، وثمده يعني استنفد ما عنده، والثمد يعني الماء القليل الذي ليس له مدد، أو هو المكان يجتمع فيه الماء، من ثمد المكان يعني هيأه كالحوض ليجتمع فيه الماء. وعلى هذا تكون (ثمود) على زنة فعول بمعنى فاعل، أو فعول بمعنى مفعول، على المعاني التي ذكرت لك، فهم أصحاب الماء القليل، يستنبطونه من

(١) راجع تفسير القرطبي للآيتين رقم ٧٣ من سورة الأعراف ورقم ٨٠ من سورة الحج.
(٢) اقرأ هذا في (تاريخ اللغات السامية) - أ. ولفنسون، دار القلم، بيروت، ص ١٧١.
(٣) وفي جنوب العقبة أيضًا تقع (مدين) بلدة قوم شعيب، وسيأتي.

الأرض ويحوضونه، الحريصون عليه، يذودون عنه ويمنعونه، فهو حجر عليهم، حرام على غيرهم، ومن هنا جاءت تسميتهم: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾[١].

وقد جاءت (ثمود) مفسرة في القرآن بالتصوير في فتنة الناقة التي جعلها الله لهم آية ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[٢]، (تشتف) ماءهم كله يومًا، وتفيضه عليهم في الغداة لبنًا؛ إذ لا ماء لهم، (فيشتفونها)، (تثمدهم) و(يثمدونها).

وقد وهم بعض مفسري القرآن[٣] أن (أصحاب الرس) هم ثمود قوم صالح[٤]، أصحاب تلك (البئر الحجر)؛ لأن (الرس) في العربية معناها (البئر). وقد وردت (الرس) في القرآن مرتين: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾[٥]، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾[٦]. ولا يصح قول المفسرين في هذا؛ لأن القرآن يعطف بالواو أصحاب الرس على ثمود في الآية الأولى، ويعطف ثمود على أصحاب الرس في الآية الثانية، لا يجتزئ من الواحدة بالأخرى كما قال: (أصحاب الحجر) يعني قوم صالح، وكما قال: (أصحاب الأيكة) يعني أهل مدين قوم شعيب. أصحاب الرس إذن ليسوا قوم صالح، وإنما هم قوم آخرون أخبر القرآن بمهلكهم، ولم يسم نبيهم، في قرون قد خلت بين نوح وإبراهيم. بل وبعد إبراهيم، كما قال عز وجل: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[٧]، وإن كان قد وجد من المفسرين[٨]، من جمع بين تلك

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٠.

(٢) سورة القمر، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٣) راجع تفسير القرآن للقرطبي للآية ٣٨ من سورة الفرقان.

(٤) قالها أيضًا مجمع اللغة العربية في المعجم الوسيط، مادة ر/ س/ س، حيث ذكر أن (الرس) بئر كانت لثمود قوم صالح، أخذها من هؤلاء المفسرين، ولم يحقق.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٣٨.

(٦) سورة ق، الآية: ١٢.

(٧) سورة الحج، الآية: ٤٥.

(٨) راجع تفسير القرطبي لهذه الآية من سورة الحج.

البئر المعطلة وبين بئر ثمود. كل هذا يعارض ظاهر القرآن، فلا تلتفت إليه.

* * * *

وقد بقي في العبرية والآرامية من (ثمد) العربية الجذر العبري - الآرامي (شَمَد) (بإبدال الثاء شينًا)، بمعنى الاستئصال والإبادة، وهو من معنى الاستنفاد والاشتفاف في ثمدَ العربية جد قريب. وتستخدم العبرية المعاصرة الفعل (شمد) بمعنى محدد هو (استصفاء) اليهودية، يعني تصفيتها سلمًا، بإجبار أهلها كرهًا على الخروج منها إلى (المسيحية) في عصور اضطهادهم في أوروبا، لا بمعنى إبادة أهلها وإهلاكهم، على أصل معنى (شمد) في عبرية التوراة. وربما قلت: إن (ثمود) في القرآن جاءت تعريبًا لـ (شمود) العبري أو (شِمِيد) الآرامي على المفعولية من الجذر العبري - الآرامي (شمد) فهو الهالك البائد، بمعنى (شمد) في عبرية التوراة. ولا يصح هذا، فلا أحد يسمي نفسه الهالك البائد، وقد تسمت به قبيلة من كبرى قبائل العرب خلفوا (ثمود) قوم صالح كما مر بك. وإنما الصحيح أن (ثمود) جاءت من العربية الأولى بمعنى قل ونضب واستنفد واشتف، قبل أن تتحور في عبرية التوراة إلى باد وهلك.

* * * *

(٢٠) شعيب (٢١) مدين

مر بك أن القرآن يضع شعيبًا في الترتيب الزمني بعد لوط. ومر بك أيضًا أن لوطًا من معاصري إبراهيم. بل كان إبراهيم عم لوط كما تنص التوراة. والقرآن ينص على تعاصر إبراهيم ولوط؛ لأن الملائكة الذين بعثوا لإيقاع العذاب بقوم لوط، مروا في طريقهم على إبراهيم يبشرونه بإسحاق. نص القرآن على هذا في أكثر من آية، منها قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[١]. شعيب إذن بعد إبراهيم بلا خلاف، لمجيء شعيب بعد لوط معاصر إبراهيم أو ابن أخيه كما تقول التوراة. دليلك في هذا من القرآن أن لوطًا لم يعلم بشأن شعيب مع قومه، بل حذر لوط قومه مصير قوم نوح وقوم عاد وقوم صالح، وما كان ليحذرهم مصير قوم شعيب، وشعيب لم يبعث بعد. أما شعيب فهو يحذر قومه مصير قوم لوط: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[٢].

لم يكن أهل مدين - الواقعة جنوبي خليج العقبة - يسكنون بعيدًا عن مدائن لوط، وقد بقيت منها (صوعر) على الشاطئ الجنوبي الشرقي من البحر الميت. ولم يكن (يوم الظلة) - مهلك الذين ظلموا من قوم شعيب - بعيدًا كل البعد من فجر يوم وضع فيه جبريل جناحه تحت (القرية التي كانت تعمل الخبائث) فجعل عاليها سافلها، يوم أركس الله قوم لوط بما كسبوا.

ولكن التوراة التي اهتمت في سفر التكوين بتدوين ما كان من شأن لوط مع قومه، تصمت

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٩.

الصمت كله عما كان من شأن شعيب مع أهل (مدين)، على قرب مدين من مساكنهم. والتوراة تغفل الحديث عن قصة شعيب مع قومه عمدًا، رغم هول العذاب الذي حاق بمن ظلموا من قومه، ورغم قرب (مدين) من (صوعر)، ورغم أن شعيبًا تلا لوطًا وإبراهيم بفارق زمني (غير بعيد)، ولم يسبقهما، ورغم أن التوراة تذكر (مدين) - بنحو ما ذكرها القرآن - في قصة لجوء موسى إلى (مدين)؛ فرارًا من بطش فرعون بعد أن قتل موسى ذلك المصري الذي بغى على رجل من قومه.

تتعمد التوراة إغفال شعيب - على الراجح عندي - لأنه عندها كان نبيًّا من غير بني إبراهيم، ولم يكن أيضًا من بني يعقوب، أي من بني إسرائيل، الذين كُتبت التوراة لتسجيل أخبارهم ونبواتهم. وهو - على الراجح عندي أيضًا - سبب إغفال التوراة هودًا وصالحًا كذلك؛ كيلا تضع أنبياء بين نوح وإبراهيم. وإنما حرصت التوراة على ذكر (نوح) كي تربط ما بين إبراهيم وآدم. وقد تعجل كاتب سفر التكوين هذا النسب كما مر بك بين آدم ونوح، وبين نوح وإبراهيم، حتى لَتكاد تستخلص من حساباته[1] أن نوحًا كان أو يكاد من معاصري إبراهيم، فكيف يكون بينهما نبي؟

وربما قلت: إن أسفار التوراة لم (تتكتم) أخبار شعيب، وإنما هي لم تعلم أصلًا بمبعث شعيب إلى أهل مدين في التوراة ما بين لوط إلى موسى، لغياب بني إسرائيل آنذاك عن مسرح الأحداث في فلسطين وما حولها منذ خروج يعقوب وبنيه إلى مصر في ضيافة يوسف واحتباسهم فيها نحوًا من أربعمائة وثلاثين سنة كما تقول التوراة حتى خروجهم منها إلى تيه سيناء مع موسى. اهتمت أسفار التوراة بأخبار بني إسرائيل في مصر سنوات احتباسهم فيها، (وإن كانت في واقع الأمر تجتزئ اجتزاء مخلًّا، فتنقلك فجأة من وفاة يوسف إلى مولد

(١) لا يستقيم قول من تعلل لكاتب سفر التكوين بأن السنة عنده تساوي ألف سنة أو نحو ذلك مما نَعُدُّ نحن: إنه تضخيم فحسب لا يغير شيئًا من اختلال التناسب. وهو أيضًا يناقض العلم لأنه يرتفع بعمر آدم إلى زهاء مليون سنة (٩٣٠ × ١٠٠٠) فيشغل وحده الحِقْبَ الأخيرَ من عمر هذه الأرض، ناهيك بنوح والذين من بعده.

موسى غير عابئة بأحداث ما كان بين هذين النبيين الكريمين اللذين يفصل ما بين مبعثهما حوالي أربعة قرون)، ولم تهتم، بل قل: ولم تعلم، بما وقع خارج مصر خلال تلك القرون الأربعة، أخبار شعيب أو غير شعيب. وهذا التعليل - على وجاهته - مردود بما تقصه عليك التوراة من لجوء موسى إلى مدين فرارًا من بطش فرعون، وإصهاره إلى (كاهن مدين)، وبقائه عنده عشر سنين، بل وعودته إلى لقاء صهره في التيه بعد خروج بني إسرائيل من مصر، فباركه صهره وأشار عليه باختيار نقباء يقومون مقام موسى في قومه. يحدث هذا كله ولا يقص عليه (كاهن مدين) شيئًا مما كان من أمر شعيب في أهل مدين، إن سلمت بأنه قد كان ثمة (شعيب) بعثه الله إلى أهل مدين في الفترة ما بين لوط إلى موسى، ناهيك بأن تقول - كما قال جمهور مفسري القرآن[1] -: إن صهر موسى هذا هو بعينه شعيب عليه السلام (أخو مدين).

على أن التوراة لا تعترف لأحد من خارج بني إبراهيم بالنبوة مهما كان على دين الواحد الأحد، فلا تسميه (النبي) وإنما تسميه (الكاهن). من ذلك (ملكي - صادق) ملك شاليم (وهي (سليم) العربية)، الذي بارك إبراهيم وأدى له إبراهيم (العُشر من كل شيء)، وتقول عنه التوراة (وكان (أي ملكي - صادق) كاهنًا لله العلي)[2]. ومن ذلك أيضًا (يِثْرو) حمو موسى، الذي تسميه التوراة ((كاهن مديان))[3]، أي: (كاهن مدين). ولحمي موسى عند أصحاب التوراة اسم ثان هو (حباب)[4] (وكأنه (الحباب) عربي فليس في أعلام بني إسرائيل من تسمى به)، وله أيضًا اسم ثالث هو (رِعوئيل)، ومعناها (راعي الله)، ويفسرونها في العبرية بمعنى (خليل الله). وعلى أنك تستنبط من أسفار التوراة نفسها اسمًا رابعًا لحمي موسى هو (دِعوئيل) (بالدال لا بالراء)؛ لأن أسفار التوراة تخلط بينه وبين (رعوئيل) (بالراء لا بالدال) في تسمية

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٨٥ وما بعدها من سورة الأعراف.

(٢) راجع تكوين ١٤/ ١٨ - ٢٠.

(٣) خروج ٣/ ١.

(٤) قد تفهم من (عدد ١٠/ ٢٩) أن (حباب) هذا هو ابن رعوئيل حمي موسى، وتقرأ لعلماء التوراة بعض يقول: بل حباب حموه، وآخرون يقولون: بل رعوئيل هو أبو حمي موسى. وصدق الحق إذ يقول في وصف القرآن: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

شخص بعينه، تسميه (إلياساف بن دعوئيل) (بالدال) في سفر العدد (١/ ١٤) ثم تسميه هو نفسه (إلياساف بن رعوئيل) (بالراء) في الإصحاح التالي مباشرة من السفر (عدد ٢/ ١٤). وقد عالج علماء العبرية تفسير معنى اسم دعوئيل هذا (بالدال)، فقالوا: إنه من الجذر العربي (دعا)، فهو (داعي الله)؛ لأنه لا وجود في العبرية للجذر (دعا)، فتفهم أن (رعوئيل) عندهم تحرفت إلى (دعوئيل)؛ لاشتباه رسم الدال بالراء في الخط العبري كما هما في الخط العربي، أو أن (دعوئيل) العربية هي التي تحرفت عليهم فصارت (رعوئيل) وهو الراجح.

كيفما كان الأمر، فسفر التكوين ينص على أن أهل مدين ((مِدْيَان) في عبرية التوراة) عرب من العرب. تستخلص هذا من رواية سفر التكوين لقصة يوسف حين ائتمر به إخوته فباعوه ((للإسماعليين بعشرين من الفضة، فأتوا به إلى مصر))[1]، فتفهم من هذا أن الإسماعليين هم الذين أتوا بيوسف إلى مصر. ولكنك تفاجأ في نهاية هذا الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين بأن الذين أتوا بيوسف إلى مصر وباعوه هناك (مِدْيانِيم)، أي: رجال من أهل مدين: ((وأما المديانيون فباعوه في مصر لفُوطِيفَار خصي فرعون رئيس الشرط))[2]. وهو تناقض لا سبيل إلى حله إلا بأن تتعلل لسفر التكوين بأنه لا يفرق بين الإسماعليين والمديانيين؛ كلا الفريقين عنده عرب من العرب[3].

---

(١) تكوين ٣٧/ ٢٨.

(٢) تكوين ٣٧/ ٣٦.

(٣) لم يشع إطلاق اسم الإسماعليين عند اليهود على العرب عامة إلا بعد موسى عليه السلام بقرون، وما كانوا ليسموهم كذلك على عصر يعقوب ابن أخي إسماعيل والإسماعليون آنذاك بنو عمومتهم الأقربون. وهذا يدلك بالنقد اللغوي وحده على أن سفر التكوين - أول أسفار التوراة - كتب بعد موسى بقرون. ومن دلائل هذا أيضًا استخدام سفر التكوين عبارة (يهواه إلوهيم) اسمًا لله عز وجل. كانت (إل) و(إلوهيم) اسم الله على عصر إبراهيم وما تلاه، ولم تعرف (يهواه) في العبرية إلا منذ موسى. أراد الكاتب الجمع بين القديم والحديث تدليلًا على قدم أخبار سفر التكوين. ولكنها أعضلت على المترجم العربي فقال: (الرب الإله)، وليس بجيد لأن (يهواه) يعني الله فحسب، ولكنه اضطر إلى ذلك كراهة أن يقول: (الله الإله). والأجود عندي أن يترجم العبارة إلى (الله) الجامعة لكل أوصاف الألوهية، وفيها الغناء.

تخلص من هذا إلى أن (أهل مدين) عند اليهود عرب من العرب، كانوا على طريق القوافل من خليج العقبة في شمال غربي شبه الجزيرة إلى مصر، عبر سيناء. وتلك بالفعل كانت مساكنهم في جغرافية التوراة[1].

وإذا كان أهل مدين عربًا من العرب، فأخوهم شعيب كذلك، لا معنى للقول بخلافه، فالرسول والمرسل إليهم واحد كما مر بك. وليس معنى هذا أن مدين وشعيبًا كانوا بالضرورة يتحدثون بتلك العربية التي نزل بها القرآن، وإنما المعنى أنهم كانوا يتحدثون بتلك اللغة العربية في مرحلة من مراحل تطورها إلى العربية التي نزل بها القرآن بعد نحو ألفي سنة[2] من مبعث شعيب عليه السلام رسولًا إلى أهل مدين.

****

ولأهل مدين في القرآن اسم آخر، هو (أصحاب الأيكة). قال عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[3]، وقال أيضًا: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[4]، فتفهم أن مدين وأصحاب الأيكة واحد، لا لوحدة الرسول فحسب ولكن لأن شعيبًا يأخذ على هؤلاء ما يأخذ على أولئك: يأخذ عليهم خسرانهم الكيل والميزان، وبخسهم الناس أشياءهم وعُثُوَّهم في الأرض مفسدين.

وقد ظن بعض المفسرين أن (مدين) قوم غير (أصحاب الأيكة)، بعث شعيب إلى الثانية بعدما فرغ من الأولى. ظنوا هذا لأن القرآن فيما رأوا فرق بين عذاب أصحاب مدين، الذين أهلكوا بالصيحة والرجفة: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

(١) راجع الخرائط الملونة، الكتاب المقدس، طبعة العيد المئوي (١٨٨٣ - ١٩٨٣)، دار الكتاب المقدس بمصر.

(٢) أو نحو ١٨٠٠ سنة إن رجحت أن شعيبًا هو نفسه حمو موسى، الذي خرج ببني إسرائيل من مصر حوالي سنة ١٢٢٥ ق م، على ما مر بك من تقديراتنا لتاريخ هذا الخروج.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ١٧٦ - ١٧٨.

ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾[1]، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾[2]، وبين عذاب أصحاب الأيكة الذين كذبوا شعيبًا ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[3]، والظلة غير الصيحة والرجفة[4]. وليس بين يديك حديث عن الصادق المصدوق يحسم الأمر، ولكنها أقوال الرواة: رووا أن الظلة سحابة احتموا بها من الحر الشديد فوجدوا لها بردًا ونسيمًا، وما اجتمعوا تحتها حتى انقلبت عليهم نارًا أحرقتهم، أو أنهم احتموا بأيكتهم فأضرمها الله عليهم، كالمحتمي من الرمضاء بالنار. وليس هذا كله بلازم، فالصيحة أيضًا غير الرجفة، فبأيهما كان مهلك أهل مدين؟ الصواب أن يقال: إن الصيحة هي صيحة جبريل عليه السلام، إيذان بإيقاع العذاب، وأن الرجفة هي أثر الصيحة. وتقول أيضًا: وما يمنع أن يجتمع على أهل مدين عذاب الرجفة وعذاب الظلة: ركضوا إلى البرية كما يركض الفارُّ من الزلزال حين أحسوا الرجفة، يحتمون بأيكتهم، فأضرمها الله عليهم نارًا؛ إذ لا عاصم من أمر الله إذا جاء. وتقول أخيرًا: وما يمنع في اللغة أن تكون (الظلة)[5] هي فحسب غاشية العذاب الذي حل بهم فأظلهم، لا ملجأ لهم منه؟ نقول هذا ولا نخوض في غيب الله، فالله عز وجل بغيبه أعلم.

أما الذي ألجأ مفسري القرآن إلى القول بأن شعيبًا أخا مدين هو نفسه (الشيخ الكبير) الذي حل عليه موسى في مدين فزوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج أو عشرًا[6]، أي: كاهن مدين في سفر الخروج، (يثرو) أو (حباب) أو (رعوئيل)، (وربما (دعوئيل) أيضًا على ما مر بك)؛ فلأن شعيبًا ما كان ليوجد إلا في الفترة ما بين لوط إلى موسى بنص القرآن، وما كان ليوجد إلا في مدين هذه التي لجأ إليها موسى، وما كان يثرو هذا ليكون هو نفسه شعيبًا إلا إذا كان مبعثه قد سبق نزول موسى ضيفًا عليه، أي قبل مبعث موسى. تجد هذا الترتيب

---

(١) سورة هود، الآية: ٩٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩١.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٨٩.

(٤) راجع ما رواه القرطبي في تفسيره للآيات ١٧٦-١٨٩ من سورة الشعراء.

(٥) (أظله) بمعنى غشيه ولزمه، من فصيح العربية.

(٦) راجع الآيات ٢٢-٢٨ من سورة القصص.

بينًا في قوله عز وجل: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾(1). يثرو إذن - إن كان هو نفسه شعيبًا - استضاف موسى وقد فرق الله بينه وبين الذين ظلموا من قومه بعد مهلكهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾(2). ربما قلت: ولماذا لا يكون شعيب قبل موسى بقرنين أو ثلاثة، والمسافة بين لوط وموسى أربعة قرون، وقد نزل موسى في ضيافة رجل صالح من بقية الناجين مع شعيب، فما كان لموسى عليه السلام الذي صنعه الله على عينه ليصهر إلى رجل من عبدة الأوثان في مدين؟ لا بأس بهذا بالطبع، ولا بأس أيضًا بعكسه الذي قاله جمهور مفسري القرآن، والذي نرجحه نحن أيضًا، وهو أن شعيبًا كان هو نفسه صهر موسى عليهما السلام؛ لأن سفر الخروج يحدثك عن رجل ذي منصب في قومه، (كاهن مدين)، والكاهن والنبي واحد في لغة التوراة حين تتحدث عن أنبياء من خارج بني إبراهيم كما مر بك، دليلك في هذا من سفر الخروج نفسه أن الشهرة التي شهر بها حمو موسى في التوراة توحي بطبيعة هذا المنصب: راعي الله (رعوئيل)، وربما داعي الله (دعوئيل)، وأيضًا (يِثْرو) نفسها ومعناها الثريُّ ذو الثروة والكثرة والنماء، المشتقة من الجذر العبري (يَثَر) وهو مقلوب الجذر العربي ثرا / يثرو، وثَرِيَ / يثرَى وكان شعيب ذا غنى، بعث في أحساب قومه، كما تجد في القرآن على لسان من كذبوه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾(3)، خشوا رهط شعيب وإن لم يكونوا على دينه لمكانتهم، كما وقع لمحمد ﷺ في قومه. لقى موسى إذن شعيبًا وقد تمادت السن بشعيب في بقية من قومه: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾(4). ربما قلت: فما بال أولئك (الرِّعاء) من قوم شعيب، والمفروض على هذا القول أنهم سلالة من الذين آمنوا معه، وقد استهانوا بابنتيه

(1) سورة الحج، الآيات: ٤٢ - ٤٤.

(2) سورة الأعراف، الآيتان: ٩٢، ٩٣.

(3) سورة هود، الآية: ٩١.

(4) سورة القصص، الآية: ٢٣.

فلا تسقيان ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾[1]؟ لا عليك. هذا فهم مُتَعَجِّل لمنطوق تلك الآية: ما كان لنبي أن يسخر قومه في خدمته، وما كان ليقوى وهو شيخ كبير على سقيا غنمه، فأرسل ابنتيه بغنيماته، وما كان لابنتيه أن تزاحما الرعاء حياءً، وإنما يسقي الرجال أولًا ثم تسقي النساء، فوقفتا تذودان غنيماتهما عن الماء حتى يصدر الرعاء فتسقيا، وجاء موسى رجلًا يسقي مع الرجال، فأراحهما من عناء الانتظار.

وربما استظهرت من القرآن تفسيرًا لمعنى شهرتي حمي موسى، رعوئيل ودعوئيل، أي (راعي الله)، (داعي الله)، الأولى في قوله عز وجل: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[2]، والثانية في قوله عز وجل: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[3]، دون أن يتقدمه ذكر لاسم حمي موسى. وربما لمست في هذه الأخيرة أن حما موسى كان ذا مال يجزي به صنيع من أحسن إلى ابنتيه، وكان كريمًا عزيز النفس لا يقبل خدمة بغير أجر.

أما لماذا لم تذكر التوراة اسم (شعيب) في جملة أسماء حمي موسى وهي أربعة كما مر بك؛ فلأن العبرية ليس فيها الجذر (شَعَب) العربي، ولا تفقه له معنى، وربما خشي الكاتب اشتباهه بـ (شُئِيب) العبري ومعناها (ناضح البئر). وربما أيضًا لأن شعيبًا شهر في مهاجره بشهرته الدالة على منصبه (راعي الله) (رعوئيل) ولم يشهر باسمه في قومه.

وأما لماذا لم ينص القرآن على أن شعيبًا هو حمو موسى، فهذا على الراجح عندي لأن القرآن لا يؤصل الأنساب بين الأنبياء المبعوثين كل إلى قومه، كما فعل في موسى وهارون المبعوثين كليهما إلى فرعون وملئه، فقد ذكر لوطًا ولم ينص على أنه ابن أخي إبراهيم كما تنص التوراة، وما ذاك إلا لأن رسالة لوط كانت بمعزل عن رسالة إبراهيم، كما كانت رسالة شعيب غير رسالة موسى وهارون.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٣.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢٥.

نقول هذا ولا نقطع فيه بيقين، فليس من مقاصد هذا الكتاب تأصيل الأنساب كما مر بك. وليس في القرآن والحديث الصحيح ما يقطع بهذا أو ذاك، والله عز وجل بغيبه سبحانه هو الأعلم.

* * * *

أما (شعيب) - وقد جاء الاسم على أصله في القرآن عربيًّا لا يحتاج إلى تفسير لخلو التوراة من النص عليه كما مر بك من منهجنا في هذا الكتاب - فهي إما تصغير (أشعب) أي الواسع ما بين المنكبين، وإما تصغير (شِعْب) ومن معانيها في معجمك العربي: مجرى الماء تحت الأرض، وليس هذا المعنى الأخير بعيدًا عن معاني (شُئِيب) العبري، أي (ناضح البئر). (شعيب) إذن عربية، تخرج عن مقاصد هذا الكتاب.

وليست (مدين) كذلك لثبوت العلمية لها في التوراة بلفظ (مِدْيان)، فجاءت في القرآن (مدين) على التعريب.

* * * *

أما علماء التوراة فهم ينسبون (مديان) إلى واحد من أبناء إبراهيم[1]، كدأب التوراة في إقطاع بني إبراهيم أرض فلسطين وسكانها بصكوك نسب صحيح أو مفتعل، وكأنما كانت فلسطين أرضًا فضاء حين وفد إليها إبراهيم وبنوه، فَعَمَرُوها بقبائل من نسل إبراهيم، كما قالوا: إن عيسو أخا يعقوب شهر باسم (إدوم) (أي الأحمر)، واستنبطوا من هذا أن عيسو هو (أبو الأدوميين) جميعًا، صاحب الأرض وسكانها. وغير هذا كثير في سفر التكوين، فلا تلتفت إليه. الصحيح أن الأدوميين والمديانيين وغيرهم من قبائل فلسطين وما حولها أسبق وجودًا على الأرض من إبراهيم وبنيه. دليلك في هذا من أسفار التوراة ذاتها، بل ومن سفر التكوين بالذات: ((واجتاز رجال مديانيون تجار، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر

(١) من زوجته - أو جاريته - قطورة، فلا زوجات عند أصحاب التوراة لإبراهيم إلا سارة جدة يعقوب صاحب الوعد وغيرها جوار وسرارٍ.

وباعوا يوسف للإسماعليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر))[1]، ((أما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط))[2]. اقرأ هذا وتساءل معي: كيف تهيأ لمديان بن إبراهيم هذا - وهو عم يعقوب أبي يوسف - أن يلد وحده، في جيل واحد - أو إن تشددت معي - في جيلين اثنين، قوافل مديانية من التجار تغدو وتروح ما بين مصر وفلسطين؟ لن أقول لك كيف هان عليهم يوسف، وإسحاق عمهم جده، فقد هان يوسف على إخوته، ولا أستطرد إلى الخلط بين الإسماعليين والمديانيين، فقد سبق لنا القول فيه.

نحن لا نفسر (مديان) البلدة والقبيلة تأصيلًا على اسم (مديان) بن إبراهيم هذا الذي يشتقونه من العبري (دان / يدين) بمعنى خاصمه وقاضاه، فهو المخاصم الجَدِل، فلا صلة بين مديان بن إبراهيم هذا وبين مديان البلدة والقبيلة كما رأيت.

وإنما نحن نفسره بالعبرية - الآرامية (دان / يدون)، ومعناه في عبرية التوراة وإلى الآن في العبرية المعاصرة: حل ونزل وثوى وأقام وسكن[3].

من هذه في العبرية - الآرامية (مِدينا) (المدينة في العربية)، أي البلدة التي يثوى بها ويقام. وهي على وزن الفاعل المؤنث (عبريًا وآراميًا) من أَدِين / يِدين[4] المشتقة من دان / يدون العبري - الآرامي، بمعنى التي تَثْوَى بها وتُثْويك.

ومن هذه أيضًا - الذي يعنينا هنا - جاءت (مديان)[5] العبرية - الآرامية، على (مفعال)،

---

(١) تكوين ٣٧/ ٨٢.

(٢) تكوين ٧٣/ ٣٦.

(٣) انظر معنى (دان/ يدون) العبري في المعجم العبري (هِمِّلُّون هحداش لتناخ)، المذكور في مراجع هذا الكتاب، وانظر أيضًا في المعجم الثنائي (عبري - فرنسي)، وهو *He-Larousse beru-Francais*، وفيه أن دان/ يدون العبري يكافئ *Habiter* الفرنسي. ليس هو دان/ يدين بمعنى *juger* الفرنسي ومشتقاته.

(٤) أدين/ يِدين الآرامي هي صيغة أفعل/ يُفْعِل/ إفعالًا العربية.

(٥) لا يرد على هذا بأن (يدون) بالواو و(مديان) بالياء، فالعبرية والآرامية يتبادلان أحيانًا في (عين) الفعل بين الواو والياء، فتخلطان في الاشتقاق بين دان/ يدون وبين دان/ يدين، ولهذا أمثلة عديدة يعرفها المتخصصون، لا نثقل بها عليك، وإنما نقوله فقط للمتخصصين الذين يريدون انتقاد =

المصدر الميمي واسم المكان، فهي (المثوى) و(المقام).

وهذا هو نفسه التفسير القرآني لمعنى (مدين) في القرآن تجده في قوله عز وجل: ﴿... وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[1]، على الجناس المعنوي، (أي ما كنت مادنًا في مدين)، و(مدن) العربي يعني أتى المدينة.

فصل القرآن في اشتقاق (مديان)، فأخذها من دان / يدون العبري - الآرامي، مخالفًا بذلك مفسري عبرية التوراة الذين يشتقونها من (دان / يدين) على معنى الخصومة والمداينة والشَّكَس والجدل، رغبة في نحلها (مديان) بن إبراهيم من جاريته قطورة، على ما مر بك، وهو بعيد، فأخطئوا وأصاب القرآن[2].

وسبحان العليم الخبير.

* * * *

= المقولات اللغوية لهذا الكتاب.

(١) سورة القصص، الآية: ٤٥.

(٢) مثلما أخطئوا في تفسير عبارة سفر التكوين: (لُو - يَدُون روحي بأدام لِعُولام) (راجع تكوين ٦/ ٣) التي ترجموها إلى (لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد) من دان/ يدين، وليس لهذا معنى كما ترى، وإنما الصحيح أنها (لا يسكن روحي الإنسان إلى الأبد) من دان/ يدون العبري بمعنى حل وثوى ونزل وسكن وأقام، أي لا يخلد الإنسان، بل موتًا يموت، ولا بد يومًا ما أن تفارقه الروح التي نفختها فيه. وقد جر هذا الخطأ في ترجمة هذه العبارة إلى العربية وغيرها (الإنجليزية مثلًا) إلى مزالق ومحالات لا نتعرض لها هنا؛ لأنها ليست من مقاصد هذا الكتاب.

الفصل السادس

أبو العلاء إمام الناس

تمهيد

يتناول هذا الفصل تفسير ثمانية أعلام: آزر (أبو إبراهيم)، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، إسرائيل (شهرة يعقوب)، يوسف.

وقد جمعنا هؤلاء الأعلام الثمانية في فصل واحد؛ لأن أصحابها كما ترى ذرية بعضها من بعض، على النسب اللصيق. فيوسف هو ابن يعقوب (إسرائيل)، ويعقوب هو ابن إسحاق، وإسحاق وإسماعيل كلاهما ابنا إبراهيم، ولوط في التوراة ابن أخ لإبراهيم هو هاران، وإبراهيم (وهاران) ابنا آزر (أو تارح كما تقول التوراة). وترتيبهم التاريخي على هذا النحو ذاته ثابت في التوراة ثبوته في القرآن.

وكل هذه الأعلام (عدا آزر، وسيأتي) أعجمي مقطوع بعجمته، يجيء في القرآن منسوقًا على أصله في التوراة دون تفاوت، إلا ما اقتضاه التعريب.

وتقول التوراة: إن (أبرام) كان اسم إبراهيم الذي سماه به أبوه. أما (إبراهيم) فهو اسم سماه الله به. وتقول أيضًا: إن (يعقوب) سمي هكذا لأنه يوم مولده خرج مع توءمه (عيسو) ممسكًا بعقب أخيه. أما (إسرائيل) فهي شهرة ليعقوب من الله.

وتنص التوراة أيضًا على اسم أبي إبراهيم، فتسمية (تارح) (أو (تيرح) بإمالة الألف مع فتح الراء في الحالتين)، خلافًا للقرآن الذي يسميه (آزر) بالنص الصريح في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[1].

* * * *

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.

وقد حار مفسرو القرآن في (آزر)[1] لمخالفتها الصريحة لما هو معلوم عند أهل الكتاب من التوراة. وطنطن بها المستشرقون - كما مر بك - الذين وهموا أن (آزر) من أفدح أخطاء القرآن في اقتباسه من التوراة.

ونقول نحن: وما كان أغنى القرآن عنها، على علمه المحيط بدقائق المكتوب في التوراة! وهل ينتقص شيئًا من جلال القرآن أن يسكت عن اسم أبي إبراهيم فلا يسميه؟ قد تناول القرآن جدال إبراهيم أباه في أكثر من آية فلم يسمه، فلماذا النص على اسم أبي إبراهيم في هذه الآية وحدها من سورة الأنعام؟

أفقد جهل القرآن اسم أبي إبراهيم في التوراة؟ فلماذا يزج بنفسه في المزالق فيخترع من عنده اسمًا لأبي إبراهيم، غير عابئ بما يسمعه من أهل الكتاب في مكة ويثرب ونجران؟

وإذا كان محمد ﷺ يفتري القرآن من عنده كما يدعون، فلماذا لم يستوثق من رجال كورقة بن نوفل عم زوجه خديجة وقد كان كما يقول أصحاب السير من حنفاء إحدى الملتين، يقرأ من الكتاب العبراني ما شاء له الله أن يقرأ؟ ولماذا لم يصححه له أمثال الحبر اليهودي ابن سلام وقد أسلم في المدينة لهذا النبي الذي (يخطئ) في اسم أبي إبراهيم؟ أفلم ير ابن سلام في هذه وحدها دليلًا كافيًا على (كذب) هذا النبي؟

ولماذا لم (يسقط) المسلمون من بعد النبي (آزر) هذه من القرآن، تنقية للقرآن من خطأ لا تجوز المماحكة فيه؟

تستخلص من هذا أن القرآن أعظم وأجل من أن يفترى من دون الله عز وجل، وتستخلص منه أيضًا أن القرآن عند الذين آمنوا به أعظم وأجل من أن يكذب بالتوراة، أو أن يصحح بما في التوراة، وتستخلص منه كذلك أن القرآن في المصحف الذي بين يديك قد عصمه الله سبحانه من التغيير والتبديل، ولو بقصد (التصويب) و(الاستدراك)، فهو إلى قيام الساعة محفوظ بحفظ الله عز وجل على الحرف الذي به نزل. وتستخلص منه أخيرًا أن القرآن -

(١) انظر تفسير القرطبي للآية ٧٤ من سورة الأنعام.

وكان أيسر عليه استبقاء (تارح) في القرآن على أصلها في التوراة - إنما أراد عامدًا متعمدًا تحدي المُتَقَوِّلين عليه أصحاب دعوى النقل والاقتباس، فجابههم بما ينقض دعواهم. والقرآن ههنا يريد المخالفة لذاتها، لا يريد منها تأصيل منهج أو إثبات عقيدة، وإنما يأتي بها للدلالة على إعجازه فحسب.

نعم، (آزر) في القرآن من دلائل إعجازه، كما سنرى بإذن الله على التو معًا.

* * * *

(٢٢) آزر

وردت (آزر) مرة واحدة في القرآن [الأنعام: ٧٤] اسمًا لأبي إبراهيم، وهو في التوراة (تارح). وقد توقف فيها مفسرو القرآن كما مر بك؛ لما يعلمونه من مخالفتها الصريحة لاسم أبي إبراهيم في التوراة، وعالج بعضهم التصدي لها محاولين التوفيق بين (آزر) و(تارح) بإسقاط أحد طرفي التناقض: منهم من قال: إن (آزر) في القرآن ليس هو أبا إبراهيم، وإنما هو عمه، والعرب تسمي العم أبًا. وليس بشيء؛ لأن المَعْنِيَّ في القرآن هو أبو إبراهيم، لا عمه. وقال الآخرون: إن (تارح) كان له اسمان، أحدهما (آزر). وهو ضعيف؛ لأنه لا دليل عليه من القرآن أو الحديث، ولا مقنع به لأصحاب التوراة الذين لا يعلمون لأبي إبراهيم اسمًا آخر، أو شهرة شهر بها. وتصدى لآزر أيضًا باحثون كبار، كان منهم في هذا العصر الأستاذ عباس العقاد رحمه الله، في كتابه إبراهيم: أبو الأنبياء، الذي قال ما معناه أن (آزر) ليست تعريبًا لـ (تارح)، وإنما هي تصويب قرآني لنطق (تارح) على أصلها في لغة صاحب هذا الاسم، (وكأنه يقصد البابلية الآشورية)، التي لا ترسم في الخط حروف الحلق ومنها الهمزة والحاء، وتبادل بين التاء والثاء والشين والزاي، وكأنها كانت ترسم (ثارة) أو (زارة) ونطقها العبرانيون (تارح)... إلخ. وليس هذا بقوي، رغم ضخامة الجهد ونبل القصد، وأقرب ما يرد به على هذا أن العبرانيين لم يقرءوا اسم أبي جدهم إبراهيم في صحيفة أو نقش، وإنما سمعوه من إبراهيم شفاهة، وهم قد سمعوها (تارح)، ولم يسمعوها (آزر)، ويرد عليه أيضًا بأن القرآن لم يصوب للتوراة نطق علم أقدم من (تارح) وهو (نوح)، وكان حقه أن يأتي بها على (نوخ) بالخاء المنقوطة كما مر بك، وإنما القرآن يلتزم العلمية التي ثبتت في الكتب السابقة، فيأتي بها على ما هي عليه، عدا ما يقتضيه التعريب فحسب، إلا أن يأتي القرآن بالعلم التوراتي أو الإنجيلي مترجمًا، كما مر بك في (إدريس)، وكما سترى في (ذي الكفل).

أفتكون (آزر) في القرآن ترجمة لـ (تارح) في التوراة؟

نعم. ولكن هذا يقتضي أولًا تأصيل لفظة (تارح) في اللسان العبراني، معناه واشتقاقه، أو معناه واشتقاقه في اللسان الآرامي، لغة إبراهيم (الآرامي)، الوافد على فلسطين (إِرِص كنعان) من حاران في شمالي سورية (إِرِص آرام) كما يقول سفر التكوين.

* * * *

لا يعرف علماء التوراة لاسم أبي إبراهيم (تارح) (أو (تيرح) بإمالة الألف) معنى أو اشتقاقًا، لا من العبرية ولا من الآرامية؛ لعدم وجود الجذر السامي (ترح) في أي منهما، أو على الأقل عدم وجوده فيما هو معروف لنا اليوم من جذور العبرية والآرامية. وأيضًا لأنه لا يستقيم على أوزان هاتين اللغتين افتراض زيادة التاء في تارح اسم أبي إبراهيم في التوراة على نحو زيادتها في (ترواح) العربية بمعنى الرواح، أخذًا من الجذر العبري (أرح)، مقلوب الجذر العربي راح / يروح بمعنى رحل، إذن لقالوا: (آرح)، وهو بالفعل من أعلام التوراة، ومعناه (الرحالة) الكثير التجوال. ربما جاز لك أن تقترح على علماء العبرية في تفسير معنى (تارح) أنه مشتق من (يارَح) العبري بمعنى (قمر)، (ومن هذه (يِرَح) العبري بمعنى شهر قمري)، زيدت فيها التاء فأصبحت (تيرح) (على نطق (تارح) اسم أبي إبراهيم ممالة الألف)، على نحو ما زيدت التاء في (يَمَن) العبري فقيل: (تِيمان) بمعنى الجنوب عبريًّا. ويرد على هذا بأن العبرانيين حين اشتقوا من القمر اسمًا علمًا قالوا: (يَرُوح)، وقالوا: (يِرَح)، ولم يقولوا البتة: (تارح) أو (تيرح).

على أنه لم يقل بهذا أو ذاك من علماء العبرية أحد، بل قد آثروا جميعًا السكوت عن تفسير معنى اسم أبي إبراهيم، على ولوعهم بتفسير الأسماء الأعلام، بل واختراع المناسبة التي اختير الاسم من أجلها، توضيحًا لمعناه. وهم قد توقفوا في (تارح) - على الراجح عندي - خشية مزالق الزلل فيما لم يتضح لهم وجه الصواب فيه. ونحن نحترم لعلماء التوراة هذا السكوت، احترامًا لمفسري القرآن الذين توقفوا عن تفسير (آزر). لأننا نصدق القرآن في (آزر)، تصديقنا للتوراة في (تارح).

في التوراة أيضًا (عدد ٣٣/ ٢٧-٢٨) (تارح) أخرى، هي نفسها رسمًا ونطقًا، توقف أيضًا علماء التوراة عن تفسير معناها. وليست هي في سفر العدد اسمًا لأبي إبراهيم، وإنما هي فيه اسم موضع في صحراء سيناء نزله موسى مع بني إسرائيل أيام تطوافهم في التيه. وليست هذه عبرية بالضرورة، بل عربية، لغة القوافل التي كانت تجوب سيناء إلى مصر. لعلها من الترواح والراحة على معنى المستراح يُحَطُّ فيه الرُّحال. وقد فسرها بهذا المعنى نفسه معجم ويستر[1]. فقال: *Station*، يعني (المحَطُّ) غيرَ جازم؛ لأنه يُعْقِبُها بعلامة استفهام. وهذا يليق باسم موضع، لا سيما في تيه كتيه سيناء، ولكنه لا يليق اسمًا لرجل، ولو أن المعجم المذكور يخلط بين الاسمين في غير ضرورة.

ونحن لا نقسر علماء التوراة على تفسير لاسم أبي إبراهيم (تارح) من العبرية والآرامية، لو كان في العبرية أو الآرامية شيء يعين على هذا التفسير لسبقونا إليه.

ولكننا نقول كما يقول سفر التكوين (تكوين ١١/ ٢٧-٣٣): إن أبا إبراهيم (تارح) لم يكن رجلًا عبرانيًا أو آراميًا، ولكنه كان رجلًا (بابليًا)، ولد في بلدة (أور الكلدانيين) على سافلة نهر الفرات، إلى الجنوب الشرقي من بابل في العراق، ولم يرتحل منها إلى (حاران) في شمالي سورية (إِرِض آرام) إلا وقد نيَّف عمره على مائة عام. ومن هنا تستطيع أن تقول: إن تارح هذا كان ينطق اسمه، الذي سمعه منه بنوه، على مقتضى مخارج ألفاظ اللغة البابلية، لا العبرية ولا الآرامية.

* * * *

يقول علماء اللغات السامية[2]: إن البابليين – وهم بالقطع ساميون من عرب شبه الجزيرة – غلبوا الشومريين على أرضهم في جنوبي العراق حوالي مطلع القرن الثلاثين قبل الميلاد، فنقلوا

(١) انظر: *Proper Scripture & Names (Unabridged) WEBSTERS DICTIONARY Page 98 of Wbsters Foreign Words. With their meaning and place in the Bible. Dictionary supplements.*

(٢) (تاريخ اللغات السامية)، أ. ولفنسون، الباب الثاني، اللغة البابلية – الأشورية، ص ٣٩.

عنهم (الخط المسماري) الذي ابتدعه الشومريون من قبل. ولأن اللغة الشومرية - بالقطع أيضًا لغة غير سامية، فقد خلا الخط المسماري من حروف لا تحتاج إليها تلك اللغة على أصول مخارج ألفاظها من حروف التضخيم كالطاء والظاء والضاد وبعض حروف الحلق، وتحتاج إليها اللغات السامية - ومنها البابلية - كي تفرق مثلًا بين (ظهر) و (زهر)، وبين (عاد) و (آد)، على نحو ما تراه الآن من فوارق بين الخط اللاتيني والخط العربي. وكان موقف البابليين من هذا أنهم اصطنعوا الخط المسماري على علاته، دون أن يضيفوا إلى حروف (الأبجدية المسمارية) ما ينقصها من الحروف التي تحتاج إليها اللغة البابلية السامية.

وقد كان لاستخدام البابليين الخط المسماري في الكتابة، إلى جانب اختلاطهم بالشومريين الذين لم يقضوا عليهم تمامًا، أثر فادح في تشويه الطابع السامي النقي لمخارج ألفاظ أولئك الأعراب الذين جاءوا من جنوبي شبه الجزيرة فتوطنوا في بابل، ومن هذا المزيج وذاك الامتزاج ولدت اللغة البابلية، التي وإن بقيت سامية بجذورها ومادتها وتراكيبها فقد ضاعت منها بعض (الأصوات) التي تختص بها اللغات السامية، وأمها العربية، فتهملها، أو تنطقها محرفة.

وإذا علمت أن تارح أبا إبراهيم ولد في أور الكلدانيين ببابل حوالي مطلع القرن العشرين قبل الميلاد حسبما تستخلص من حسابات سفر التكوين - بعد انقضاء حوالي ألف سنة على توطن أسلافه الساميين في بابل - فقد علمت يقينًا أن لغة تارح هذا وآبائه كانت هي بالقطع تلك اللغة السامية البابلية التي تأثرت بمخارج ألفاظ الشومريين على مدى ألف سنة سبقت، فهي لا تجد حرجًا على سبيل المثال في وضع (التاء) موضع (الطاء) نطقًا وكتابة.

من هنا تقول: إن تارح - اسم أبي إبراهيم في التوراة - إما هو على أصله بالتاء، فيكون مشتقًا من الجذر السامي (ترح) (الذي يفيد في العربية الهم والحزن، وأيضًا قلة الخير)، وإما أن يكون أصله بطاء تحورت في البابلية إلى تاء، فيكون مشتقًا من الجذر السامي (طرح) (على تفاوت في معنى (طرح) بين العربية وأخواتها الساميات)، إن صَدَّقْتَ التوراة في (تارح) تصديقك القرآن في (آزر) فلا سبيل أمامك لتفسير معنى (تارح)؛ إلا بأحد هذين الفرضين لا ثالث لهما.

وقد كان الأضبط - والأثبت - التماس معنى (تارح) البابلية هذه في المعجم البابلي نفسه، ولكن المعجم البابلي للأسف معجم أبتر، يقتصر على مفردات قلائل اقتنصها اللغويون بعد لأْيٍ من حطام نقوش بذلك الخط المسماري الذي حدثتك عنه، ليس من بينها (تارح) أو (طارح).

وقد مر بك أن اللغويين يستعينون في فهم بوائد الساميات بالرجوع إلى معجم اللغة العربية، أم الساميات جميعًا. ومر بك أيضًا أن اللغويين حين يريدون تأصيل معنى جذر ممات في لغة سامية ما، يستعينون بمعنى هذا الجذر في أخواتها وبنات عمومتها.

ولأن القرآن - أصل كل تأصيل للمعجم العربي - لم يعتمد (تارح) (لا بالتاء ولا بالطاء) اسمًا لأبي إبراهيم، وإنما أتى به على الترجمة (آزر)، تفاديًا لنقله عن أصل معناه في لغة صاحبه إن هو أتى به على أصله معربًا - على ما مر بك من منهجنا في هذا الكتاب - فهذا يعني أن (تارح) و (طارح) كلتيهما ليستا من (ترح) و (طرح) العربيين، وإنما هما أو إحداهما من لغة سامية أقرب إلى البابلية تاريخًا وحضارة.

والآرامية والعبرية هما الأقرب إلى البابلية تاريخًا وحضارة. والآرامية والعبرية كلتاهما تخلوان من الجذر السامي (ترح)، ليس فيهما إلا (طرح) بالطاء لا بالتاء.

ومن ثم فلا مفر لك من التماس (تارح) في (طارح)، والتماس معنى (طارح) هذه في العبرية - الآرامية، لا في لغتنا العربية.

(تارح) إذن - أو بالأحرى (طارح) - اسم أبي إبراهيم في التوراة، هو من العلم الأعجمي الذي فسره القرآن بالترجمة، فجاء به على (آزر). فإلى أي مدى أصاب القرآن وسفه خصومه؟

جهل أحبار العبرية معنى (تارح) اسم أبي جدهم إبراهيم كما مر بك، وحققه القرآن كما سوف ترى، فأي إعجاز وأي علم!

❋❋❋

وَزَرَ، يَزِرُ، وَزْرًا فهو وازرٌ[1] يعني حَمَلَ ما يثقل ظهره، ومنه في القرآن: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2]، أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئًا، بل كل نفس بما كسبت رهينة. ومنه (الوزر)، أي: الحمل الثقيل، كما في قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[3]، أي: أثقالها من سلاح وعتاد. واستعمل الوزر مجازًا بمعنى الذنب؛ لأنه يثقل ظهر صاحبه يوم القيامة، كما في قوله عز وجل: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾[4].

وقد سقط من المعجم العبري - الآرامي الجذر السامي (وزر). إلا في لفظ واحد هو (وَزَار) التي وردت اسمًا علمًا في الأصل العبراني لأسفار التوراة على مجازها العربي بمعنى (موزور)، أي: راكب الوزر[5]، لم ترد في التوراة إلا في هذا الموضع، وبقيت في العبرية المعاصرة بمعنى الخاطئ الآثم، يفسرها علماء العبرية بردها إلى الجذر العربي (وزر).

أما (الوِزْر) على أصل معناه في العربية، أي الحمل الثقيل، فهو في العبرية - الآرامية (طُورَحْ)، أخذًا من الجذر العبري - الآرامي (طَرَحْ)، أي حَمَل ما يثقل ظهره، فهو المقابل العبري - الآرامي للجذر العربي (وزر). ولا تستعمل عبرية التوراة من الجذر (طرح) إلا (طُورَحْ) بمعنى الحمل الثقيل، أي: الوزر، وإلا صيغة (هِفْعِيل) (وهي صيغة (أفعل) العربية المتعدية بالهمزة)، فتقول: (هِطْريح)، بمعنى (أوزره)، أي حمله ما يثقل ظهره.

(طارح) إذن (أي (تارح) كما مر بك)، إن اشتققتها من الجذر العبري - الآرامي (طرح)، معناها (الوازر)، على التطابق، لا على المجاز بمعنى الموزور راكب الوزر، وإنما على الأصل بمعنى الحَمُول المُحمَّل.

أما لماذا ترجم القرآن اسم أبي إبراهيم إلى (آزر)، ولم يترجمه إلى (وازر) فهذا من دقيق القرآن كما سترى.

(١) راجع في معجمك العربي مادة (وزر). (٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٣) سورة محمد، الآية: ٤.

(٤) سورة طه، الآية: ١٠٠.

(٥) راجع الترجمة العربية لسفر الأمثال ٢١/٨.

(الْأَزْرُ) عربيًّا ليس أصل معناها (القوة) كما وهِمت بعض المعاجم[1]، وإنما أصل معناها (الظهر). والظهر يكنى به عن القوة، لا العكس. والإزار منه، لأنه يشد به على الظهر، أي على (الأزر). وأزر الزرع بمعنى التف فقوى بعضه بعضًا، يعني (تظاهر)، فكان بعضه لبعض (ظهيرا). وآزَرَهُ مثله. ومنه أيضًا (أَزَرَهُ) بمعنى دعمه وقواه، أي كان له ظهرًا، وآزره يعني كان له ظهيرًا مظاهرًا. وأزره أيضًا يعني ألبسه الإزار، وأزِر هو، بكسر الزاي، فهو (آزَر) (بفتح الزاي كاسم أبي إبراهيم في القرآن) يعني لبس الإزار، ومنه (حصان آزر) يعني حصان أبيض العجز ومقاديمه غير بيض، وكأن بياض عجزه على خلاف مقاديمه (إزار) ائتزر به.

أما أن (الأَزْر) معناه (الظهر)، لا القوة، فهذا يتضح لك من قوله عز وجل على لسان موسى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾[2]، والمعنى (اشدد به ظهري)، لا (اشدد به قوتي) كما وقع في بعض التفاسير، وكما وقع في المعجم الوسيط استشهادًا على معنى (الأزر) بأنه القوة. وليس بشيء؛ القوة تُشَدَّدُ ولا (تشد)؛ لأن (شد) الثلاثي المجرد غير المضعف، حين يتعدى بذاته كما في الآيات التي تلوت توًّا. يقع على المادي ولا يقع على المعنوي، ويكون بمعنى الربط والإيثاق والإحكام، تقول: شد الإسار، وشد العقدة، وشد العضد، وشد الرحال، وشد المئزر، وشد (الأزر)، أي الظهر، لا معنى للقول بخلافه.

وقد فسر القرطبي رحمه الله (الأزر) بمعنى (الظهر) في تفسيره للآية ٣١ من سورة طه، فارجع إليه.

والوزر من (الأزر) قريب، لا في مادته فحسب، ولكن لأن (الوزر) بمعنى الحمل الثقيل لا يكون إلا على (الظهر)، أي على (الأزر). تجد هذا فصيحًا بينًا في قوله عز وجل، يسلي بها نبيه: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾[3]، بل لا يمكن لك تفسير قول العرب: (وزر إليه)

---

(١) منها المعجم الوسيط الذي سكت عن تعريف (الأزر) بأنه (الظهر)، وعرف (الأزر) بأنه (القوة)، مستدلًا بالقرآن: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ [طه: ٣١]. وهي على الضد من قوله وسيأتي.

(٢) سورة طه، الآيات: ٢٩ - ٣١.

(٣) سورة الشرح، الآيتان: ٢، ٣.

بمعنى لجأ واعتصم - ومنه (الوَزَر) بفتح الواو والزاي في قوله عز وجل: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[1] - إلا أن تقول إن (الوَزَر) لغة في (الأَزْر)، بمعنى الظهر يركن إليه، أبدلت فيه الواو من الهمزة، وهو كثير الوقوع في كلام العرب، من مثل (أزف / وزف) و (أكد / وكد) وغيره كثير. كما تجده في قوله ﷺ لبعض تلك النسوة: «ارجعن مأزورات غير مأجورات!».

وكأنه يريد (موزرات) فهمز، أو كأن (وزر) و (أزر) سيان، أو كأن (المأزور) هو (المحمول على أزره)، أي على ظهره، كما تقول: (مكبود)، (مبطون)، (معيون)، فيمن اعْتُلَّ كبده وبطنه وعينه. والقياس من هذا - وإن لم يسمع من العرب - أن تقول: (أَزَرَه)، بمعنى (أوقر أزره) (أي ظهره)، و(أَزِرَ) هو، فهو (آزر) (اسم أبي إبراهيم في القرآن)، يعني موقر الظهر مُثْقَلُه. إنها نفسها (الوازر) حامل الوزر، على أصلها لا مجازها، أي الحَمُول المُحَمَّل، وهو نفس معنى (طارح) العبرية - الآرامية.

وقد عدل القرآن عن (وازر) إلى (آزر) دفعًا لشبهة فهمها بمعنى الآثم الخاطئ (وهي (وزار) العبري كما مر بك)، وليست (طارح) أو (تارح) كذلك. وعدل أيضًا عن استبقائها معربة على أصلها العبري - الآرامي: (تارح) أو (طارح)؛ لأن (تارح) تشتبه في العربية بمعنى (المحزون) التَّرِح، و(طارح) تشتبه في العربية بمعنى (الطريح) المنبوذ، وليست أيضًا (تارح) أو (طارح) في العبرية - الآرامية كذلك، على ما مر بك من منهجنا في تفسير أسباب عدول القرآن عن تعريب العلم الأعجمي إلى ترجمته.

أما اشتقاق (طارح) (تارح في التوراة) من الجذر العبري (طرح) بمعنى (حمل) ما يوقر ظهره، فهو عندي على الوزن (فَعَّال) - وهو وزن في العبرية والآرامية يدل على الفاعل يكثر منه الفعل - فكان من حقه أن يكون (طَرَّاح). ولكن الذي يجب أن تعلمه، وعلمه القرآن من قبل، أن هاتين اللغتين لا تجيزان تشديد الراء، وتستعيضان عن تشديد الراء بمد حركة ما قبلها، فتئول (طَرَّاح) إلى (طَارَح) (تارح في التوراة)، كما قالوا في (حَرَّاش) (أي الحراث) (حَارَش)، يعني الحارث الذي يمتهن الحراثة.

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١١، ١٢.

لا سبيل أمامك إلى تفسير معنى (تارح) البابلية (اسم أبي إبراهيم في التوراة) إلا بردها إلى (طارح) العبرية - الآرامية، أبدل البابليون من طائها تاء.

ولا ترجمة إلى العربية لهذا الاسم البابلي أدق من (آزر) التي في القرآن، بمعنى (الوازر)، على أصلها، لا مجازها.

ولا حرج على القرآن صاحب اللغة - على نحو ما رأيت في (صراط) و(قسطاس) - أن يشتق من الجذر العربي الأصيل مادة لم تسمع قبله من العرب، لا سيما في ترجمة الأسماء الأعلام كما مر بك في (إدريس)، بل في هذا إشارة إلى (عجمة) صاحب الاسم العلم.

قد أصاب القرآن إذن في (آزر) وسفه خصومه. فهل رغمت أنوف؟

جهل خصوم القرآن معنى اسم أبيهم (تارح)، ومازالوا يجهلونه، وعلمه القرآن. فأي إعجاز وأي علم!

كان أولى بالذين طعنوا على القرآن في (آزر) أن يتعلموا منه، ولكنهم لم يفعلوا. وصدق الحق سبحانه إذ يقول في تقريعهم: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

* * * *

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٦.

(٢٣) إبراهيم

(إبراهيم) في القرآن هي تعريب (أبراهام) في التوراة.

ويقول سفر التكوين: إن إبراهيم كان اسمه (أبرام) (المشتقة على المزجية من آب + رام بمعنى (أبو العلاء))، وظل اسمه كذلك حتى كان ابن تسع وتسعين سنة فسماه الله (أبراهام) (إبراهيم في القرآن).

وعلماء التوراة يشتقون (أبراهام) هذه على المزجية من (آب + راب + هام)، حذفت الباء التي في (راب) للمزجية استثقالًا، وخفف المد الذي في (آب) للمزجية أيضًا، فأصبحت (أب + را + هام)، أي (أبراهام).

أما معنى (أبراهام) هذه عند علماء التوراة؛ فهم يرون أن (راب) ههنا يعني (كثير)، وأن (هام) يعني (جمهور)، ومن ثم فهذا الاسم يعني عندهم (أب + كثير + جمهور)، يريدون: أبو جمهور كثير.

وقد تورط علماء التوراة في هذا التفسير اتباعًا لسفر التكوين[1] الذي أراد أن يكون معنى (أبراهام) أبًا لجمهور من الأمم (آب - هامون - جوييم)، نبوءة من الله عز وجل لإبراهيم بكثرة النسل، فألزم بها سفر التكوين علماء التوراة من بعده.

ولكنك تستدرك على علماء التوراة هؤلاء متسلحًا بنحو اللغة العبرية ذاتها ومعجمها، فتقول: إن (راب) التي في آب + راب + هام (أب + كثير + جمهور) لا يصح عبريًّا أن تفهم في هذا الاسم على الصفة بمعنى (كثير)؛ لأن المفرد (الأب) لا يوصف بالكثرة، فلا يجوز لك

(١) تكوين ١٧/ ٥.

أن تقول: (أب كثير)، ولا يصح عبريًّا أيضًا أن تكون (كثير) هذه صفة لما بعدها (الجمهور)؛ لأن الصفة لا تتقدم الموصوف، كما في العربية سواء بسواء، ولا يصح في عبرية التوراة كذلك - وإن صح في العربية - إعمال الصفة فيما بعدها، كأن تقول: (أب كثير الجمهور)، أقرب من هذا إلى الصواب أن تقول في (راب) العبرية هذه: إنها صفة بمعنى (كبير)، (وهو من معانيها في العبرية)، تصف بها (الأب) على التوقير والتمجيد، فيكون المعنى (أب كبير لجمهور)، وليس هذا هو الذي يريد سفر التكوين، فهو يريد الكبر والكثرة للجمهور لا للأب، بدلالة تفسيره الاسم بقوله: (أب لجمهور من الأمم).

أما الشديد النَّكِر، فهو أن (هام) العبرية هذه لا تعني البتة (جمهور) كما أراد سفر التكوين وتابعه عليها من بعده علماء التوراة، وإنما معناها في العبرية (الناس)[1]، أخذًا من ضمير الجماعة العبري (هِيم) (بإمالة الألف)، وهي (هُمْ) العربية.

من هنا يتضح لك أن المعنى الأقرب إلى الصواب عبريًّا في (أبراهام) هو فهمه بمعنى (أب كبير للناس).

ولكنك تعلم من العبرية أيضًا أن (راب) على الاسمية لا الصفة، تعني (الرئيس)، (السيد)، (المعلم)، (الإمام)، ومنها (الرباني) على ما مر بك في تضاعيف هذا الكتاب، ومنها في العبرية المعاصرة قولهم على النداء توقيرًا: مُوري ورَبِّي! أي معلمي وأستاذي، إنها إذن الأستاذ الإمام.

عندئذ تقطع غير ملتفت إلى تفسير سفر التكوين وعلماء التوراة، بأن (أبراهام) إنما تعني في لغة صاحب هذا الاسم العلم: إمام الناس، وهي عبريًّا (راب + هام)، لا تحتاج في أولها إلى (آب)، ولكن بقيت (آب) مضافة إلى الاسم على الراجح عندي؛ دلالة على الانتقال بالاسم من (آب + رام) إلى (آب + راب + هام) على وجه الحشو المؤكِّد؛ لأن في (آب) من معنى الإمامة بعض ما في (راب).

(١) راجع المعجم العبري (هَمِّلُّون هِحَداش لتناخ)، ص ١٢٠، المرجع المذكور.

وهذا هو نفسه التفسير القرآني لمعنى إبراهيم بالمرادف في قوله عز وجل: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾[1]، ولم يفطن إليه مفسرو القرآن كما سترى.

تكلم مفسرو القرآن[2] في معنى اسم إبراهيم، منهم من أنصف فاكتفى بالقول بعجمته (الماوردي)، ومنهم من تصدى لتفسيره (ابن عطية) فقال: إن معناه من السريانية هو (الأب الرحيم)، مؤكدًا أن (رهيم) في السريانية معناها (رحيم) في العربية، فتندهش كيف تورط فيها الرجل على جلال قدره وعلمه، وليس في السريانية بالطبع من هذا شيء، بل ولا في الآرامية والعبرية، ولا تدري أيضًا أي شقي في نواحي العراق دسها عليه، إلا أن يكون (هنديًّا) تسربل في ثياب السريان ينطق حاءهم هاء.

وعلل بعضهم سبب التسمية (السهيلي) بقوله في معرض التشابه القوي بين السريانية والعربية: (ألا ترى أن (إبراهيم) تفسيره (الأب الرحيم) لرحمته بالأطفال، ولذلك جعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارًا إلى يوم القيامة). وهذا - فوق سماجته - ضعيف، تشم فيه من قريب رائحة النقل عن أهل الكتاب من الملتين، وعندهم أن (الأبرار) يذهبون إلى حضن إبراهيم وسارة.

والطريف أن القرطبي رحمه الله تحمس لهذا التعليل فعززه بقوله: (ومما يدل على هذا ما أخرجه البخاري في حديث الرؤيا الطويل عن سمرة، وفيه أن النبي ﷺ رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس).

وليس في هذا الحديث أيضًا - وإن صح - ما يشهد لتفسير اسم إبراهيم بمعنى الأب الرحيم، وإنما هذا هو ما أسميه (التفسير بالتخمين) أو (التفسير بالفراسة)[3]: تُسْقِط صورة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٣) شبيه بهذا التفسير بالتخمين أو التفسير بالفراسة، ما تقرؤه في بعض التفاسير، وأيضًا في بعض المعاجم، التي تقول لك: إن لفظة (أمة) حين يوصف بها إنسان تعني الرجل الجامع لخصال الخير، يستشهدون لها بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [النحل: ١٢٠]، وليس هذا من اللغة في =

في ذهنك على شخص صاحب الاسم العلم، ثم تستخلص من هذه الصورة التفسير الذي تريد، لا تكلف نفسك مؤونة تأصيل مبنى الاسم ومعناه في لغة صاحبه.

بل ليس البر والرحمة هما أعظم مناقب إبراهيم عليه السلام حين يُتكلَّف اشتقاق هذا الاسم منهما، وإنما كانت كبرى مناقبه عليه السلام بشهادة الله عز وجل، أنه إبراهيم الذي وفى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[1].

شغل إبراهيم عليه السلام - وهو بعدُ صغير - بالنظر في النجوم، يطلب الحق المبين، فهداه الحق إلى الحق، وانبرى وحده في قومه يدعو إلى الواحد، فابتلي بكفر أبيه آزر، ينحت الأصنام ويبيعها للناس، كالساخر بدعوته، لم يكن أبوه ردءًا له، وإنما كان حربًا عليه، يستغل سلطان الأبوة في إسكات الدعوة: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[2]، ولم يزد هذا إبراهيم بأبيه إلا برًّا، ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[3]، وكاد أصنامهم في غفلة منهم، ليريهم على أعين الناس أن الإله الذي لا يدفع الضر عن نفسه، أَفَمَن ألا يدفع الضر عن غيره، أو يَضُرَّهُ، ولكنه بفعلته هذه لم يهتك ستر أصنامهم فحسب، وإنما هتك ستر كهنتها وسدنتها، الذين يعلمون من قبل أنها لا تضر ولا تنفع، ولكنهم يعللون بها المستضعفين ويسوسون الدهماء، هنا برح الخفاء ولم يعد يصح السكوت، فكان جزاؤه من أبيه وقومه أن يحرقوه بالنار؛ انتصارًا لآلهتهم، وكيلا يفتتن به الناس. أسلم إبراهيم أمره لله، فقد علم هو من قبل أن الله حسبه، وإذا النار على إبراهيم برد وسلام؛ فالنار لا تحرق مؤمنًا ناهيك بخليل الرحمن، ولكن القلوب تعمى عن الآية الكبرى، فاعتزلهم وما يعبدون من دون الله، لم يؤمن له منهم إلا زوجه سارة وابن أخيه لوط، فخرج بهما مهاجرًا إلى ربه، لا شيعة ولا أتباع، يرجو رحمة ربه في نسل صالح يعينه

= شيء، وإنما الأمة هنا يعني الإمام، وسيأتي.

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة مريم، الآية: ٤٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ٤٧.

على أمر الله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1]، ولكن العزيز الرحيم يبتلي إبراهيم فيرجئ الاستجابة إلى وقتها المكتوب عنده، ويصبر إبراهيم حتى يأتي أمر الله، لا يضار الزوجة التي صبرت ووفت، حتى جاوز الثمانين، فيولد له من هاجر بكره إسماعيل وقد ناهز إبراهيم ستًّا وثمانين، كما تقرأ في سفر التكوين (تكوين ١٦/١٦)، وعززه القرآن بقوله عز وجل على لسان إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[2].

فهل انتهت (بلاءات) إبراهيم؟ كيف وهو عز وجل يريد لإبراهيم أن يكون المثل الأعلى لاصطبار المؤمن وإذعانه لأمر الله؟

ما أقر الله عينه بإسماعيل حتى ابتلاه فيه، فأمره بفراقه فطيمًا تحمله أمه، ليضعه في واد غير ذي زرع، لا ماء ثَمَّ ولا طعام، ولكن إبراهيم يمضي لا يلتفت وراءه تاركًا فلذة كبده عن أمر الله، لا ينفطر ولا يجزع، فقد علم هو من قبل أن الذي خلق وهدى هو الذي يطعم ويسقي: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾[3]، فأي طاعة وأي إيمان!

لم يخلق الله إسماعيل ليؤنس أباه في شيخوخته، وإنما خلقه ليكون شجرة إيمان أصلها ثابت في الأرض وفرعها في السماء، ألقيت بذرتها في واد أصم، يراد له بعد نحو أربعة وعشرين قرنًا حمل لواء الدعوة الخاتمة والبلاغ المبين.

ويشب الغلام بعيدًا عن أبيه، ويمتثل إبراهيم، فهل انتهت (بلاءات) إبراهيم؟ كلا، ما إن يبلغ الغلام ثلاث عشرة سنة، وقد ناهز إبراهيم تسعًا وتسعين، حتى يجيء (البلاء المبين): يؤمر إبراهيم بذبح ابنه بيده، ويا لهول ما يؤمر! لأهون عليه أن يذبح نفسه بيده ولا يرى ابنه يشك بشوكة تدميه، ولكن الله هو الآمر، والمأمور هو إبراهيم الذي علمت، ويمتثل إبراهيم، أفيتأبى إسماعيل على أمر الله، يضاعف على أبيه المحنة فيستغيثه الأبوة ويناشده الرحمة؟

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

فما علمك ببر إسماعيل أباه؟ كلا، بل يخفف عن أبيه البلاء، فيستحثه ويستنجزه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]، لا يصطنع البطولة، وإنما يقدم المشيئة، مسلمًا وجهه لله، فأي أب وأي ابن!

تهيأ الابن للذبح، وتهيأ الأب لإجراء السكين، فقيل له: قف! قد أتممت! فلم ير إبراهيم في المنام إلا أنه يذبح ابنه، لا أنه ذبحه بالفعل، وهذا هو معنى قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[2].

وإلى هنا تم بلاء إبراهيم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾[3]، بلاء لم يمتحن به قط إيمان رجل من قبل ومن بعد.

أما (جزاء المحسنين) فقوله عز وجل: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[4]، وأيضًا بشراه بإسحاق يثني به إسماعيل ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[5] - وإسحاق يعني (الضحوك) كما قد علمت - ثوابًا من عند الله له ولزوجه سارة رفيقة جهاده الطويل، فلم ير إبراهيم بعدها إلا ضاحك السن، قد صفت له الأيام، وبارك الله على إبراهيم وآله، فصارت جزءًا من (تشهد) المسلم في كل صلاة.

كان إبراهيم المثل الأعلى للمسلم الحق، يسلم أمره كله لله، وكان إبراهيم المثل الأعلى للمؤمن الحق، تَنْهَدُّ الجبال ولا يتزعزع له إيمان، فكان حقه على الله عز وجل أن يقول فيه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾[6]، يؤتسى به ويؤتم[7]. وكان حقه على الله عز وجل أن يقول

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٠٣ - ١٠٥.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠٦.

(٤) سورة الصافات، الآيات: ١٠٨ - ١١٠.

(٥) سورة الصافات، الآية: ١١٢.

(٦) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٧) قالت بعض التفاسير كما قالت بعض المعاجم: إن لفظ (الأمة) هنا يعني الرجل الجامع لخصال =

فيه: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[2]، وكان حق إبراهيم على الله عز وجل أن يستجيب دعوته في الملة الآخرة: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾[3]، فيكون إمام المذهب والطريقة، أي الملة: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾[4].

كان جزاء إبراهيم الذي وفى - وقد اجتاز البلاء المبين - أن جعله الله عز وجل إمامًا للناس: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾[5]، وهذا هو المعنى الدقيق لاسم إبراهيم (إمام الناس) الذي لا يصح في العبرية غيره كما مر بك، وتلك هي مناسبة الانتقال باسمه من (أبرام) إلى (أبراهام) يوم التمام باجتياز (البلاء المبين).

ولكنك لا تقرأ في سفر التكوين شيئًا يعلل لك سبب العدول باسم إبراهيم من (أبرام) إلى (أبراهام) وهو عندئذ ابن تسع وتسعين، دون أسباب أو مقدمات، إلا إرادة الوعد بكثرة النسل: (ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملًا فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرًا جدًّا. فسقط أبرام على وجهه.

= الخير، وليس هذا من اللغة في شيء كما مر بك، لا يجوز للغوي الحاذق أن يشتق المعنى بعيدًا عن أصل المادة اللغوية، أي بعيدًا عن المعنى الرئيسي للجذر الثلاثي المشتق منه. ولا يجوز لغة التفسير بالحدس والفراسة، إن أصبت مرة فقد أخطأت مرات، بل يكون الجذر الثلاثي للمادة اللغوية هو إمامك. ليس في مادة الجذر العربي أ/ م/ م شيء يفيد الجمع بين خصال الخير، وإنما كل ما في العربية بألف وميم مضعفة أو مكررة يدور حول معنى الأم التي ولدت، والأم بمعنى المثابة، يثاب إليها، والأم يجتمع إليها صغارها، والأم يتبعها ولدها. والأمة في الآية اسم من هذا، إنه (القدوة) وزنًا ومعنى.

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٣٠، ١٣١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٤) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

وتكلم الله معه قائلًا: أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بَعْدُ أبرام بل يكون اسمك إبراهيم (أبراهام في الأصل العبراني). لأني أجعلك أبًا لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيرًا جدًّا وأجعلك أممًا. وملوك منك يخرجون)[1]. أما العهد الذي يلتزم به إبراهيم لقاء وعد الله إياه بكثرة النسل فهو (عهد الختان): (وأما أنت فتحفظ عهدي. أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختتن منكم كل ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بيني وبينكم)[2] (فيكون عهدي في لحومكم عهدًا أبديًّا. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختتن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي)[3].

في هذا اليوم أيضًا، وفي مناسبة تعديل اسم أبرام إلى أبراهام، عدل الله كذلك - كما يقول سفر التكوين - اسم زوجته من (ساراي) إلى (سارة)[4]: (وقال الله لإبراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي، بل اسمها سارة. وأباركها وأعطيك أيضًا منها ابنًا وأباركها فتكون أممًا، وملوك شعوب منها يكونون)[5]. أي في هذا اليوم أيضًا كانت البشرى الأولى لإبراهيم بابنه إسحاق. وهذا يتفق مع القرآن الذي يجعل توقيت البشرى الأولى بإسحاق تعقيبًا على اجتياز إبراهيم اختبار (البلاء المبين)، كما تجد في قوله عز وجل لحظة فداء إسماعيل: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[6].

(١) تكوين ١٧/ ١ - ٦.
(٢) تكوين ١٧/ ٩ - ١١.
(٣) تكوين ١٧/ ١٣ - ١٤.
(٤) حاول علماء التوراة المغايرة بين معنى (ساراي) ومعنى (سارة) ليبرروا تعديل التسمية، فقالوا غير جازمين: إن الأولى من المساورة والمغالبة، والثانية من السراوة والشرف. أما (سارة) فهي عبريًّا من الجذر (سرر) ومكافئه العربي سرا/ يسرو/ سراوة، فهي (سَرِيَّة) بمعنى (أميرة). وقد بقي من هذا في عربية المماليك في مصر المتأثرة برواسب آرامية لفظة (سارعسكر)، أي: أمير الجند.
(٥) تكوين ١٧/ ١٥ - ١٦.
(٦) سورة الصافات، الآيات: ١٠٧ - ١١٢.

ولكن الكاتب يسقط عمدًا من هذا السياق (اختبار الذبح)؛ لأنه يريد شرف هذا (البلاء المبين) لإسحاق، لا لإسماعيل، وإسحاق لم يولد بعد. فيرجع الحديث عن هذا إلى أن يولد إسحاق. فيجيء الكلام مقطوعًا عن سياقه، ولا تفهم وجه التناسب بين (عهد الختان) وبين (تكثير النسل). ولا بين هذين وبين وجه الضرورة إلى تغيير اسم إبراهيم - وهو ابن تسع وتسعين سنة - من أبرام إلى أبراهام، إلا أن يكون معنى (أبراهام) هو المنجاب المنسال، ذلك المعنى الذي اضطر إليه الكاتب. فألزم به علماء التوراة من بعده على خلاف مع نحو اللغة العبرية ومعجمها.

****

كان إسماعيل يوم تبدل اسم إبراهيم من (أبرام) إلى (إبراهام). ابن ثلاث عشرة سنة - كما يقول سفر التكوين (تكوين ٦٧/ ٢٥) - يصح به (القربان) في اختبار الذبح[1]. البلاء المبين. وكان جديرًا بكاتب سفر التكوين الذي بين يديك أن يتخذ من اجتياز إبراهيم هذا الاختبار الفذ، مناسبة لتعديل اسمه من (أبرام) إلى (أبراهام)، أي من (أبي العلاء) إلى (إمام الناس) في الإسلام والإيمان. لحظة أثبت جدارته بهذا الوسام.

ولكن كاتب سفر التكوين الذي بين يديك لا يهتم لهذا ولا يريده؛ لأنه يفوت على بني إبراهيم عبر إسحاق هذا الشرف، وإسحاق لم يولد بعد، فنقل (بطولة) اختبار الذبح من إسماعيل إلى إسحاق، كما كان يفعل بعض فراعنة مصر بنقوش أسلافهم؛ يرفعون اسم الفرعون صاحب النقش الذي يسجل أمجاده. ويضعون مكانه اسم الفرعون البطل (المزيف)، فيفضحهم علماء الآثار حين يكتشفون التدليس. هذا بالضبط هو ما فعله الكاتب؛ لأنك حين تقرأ له عبارة: (خذ ابنك وحيدك الذي تحبه...)[2] تتوقع حتمًا أن تجيء بعدها مباشرة لفظة (إسماعيل)، ولكن الكاتب يضع مكانها بكل ثقة لفظة (إسحاق)، يكررها في كل مواضع واقعة اختبار

---

(١) هذا يقارب عبارة القرآن: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات: ١٠١ - ١٠٢].

(٢) تكوين ٢٢/ ٢.

الذبح، غير عابئ بذاكرة القارئ الذي قص عليه من قبل أن (إسحاق) لم يكن قط ابنًا (وحيدًا) لإبراهيم، وإنما الذي كان ابنًا (وحيدًا) لإبراهيم، وظل كذلك حتى مولد (إسحاق) هو بكره (إسماعيل)، فتقطع بأن ثمة أحدًا (ذا مصلحة) قد عبث بهذا النص (المقدس)، لأن اختبار الذبح بابن (وحيد) لا يمكن عقلًا أن يقع وإسحاق يثني إسماعيل، بل لا يمكن عقلًا أن يقع إلا قبل مولد إسحاق، فلا يكون إلا بإسماعيل صاحب لقب (الابن الوحيد) وحده، فتقطع بأن مكان الحديث عن واقعة اختبار الذبح هو هذا الإصحاح السابع عشر نفسه الذي تقرر فيه - جزاء لإبراهيم على اجتيازه هذا الاختبار الفذ. تعديل اسمه من (أبرام) إلى (أبراهام)، أرجأه الكاتب إلى الإصحاح الثاني والعشرين ريثما يولد إسحاق ويشب.

ولأن كاتب سفر التكوين يرى محقًا أن اجتياز إبراهيم البلاء المبين، أي اختبار الذبح، يستحق جزاء يكافئ بر إبراهيم، فقد عقب على واقعة اختبار الذبح (الذي كان بإسحاق كما يقول) بقوله على لسان الله عز وجل: (من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة وأكثر نسلك كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر، ويرث نسلك باب أعدائه، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض، من أجل أنك سمعت لقولي)[1]، يجعل جزاء إبراهيم (كثرة النسل) كما مر بك، ويطنب في أمجاد هذا النسل (المبارك)، وكأنما المكافأة لنسل إبراهيم، لا لإبراهيم نفسه، ينزعها الكاتب عن إبراهيم ويخص بها نفسه وشعبه.

أما الذي يستوقف النظر، الذي فات الكاتب أن يتذكره، فهو أن إبراهيم عقب اختبار الذبح (الذي كان بإسحاق كما يقول) لم يكن في حاجة إلى (مكافأة) تكثير النسل؛ لأنه حصل على الوعد بها من قبل (مجانًا)، منحها له الكاتب دون مناسبة، بل دون ابتلاء تطير له النفس شعاعًا، حين أراد - وهو يمهد لتفسير اسم إبراهيم - النص على كثرة نسله، فقال في الإصحاح الخامس عشر: (فإذا كلام الرب إليه قائلًا: لا يرثك هذا. بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك. ثم أخرجه إلى خارج وقال: انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن

(١) تكوين ٢٢/١٦ - ١٨.

تعدها. وقال له: هكذا يكون نسلك. فآمن بالرب فحسبه له برًّا)[1]، أي: قالها الرب لإبراهيم جازمًا قاطعًا لا تحتاج إلى مزيد تأكيد، فما الداعي للمكافأة بها على اجتياز (البلاء المبين)؟ ثم ينتقل الكاتب إلى الإصحاح السابع عشر، يوم كان إبراهيم ابن تسع وتسعين، يريد توقيت تعديل الاسم من (أبرام) إلى (أبراهام) - ولم يولد بعد إسحاق - على ما مر بك فيقول: إن الرب تراءى لإبراهيم يكرر له العهد (أي العهد بتكثير النسل) فيقول له: (أما أنا فهو ذا عهدي وتكون أبا لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بَعْدُ أبرام، بل يكون اسمك إبراهيم (أبراهام في النص العبراني)؛ لأني أجعلك أبًا لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيرًا وأجعلك أممًا)[2]. أفلم يؤمن من قبل إبراهيم بالوعد الأول الذي في الإصحاح الخامس عشر، وحسب له ذلك برًّا، فلم التكرار ولم يحدث من إبراهيم شيء ينم عن تشككه في ذلك الوعد؟ وما الذي فعله إبراهيم ههنا حتى يكافأ عليه بالتلويح من جديد بوعد تكثير النسل، بل ما الذي يبرر علة تغيير الاسم من (أبرام) إلى (أبراهام) فجأة دون مناسبة ودون مقدمات وقد بلغ من الكبر عتيًّا؟ أليس ههنا موضع الحديث عن اختبار الذبح. فيكون تغيير الاسم مكافأة على اجتياز الاختبار؟ ولكن إسحاق لم يكن قد ولد بعد، والكاتب يريد أن يخصه هو من دون إسماعيل بهذا الشرف، فيقتطع اختبار الذبح من الإصحاح السابع عشر ويحشره حشرًا في الإصحاح الثاني والعشرين، بعدما ولد إسحاق وشب. ونسي الكاتب أنه في الإصحاح السابع عشر تنبأ لإبراهيم بأنه سيكون له من سارة زوجته ابن (أي إسحاق) منجاب كثير النسل: (وأباركها وأعطيك أيضًا منها ابنًا. أباركها فتكون أممًا وملوك شعوب منها يكونون)[3]، فكيف يصدق إبراهيم الرؤيا بذبح إسحاق صبيًّا يافعًا لم ينجب بعد؟

على أن اقتطاع اختبار الذبح من الإصحاح السابع عشر (كيلا يكون بإسماعيل) ورده إلى الإصحاح الثاني والعشرين (كي يولد إسحاق ويشب)، يترك الكلام في الإصحاح السابع

(١) تكوين ١٥/ ٤ - ٦.
(٢) تكوين ١٧/ ٤ - ٦.
(٣) تكوين ١٧/ ١٦.

عشر قلقًا، إذ لا معنى لأن يقال لإبراهيم وهو في سن تسع وتسعين: لا يدعى اسمك بعد أبرام....، أي أن اسم (أبرام) لم يعد يليق بك. فلماذا؟ ما الذي حدث له أو منه في هذه السن كي ينبو عنه اسم (أبرام)؟ إنه بلا شك اجتياز اختبار الذبح، أي البلاء المبين الذي كان بإسماعيل ولم يكن بإسحاق الذي لم يولد بعد. ولكن الكاتب كما مر بك لا يريد ذلك، فماذا يفعل؟ تحايل على سد الثغرة فجعل لتكرمة إبراهيم باسمه الجديد مقابلًا يلتزم به في نفسه وولده، وهو عهد الختان. ولكن الكاتب يعلم أن الختان من سنن الفطرة، هدي إليه إبراهيم كما هدي إليه المصريون من قبل. ويعلم أيضًا أنه لا معنى لربط الختان بكثرة النسل، فماذا يفعل؟ افتعل للختان رمزًا غليظًا، يخرج به عن أصله كقاعدة من قواعد النظافة الجسدية، ليصبح كالوسم، توسم به الماشية علامة على الانتماء والملكية: (أما الذكر الأغلف الذي لا يختتن في غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه نكث عهدي)[1]. وكان (بولس) – رسول الحواريين إلى أوربا – قد فطن من بعد إلى أن تعليق الدخول في حظيرة إبراهيم على هذا الشرط الغليظ – شرط الختان – قمين بأن يقطع (نسل) إبراهيم لا أن يكثر نسله كما تقول النبوءة التي في سفر التكوين، فقال بعدم وجوبيته. فعدل عنه المسيحيون جميعًا، إلا من ولدوا بأرض ورثت الختان فطرة، ولم ترثه ديانة[2].

ولكن المعضلة لا تزال ماثلة أمام الكاتب: ها هو في الإصحاح الثاني والعشرين يوقع اختبار الذبح على إسحاق كما مر بك، فماذا بقي في جعبته من جائزة يكافئ بها بر إبراهيم حين اجتاز بنجاح لا نظير له هذا الاختبار الفذ؟ ليس في ذهنه إلا جائزة (تكثير النسل) يطنطن بها، لا يسأم ولا يمل، ناسيًا أن إبراهيم يحمل على صدره هذا الوسام من قبل بمقتضى اسمه الجديد – الذي فسره بالمنجاب الكثير النسل – وبمقتضى عهد الختان. ولكن الكاتب لا يعبأ بذاكرة قارئه كما مر بك، فحسبك الله ونعم الوكيل.

بل ليس في كثرة النسل كما تعلم مجد لأحد، حتى يجازي بها الله بر إبراهيم. فضلًا عن

(١) تكوين ١٧/ ١٤.

(٢) شأن المصري المسيحي، على سبيل المثال.

أن هذه النبوءة لم تتحقق إن أردت نسل إبراهيم عبر إسحاق، كما قالها سفر التكوين بالنص، خطابًا من الله عز وجل لإبراهيم: (بإسحاق يدعى لك نسل)[1].

ليست أبوة إبراهيم هي أبوة (الناسل)، وإنما هي أبوة (الإمامة).

ولو قد فطن كاتب سفر التكوين - وفطن من بعده علماء التوراة - إلى هذا المعنى الجليل في اسم إبراهيم عليه السلام، لعضوا عليه بالنواجذ. ولكن (ألهاهم التكاثر)، عقدة اليهود في كل عصر: أراد الكاتب مجده هو ومجد شعبه - إن كان في كثرة النسل مجد - ولم يطلب مجد إبراهيم، فأراد الأب المنجاب (الناسل)، ولم يرد الأب (الإمام).

قال المسيح عليه السلام في تقريع هؤلاء، ينص على أبوة الإمامة: (لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم. ولكنكم الآن تطلبون قتلي، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله[2]. هذا لم يعمله إبراهيم)[3].

وقالها القرآن أيضًا فأوجز وأبلغ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾[4].

وليس بعد هذا شرف لإبراهيم عليه السلام، النبي الإمام، صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه، وعلى كل من تبعهم بإحسان.

* * * *

(١) تكوين ٢١/ ١٢.

(٢) ما فتئ المسيح، وكأنما يتنبأ بما سيكون من بعده، ينص على بشريته: إنسان يوحى إليه. ولكنك لا تهدي من أحببت، بل يهدي الله لنوره من يشاء.

(٣) يوحنا: ٨/ ٣٩ - ٤٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

(٢٤) لوط

(لوط) في القرآن هي نفسها (لوط) في التوراة، لا فرق بينهما في الكتابة، ولا فرق أيضًا بينهما في النطق إلا أن لفظة (لوط) العبرية - الآرامية ينطق فيها المد لا بالواو، وإنما بالضم، مثلها مثل (يُوم) العربية العامية، أو *Bought* الإنجليزية.

أما (لوط) العبرية فهي من الحجاب والخفاء والستر، تشتقها من الجذر العبري (لاَط / لوط)، وقرينه العربي (لَطَّ)، وأيضًا (لاط / يلوط / لَوْطًا) بمعنى ستره وأخفاه. (لوط) العبرية إذن مصدر بمعنى الحجب والستر، وأيضًا اسم بمعنى حجاب.

إن نطقت (لوط) العبرية مدًّا بالواو، مثل لوط في القرآن، فهي على زنة اسم المفعول في العبرية، والمعنى محجوب مستور. وإن نطقتها مدًّا بالضم (مثل (يُوم) العربية العامية) كما في التوراة، فهي على زنة المصدر في العبرية، والمعنى ستر وحجاب.

من ذلك في العبرية المعاصرة قولهم عن الشيء غيبه الضباب: (لوط بِعَرافِل) أي (لِيطَ بضباب)، و (عرافل) عبريًّا يعني الضباب.

* * * *

في العبرية أيضا (لوط)، بنفس نطق اسم نبي الله لوط في التوراة ومعناها في العبرية (لاذَن)، ذلك الصمغ (الراتينجي) الذي يعلك أو يستعمل عطرًا أو دواء، صاغته العبرية على الراجح من معنى اللزوق والعلوق الذي بقي في (لَطَّ) و (لَاط) العربيين، وضاع من الجذر العبري (لاط / لوط).

وفى السريانية كذلك (لوط) أخرى معناها (فُسْتُق)، وبعيد أن يكون اسم (لوط) منه؛ لأن اللغة السريانية لم تولد إلا بعد لوط بقرون وقرون.

على أن علماء العبرية لا يفسرون اسم (لوط) باللاذن أو الفستق، وإنما يفسرونه بالستر والحجاب، فهو حجاب أو محجوب، وبهذا المعنى نفسه فسره القرآن.

وغير بعيد أن لوط عليه السلام لم يكن هذا اسمه، وإنما شهر به عشية البطشة الكبرى بالقرية التي كانت تعمل الخبائث، رمزًا لآية طمس أعينهم عنه وخروجه من بينهم بقطع من الليل، في (ساتر) الله عز وجل.

* * * *

أما مفسرو القرآن[1] فقد قال الكثرة بعجمة هذا الاسم، ولم يتصدوا لتفسيره. ولكن كان منهم (الفراء) الذي حاول تفسيره من العربية، إلا أنه أخطأ معنى الستر والخفاء الذي في (لاط) العربي، وتعلق بمعنى اللصوق والعلوق (وهو الأشهر في (لَطَّ) و (لَاط) العربيين) فقال: إنه من قولك (هذا أليط بقلبي) يعني ألصق بقلبي، أي أحب إلي. وهو لم يفطن إلى معنى الخفاء والاستتار في هذا الجذر العربي؛ لأنه بادئ بدء لم يقسه على قرينه العبري، فأخطأ ولم يصب.

لم يكن بين يدي مفسري القرآن وقتئذ ذلك المنهج الذي هدانا الله إليه بفضل منه ونعمة: تفسير العلم الأعجمي في القرآن بالقرآن. فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله.

* * * *

فسر القرآن اسم (لوط) عليه السلام بأدوات ثلاث: فسره بالتعريب، وفسره بالمقابلة، وفسره أيضًا بالسياق العام، أي بالتصوير.

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٨٠ من سورة الأعراف.

فسره بالتعريب. لأن (لوط) نفسها تفهم عربيًا على أنها اسم فُعْل بمعنى مفعول، من لاط / يلوط / لَوْطا، كما تقول مثلًا (جُعْل) بضم فسكون وتعني (مجعول)، من جعل / يجعل / جَعْلًا. فهو المستور المحجوب، أي (الذي ليط). وهو تعريب وليس ترجمة؛ لأن (لُوْط) بضم اللام لم تسمع من العرب. ولكنه تعريب مفسر، إن تمعنت.

وفسره بالمقابلة، أي بالضد من معناه كما مر بك، في مثل قوله عز وجل على لسان لوط: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾[1]، وفضحه يعني هتك ستره. وأيضًا في قوله عز وجل على لسان لوط يزجر قومه: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾[2]، أي أتأتون الفاحشة علانية لا تستترون! وكان الكفرة الفجرة يتلاوطون علنًا. لا يستتر بعضهم من بعض، كما أخبر الله عز وجل على لسان لوط في خطاب قومه: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ﴾[3].

وفسره أيضًا بالتصوير، أي بالسياق العام، في إنجاء الله لوطًا من قومه قبيل البطشة الكبرى بالقرية التي كانت تعمل الخبائث. وقد فصلنا القول في هذا عندما اتخذنا من اسم (لوط) مثالًا للتفسير بالتصوير في الفصل الثالث (٥) من هذا الكتاب، فارجع إليه في موضعه، كراهة أن نثقل عليك بالتكرار.

* * * *

(١) سورة الحجر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٤.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

(٢٥) إسماعيل

(إسماعيل) في القرآن هي تعريب (يِشْمَعِيل) العبرية في التوراة.

وهي في العبرية على المزجية من (يشمع + إيل)، ومعناها الحرفي (يسمع الله).

وقد مر بك أن العبرية تستخدم المضارع وتريد اسم الفاعل منه، فيكون معنى هذا الاسم (الله سميع)، أو (سميع هو الله).

وسفر التكوين لا يحدثك بشيء عن مناسبة هذه التسمية؛ لأن غاية همه بنو إبراهيم عبر إسحاق، لا يهتم لشيء من أمر إسماعيل، إلا شذرات تجيء عبر السياق.

ولكنك تجد مناسبة هذه التسمية في القرآن.

فقد مر بك أن إبراهيم - عليه السلام - حين انقطع ما بينه وبين أبيه وقومه، خرج مهاجرًا إلى ربه يدعوه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، فاستجاب له عز وجل بالبشرى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾[2]، أي بإسماعيل، لا يصح أن تقول: بإسحاق؛ لأن إبراهيم دعا بها لحظة خرج مهاجرًا إلى ربه لا يصحبه إلا زوجه سارة وابن أخيه لوط، دعا بها وهو بعد (فتى يقال له إبراهيم)[3]، عقيم الزوج لم يولد له بعد إسماعيل، بل لم يلتق بعد بهاجر أمه، التي أهداها إليه ملك مصر بعد سنوات من التطواف والترحال، كما تقرأ في سفر التكوين.

بشر الله عز وجل إبراهيم بهذا الغلام الحليم ولم يستجب له من فوره، وإنما أرجأ

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠١.

(٣) راجع الآية ٦٠ من سورة الأنبياء.

الاستجابة إلى أجل مسمى عنده، يبتلي صبر إبراهيم. كان مقدورًا لإسماعيل بكر إبراهيم ألا يجيء من زوجه سارة الآرامية ابنة عمه، وإنما من هاجر المصرية، لينبت في واد أصم غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، كي تقام فيه الصلاة: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1]، ولو كانت سارة أم إسماعيل لما ارتضت فراقه، إلا أن تصحب ابنها في مُهاجَره فتفارق إبراهيم. ولكنه كان ابن ضرتها، فشجعت ولم تمانع، بل كانت هي التي أوحت وألحت، في رواية سفر التكوين.

صدق الله إبراهيم وعده ببكره إسماعيل وقد ناهز إبراهيم ستًّا وثمانين، لم يعد بعد (فتى يقال له إبراهيم)، وإنما ولد له إسماعيل وقد بلغ به الكبر، كما تجد في قوله الله عز وجل على لسان إبراهيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[2].

ويتذكر إبراهيم يوم ولد له إسماعيل دعوة منه سبقت، يوم خرج مهاجرًا إلى ربه وحيدًا إلا من زوجه وابن أخيه، يسأله ربه النسل الصالح الذي يعينه على أمر الله، ويذكر أيضًا بشرى الله إياه يومئذ (بغلام حليم)، أرجأها الله إلى أجل مسمى عنده وقد نَيَّف إبراهيم على الثمانين. فيعلم فوق علم أن الله عز وجل - مهما طال الأجل - لا يخلف وعده رسله، وكأنه قال بالعبرية، يمجد بها الله: يشمع إيل! أي سميع هو الله! فسمي بها إسماعيل (يشمع + إيل).

* * * *

أما مفسرو القرآن[3] وقد أجمعوا على عجمة (إسماعيل)، فلم يفتهم معنى (السمع) ومعنى (الله) في (اسمع + إيل)، ولكنهم فهموها بصيغة الطلب على الدعاء، فقالوا: إن معنى هذا الاسم هو (اسمع يا ألله) أو (اللهم فاسمع).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.

(٣) راجع تفسير القرطبي للآية ١٢٥ من سورة البقرة.

ولا يصح هذا من وجهين: الأول لمخالفته معنى (يشمع إيل) العبرية، التي تفيد حدوث السمع لا طلبه. والثاني لأن الذي يستمع الله دعاءه فيستجيب، لا يقول: اللهم فاسمع! وإنما يقول: قد سمعت يا ألله!

وهذه هي آفة كل تفسير لاسم علم بغير لغة صاحبه.

أما إن أردت ترجمة (إسماعيل) إلى العربية ترجمة تصح بها العَلَمِيَّة، فالأقرب إلى الصواب أن تقول: (سَمِعَ اللهُ)، على التقرير، لا على الدعاء، كما يتسمى الناس الآن بـ (جَادَ اللهُ)، (جَادَ الحقُّ)، وأشباههما.

* * * *

ولا ينقضي القول في (إسماعيل) قبل حسم ذلك الإشكال الذي افتعله جمهرة من المفسرين[1] حول الشخص الذي كان به (البلاء المبين) في القرآن: إسماعيل أم إسحاق؟

تهيب هؤلاء المفسرون تكذيب التوراة في قولها: إن (الذبيح) كان إسحاق بالاسم، لا إسماعيل، فلم يروا بأسًا من متابعة التوراة على هذا القول، لا سيما والقرآن لا ينص على الذبيح بالاسم، ووازنوا بين تكذيب التوراة بغير صريح القرآن وبين رد أحاديث من مثل قوله ﷺ: «**أنا ابن الذبيحين!**» (إشارة إلى أبيه عبد الله بن عبد المطلب وجده الأكبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام)، فردوا تلك الأحاديث.

والراجح عندي أن هؤلاء المفسرين (سمعوا) من أحبار يهود أن التوراة تنص على إسحاق ولا تنص على إسماعيل، ولكنهم لم (يقرءوا) تفاصيل ذلك في سفر التكوين نفسه، على ما مر بك في سياق تفسيرنا لاسم إبراهيم عليه السلام. وإلا لخلصوا – كما خلصنا نحن – من تحليل كلام الكاتب نفسه في الإصحاحات الخامس عشر والسابع عشر والثاني والعشرين إلى أن البلاء المبين ما كان ليصح إلا بإسماعيل وحيد إبراهيم، قبل عام من مولد

(١) راجع تفسير القرطبي للآيات ١٠١ وما بعدها من سورة الصافات.

إسحاق، ولجزموا - كما جزمنا نحن - بأن (إسحاق) ههنا مقحمة على هذا السفر، مدسوسة من الكاتب أو الناسخ (ذي المصلحة)، وأن تكذيب التوراة في (إسحاق) ليس تكذيبًا لله عز وجل فيما أنزل من التوراة، وإنما هو تكذيب لهذا الكاتب أو الناسخ.

والذي ينبغي التنبيه إليه أن التوراة - شأنها شأن الأناجيل التي بين يديك - ليست كلها باعتراف الكتبة أنفسهم كلامًا من الله عز وجل على رسله وأنبيائه، يتحصن بحجية الشيء الموحى به، وإنما يتخللها الكثير - بل الأكثر - من كلام الكاتب والناسخ، يصح - حين يصح - كما تصح أحاديث الرواة، لا أكثر ولا أقل، لا يرد به حديث عن الصادق المصدوق ﷺ، ولا يتأول به قرآن.

والذي ينبغي التنبيه إليه أيضًا أن المسلم - المأمور بتصديق التوراة والإنجيل بمقتضى قوله عز وجل في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[1] - إنما هو مأمور بتصديق ما أنزل الله فيهما فحسب، الذي صدقه القرآن والحديث الصحيح، لا ما زاد فيهما الكاتب والناسخ.

ويترتب على هذا مباشرة أن مقولات سفر التكوين الذي بين يديك لا تُرد فحسب بصريح القرآن وصحيح الحديث، وإنما ترد أيضًا بالنقد التحليلي المباشر، على ما مر بك من القول في صحة (حساباته) أو من وصفه (جنة آدم) التي بعدن (شرقًا)، أو تفسيره معنى (بابل) بالبلبلة... إلخ. لو التزمت تصديق هذا الكاتب في كل مقولاته، فأوجبت على نفسك تصديقه في أن (البلاء المبين) كان بإسحاق لا بإسماعيل، لوجب عليك أيضًا تصديقه في شناعات لا تصح في (نص مقدس)، من مثل زنا ابنتي لوط بأبيهما على ما مر بك، أو من مثل انخلاع حُقِّ فخذ يعقوب (تكوين ٣٢/ ٢٦) وهو (يصارع) الله عز وجل، في محاولة بائسة لتفسير معنى شهرة (إسرائيل)، وتعليل تحريم بني إسرائيل أكل (عرق النسا) الذي على حق الفخذ.

أما أن القرآن لم ينص صراحة على أن (البلاء المبين) كان بإسماعيل، لا بإسحاق، فهذه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤.

زلة لا يصح أن يقع فيها مفسر للقرآن جدير بهذا الاسم، يكفيك أن تتلو الآيات من ٩٩ إلى ١١٢ من سورة الصافات، كي تعلم أن إبراهيم عليه السلام بُشِّرَ غداة خروجه مهاجرًا إلى ربه بغلام حليم، وأن هذا الغلام نفسه بلغ معه السعي، فكان به (البلاء المبين)، وأن الله عز وجل عقب على اجتياز إبراهيم هذا الاختبار الفذ بأن بَشَّرَ إبراهيم بغلام آخر يولد له، هو إسحاق: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1][2]، فكان إسحاق بعض (جزاء المحسنين) الذي جازى به الله بر إبراهيم، ولم يكن هو بداهة الذي كان به البلاء المبين، وإنما كان البلاء المبين بإسماعيل.

وهذا وحده يصحح الأحاديث المروية عن أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، أيًا ما قلت في إسناد تلك الأحاديث.

وقد نبه على هذا كله أو معظمه أجلاء المفسرين الذين قطعوا بأن الذبيح هو إسماعيل.

ونحن نضيف إلى هذا دليلًا آخر من القرآن، وردت (غلام حليم) مرة واحدة في القرآن (الصافات: ١٠١) وصف بها الله عز وجل الغلام الذي كان به البلاء المبين، لم يخص بها غيره من أبناء إبراهيم. ووردت (غلام عليم) في القرآن مرتين، يخص بها إسحاق بالنص: ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾[3]، ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾[4]، والمعني في الآيتين هو إسحاق بلا خلاف. أفلا تدلك هذه المغايرة بين (عليم) و (حليم) على أن البلاء المبين لم يكن بالغلام (العليم) (إسحاق)، وإنما كان بالآخر، الغلام (الحليم) الذي في سورة الصافات، فهو إذن (إسماعيل)؟

(١) سورة الصافات، الآية: ١١٢.

(٢) ربما أحرجت هذه الآية المفسرين الذين قالوا: إن الذبيح هو إسحاق، فتمحك بعضهم بتأويلها على أنها بشرى بالنبوة لإسحاق الذبيح. ولا يصح هذا من لغوي حاذق؛ لأن البشرى في الآية تتعدى بالباء، فهي واقعة بإسحاق لا بالنبوة. وإنما النبوة والصلاح في الآية وصفان للابن المبشر به.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٥٣.

(٤) سورة الذاريات، الآية: ٢٨.

كذلك وردت (صادق الوعد) مرة واحدة في القرآن، خص بها الله عز وجل إسماعيل وحده دون غيره من النبيين والمرسلين: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[1]. ألا تجد في هذا إشارة بليغة إلى صدق إسماعيل وعده أباه بالصبر على الذبح إذعانًا لأمر الله حين شاوره إبراهيم في رؤياه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]، حتى (تله للجبين)، فأي صبر كان!

كان الذبيح إسماعيل، لا محل للقول بخلافه، ولا مجال للتردد فيه متابعة لقول أهل الكتاب.

وإذا كان الذبيح هو إسماعيل - إحقاقًا للحق لا غير - فليس معنى هذا أن إسحاق أدنى منزلة في سلم الأنبياء من إسماعيل، صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه، بل الكل في كرامة الأنبياء عند الله سواء، وهو أعلم ببلاء أنبيائه. حسبك قوله عز وجل في الأنبياء من ذرية إبراهيم، وفيهم إسماعيل وإسحاق: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[3].

****

أما التفسير القرآني لاسم (إسماعيل)، وهو (يشمعيل) عبريًّا، ومعناه كما علمت (سمع الله) أو (سميع هو الله)، فأنت تجد هذا التفسير في قوله عز وجل على لسان إبراهيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[4].

وتجده في قوله عز وجل على لسان إبراهيم أيضًا: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[5].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

(٢٦) إسحاق

إسحاق (وترسم إسحق في المصحف)، هو الابن الثاني لنبي الله إبراهيم عليهما السلام، رُزِقَ به من زوجه سارة وقد ناهزت التسعين، عجوزًا عقيمًا قد أيأستها السنون، وإبراهيم يومئذ قد بلغ المائة، فكان إنجابهما إسحاق في تلك السن آية من آيات رحمة الله بإبراهيم وأهل بيت إبراهيم: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[1].

وإسحاق عليه السلام سَمَّتْهُ الملائكة، لم تسمه أمه، ولم يسمه أبوه - كما يقول سفر التكوين - بل سمت الملائكة أيضًا يعقوب بن إسحاق، ولم يولد بعد إسحاق. تجد هذا في قوله عز وجل: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[2].

* * * *

وقد قالت الكثرة من مفسري القرآن[3] بعجمة (إسحاق)، ولم يتصدوا لتفسيره، إلا من شذ فحسبه من العربية، يشتقه من الجذر العربي (سحق) بمعنى بعد أشد البعد، وليس هذا بشيء؛ لأنه يفسر الاسم بغير لغة صاحبه، فلا تلتفت إليه.

* * * *

(إسحاق) في القرآن هي تعريب (يِصْحَاق) في التوراة، وهي صيغة المضارعة في المفرد

(١) سورة هود، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٧١.

(٣) راجع تفسير القرطبي للآية ١٣٣ وما بعدها من سورة البقرة.

الغائب من الجذر العبري (صَحَقْ)، وقرينه في العربية الجذر العربي (ضَحِك)، (يصحاق) العبري إذن يعني (يضحك)، لا يراد منه الفعل، وإنما يراد منه الفاعل، ومن ثم فإن معنى (إسحاق) - وهو (يصحاق) عبريًّا - الضاحك أو الضحوك. وقد سمى العرب بمعناه على المبالغة فقالوا: (الضحاك).

والتسمية بالفعل المضارع يراد منه اسم الفاعل، شديدة الشيوع في العبرية - كما مر بك في موضعه - رأيت هذا في (يشمعيل) (إسماعيل)، وتراه الآن في (يصحاق)، أي إسحاق. وستجده كثيرًا فيما يلي من أعلام التوراة.

على أن لهذا نظائر بقيت في العربية كما مر بك، تجدها في أمثال (يزيد)، وغيرها من أعلام الأشخاص والمواضع.

والأصل في هذا كما مر بك أن الفعل المضارع يفيد الحال كما يفيد الاستقبال، أي (يضحك) وسيظل، فهو (ضاحك) و (ضحوك).

* * * *

أما التفسير القرآني لهذا الاسم العلم، فأنت تجده في قوله عز وجل: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾[1]، أي: ضحكت سارة وهي قائمة تخدم ضيف إبراهيم من الملائكة؛ عجبًا وحياء وهى تسمع من الملائكة بشرى لإبراهيم بمولود يولد منها، وهى في تلك السن عجوز عقيم. وكأن ضحكها كان مناسبة يصاغ منها اسم المولود المبشر، فقيل لها: أضحكت؟ بشراك إذن (بالذي يضحك)، وهي (يصحاق)، اسم نبي الله إسحاق عليه السلام.

* * * *

وربما قلت: فلماذا جاءت (إسحاق) في القرآن بالسين، ولم تجئ على أصلها بالصاد (إصحاق)؟

(١) سورة هود، الآية: ٧١.

قال هذا بالفعل بعض المستشرقين، مماحكة، كدأبهم في معارضة القرآن.

ولكنك تندهش إذ تعلم أن (يصحاق) هذه تجيء في عبرية التوراة بالسين كما تجيء بالصاد، والصاد أغلب، وأن (سَحَقْ) و (صَحَقْ) في المعجم العبري صنوان. وفي اللغة العربية تتعاقب السين والصاد مثل (السراط) و (الصراط) وقد قرئ بهما.

ولعلك تدرك معي أن تتابع الصاد والحاء والقاف في (يصحاق) قعقعة تنبو عنها موسيقى القرآن، لذا فقد عرب القرآن (إسحاق) عن (يسحاق) ولم يعربها عن (يصحاق)؛ عالمًا أنه لم يُبْعِد؛ لوجود كلا الرسمين في عبرية التوراة.

لا يشاد القرآن أحد إلا غلبه القرآن، وسبحان العليم الخبير.

* * * *

(٢٧) يعقوب

يعقوب هو حفيد إبراهيم من ابنه إسحاق، عليهم جميعًا أزكى الصلاة وأتم التسليم.

وهي في التوراة (يَعَقوب) بفتح الياء والعين، والمد بالضم لا بالواو بعد القاف، كما في (يُوم) العربية العامية. عربها القرآن بخبن فتحة العين، وإشباع المد بالواو، فهي على وزن (يعسوب) - عظيم النحل[١] - في العربية.

أما (يعقوب) العبرية فهي - كما لعلك حدست - صيغة المضارعة للمفرد الغائب من الجذر العبري (عَقَب). وهو نفسه الجذر العربي (عقب) مبنى ومعنى، مضارع يراد منه اسم الفاعل كما مر بك. فمعنى (يعقوب) عبريًا (العاقب).

ومن دقيق التعريب في القرآن، إتيانه بـ(يعقوب) العبرية على زنة (يفعول) وهي بنية تنفرد بها العربية من دون أخواتها الساميات، تفيد المبالغة وتعظيم الشأن، كما ترى في (يعسوب) عظيم النحل، وكما ترى في (يعبوب)، أي النهر عظيم العباب، شديد المجرية، وغيرهما في العربية كثير.

* * * *

كان يعقوب عليه السلام خير عقب لخير سلف. شابه أباه إسحاق عليه السلام في العلم، وشابه جده إبراهيم عليه السلام في الصبر على البلوى إيمانًا واحتسابًا. وصف القرآن إسحاق

---

(١) اليعسوب يعني (ملكة النحل)، ظنها العرب ذكرًا لضخامتها وسط دقاق النحل في الخلية. واليعسوب لغة يعني الكثير (العسب)، والعسب هو (ماء الفحل)، ويكنى به أيضًا عن النسل والولد.

بالعلم، كما مر بك من قوله عز رجل: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[1]، وقال عز وجل في يعقوب: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]. وقال إمام المتوكلين إبراهيم عليه السلام يَفْرِق بين الضلال والإيمان، يرد على الملائكة أن ظنوا به القنوط: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[3]، وقال مثلها يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[4].

****

ابتلى الله صبر يعقوب، كما ابتلى من قبل صبر جده إبراهيم. ابتلاه بخاله لابان (تكوين ٢٩/ ١٥-٢٩) الذي استأجره في أرضه وغنمه سبع سنين؛ ليزوجه من ابنته الصغرى راحيل أثيرة يعقوب. وإذا هو ليلة الزفاف يغشه فيدفع إليه بابنته الكبرى ليئة (واسمها مشتق من (اللأواء!) فيضطره إلى خدمته سبع سنين أخرى ليزوجه عليها أثيرته راحيل. ويصبر يعقوب؛ حتى يجمع بين الأختين[5]: ليئة وراحيل. فكان له من راحيل أحب بنيه: يوسف وبنيامين. ولكن هناءة يعقوب لا تدوم؛ لأن راحيل تجود بنفسها وهي تضع بنيامين، فيحتسبها يعقوب. ولكنه مبتلى في بنيه، مبتلى ببنيه: ينتزع منه أبناء (ليئة) أحب بنيه: يوسف بكر فقيدته راحيل، يلقون به في غيابة جب، ويغدون على أبيهم يستعذبون عذابه وهم يقصون عليه أن ما خشيه على يوسف منهم قد وقع: أتى الذئب على يوسف لحمًا وعظمًا فلم يبق إلا القميص. ويا لهول ما يسمع.

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٦٨.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٤) سورة يوسف، الآيتان: ٨٦، ٨٧.

(٥) هذا يذكرك بالاستثناء من تحريم الجمع بين الأختين في قوله عز وجل: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]، يدخل فيه ما كان من جمع يعقوب بين ليئة وراحيل.

ولكن العزيز الرحيم الذي سلّى يوسف في غيابة الجب بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(١) - يعني ستعيش يا يوسف حتى تنبئ إخوتك هؤلاء بخسيس ما فعلوه - يسلي بها أيضًا يعقوب، فيقول: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(٢)، يستعين الله الصبر على فراق يوسف، ويصابر بها النفس أيضًا على خيالات ما يصفون من افتراس الذئب إياه.

كان فقد يوسف ذروة مصائب يعقوب، لا يصاب من بعده بمصيبة إلا وتنكأ وجيعته في يوسف، فيقول: يا أسفا على يوسف! يتسلى بالمصاب الأكبر عن المصاب الأصغر. قالها يعقوب وهو يسمع من بنيه هؤلاء فجيعته في حبه الثاني بنيامين، وقد احتبسه ذلك (العزيز) في مصر، يسترقه عبدًا في سرقة صواع الملك. ذهب الذئب بيوسف، بل كان الذئب إخوته. وضاع بنيامين. أضاعه هؤلاء أيضًا الذين راودوا عنه أباه، ليفرطوا فيه مثلما فرطوا من قبل في يوسف! فمن له بيوسف وأخيه! ويتمتم الشيخ الذي أبلته الأحزان والسنون وما بلي له صبر: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(٣).

أفكان يعقوب يعلم - يقينًا - أن الذئب ما أكل يوسف، وإنما ووري عنه في غيابة مجهول لا يعلمه؟ لو أن الموت اختطف يوسف أمام عينيه، فاحتسبه عند الله كما احتسب أمه راحيل من قبل! إذن لشفاه اليأس من لواعج الأمل، ومن هواجس الليل والنهار. وبنوه هؤلاء، الذين فجعوه بيوسف ليخلو لهم وجه أبيهم، ها هم أولاء يغدون ويروحون أمامه، تنضح أعينهم بما فعلوه، فلا يخلو لهم منه إلا وجه كسيف، ولسان لا يفتأ يذكر يوسف: تُرى أين أنت الآن يا يوسف؟ أطعمت؟ أدفئت؟ أي ذئب آخر يترصدك؟

وتمضي السنون بيعقوب تزيد في أحزانه، ولكنها لا تنتقص من أمله في لقاء يوسف، وكأنما كانت فجيعته في بنيامين علامة من الله على قرب انتهاء عذابه، فيقول: ﴿عَسَى اللَّهُ

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٨.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٣.

أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾! قد صُرِف بصره عما حوله، لا يرى من بعد إلا يوسف وأخاه، إلى أن يأتيه البشير فيرتد بصيرًا، ويقول لمن أنكروا عليه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

نعم.. كان يعقوب طوال تلك السنين (يعلم). وهذا هو بلاؤه الأعظم.

* * * *

مر بك أن الملائكة هي التي سمت يعقوب، يوم سمت من قبل أباه إسحاق. ولكن سفر التكوين يقص عليك أن يعقوب ولد مع توأم له، هو (عيسو)، فخرج (عيسو) أولًا، ثم خرج يعقوب ويده قابضة بعقب عيسو، فدعي اسمه يعقوب (تكوين ٢٥/ ١٢-٢٦)، يريد تفسير معنى يعقوب، لا بأنه (العاقب) على أصل اللفظ في اللغة، وإنما بأنه (القابض على عقب أخيه) ليرتب على هذا نبوءته بافتراق بني إسحاق شعبين: شعب يقوى على شعب، وكبير يستعبد لصغير؛ كي تكون لأبناء يعقوب (أي بني إسرائيل) السيادة على كل من عداهم من أبناء إبراهيم المنحدرين من صلب ابنه إسحاق، ولا يكون لغيرهم البتة في (مواعيد) إبراهيم نصيب، تلك المواعيد التي فهموها على أنها عهد بتكثير نسل إبراهيم وإقطاعه (أرض غربته) - كل أرض كنعان - يعني كل فلسطين، ميراثًا له ولنسله.

ولكن الكاتب يفطن إلى أن تكثير نسل إبراهيم قمين (بتفتيت التركة) وتوزعها بين (جماهير أمم) فبدأ بإخراج إسماعيل ونسله من هذا (الوعد) ليحصره في إسحاق أبيهم.

وإذا إسحاق ينجب توأمين يتصارعان (الميراث): عيسو ويعقوب. ويعقوب أبوهم، فلا مفر إذن من إخراج (عيسو) بدوره من (التركة)؛ كي تخلص (الأرض) ليعقوب وبنيه. هنا يقص عليك الكاتب أن الله تراءى ليعقوب - كما تراءى من قبل لوالدته (رفقة) وهي حامل بتوأميها عيسو ويعقوب - ليحصر (مواعيد إبراهيم) في يعقوب (وهو إسرائيل) دون غيره من نسل إبراهيم. ولكن إشكالًا يثور أمام الكاتب: ها هو عيسو يخرج من بطن

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٦.

أمه الأول، يليه يعقوب. فعيسو إذن هو الأكبر، أي بكر إسحاق، والبكر عنده هو الوارث، (فلا تدري كيف فاته أن إسماعيل هو بكر إبراهيم بلا منازع، فلماذا أخرجه من التركة ونحلها إسحاق؟!). يتذكر هذا فينص على أن الله هو الذي حرم إسماعيل بقوله لإبراهيم: بإسحاق يدعى لك نسل! أي لا نسل لك يعتد به يجيء من إسماعيل، وإنما نسلك المعني هو نسلك عبر إسحاق. فماذا يقول في عيسو ويعقوب ابني إسحاق؟ افتعل قصة خروج يعقوب قابضًا بيده على عقب توأمه عيسو، رمزًا لسيادة يعقوب على عيسو. واشتق من هذا معنى اسم يعقوب، وعزز هذا المعنى بتلك الرؤى التي تراءى فيها الله ليعقوب ووالدته رفقة، ومنها قوله: (وكبير يستعبد لصغير)، أي أن عيسو البكر سَيُسْتَعْبَدُ لأخيه (الأصغر) يعقوب. وكأنما كان إسحاق النبي بمعزل عن تلك الرؤى، أو تلك الصفقة التي تمت من وراء ظهره بين يعقوب ووالدته رفقة على حساب عيسو، فإذا هو وقد قرب موته يستدعي إليه بكره عيسو ليعلن له انحصار التركة فيه ويمنحه بركته. وتعلم رفقة بذلك، وكأنها ليست أم عيسو ويعقوب كليهما، فتتحايل هي وابنها يعقوب على خداع أبيه إسحاق الذي كف بصره وضعفت حواسه لِتُنكِّرَ له يعقوب في ثياب عيسو، وينخدع نبي الله إسحاق فيجوز عليه هذا الغش (يكتبها الكاتب غير متورع ولا متأثم)، فَيُنْحِل (التركة) يعقوب ظانًّا أنه عيسو، ويمنح يعقوب بركته. وينسى الكاتب أن كل هذا الذي افتعله لا يغير من الأمر شيئًا؛ لأن إسحاق ما منح التركة والبركة إلا لبكره عيسو، ولم يمنحهما يعقوب وإن تنكر في ثياب أخيه، وينسى أن (الوصية) ليعقوب باطلة بطلانًا مطلقًا لدخول الغش والتدليس. وينسى أخيرًا أن نسبة الغش والخديعة لأنبياء الله كفر بواح يكبكب صاحبه في سواء جهنم. فما بالك بكاتب وحي تظن به العصمة والقداسة والتنزيه؟

أما نسبة الخطيئة والغش لنبي الله يعقوب، ونسبة الغفلة لنبي الله إسحاق، فهذا أمر لا يهتز له ضمير الكاتب، فقد مرن عليه قلمه يوم سجل في سفره أن نبي الله لوطًا زنت به ابنتاه وأنجبتا منه، وأما الجرأة على الله عز وجل فأنت لا تستعظم عليه شيئًا بعد قوله: إن الله عز وجل هبط يصارع يعقوب ليلة كاملة حتى الفجر، ولم يقدر الله على يعقوب فضرب

حق فخذه كي يطلقه يعقوب، ولكن يعقوب الذي انخلع حق فخذه يتأبى على الله فيقول: لا أطلقك حتى تباركني! فباركه الله. إلى آخر تلك المقذعات التي تأنف من قراءتها في أساطير آلهة الأولمب، فما بالك بقراءتها في أسفار توراة يقال: قد أوحى بها الله؟

ولكن الكاتب لا يفوت ذكاءه أن مشروعية تلك الوصية تحتاج إلى تصحيح يرفع عنها عيب الغش والتدليس، أي تحتاج إلى إقرار (لاحق) من إسحاق بأن التركة والبركة ليعقوب عينه، الذي غشه وخدعه، قد حُرِمهما عيسو. فيقص عليك أن عيسو وقد علم أن أخاه سلبه التركة والبركة (صرخ صرخة عظيمة ومُرَّةً جدًّا، وقال لأبيه: باركني أنا أيضًا يا أبي. فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك). قال عيسو لأبيه: (أما بقيت لي بركة؟ فأجاب إسحاق وقال لعيسو: إني قد جعلته سيدًا لك، ودفعت إليه جميع إخوته عبيدًا، وعضَّدته بحنطة وخمر. فماذا أصنع لك يا بني؟)، قال عيسو لأبيه: (ألك بركة واحدة فقط يا أبي؟ باركني أنا أيضًا يا أبي. ورفع عيسو صوته وبكى. فأجاب إسحاق أبوه وقال له: هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنُك، وبلا ندى السماء من فوق. وبسيفك تعيش. ولأخيك تُسْتَعْبَدُ)[1]. وكأنما هي لعنة من إسحاق لا بركة، صحح بها الكاتب الوصية ليعقوب، فقد أصر عليها إسحاق، واستسلم لها عيسو، وأخذها يعقوب بمكر - كما يقول الكاتب.

فعل الكاتب كل هذا ليحصر (مواعيد إبراهيم) في يعقوب دون غيره من نسل إبراهيم. ولكنك تعلم أن هذه (المواعيد) لو كانت من عند الله لصدقت، وهي لم تصدق بالمفهوم الذي ظنه كاتب سفر التكوين؛ لأن الذي ورث الأرض عن أبيه إسحاق كان عيسو (المطرود) من التركة، لا يعقوب الذي ارتحل ببنيه إلى مصر دون أن ينال نصيبًا من فلسطين مع عيسو. بل احتبس هو وبنوه في (ضيافة) ملوك مصر نحوًا من أربعمائة وثلاثين سنة - كما يقول سفر الخروج - يضاف إليها أربعون سنة في تيه سيناء. وعاد بنو إسرائيل (أي بنو يعقوب) إلى فلسطين بقيادة (فتى موسى) يشوع بن نون، يجاهدون أهلها (ومنهم (الأدوميون) الذين يعزونهم إلى عيسو بن إسحاق) في الحصول لأنفسهم عل رقعة من تلك الأرض - قدر

(١) راجع اقتباساتنا في هذا الموضع على سفر التكوين (الإصحاح ٢٧).

لها على طول تاريخهم، حتى في أزهى عصور مُلْكِهم - عصر داود وسليمان - أن تشمل (بعض) فلسطين، لا (كل) فلسطين. وهم لم يحصلوا على تلك الرقعة بمقتضى صك (مواعيد) يعقوب، وإنما حصلوا عليها حربًا، ينصرون ويخذلون؛ إن نصروا الله نصرهم، وإن أفسدوا دمر الله عليهم وبدد شملهم، كما قال عز وجل: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1]، حتى أجلوا عن فلسطين مرتين، دامت أخراهما نحوًا من ألفي سنة. فأين كانت (مواعيد) إبراهيم التي في سفر التكوين: (وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان، ملكًا أبديًا)[2]؟ فأي ملك هذا الذي كان؟

لم يتحقق هذا الوعد كما ترى لا لإبراهيم نفسه، أول موعود به، ولا لنسله من حفيده يعقوب كما أراد الكاتب - بل قل كما تمنى الكاتب - الذي كتب هذا السفر لا على عصر موسى أو عصر إبراهيم، وإنما كتبه في أعقاب عصر داود وسليمان.

ولأن الله عز وجل إذا وعد أوفى، لا يخلف وعده رسله. ولأن هذا الوعد لم يتحقق، لا منقوصًا ولا كاملًا، لا على كل فلسطين (كل أرض كنعان)، ولا على طول الدهر (ملكًا أبديًا) كما تنبأ الكاتب. أما والأمر كذلك فلا مناص لك من أن تقطع جازمًا - آمنًا مطمئنًا - بأن هذا الوعد ليس من الله عز وجل، وإنما هو من (أمانيِّ) الكاتب، دسه على وحي الله المنزل في صحف إبراهيم وموسى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[3].

ركب الكاتب الشديد الوعر، وأجهد نفسه كما ترى في حصر التركة وتعيين الوارث. ولم يصح له هذا ولا ذاك، وإنما وَرِثَ إبراهيمَ (الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا)، ورثوا الملة وورثوا الأرض جميعًا.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧.

(٢) تكوين ١٧/٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٩.

كان ميراث إبراهيم عليه السلام هو الملة والإمامة، أما الأرض فهي لله عز وجل يورثها من يشاء من عباده.

على أن مواعيد الله عز وجل مشروطة بشرائطها، من نكث فإنما ينكث على نفسه، ولا يظلم ربك أحدًا.

قالها عز وجل لإبراهيم وهو ينصبه إمامًا للناس: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1]. تمنى إبراهيم على ربه أن يجعل أيضًا من ذريته خلفاء أئمة، فأقر الله عينه بها واستثنى الذين ظلموا منهم.

وأسوأ الظالمي أنفسهم الذين ينكثون عهد الله وميثاقه، أولئك ليس لهم عند الله عهد.

أراد سفر التكوين أن يكون معنى (يعقوب) هو الذي يتعقب أخاه التوأم (عيسو)، فيسلبه التركة والبركة، وأراد الله عز وجل بيعقوب - الذي سمته الملائكة كما مر بك - أن يكون العاقب من جده إبراهيم، صلوات الله وسلامه على إبراهيم وآله.

* * * *

أما مفسرو القرآن[2] فقد أجمعوا على عجمته، ولم يفسروه. إلا من نقل عن أهل الكتاب رواية خروج يعقوب آخذًا بعقب أخيه عيسو، ففسروه بما فسره به سفر التكوين على معنى (الاعتقاب)، لا (العقبى). ورد على هذا آخرون فقالوا: إنه لا يصح؛ لأن (يعقوب) أعجمي والاعتقاب والتعقب عربيان، ولم يفطنوا إلى أن (عقب) العبري يكافئ (عقب) العربي مبنى ومعنى. ولم يفت هؤلاء المفسرين أن (اليعقوب) عربيًا هي صفة الذكر من طير الحجل، وقالوا أيضًا: إن هذا لا يصح؛ لأن (يعقوب) أعجمي غير مصروف في كل من القرآن، ولو كان عربيًا على صفة هذا الطائر لصرف.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ١٣٣ من سورة البقرة.

ولم ينقل عن هؤلاء المفسرين قولهم - كما نقول نحن -: إن يعقوب سمته الملائكة يوم سمت أباه إسحاق في قوله عز وجل: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾(١).

❋ ❋ ❋ ❋

أما التفسير القرآني - مقصدنا الأول من هذا الكتاب الذي نكتب - فقد فسر القرآن معنى يعقوب بأداتين:

فسره بالتعريف، لأن يعقوب عربيًّا تعني العاقب على المبالغة وتعظيم الشأن كما مر بك. ولم يصرفها القرآن، كما لم يصرف ميكال وإدريس رغم مجيئها على وزن عربي لا يحتمل إلا الصرف، نصًّا من القرآن على أصلها الأعجمي.

وفسره أيضًا بالمرادف القريب من معناه في قوله عز وجل: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾(٢)، والوراء من العاقب قريب. والوراء أيضًا كما يقول معجمك العربي ولد الولد، نصًّا على ميلاد يعقوب من إسحاق حفيدًا مباشرًا لجده إبراهيم.

❋ ❋ ❋ ❋

(١) سورة هود، الآية: ٧١.

(٢) سورة هود، الآية: ٧١.

(٢٨) إسرائيل

(إسرائيل) في القرآن هي تعريب (يِسْرائيل) في التوراة. وهي شهرة شهر بها يعقوب عليه السلام. وقد تلقب بها من بعدُ بنو يعقوب، فقيل: (بنو إسرائيل).

ومن زلات سفر التكوين الذي بين يديك - وتابعه عليها كل علماء التوراة من بعد - تفسيره اسم (إسرائيل) بأنه (مصارع الله): ظهر له الله في صورة رجل تصارع معه الليل بطوله حتى مطلع الفجر، ولم يقدر على يعقوب، ولما رأى أنه لا يقدر عليه (بصورته الإنسية) استعان بسطوة ألوهيته فلمس حُقَّ فخذ يعقوب، فينخلع حق فخذه، ويقول له: أطلقني فقد طلع الفجر. ولكن يعقوب لا يطلقه، بل يظل آخذًا بتلابيبه ويقول له: لا أطلقك حتى تباركني. فيقول له ما اسمك؟ فيقول يعقوب. ويقول الرجل (الإله): لا يدعى اسمك بعدُ يعقوب، بل (إسرائيل)، ثم يفسر له معنى هذا الاسم (يِسْرا + إيل) بقوله: لأنك صارعت الله والناس وقدرت. ويفهم يعقوب أن الذي صارعه هو الله، فيسمى هذا المكان (فِنُوئيل) (يعني (وجه الله)) قائلًا: لأني رأيت الله وجهًا لوجه ونُجِّيَتْ نفسي[1]. أي أن يعقوب لم يكلمه الله فحسب كما كلم موسى، ولم ير الله وجهًا لوجه فحسب، تلك التي طلبها موسى فأدبه الله، ولكن يعقوب لاحم الله ملاحمة، وصارعه حتى كاد يصرعه، لولا أن لمس الله حق فخذ يعقوب فانخلع. وهو لا يتركك تظن أن الذي ظهر ليعقوب فصارعه مَلَكٌ من ملائكة الله، على عادة كتبة التوراة في التعبير عن الملائكة بلفظ الآلهة كما مر بك، فَضَلَّ بها كثيرون، ولكنه ينص نصًّا لا إبهام فيه على أن الذي صارع يعقوب وكاد يصرعه يعقوب، هو الله نفسه، فيقول على لسان يعقوب: رأيت الله وجهًا لوجه ونَجِيَتْ نفسي.

---

(١) راجع تكوين ٣٢/ ٢٤ - ٣٠.

ناهيك بتفسير علماء التوراة هذا الاسم بأنه على المزجية من (يِسْرا + إيل) وتعني كما تقول معاجمهم (الذي يصارع الله).

ترى هل بقي في نفسك شيء من توقير هذا الكاتب الذي لا يرجو لله وقارًا، الذي لو سمعه جده يعقوب لرجمه وبرئ منه، ولو صور لك للطمت وجهه ونزعت منه هذا القلم الذي يَلِغُ به في عرض رسل الله وأنبيائه، ثم يتجاسر على مقام الله عز وجل فيهبطه إلى الأرض يُعافِرُ[1] يعقوب ويواثبه، فلا يقدر عليه إلا أن يستعلن ليعقوب بألوهيته فينخذل يعقوب بعد أن خُلِع حُقُّ فخذه؟

ما ظنك بدين هذا الكاتب الذي يظن بالله ظن اليونان بآلهة الأولمب؟

بل ما ظنك بهذا السفر الذي يتصدر أسفار (الكتاب المقدس) وتنسب مادته إلى كليم الله موسى عليه السلام؟

أكل هذا العبث واللغو والولوغ ليفسر لك معنى (يِسْرائيل) الذي اشتبه عليه فظنه الذي (يُسَاوِرُ) الله أو الذي (ساوره) الله؟[2]

أما كان أكرم له أن يتوقف عن تفسير (يِسْرائيل) كما توقف من قبل عن تفسير (تارح)؟

عليك أن تنزع هذه الفقرات وأمثالها في أسفار التوراة، ثم تغيبها حيث لا يقع عليها بصر أحد، وإلا فأنت مسئول عن ضلال من ضلوا بها، مسئول عن كفران من نزه الله عنها فأنكر الوحي على التوراة جملة وتفصيلًا، ما صح منها وما لم يصح.

---

(١) عافره/ يعافره العربي يعني صارعه محاولاً إلقاءه في (العَفَر)، وهي نفسها صيغة الفعل العبري نِئْبَق، وهي من (أبق) العبري بمعنى الغبار. استخدم الكاتب في الأصل العبراني مادة (نِئْبَق) هذه في وصف عراك الله يعقوب ومعاركة يعقوب إياه، وكان يجمل بالمترجم العربي ردها إلى مكافئها العربي (عافره) بدلًا من (صارعه).

(٢) سار عليه، يسور، سورًا، يعني وثب عليه، وساوره يعني واثبه وغالبه، وهي مقلوب سرا/ يِسرا العبري الداخل مضارعها في تركيب (يِسْرائيل) على ما تقول معاجم تلك اللغة.

ولكن هذا (الكلام) عند المؤمنين به من أهل الملتين (كلام مقدس) بحرفه قبل معناه، يُفَوِّضون العلم بحقيقته لله عز وجل، فيمرون عليه سراعًا، قبل أن يستزلهم الشيطان فيدركوا مأتاه ومعناه. وربما خيل إليك أن غلاة المؤمنين يظنون أن الله عز وجل يمتحنهم بهذا الكلام ليقولوا حين يتلى عليهم: حاشا لله! سبحان الله!

هذا النمط من الإيمان جدير باحترامك. ولكنك لا تحترم إصرار من أصروا على أن الله جل جلاله هبط إلى الأرض يعافر يعقوب بالفعل ويواثبه، أو الذين يفسرون (يسرائيل) بأنها تعني (مساور الله)، أي: الذي يساور الله أو ساوره الله.

****

وقد تأثَّم من هذا بالفعل مترجمو سفر التكوين من أصله العبراني إلى غير العبرية من اللغات، فحاولوا قدر الاستطاعة - وفي نطاق محدود - تخفيف وقع الصدمة على قارئ هذه الفقرات من سفر التكوين بالتصرف في الترجمة، وإخراجها في صورة مقبولة بعض الشيء، ولو خالفت النص المكتوب في الأصل العبراني.

والذي ينبغي التنبيه إليه أن ترجمات (الكتاب المقدس) ليست حِلًّا مستباحًا لكل من هب ودب، ولو كان من فطاحل التراجمة، وإنما هي ترجمات لا تصدر إلا معتمدة من رؤساء الملتين، ممهورة بخاتم السلطة الدينية العليا فيهما، نصًّا يتساوى في الحجية مع الأصل العبراني المنقول عنه، تقرأ به الصلوات في المعابد والكنائس، ويتعبد بقراءته أتباع الملة. فهو نص مقدس، ملزم للسلطة الدينية التي اعتمدته، ملزم لأتباعها.

والذي أقصده من هذا أن رؤساء الملتين أنفسهم لم يتحرجوا من الاستدراك على هذا الكاتب، بل حاولوا - عن طريق الترجمة إلى اللغة التي لا يقرأ أتباع الملة إلا بها - تلوين النص الذي يروي في سفر التكوين مصارعة الله يعقوب تلوينًا يُهَوِّنُ على القارئ بتلك اللغة من فظاعة هذا الذي خطه الكاتب بيده، تاركين للقارئ في التوراة بالعبرية مباشرة

استخلاص المعنى الذي يهديه إليه إيمانه. وهي محاولة تحمدها لهم بلا شك، وإن كنت تتمنى - كما تمنيت - لو مضوا في الشوط إلى نهايته ولم يكتفوا بالتخفيف، بل قطعوا بأن هذا النص الذي في سفر التكوين - وأشباهه - نص دخيل، تبرأ منه توراة موسى عليه السلام، على نحو ما فعلت الكنيسة المسيحية الأولى بأسفار وصمتها بأنها (منحولة).

لكن هذه المحاولات اقتصرت على ترجمة عبارة (كِي سَرِيتَ عِم إلوهيم وعم أناشيم وتُخال)[1][2]، وهي العبارة التي تعنينا في مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب؛ لأنها هي التي تفسر (على لسان الله عز وجل في سفر التكوين) معنى (يسرائيل) عند علماء التوراة.

من هذه المحاولات ثلاث:

(١) ترجمة إنجليزية تجدها في: *The British & Foreign Bible Society, OLD TESTAMENT, HEBREW & ENGLISH*، تترجم عن العبرية عبارة (كي سَرِيتَ عِمْ إلوهيم وعم أناشيم وتُخال) إلى الإنجليزية هكذا... *for, as a prince hast thou power with God and with men, and hast prevailed (Ge. 32, 28)* ومعناها بالعربية: لأنك مثل أمير، ذو قوة مع الله والناس وَسُدْت). وهي ترجمة (سَرَا) العبري من السراوة والشرف، لا من المساواة والمغالبة كما يقول المعجم العبري، وكأنه الجذر العبري (سَرَرْ)، مكافئ (سرا / يسرو) العربي. ولا يصح هذا عبريًّا، لو صح لكان الاسم (يَسُورإيل) أو (يِسْرُرْ إيل). وعلى فرض جوازه، فهل يصح عن الله عز وجل أن يسمي عبدًا من عباده بأنه (الذي يسرو مع الله) أو (الذي هو سَرِيٌّ مع الله)؟ لو قيل (سَرِيٌّ عند الله) فربما جاز وفيه بُعْد. إنها محاولة على كل حال. ولكن الحرف (مع) يمنعك.

(٢) ترجمة عربية تجدها في ترجمة الفاتيكان، المطبعة الكاثوليكية (بيروت، فبراير ١٩٥١)، تقول في ترجمة تلك العبارة نفسها: (لأنك إذ رؤست عند الله فعلى

(١) تكوين ٣٢/ ٢٨.

(٢) معنى العبارة على أصلها العبري هو: (لأنك ساورت الله والناس وقدرت).

الناس أيضًا تستظهر)، تأخذ أيضًا في (سرا) العبري بمعنى السراوة والشرف، فتجعل (يسرائيل) رئيسًا عند الله، وترتب على رئاسته عند الله استظهاره على الناس. وهذه هي (أبرع) المحاولات الثلاث في قلب النص العبري رأسًا على عقب، ترفع الحرف (مع) وتضع في موضعه (عند)، فيستقيم الكلام؛ لأنك لا تقبل رئيسًا (مع) الله، وتستجيز رئيسًا (عند) الله. وهي أيضًا تُغَيِّرُ في تركيب العبارة، فتجعل رئاسة يعقوب على الناس مترتبة على (رئاسته عند الله). وهذا وإن خالف النص العبراني في مبناه ومعناه، مقبول سائغ عند القارئ العربي الذي لا يرجع إلى التوراة في نصها العبري.

(٣) ترجمة عربية أيضًا هي ترجمة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية (دار الكتاب المقدس بمصر، طبعة العيد المئوي ١٨٨٣-١٩٨٣)، وهي تترجم العبارة (كي سَرِيت عِمْ إلوهيم وعِمْ أناشيم وتُخال)[1] كما يلي: (لأنك جاهدت مع الله والناس وقَدَرْت). وهي ترجمة جميلة يرتاح لها القارئ العربي الذي لا يقرأ في التوراة بالعبرية مباشرة. وهي على جمالها مطابقة لتركيب العبارة في نصها العبري، أمينة على النص الأصلي بكل حروفه، ولكنها تخالف المعجم العبري بتفسيرها الجذر (سرا / يسرا) بمعنى (جاهد) (وليس هو كذلك في المعجم العبري (هَمِّلُون هِحَداش لَتَناخ) مرجعنا في هذا الكتاب، وإنما معناه في ذلك المعجم هو (نِتْبَق)، أي (عافره) وصارعه لا غير) ليكون معنى (يسرائيل) شهرة يعقوب هو (المجاهد مع الله)، ولا يصح هذا عبريًّا. لو صح لكان الاسم (يِسرا - عِمْ - إيل) أي (يَسْرو - مع - الله)؛ لأن إسقاط الحرف (عِمْ) (أي مع) يجعل معنى هذا الاسم (الذي يجاهد الله)، ولا يصح لمخلوق أن (يجاهد الله)، ولأن (جاهده) و(صارعه) و(ساوره) واحد، ولكنها محاولة تحمد للمترجم، يعززها اعتماد السلطة الدينية المختصة، تصحح بها فكر كاتب سفر التكوين فيما ينبو عنه أدب الحديث عن الله عز وجل.

(١) تكوين ٣٢/ ٢٨.

ولا عيب في هذه المحاولات إلا الإبقاء على فقرات مصارعة الله يعقوب التي تمهد لاسم (يِسْرائيل) وترتب التسمية عليها. وربما اقترحتَ على شراح التوراة تفسير هذه المصارعة لا على الحقيقة ولا على المجاز، بل تفسيرها بأنها حلم تراءى ليعقوب. ولكن هذا مردود عليه بأن أنبياء الله الممنوعين من رؤيته عز وجل جهرة في هذه الدنيا، ممنوعون أيضًا من رؤيته عز وجل في (أضغاث أحلام). لا خلاف على هذا في التوراة والإنجيل والقرآن(١).

ولم يَدُرْ بخَلَد أحد ممن فسروا (سرا / يسرا) بمعنى السراوة والشرف، أن يجعل اسم الله (إيل العبري) هو الفاعل في هذا التركيب المزجي (يسرا + إيل) (كما هو في يشمع + إيل)، فيكون المعنى (سَرِيٌّ هو الله) أو (تعالى الله)، يصيح بها يعقوب وقد انخلع حُقُّ فَخِذِهِ في مصارعة الله إياه، فيشهر بها.

****

والذي يعنينا من هذا هو تفاوت فهم علماء التوراة لمعنى الجذر العبري سرا / يسرا، هل هو من سرا / يسرو أم من سار / يسور العربيين؟ إن قلت بالأول فقد خالفت المعجم العبري، وإن قلت بالثاني فقد وقعت في المحظور: قد واثب الله يعقوب وساوره! وهو نفس المعنى الذي أراده كاتب سفر التكوين بترتيبه التسمية على المصارعة، واستخدامه في وصف معاركة الله يعقوب مادة الفعل العبري (نِئْبَق) أي عافره وصارعه، ولم تختلف فيها الترجمات فقالت كلها: (وصارعه..)، ثم فسر التسمية بقوله: (كِي سَرِيتَ..)، يعنى بها (كِي نِئْبَقْتَ...).

ولأننا لا نصدق الكاتب في (مصارعة الله يعقوب)، فنحن من باب أولى نرفض كل تفسير - سواء للكاتب أو لغيره - يفسر اسم (يسرائيل) ترتيبًا عليها.

****

(١) تقرأ في التوراة: حقًّا إنك إله محجوب! وتقرأ في الإنجيل: الآب لم يره أحد! وتقرأ في القرآن: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. سبحانه جل وعلا!

ترسم (يِسْرائيل) في الخط العبري بغير ألف، أي ترسم (يِسْرَئيل).

ومن أعلام التوراة[1] - غير يعقوب عليه السلام - أعلام تشبه هذا الرسم، هي (أَسَرْئيل) (أخبار الأيام الأول ٤/ ١٦) و(أَسْرِيئيل) (عدد ٢٦/ ٣١). وأيضًا (يِسَرْئيلَه) (أخبار الأيام ٢٥/ ١٤) وترسم أيضًا (يِشْرئيله)[2]. والهاء في هذين الأخيرين هاء خاملة للوقف فقط على لام مفتوحة. فـ (إيل) و (إيله) واحد في المعنى.

أما المقطع الأول في هذه الأعلام الثلاثة (أَسَرْ، يِسَرْ) فعلماء التوراة[3] يأخذونه من الجذر العبري (أَسَر) (ويكتب أصلًا في الخط العبري بالحرف (سامخ)، وهي السين الأصلية في الخط العبري التي لا تنقلب إلى شين في العربية)، وإن كان في هذه الأعلام الثلاثة - كما في كنية يعقوب - مرسومًا بالسين المنقلبة عن الشين. ولهذا نظائر في العبرية يعرفها المتخصصون، لا نثقل بها عليك.

أما (أَسَر) العبري فمعناه من (أَسَرَ) العربي جِدُّ قريب، وهو أيضًا يكافئ (أَصَرَ) العربي، ومنه (الإصر) أي العهد والميثاق، وأَصَرَه يعني عقده وشده، وأيضًا لواه وعطفه، وحبسه. فمعنى (يِسْرَائيله) وأمثالِها هو (إسار الله) أو (إصر الله)، و (إسار) عبريًّا يفيد النذر بالامتناع، فيقولون: أَسَرْ - إِسَارْ - عَلْ نَفْشُو، يعنون: نذر على نفسه..، أو آلى على نفسه..، فالمعنى هو: نذر على نفسه نذرًا فقيده الله به. أي الذي أوجب على نفسه فأوجب الله عليه.

أفتكون (يِسَرْئيله) هي نفسها شهرة يعقوب (يِسْرَئيل)، خالفوا بينهما في النطق توقيرًا لأبيهم يعقوب؟ والمعنى واحد: إصر الله!

قد علمت من سفر التكوين (تكوين ٣٢/ ٣١) أن يعقوب خرج من مصارعة الله يخمع على فخذه (لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النَّسا الذي على حُقِّ الفخذ إلى اليوم؛ لأنه

(١) راجع المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، وهو من مراجع هذا الكتاب.

(٢) راجع (يسرئيله) و (يشرئيله) في (هَمِّلُّون هِحَدَاش لَتَناخ)، ص ٦٧٦.

(٣) المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، المرجع المذكور.

(أي الله) ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النَّسا). لم لا تكون هذه هي مناسبة التسمية: حرم يعقوب على نفسه (عرق النسا) فقيده الله بما حرم على نفسه؟

احتاج الكاتب إلى تعليل تحريم يعقوب أكل عرق النسا، فهداه خياله إلى أن الله عز وجل ضرب يعقوب على (عرق النسا). ولكنها أعضلت عليه: أأدبه بها الله؟ ولم؟ كان عليه أن يخترع ليعقوب ذنبًا يعاقبه به الله، ويعقوب عنده منزه عن ذلك. هنا تفتق خياله عن مصارعة بين الله وبين يعقوب، وتمادى به الخيال فظن أن الله لم يقدر على يعقوب، فضربه على حق فخذه كي يطلقه. ولم ينس أن يسجل بها مجدًا ليعقوب، ومناسبة للتسمية، ففسر بها (يِسْرَئيل). وتابعه على هذا وذاك دون تمحيص علماء التوراة.

ترى لماذا حرم إسرائيل على نفسه أكل عرق النسا؟

أكان الدم الكذب الذي جاء به أبناء ليئة على قميص يوسف - أو كان المزق الذي افتعلوه في القميص - على موضع الحق من الفخذ، فعافت نفس يعقوب أكل ما نهش الذئب من يوسف؟

الله عز وجل بغيبه أعلم.

* * * *

أما مفسرو القرآن(١) فقد قال بعضهم نقلاً عن عبد الله بن عباس: إن معنى إسرائيل هو (عبد الله)؛ لأن (إسر) بالعبرية يعني (عبد)، وليس هذا بصحيح في العبرية، وإنما هو التفسير بالتخمين كما مر بك. وقال السهيلي (سمي إسرائيل؛ لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى، فسمي إسرائيل، أي أسرى إلى الله ونحو هذا. وليس هذا أيضًا بصحيح؛ لأنه تفسير لشق الاسم بغير لغة صاحبه، فضلا عن أنه لم يؤثر عن يعقوب أنه هاجر ذات ليلة إلى الله تعالى. وقال آخرون: إسْر يعني صفوة، فهو صفوة الله، وليس لهذا أصل لا في

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٣٩من سورة البقرة.

العبرية ولا في العربية. وقال المهدوي أيضًا: إن إسر من الشد والتوثيق، أي أن إسرائيل تعني الذي شَدَّده الله وأتقن خلقه. وليس هذا كله بشيء فلا تلتفت إليه.

****

قال عز وجل في كتابه المصدق المهيمن: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾[1].

وهذا من دقيق التفسير في القرآن: حرم إسرائيل على نفسه تفسر الشق الأول من الاسم فحسب (وهي بالعبرية أَسَر - إسار - عَلْ - نَفْشُو)، ولا تفسر الشق الثاني من هذا الاسم المزجي (يسرا + إيل). ولكن القرآن لا يتركك تظن أن إسرائيل معناها الذي حرم على نفسه، بل يريدك أن تفهم أن الله حرم عليه الذي حرمه هو على نفسه، فيقول: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، التي تفهم منها مباشرة أن الله (إيل العبري) حرم على بني إسرائيل الذي حرم إسرائيل على نفسه. بهذه الآية كان التفسير القرآني لاسم إسرائيل بمعنى إِصْر الله، وبها اهتدينا نحن إلى تفسير معناه، فالحمد لله الذي هدانا إلى هذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله.

إسرائيل (يسرائيل) يعني إصر الله، يفسرها القرآن بقوله عز وجل: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾.

ودع عنك أمثال (مصارع الله)، أو (أمير مع الله). هذا تجديف في حق الله عز وجل، وولوغ في عرض أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

****

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٣.

(٢٩) يوسف

يوسُف في القرآن هو تعريب يوسِف في التوراة، لا فرق بينهما إلا في حركة السين: تضم في القرآن، وتكسر في التوراة.

ومن دقيق التعريب في القرآن، إتيانه بالسين في يوسف، مثلها مثل النون في يونس، على الضم - وهي أعلى القراءات - كي لا يشتبها بالإيساف والمؤاسفة (في يوسف)، أو بالإيناس والمؤانسة (في يونس)، إن هو أتى بهما على وزن المضارعة المبني للمعلوم (يُفْعِل) الذي تقرأ به يوسِف في التوراة، أو على وزن المضارعة المبني للمجهول (يُفْعَل) الذي تقرأ به يونَس في الأناجيل اليونانية. ولم يفطن إلى هذا المفسرون.

* * * *

وردت يوسف في القرآن سبعًا وعشرين مرة: واحدة في الأنعام (الأنعام: ٨٤)، وأخرى في غافر (غافر: ٣٤)، والخمس والعشرون الباقيات في سورة كاملة سميت باسمه عليه السلام تقص قصته، أفردت له وحده، لا تتحدث إلا عنه، صدر لها القرآن بقوله عز وجل: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[1]، فهي كما قال عز وجل.

* * * *

والذي يقرأ قصة يوسف في القرآن، ثم يقرؤها من بعد في سفر التكوين، أول أسفار التوراة، يندهش: أهذه هي تلك؟

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.

وأنا لا أقصد هنا سحر البيان وقوة السرد، فليس للقرآن في هذين ند. وإنما الذي أعنيه هو أن القرآن عَلِمَ من قصة يوسف ما لم تعلمه التوراة التي بين يديك، وأن الذي أثبته القرآن وأغفله سفر التكوين محاور في قصة يوسف لا يصح تسلسل الأحداث إلا بها، وأن الذي أفاض فيه كتبة التوراة - حين أفاضوا - حشو لا غناء فيه، يفسد عليك جو القصة، ويقطع عليك تتابع الأحداث، إن أسقطته فأنت الكاسب.

****

بدأ كاتب سفر التكوين الحديث عن يوسف في الإصحاح السابع والثلاثين، واسترسل فيه إلى أن أتم الإصحاح الخمسين، يختتم به السفر. ولكنه - فجأة - وفي ذروة المأساة، وقد التقط السيارة يوسف وباعوه في مصر إلى فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط، يُنهي الإصحاح السابع والثلاثين ليخصص الإصحاح الثامن والثلاثين بأكلمه لحديث يتنزه عنه أدب الوحي، يقص عليك فيه ما كان من أمر أخي يوسف، يهوذا، الذي تزوج بعد إلقاء يوسف في الجب فأنجب، وشب أبناؤه فزوجهم أيضًا، وكيف أن ابنه الأكبر عِير مات قبل أن ينجب من ثامار فزوجها من ابنه الثاني أونان كي يقيم نسلًا لأخيه، وأن أونان هذا لم يرد أن يقيم نسلًا لأخيه؛ فكان إذا دخل على امرأته ثامار أفسد على الأرض[1]، فأماته الرب أيضًا. ثم يسترسل فيقص عليك أن يهوذا ترصدته على الطريق ثامار أرملة ابنيه هذين، تنكرت ليزني بها حموها كبغي، فيزنى بها يهوذا ويعطيها أجرتها وهو لا يعلم أنها ثامار (وكأنها لو لم تكن أرملة ابنيه لجاز!)، فحملت منه ثامار وولدت له توأمين. ثم ينبئك بأن أحد هذين التوأمين أخرج يده أولًا، فوضعت عليها القابلة قِرْمزًا، علامة على أنه البكر، ولكنه سحب يده ليخرج التوأم الثاني أولا[2]، كي يستنبط الكاتب من هذا معنى اسميهما:

(١) وهو العَزْل. ومن إفساد أونان على الأرض نحت الأوربيون لفظة *Onanism*، فارجع إليها في معاجمهم.

(٢) الذي تعلمه، ويعلمه طب النساء والولادة، بل وتعلمه هذه القابلة المفترى عليها، أن المولود ينزل برأسه أولًا فإذا خرجت يداه فقد خرج معظمه. أما إن ولد معكوسًا ونزل برجليه فلا تخرج يداه حتى يخرج كله. فكيف يسحب يده إلى بطن أمه كي ينزل الثاني أولًا؟ لا عليك. إنها أفانين الكاتب.

فارص (يعني المقتحم)؛ لأنه اقتحم على أخيه ليخرج أولًا، وزارَح (يعني الوضيء) الذي عليه القِرْمِز، يختتم بها الإصحاح المقحم ليبدأ الإصحاح التاسع والثلاثين وكأنما تنبه إلى أنه يقص قصة يوسف، لا قصة يهوذا مع أرملة ابنيه ثامار، فيقول وكأنه يصل ما انقطع: وأما يوسف...

ما هذا الحشو؟ بل ما هذا الدنس الذي يقصه عليك؟ وما علاقته بقصة يوسف وبتسلسل الأحداث في قصة يوسف؟ أيترك يوسف في بيت خصي فرعون رئيس الشرط ويقبع هو عند يهوذا بن يعقوب ما يزيد على ربع قرن في أرض كنعان ينتظر ولادة فارص و زارح من زنى أمهما بحميها يهوذا، ليحملهما يعقوب فيمن حمل من أبنائه وحفدته إلى يوسف في مصر؟ بل ويحمل معه ابني فارص الذي شب وتزوج هو الآخر في أرض كنعان فأنجب حَصرون وحامول (تكوين ٤٦/ ١٢)؟ وكيف اتسع الوقت ليهوذا في أرض كنعان بعد إلقاء يوسف في الجب كي ينجب يهوذا ابنيه عير وأونان، ليموتا، فيستولد من أرملتهما ثامار ابنيه فارص وزارح، بل ويشب فارص فينجب من بعد حَصرون وحامول، أجيالًا ثلاثة فيما لا يزيد على سبع وعشرين سنة[1]، على ما تستخلص من كلام الكاتب؟ ولكن الكاتب ضعيف الذاكرة، ضعيف في علم الحساب، أو يظن بك الضعف في هذا وذاك على ما مر بك. ثم ما بال هذا الزاني بأرملة ابنيه حتى يقطع من أجله الحديث عن يوسف كي يشهد الكاتب زناه؟ أتراه يظنها محمدة ليهوذا؟ ربما. فهو يقول فيه قرب ختام السفر على لسان يعقوب: ((يهوذا! إياك يحمد إخوتك. يدك على قفا أعدائك، يسجد لك بنو أبيك...)) إلخ[2]. والذي سجد له بنو أبيه هو يوسف لا يهوذا كما تعلم وكما خط الكاتب بيده. ولكن الكاتب يكتب على عصر داود وسليمان، وداود من سبط يهوذا وهو لا يعني بهذه المحامد شخص يهوذا، وإنما يخص بها سبطه الذي منه بيت داود الملك.

(١) هي المدة من إلقاء يوسف في الجب إلى ارتحال يعقوب ببنيه إلى مصر، قال: إن يوسف كان ابن ١٧ سنة حين ألقي به في الجب، وكان ابن ٣٠ سنة يوم استخلصه الملك لنفسه، وأضف أنت السبع السنوات الخضر والسبع العجاف.

(٢) تكوين ٤٩/ ٨.

يطنب الكاتب أيضًا في تفصيل الحُظوة التي كانت ليوسف عند فرعون[1]، حتى لتظن أن الملك نزل ليوسف عن ملكه ولم يستبق إلا الكرسي (تكوين ٤١/ ٤٠). ولا ينسى أن يسجل ليوسف أنه استذل لفرعون شعب مصر، فاستولى بمخزونه من القمح على كل فضتهم ومواشيهم وأرضهم، حتى تمنوا عليه لقاء الميرة أن يصيروا عبيدًا لفرعون (تكوين ٤٧/ ٣٥)، بينما هو يغدق بغير حساب على أبيه وإخوته الفضة والمواشي والأرض. وليس هذا من الصدق التاريخي في شيء، لا لأنك شهدت وعاينت، وإنما لأنه من المحال العقلي. لو صح هذا لثار المصريون بهذا العفريت الذي خرج من القمقم فزجوا به من جديد في غيابة جب، ولذبحوا الأنفس السبعين الذين دخل بهم مصر يعقوب وبنوه، قبل أن يُذبِّح فرعون موسى أبناءهم بعد نحو أربعمائة سنة. بل هو افتراء على يوسف الصديق صلوات الله عليه، الذي أهانه إخوته فأكرمه الله على أيدي ملك مصر وشعب مصر. يوسف الذي وعد فأوفى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]. قد أحسن يوسف ولم يُسِئْ.

وليس هذا أيضًا من القصص الفني في شيء؛ لأن هذا الانقلاب في شخصية البطل يفجؤك، لا تتوقعه منه، ولا تمهد له الأحداث، بل هي أماني يهودي في ملك مصر لو ملكه الله - أبعده الله - إنه سليل أولئك الذين سلبوا ذهب المصريين عشية خروجهم من مصر، سرقة واحتيالًا: طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابًا. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين فأعاروهم. فسلبوا المصريين (خروج ١٢/ ٣٥-٣٦)، حسبوا هذا نعمة من الرب، رزقًا ساقه الله إليهم، ولكنه عز وجل لا يأمر بالسرقة والاحتيال،

(١) يقول علماء المصريات: إن اسم فرعون لم يصبح دالاً بذاته على شخص الملك إلا على عصر الأسرة التاسعة عشرة، بحيث تستطيع أن تقول: جاء فرعون وذهب فرعون، وتعني شخص الملك، وهذا يقارب عصر رمسيس الثاني فرعون موسى على ما نرجح نحن. والقرآن - على خلاف سفر التكوين - يخص بها فرعون موسى وحده. فأي إعجاز وأي علم!

(٢) سورة يوسف، الآيات: ٥٤ - ٥٦.

فحاسبهم بها القرآن في قوله المعجز على لسانهم في فتنة السامري: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾[1].

أما التمكين الذي مكن الله ليوسف في مصر، فهو قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾[2]، وهي عبارة جامعة تغني عن كل قول: زويت الأرض ليوسف، حبيس الجب نزيل السجن، فصارت له مصر كلها مَغْداه ومَرَاحه يتبوأ منها حيث يشاء.

والذي يجب أن تعلمه أن الأرض في هذه الآية وفي غيرها من مثلها في سورة يوسف - على ما يأتي إن شاء الله في موضعه - هي ترجمة من القرآن المعجز لمعنى اسم مصر، لا عند العبرانيين (مِصْرايم)، وإنما عند أهلها المصريين بلغتهم هم: تاوي. تمادى بالمصريين العجب والفخر فظنوا أن لا أرض غيرها من بعدها. ولم يعرف هذا أحد، إلا بعد قرابة ثلاثة عشر قرنًا من نزول القرآن، ليس قبل أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، يوم افتكت طلاسم اللغة المصرية القديمة، فباحت بأسرارها.

فأي إعجاز، وأي علم!

* * * *

هذا الكاتب الذي أطنب فيما لا غناء فيه، أغفل محاور في قصة يوسف لا تصح القصة فنيًا إلا بها. يتضح لك هذا من مراجعة قصة يوسف التي في سفر التكوين على قصة يوسف في القرآن.

قال القرآن إن رؤيا يوسف كانت سرًا بينه وبين أبيه، وإن يعقوب فهم الرؤيا على وجهها فقال ليوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[3]. فهم يعقوب أن النعمة التي أعد الله

(١) سورة طه، الآية: ٨٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٦.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٦.

ليوسف ستجر نعمة على آل يعقوب، وقد كان.

وقد يفسر لك يقين يعقوب طوال القصة بأن الذئب ما أكل يوسف، بل سيعيش يوسف حتى يتم الله على يديه تلك النعمة. وهذا شأن النبي الواثق بمواعيد الله. قال يعقوب لما أتوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

أما يعقوب الذي في سفر التكوين فقد انتهر يوسف لمَّا أسمعه رؤياه، واستنكر أن يسجد ليوسف إخوته وأمه وأبوه، فتفهم قول الكاتب: إن يعقوب لم يشك ولو للحظة في افتراس الذئب يوسف، وقالوا: وجدنا هذا. حقق أقميصُ ابنك هو أم لا؟ فتحققه وقال: قميص ابني. وحش رديء أكله. افتُرِسَ يوسف افتراسًا. (تكوين ٣٧/ ٣٢-٣٣٩). وتفهم أيضًا قول الكاتب: إن يعقوب حين جاء بنوه يبشرونه بيوسف حيًّا، جمد قلبه لأنه لم يصدقهم، فرددوا عليه كلام يوسف الذي كلمهم به، وأبصر العجلات التي أرسلها يوسف لتحمله، فقال: يوسف ابني حي بعد؟ أذهب وأراه قبل أن أموت[2]. وهذا على الضد من قول يعقوب لما أن جاءه البشير فارتد بصيرًا: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

بهذا خلت قصة يوسف في سفر التكوين من محنة يعقوب بيوسف، وهي لب البلاء في المأساة. بلاء الانتظار، وبلاء الإنكار: انتظار العائد الذي تمضي السنون ولا يعود، وإنكار المنكرين عليه طول صبره وطول عذابه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[4].

أما المأساة في شقها الآخر، أعني بلاءات يوسف نفسه: كيد إخوته، وكيد امرأة العزيز، فالسرد في سفر التكوين مختلف.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٨.

(٢) تكوين ٤٥/ ٢٨.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٦.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٨٥.

لا يقول الكاتب (إصحاح ٣٧): إن يعقوب كان يخشى على يوسف من إخوته، ويخشى على إخوة يوسف أن ينزغ الشيطان بينهم وبينه فيكيدوا له كيدًا: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١). ولا يقول الكاتب: إن إخوة يوسف دبروا لمكيدتهم على الوجه الذي تمت به، ثم راودوا عنه أباه، فتوجس منهم يعقوب، فأوحت لهم هواجسه باختراع أكل الذئب المظلوم إياه: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾(٢). وإنما الذي يقصه الكاتب أن يعقوب هو الذي أرسل يوسف وراء إخوته الذين يرعون غنم أبيهم عند شكيم لينظر سلامتهم وسلامة الغنم ويأتيه بأخبارهم. فلما رأوه مقبلًا عليهم تذكروا أحلامه فنبتت لديهم فكرة التخلص منه، بنتَ اللحظة، دون سابق تفكير وتدبير. وهو هنا يريد أن يخفف عنهم جريمة الفتك بيوسف مع سبق الإصرار والترصد: يقتلونه أولًا ثم يطرحون جثته في إحدى الآبار ويقولون: وحش رديء أكله. والكاتب يذهب بعيدًا في محاولة التخفيف من إثم إخوة يوسف، فيقول: إن كبيرهم رأوبين احتال عليهم كي لا يقتلوه، فاقترح فكرة طرحه في الجب حيًا، كي يغافلهم من بعدُ فيستنقذه من الجب ويذهب به إلى أبيه. ولكنهم - ولا يقول لك الكاتب أين كان رأوبين - فكروا في إخراجه من الجب ليحققوا ربحًا من وراء صفقة التخلص منه: رأوا قافلة من الإسماعيليين مقبلة فأخرجوا هم يوسف من الجب وباعوه للإسماعيليين بعشرين من الفضة. ويرجع رأوبين - ولا تدري أين كان - فلا يجد يوسف في الجب فيمزق ثيابه، ويجلسون معًا يتشاورون كيف يجيئون على قميص يوسف بدم كذب. ترى ماذا بقي من إثم إخوة يوسف عند الكاتب؟ لم يقتلوه ولم يتركوه ليموت في غيابة جب جوعًا أو رعبًا، وإنما باعوه فقط إلى إسماعيليين يتجرون فيه عبدًا. عالمين أن القافلة متجهة إلى مصر (تكوين ٣٧/ ٢٥)، لا يخالجهم شك في أن يوسف حي لم يمت، بل ويعلمون أن مصر مكانه الذي اقتيد إليه. وهذا هو السرد المتهافت الذي يهدم بعضه بعضًا؛ لأنك تعلم

(١) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٢) سورة يوسف، الآيات: ١١-١٣.

من الكاتب أن إخوة يوسف حين جاءوا مصر يمتارون لأهليهم لم يفكروا في البحث عن أخيهم الذي باعوه، بل لم يفكروا في الاستعانة بسلطان العزيز - يوسف الذي لم يعرفوه - في البحث عن يوسف في مصر، وقد بالغ هذا العزيز في إكرامهم - كما يقول الكاتب - فآكلهم وشاربهم وأغدق عليهم، ولو كانوا صادقين في ندمهم كما يقول الكاتب - رأوبين على الأقل - لفعلوه. بل تفهم من الكاتب أن إخوة يوسف سلموا بينهم وبين أنفسهم بأن يوسف قد مات، وأنهم مطالبون بدمه. قالوها حين اشترط عليهم العزيز ليميرهم مرة أخرى أن يأتوه بأخ من أبيهم، وقال بعضهم لبعض: حقًّا إننا مذنبون إلى أخينا (يوسف) الذي رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع. لذلك جاءت علينا هذه الضيقة. فأجابهم رأوبين قائلًا: ((ألم أكلمكم قائلًا: لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا. فهو ذا دمه يُطلب))[1]. ولا يصح هذا إلا إذا كانوا تعمدوا إلقاء يوسف في الجب، ولم يخرجوه ليبيعوه إلى الإسماعيليين، لا يعلمون ما كان من أمره: أهلك في الجب، أم التقطه بعض السيارة (وهي رواية القرآن)[2]؟ بل استقر لديهم أن يوسف هلك على أيدي إخوته، كما قال رأوبين: هو ذا دمه يطلب.

أما محنة يوسف بمراودة امرأة العزيز إياه، فهي باهتة شاحبة على قلم الكاتب، وهي محنة يوسف الكبرى، ضرب بها يوسف المثل بأحد السبعة الذين يظلهم الله عز وجل بظله يوم لا ظل إلّا ظله، كما قال الصادق المصدوق ﷺ: **«ورجل تدعوه إلى نفسها امرأة ذات حسب وجمال، فيقول: إني أخاف الله»**.

قال الكاتب[3]: إن امرأة العزيز لم تغلق الأبواب، بل دخل يوسف البيت ذات مرة ولم يكن أحد بالبيت، فأمسكته بثوبه قائلة: اضجع معي، فترك ثوبه في يدها وهرب إلى الخارج. فنادت أهل بيتها (لا تدري أين كانوا حين فاجأها يوسف)، وروت لهم أنه أرادها على نفسها

(١) تكوين ٤٣/ ٢١-٢٢.

(٢) الذي في القرآن (يوسف: ١٦-٢٠) أن إخوة يوسف تركوه في غيابة الجب وجاءوا أباهم عشاء يبكون، يقصون أن الذئب أكل يوسف، لم ينتظروا مجيء السيارة، بل جاء السيارة بعد رحيلهم، فكانوا هم الذين التقطوه غنيمة، لم يدفعوا فيها فلسًا لأحد؛ لأنه لم يكن ثمة أحد.

(٣) تكوين ٣٩/ ١١-٢٠.

فصرخت، ولما صرخت ترك ثوبه بجانبها وهرب. وجاء سيده فرددت عليه ما روت لأهل بيتها وقالت: دخل إلى العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني، فلما رفعت صوتي ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى الخارج. فصدقها الزوج المخدوع، وحمي غضبه على يوسف فزج به في السجن؛ لأن الزوج كما تعلم كان خصي فرعون رئيس الشرط. ويمضي الكاتب فيقول[1]: إن الرب كان مع يوسف فجعل له نعمة في عيني رئيس بيت السجن، فدفع إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن، وكأنه جعل منه نائبه، لا ينظر شيئًا البتة مما في يد يوسف؛ لأن الرب كان معه، ومهما صنع كان الرب ينجحه.

هذا هو كل ما عني به الكاتب من فتنة امرأة العزيز، مر عليه سريعًا ولم يعد إليه قط فيما بقي من قصة يوسف في أحد عشر إصحاحًا بقيت لديه من قصة يوسف (الإصحاحات الأربعين إلى الخمسين). كان كل ما يعنيه أن يجد ليوسف علة يدخل بها يوسف السجن ليلتقي فيه برئيس خبازي فرعون ورئيس سُقاته، يُعبر لهما رؤياهما، فيذكره رئيس السقاة عند الملك حين أعضلت على الملك رؤياه، فيستدعي إليه يوسف، وتكون بها الحظوة له والنعمة لآل يعقوب.

هذا الكاتب لا يعرف قيمة المادة التي بين يديه، ولا تعنيه براءة يوسف، ولا يعنيه أيضًا أن يقنعك: كيف صدق العزيز امرأته ولم يحقق التهمة وهو رئيس الشرط؟ ما قيمة دليل ثوب يوسف في يد امرأة العزيز، ويوسف قد هرب إلى الخارج؟ كيف سمع أهل البيت نداءها ولم يكن أحد بالبيت؟ وكيف سمعوا نداءها ولم يسمعوا صراخها؟ ولماذا لم يدافع يوسف عن نفسه؟ أتراه كان مدنفًا في حبها فأراد أن يبوء هو بذنبها فلا يثلم شرفَ المرأة التي أحب؟ فما الذي عصمه من الاستجابة لمراودتها إياه؟ وكيف يكتفي العزيز رئيس الشرط وهو في حُمُوِّ غضبه بسجن يوسف ولم يقتل هذا العبد العبراني الذي أكرم مثواه فثلم هو عرضه؟ وكيف سكت رئيس الشرط على رئيس بيت السجن الذي أكرم يوسف فجعل كل ما في السجن في يد يوسف؟ أسئلة لا تجد لها جوابًا إلّا في القرآن.

(١) تكوين ٣٩/ ٢١-٢٣.

بل غلقت امرأة العزيز الأبواب وقالت للذي هو في بيتها: هيت لك! قال: معاذ الله! فألحت عليه حتى همت به وهم بها، لولا أن رأى برهان ربه. فاستبقا الباب، وكانت هي وراءه، فقدَّت قميصه من دبر، وإذا زوجها رئيس الشرط بالباب، وشهد شاهد من أهلها. فلما رأى زوجها على مرأى من أهلها أن قميص يوسف قدَّ من دبر، تيقنوا جميعًا من براءة يوسف وكذب المرأة. فماذا يفعل الزوج رئيس الشرط بهذا الرجل الأمين الذي حفظ عرضه في غيبته، وما كان أيسر عليه أن يغتنم افتتان امرأته به وينتهز غفلته، بل ما كان أحراه أن يفعل وضراوة الشباب تساوره، وسحر الخلوة يدير رأسه، والداعية سيدته، ذات الشباب والجمال، وتغليقها الأبواب وقولها: هلم إلي، هيت لك؟ علام يعاقب يوسف، بل قل بماذا يكافئه؟ قال: يوسف! أعرض عن هذا، لا ذنب لك. وأنت استغفري لذنبك، أنت هي الخاطئة. ولكن الفضيحة تشيع، والمرأة لا ترعوي، قد شغفها فتاها حبًّا لا تملك أن تدفعه. وتغدو القصة حديث النسوة في المدينة، فتدعوهن إليها لتشهدهن يوسف كي يعذرنها في حبه. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(1). وتثمل امرأة العزيز بما سمعت، فتستعلن بحبها، وتعترف بما كان، وتصر على ما تريد من يوسف: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾(2)، ويستفيض الأمر حتى يصك آذان رئيس الشرط. ويسمعه أيضًا يوسف، ويا لمحنة يوسف بهذه الفتنة الطاغية الآثمة، التي تحاصر خطاه في بيتها. أراه كان يخشى أن يضعف، مثلما كاد يضعف يوم غلقت الأبواب وقالت: هيت لك، فكاد يهم بها لولا أن رأى برهان ربه؟ نعم. ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(3). واستجاب له ربه فربط على قلبه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(4). ولكن المرأة لا تكف،

(1) تنصب بشرًا هنا على نزع الخافض، وهو الباء المؤكدة للنفي، فالأصل ما هذا ببشر! باتة قاطعة، والقاعدة في المجرور بحرف أنك إن نزعت حرف الجر منه نصب. وهذا يغنيك عن تعللات علماء النحو في هذه الآية – ومنهم أئمة – الذين أجهدوا أنفسهم وأجهدوا تلاميذهم في جمع الشواهد على أن من العرب من يجعل لـ (ما) حكم (ليس).

(2) سورة يوسف، الآية: ٣٢. (3) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

(4) سورة يوسف، الآية: ٣٤.

وحديث النسوة في المدينة لا ينقطع. هنا - وهنا فقط - لا يرى رئيس الشرط بدًّا من سجن يوسف، ليحول بين زوجته وبينه، علها تنقطع ألسنة النسوة، وينقطع أمل زوجته في يوسف. ولكنه يعلم كما يعلم الكل براءة يوسف فلا يتجاوز بسجنه حد العزل أو السجن الوقائي، فيوصي رئيس بيت السجن بإحسان معاملته، وكأنه قال له كما قال لامرأته هذه يوم دخل عليها بيوسف غلامًا في يده: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾(١).

ولكن يوسف لا يرضى إلّا بالبراءة الكاملة، حاسمة قاطعة، يوم قرر الملك أن يخرجه من السجن ليستخلصه لنفسه، فيصر يوسف على ألا يبرح السجن حتى يسمع الملك شهادة النسوة اللاتي قطعن أيديهن، اللاتي سمعن من امرأة العزيز اعترافها على نفسها بما صنعت، فيضطرنَّها إلى الاعتراف، قالت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(٢)، أراد يوسف البراءة القاطعة من فم التي ادعت عليه، تستعلن بها على الملأ في مجلس الملك الذي يريد أن يجعله على خزائن الأرض، فيتسلم الأمانة طاهر الذيل عفيف الإزار، وهو الحفيظ الأمين. وأرادها أيضًا لنفسه، تكرمة لطول مجاهدته النفس الاصطبار على الفتنة، وقد علم أن ألسنة الناس يلذ لها الولوغ في الأعراض بالشبهة، ويمضها التعفف والسكوت تفويضًا لعلام الغيوب. وأرادها أخيرًا - بل قل أرادها أولًا - إكرامًا لهذا الشيخ رئيس الشرط الذي أكرم مثواه فرباه وكان له كأب، أن تتمزق نفسه بين الشك واليقين - والشك على النفس أغلب - فيقول يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾(٣). ولا ينسى يوسف أن يؤدب بها نفسه على الملأ، سائلًا الله عز وجل المغفرة مما حاك في الصدر يوم همت به وهم بها، فيقول: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤)(٥).

(١) راجع في هذا كله الآيات ٢١-٣٥ من سورة يوسف.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥١. (٣) سورة يوسف، الآية: ٥٢.
(٤) لا عليك من تفاسير ترى أن القائل في الآيتين: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، هو امرأة العزيز، قد خانت زوجها بمراودتها يوسف، ولم يخنه فيها يوسف. هذا ضعيف، يتعلق بعصمة الأنبياء من وساوس النفس، وليس بلازم، لقوله ﷺ في قرين السوء يلازم النفس وقد سئل: حتى أنت يا رسول الله! قال: «نعم. حتى أنا. ولكن الله أعانني عليه». وهي نفسها مقالة يوسف.
(٥) راجع في هذا كله الآيات ٥٠-٥٣ من سورة يوسف.

هذا هو يوسف الصديق صلوات الله عليه، سليل إبراهيم وإسحاق ويعقوب. إن طلبت دليلًا فوق هذا على نبوته فما أنصفت.

فماذا تجد من هذا في سفر التكوين؟ هذا مما لا يعلمه الكاتب، ولو علمه لما اهتم له وكيف تعنيه براءة يوسف، وهو يقطع الحديث عنه إصحاحًا كاملًا ليسجل على أخيه يهوذا زناه بثامار أرملة ابنيه (عير) و(أونان)؟ لا يدرك الكاتب أهمية براءة يوسف لأنه لا يدرك أهمية هذه النقطة المحورية في قصة يوسف، التي يرتب القرآن عليها، لا على تفسير الحلم، قول الملك: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾(١).

كان كل هم الكاتب أن يطير بيوسف من السجن فيضعه أمام الملك، يفسر له الحلم ويقبض الجائزة: ((فأرسل فرعون ودعا يوسف. فأسرعوا به من السجن. فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون))(٢). وما كانت جائزة الذي يفسر الأحلام عند الملوك إلا أن ينفحوه نفحات من الذهب أو الفضة، ويمضي المفسر من حيث أتى، لا يجعلونه على خزائن الأرض، ولا يكون لديهم المكين الأمين، ولا يضعون خاتم فرعون في يده كما يقول الكاتب (تكوين ٤١/ ٤٢).

* * * *

للقرآن أيضًا في قصة يوسف لمحات هي قمة في الفن، يدركها المتخصص الذواقة، لا نعارض بها ما كتبه الكاتب، فهذا مما يقصر عنه باع البشر، وإن ظننت أنهم كتبة وحي.

من ذلك - ولا أطيل عليك، فقد أطلت بالفعل، وعذري أنني أستمتع بما أكتب وأرجو أيضًا أن يمتعك - لمحتان:

الأولى دور قميص يوسف في قصة يوسف: القميص الذي جاءوا عليه بدم كذب يريدون إيهام يعقوب بأن الذئب أكل يوسف، فيستدل منه يعقوب على براءة الذئب من دم يوسف. والقميص الذي قدته امرأة العزيز من دبر، فيستدل منه زوجها على كذب المرأة وبراءة

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٤.

(٢) تكوين ٤١/ ١٤.

يوسف. والقميص الذي ألقاه البشير على وجه يعقوب فيرتد بصيرًا، وجد فيه يعقوب ريح يوسف منذ أن فصلت العير من مصر: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]. فكم من غمة ارتفعت بهذا القميص الناطق بالحق!

اللمحة الثانية هي دور الرؤيا فيما صار إليه يوسف. وهي أيضًا ثلاث رؤى: رؤيا يوسف التي بدأت بها القصة في القرآن ففسرها له أبوه، وقد علم أن الله يجتبيه بها، فيعلمه من تأويل الأحاديث. ويزداد حرص يعقوب على يوسف، فيكون من أمر إخوته معه الذي تعلم، ورؤيا صاحبي السجن التي فسرها يوسف فمهدت له عند الملك، ورؤيا الملك التي أعضلت عليه وفسرها يوسف، فخرج بها من ضيق السجن إلى سعة الملك. كان تأويل الأحاديث هو السبيل إلى النعمة التي أعدها الله لهذا النبي الكريم ليمكن له في الأرض، وليقيمه على خزائن الأرض (والأرض هنا يعني مصر كما قد علمت). قالها القرآن من قبل، ويوسف بعد غلام في بيت مولاه رئيس الشرط: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، وفيه تقديم وتأخير، أي نعلمه من تأويل الأحاديث لنمكن له في الأرض. وقالها أيضًا يوسف يختتم بها القرآن قصته: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3]، تجد نفس التقديم والتأخير، أي قد علمتني من تأويل الأحاديث، فآتيتني من الملك.

أما العبرة كلها من قصة يوسف التي فاتت الكاتب - وأنى له وهو يبحث عن الفضة

(١) سورة يوسف، الآيات: ٩٤ - ٩٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

والمواشي والأرض - فقد صاغها القرآن في عبارة واحدة على لسان يوسف حين استعلن لهم: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وأما دور هذا الطريد في تاريخ بني إسرائيل، الذي نبذه إخوته فأطعمهم وآواهم، فهو الجامع بني أبيه في مصر، لولاه ما كانت رسالة موسى وهارون.

ترى ماذا كان من دور يوسف النبي في مصر، تلك الدعوة التي بدأها بين جدران السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]؟ أيدعو بها يوسف بين جدران السجن، ولا يدعو بها في بلاط الملك وقد أعزه الله؟ لا تقرأ من هذا شيئًا في سفر التكوين، ولكنك تقرؤه في القرآن، يصيح بها مؤمن آل فرعون تقريعًا لمن كذبوا موسى وهارون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[3]. هذا نص على أن يوسف دعا بدعوته هذه الملك وملأه، وأن الدعوة نفذت إلى قلوبهم، فما كان الملك ليجعله على خزائن الأرض لمجرد أنه مفسر يجيد تأويل الأحاديث. ولكن الدعوة لم تصمد لنفوذ الكهنة، فبقيت حبيسة صدر من آمن، وماتت بموت يوسف، إلا ظلال في الذاكرة يختلط فيها الشك باليقين عاشت إلى عصر موسى وهارون.

ولكن الذي يعنينا في هذا الكتاب الذي نكتب، هو الدور التاريخي ليوسف عليه السلام في بني إسرائيل، الذي مهد لبني يعقوب في مصر فدخلوها آمنين: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[4]: إنه الذي آوى. وبها فسر القرآن هذا الاسم العلم كما سترى.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

(٣) سورة غافر، الآية ٣٤.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٩٩.

يشتق علماء التوراة اسم يوسف من الجذر العبري يَسَفُ على المضارعة التي يراد منها اسم الفاعل. والمعنى هو يزيد، لأن يسف العبري، المتحور عن ضفا العربي، يجيء بمعنى زاد ونما.

وهم كما مر بك يرتبون هذا التفسير على قول والدته حين وضعته: ((ودعت اسمه يوسف قائلة: يزيدني الرب ابنًا آخر))[1].

والذي يجب أن تعلمه، أن اسم يوسف يجيء بين أعلام التوراة غير مسبوق، لم يَتَسَمّ به أحد قبله، وإن ذاع من بعد وانتشر. فهو إذن اسم موضوع لشخصه هو، على النبوءة والتفاؤل، تمنت بها راحيل على الله أن يزيدها بـ(يزيد) ابنًا آخر، وقد استجاب الله دعاءها فأنجبت من بعد يوسف مولودها الثاني الذي ماتت وهي تضعه، بنيامين، المعني بقوله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

أراد كاتب سفر التكوين هذا المعنى فأورده على لسان راحيل، وتابعه من بعد علماء العبرية وعلماء التوراة. والذي لم يلتفت إليه هؤلاء وأولئك، والتفت إليه القرآن، هو دلالة اسم يوسف على دور يوسف في تاريخ بني إسرائيل: إنه يوسف الذي آوى، يوسف الآوي المضيف، ألهمته راحيل وهي تضع يوسف، وتصدى الكاتب كدأبه لتفسيره في سفر التكوين، فاشتبه عليه، كما اشتبه عليه من قبل بابل وإسرائيل.

* * * *

في العبرية أيضًا الجذر أَسَفْ، يجيء في المضارعة على يوسِف غير مهموز[3]، بنفس نطق اسم يُوسِف في التوراة، وفي كتابته أيضًا وجوه، أحدها الذي يرسم في الخط العبري بنفس أحرف كتابة اسم يوسِف في التوراة.

---

(١) تكوين ٣٠/ ٢٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٦٩.

(٣) آسف العبري هو أحد أفعال خمسة في العبرية فصيحها تسهيل الهمزة في المضارع، منها على سبيل المثال، وهو أشهرها، الفعل أمر العبري يعني قال، ومضارعه يُومِر غير مهموز وجوبًا.

ويجيء الجذر (أَسَفْ) في العبرية بمعنى الجمع واللم والضم والإيواء والضيافة. ومنه في العبرية المعاصرة (أسِيفا كْلالِيت)، يعني الجمعية العامة. ويصلح هذا الجذر أيضًا لمعنى نزع؛ لأنك حين تنزع شيئًا ما فأنت تسحبه وكأنك تضمه إليك.

إن اشتققت اسم يوسف من هذا الجذر العبري (أَسَفْ)، فالمعنى أنه الجامع بني يعقوب في مصر، الذي استضاف وآوى.

والذي يستوقف النظر في عبارة سفر التكوين على لسان راحيل التي تصدَّر بها لتسمية يوسف، استخدام راحيل هذا الجذر العبري (أَسَفْ) نفسه في قولها حين مَنَّ الله عليها بيوسف بعد إذ امتنع عليها الولد من قبل وسبقتها أختها وضَرَّتُها ليئة: أسف إلوهيم إتْ حِرْپَتِي! وتِقْرا إتِ شْمو يوسِف[1] التي تجدها في الترجمة العربية هكذا: ((قد نزع الله عاري! ودعت اسمه يوسف)). أي بيوسف نزع الله خَرْبَةَ العقم عني! (والخربة التي تحورت عنها (حِرْپا) العبرية يعني العيب والفضيحة).

وتستدل أنت من هذا على أن راحيل نفسها وهي تصدر للتسمية، لا تشتق يوسف من يَسَفْ العبري بمعنى يزيد وإنما تشتقه من أَسَفَ العبري بمعنى جمع وضم، أي لملم، وهو المعنى الرئيسي لهذا الجذر العبري أسف. ولكن الترجمة العربية (نزع) تُعَمِّي عليك - دون قصد بالطبع - هذا المعنى.

ولأن الآوي المضيف هو التفسير القرآني لمعنى اسم يوسف عليه السلام، فنحن لا نحيد عنه إلى غيره مع الاعتذار الواجب لعلماء التوراة الذين لو اطلعوا على ما نقوله الآن - من حيث دلالة الاسم على المسمى - لما ارتضوا بهذا التفسير بديلًا.

* * * *

أما مفسرو القرآن[2] فالكثرة منهم على عجمة اسم يوسف، إلا من شذ فاشتقه من العربية

(١) تكوين ٣٠/ ٢٤.
(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ٤ من سورة يوسف.

فقال: إن الأسف في اللغة (يعني العربية) هو الحزن، والأسيف يعني العبد، وقد اجتمعا في يوسف. وليس هذا بشيء كما مر بك؛ لأنه يفسر الاسم بغير لغة صاحبه، فلا تلتفت إليه.

على أن يوسف لم يسمه الذي اشتراه من مصر، حتى يقول: (العبد) بالعربية أو العبرية أو المصرية، كما أن أحدًا لا يسمي ابنه يوم مولده: المحزون الأسيف.

هذا هو التفسير بالتخمين، فلا شأن لك به أيًا كان القائل والناقل.

* * * *

قال عز وجل في كتابه المصدق المهيمن، يفسر به اسم يوسف: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[1]. وقال عز وجل من قبل: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾[2].

يوسف في هاتين الآيتين يعني الذي استضاف وآوى، فهو الآوي المضيف وهو علم يلخص أبلغ تلخيص دور يوسف عليه السلام في تاريخ بني إسرائيل.

وسبحان العليم الخبير.

كان يوسف عليه السلام - كما كان من قبل أبواه يعقوب وإسحاق - من أنبياء القدوة، لا من أنبياء الدعوة.

وإنما كانت الدعوة بموسى وهارون.

* * * *

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٩.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٦٩.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم..... بقلم: د. محمود محمد الطناحي	٥
هذا الكتاب	١١
تصدير	٢٧
مقدمة	٣٣
الفصل الأول: أعجمي وعربي	٤٩
الفصل الثاني: الأعجمي المعنوي والأعجمي العَلَم	٨٩
الفصل الثالث: العَلَم الأعجمي في القرآن	١٢٣
الفصل الرابع: آدم في الملأ الأعلى	١٧٣
تمهيد	١٧٥
جبريل	١٩٥
ميكال	٢٠١
مالك	٢٠٥
هاروت وماروت وبابل	٢٠٧
الفردوس وعدن	٢١٩

الموضوع	الصفحة
جهنم	٢٢٩
إبليس	٢٣٣
آدم	٢٤١
إدريس	٢٤٩
الفصل الخامس: آدم الثاني: من نوح إلى إبراهيم	**٢٥٣**
تمهيد	٢٥٥
نوح	٢٥٩
الجودي	٢٦٣
هود وعاد وإرم	٢٦٧
صالح وثمود	٢٧٣
شعيب ومدين	٢٧٩
الفصل السادس: أبو العلاء إمام الناس	**٢٩١**
تمهيد	٢٩٣
آزر	٢٩٧
إبراهيم	٣٠٧
لوط	٣٢١
إسماعيل	٣٢٥
إسحاق	٣٣١
يعقوب	٣٣٥

الموضوع	الصفحة

إسرائيل ٣٤٥
يوسف ٣٥٥
فهرس الموضوعات ٣٧٣

* * * *

من إصدارات دار الميمان

التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي

تأليف

ناصر محمدي محمد جاد

قدم له فضيلة الأستاذ الدكتور
محمد السيد الجليند
أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

من إصدارات دار الميمان

إتحاف المرتقي

بتراجم شيوخ البيهقي

تأليف

محمود بن عبد الفتاح النحال

قدم له

فضيلة الشيخ مصطفى العدوي

إشراف ومراجعة وضبط وتدقيق

الفريق العلمي لمشروع موسوعة جامع السنة

من إصدارات دار الميمان

سلسلة تقريب التاريخ الإسلامي (١)

ريحانة النبي ﷺ

الحسين بن علي رضي الله عنهما

كيف خرج؟ ولماذا خرج؟ ومن قتله؟

وأين دفن؟ والموقف من ذلك

تأليف

د. حامد محمد الخليفة

من إصدارات دار الميمان

اختصار علوم الحديث

للحافظ

أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي

(المتوفى سنة ٧٧٤هـ)

حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

الدكتور ماهر ياسين الفحل

من إصدارات دار الميمان

النكت على كتابي ابن الصلاح والعراقي

للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

(٧٧٣-٨٥٢هـ)

حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

الدكتور ماهر ياسين الفحل

من إصدارات دار الميمان

مختصر المختصر
من المسند الصحيح عن النبي ﷺ

لإمام الأئمة

أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري

(٢٢٣ - ٣١١هـ)

حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

الدكتور ماهر ياسين الفحل

قدم له فضيلة الشيخ

د. أحمد معبد عبد الكريم

إشراف ومراجعة وضبط وتدقيق

الفريق العلمي لمشروع موسوعة جامع السنة

من إصدارات دار الميمان

من أخبار المجاهدين

انتصارات

يوسف بن تاشفين

(٤٠٠هـ ١٠٠٩م - ٥٠٠هـ ١١٠٦م)

بطل معركة الزلاقة وقائد المرابطين
موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين

تأليف
حامد محمد الخليفة